



هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

حياة قان جونغ

الجزء الثاني

تأليف: إرفنج ستون

ترجمة: محمد محمود صفوت

مراجعة:

الدكتور عز الدين فريد



حياة فان جوخ

الجزء الثاني

بإشراف
المهينة العامة للكتب والأجهزة العلمية
وزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

حياة فان جوخ

الجزء الثاني

تأليف

إرفنج ستون

مراجعة

الدكتور عز الدين فريد

ترجمة

محمد محمود صفوت

ملتزم الطبع والنشر

دار النهضة مصر

للطباعة والنشر

القاهرة

هذه ترجمة كتاب :

Lust For Life

Irving Stone

تأليف :

وبعد ذلك بأيام قابل موف في الروابي الرولية ، وإذا كانت قد
راودته أية آمال في الصلاح فقد خاب أمله . . وقال :

— يا بن عمى موف ... أريد أن تغفر لي ما بدر مني في المرسوم فقد كان
هذا غباء مني ... ألا ترى الطريق ممهدا للصفيح عنى ... ألن تأتي ل ترى عملي
أحيانا وتناقشني فيه ؟

وجاء رفض موف صريحا قاطعا . . إذ قال : إننى ولا ريب لن آتى
لأراك لقد انتهى كل ما بيننا . .

— أهكذا فقدت إيمانك بي تماما . .

— أجل . . إنك على خلق ذميم . .

— لو أخبرتنى ماذا فعلت من شر فسوف أحاول إصلاح سلوكي ...

— إننى لم أعد أهتم بما تفعله . .

— إننى لم أفعل شيئا سوى تناول الطعام والنوم والعمل كأي فنان فمل
هذا شر ؟ ...

— هل تسمى نفسك فنانا ؟ ...

— أجل ...

— يا للسخف ، إنك لم تبع لوحة في حياتك ؟

— أهذا ما تعنيه كلمة فنان — بيع اللوحات ؟

لقد كنت أعتقد أنها تصف الإنسان الذى يبحث دائما دون أن يهتدى
لشيء . . كنت أعتقد أنها تعنى عكس عبارة « إننى أعرف هذا » . لقد وجدته ،
وحينما أقول « أنا فنان » . فإننى أعنى . أننى أبحث . . وأننى أكسح . . وأعيش
في هذا الأمر بكل قلبي . . ومع ذلك فأنت سوء الأخلاق . .

— إنك تشبهه في ارتكابي شيئا ما — إن هذا يبدو في الجو . . فأنت
تعتقد أنني أخفى شيئا عنك . . إن فنسنت يخفى شيئا لا يستطيع أن يكشفه
في الضوء . . ما الخبر . . ياموف . . حدثني عنه بهسراحة ؟

فذهب موف إلى حامل لوحاته وأخذ يضع الألوان . . واستدار
فنسنت وسار في بطة على الرمال . .

لقد كان على حق . . فلقد كان في الجو شيء ما . . لقد علمت لاهاي
بأمر علاقته بكريستين وكان دي بوك هو الذي جاءه بالنبا اليقين ، . فقد
اقتحم الباب وعلى فيه الذي يشبه البرهم ابتسامة خبيثة . . وكافت كريستين
تقف أمام فنسنت ليرسمها ولهذا تكلم بالإنجليزية . . وقال له وهو يلتف
بمطفئه الأسود الثقيل ويشعل سيجارا طويلا . .

— حسنا يافان جوخ ، إن المدينة كلها تعرف أنك قد اتخذت عشيقته . .
وقد سمعت ذلك من فايسنبروخ ومن موف ومن تيوستيج ولاهاي كلها
ناترة من أجل هذا

فقال فنسنت . .

— أوه . . إذن فهذا هو كل ما في الأمر . .

— كان يجب إن تكون أكثر حصافة أيها الصديق القديم . . أمي
إحدى الموديلات من المدينة ؟ . . كنت أعتقد أنني أعرف كل من يمكن
الحصول عليه منهن . . فألقى فنسنت نظرة على كريستين التي كانت جالسة
في ثوبها المصنوع من المرينوس وعليها ميدحتها ، بجوار المدفأة يحيط بها جو
من الجاذبية البسيطة ، بينما كانت منهمكة في الحياكة وعيناها على الثوب
الصغير الذي كانت تصنعه .

وأسقط دي بوك سيجارته على الأرض وقفز واقفا . . وصاح . .

— يا إلهي . . إنك لا تقصد أن تقول لي إنها عشيقتك ؟

ليست لي عشيقة يا دى بوك .. وإن كنت أظن أن هذه هي المرأة
التي يتحدثون عنها ..

فمسح دى بوك بعض ما خيل إليه أنه عرق سال من جبهته وأخذ
يتطالع إلى كريستين في إمعان ..

— كيف بحق الشيطان تحمل نفسك على النوم معها ..

— لماذا تصال هذا السؤال ؟

— أيها الصديق العزيز القديم .. إنها قبيحة شمطاء .. وشمطاء من أحقر
نوع، فما الذي يمكن أن يكون قد دار بخلدك ؟ .. لا عجب أن صدمتير مستبج
إذا كنت تريد أن تتخذ عشيقة .. فلماذا لا تنتقي واحدة من الموديلات
الصغيرات النظيفات في المدينة ؟ ثمة كثيرات منهن يحمن في كل مكان ..
— كما أخبرتك مرة من قبل يادى بوك، هذه المرأة ليست عشيقتي ..
— ماذا إذن ؟

إنها زوجتي ..

فعض دى بوك على شفتيه الرقيقتين كما يفعل رجل يثنى عروة حول
زرار وصاح ..

— زوجتك ..

— أجل إن في نيتي أن أتزوجها ..

— رباه ..

وألقي دى بوك نظرة واحدة أخيرة تنطق بالرعب والاشمئزاز على
كريستين وفرهار بادون أن يرتدى حتى معطفه ..

وسأله كريستين .. ماذا كنتما تقولان عني ؟

فمبرفنت المسكان وأخذ يتأملها لحظة وقال ..

— لقد أخبرت دى بوك .. إنك سوف تصبحين زوجتي ..

فظلت كريستين صامته وقتا طويلا .. ويداها تعملان دون توقف ..

وقد انفرج فمها بعض الشيء وظل لسانها يتحرك بسرعة كالسان الأفعى ..
حتى يبلل الشفتين اللتين جفتا سريعا وقالت ..

— هل ستتزوجني حقا يا فنسنت ؟ .. لماذا ؟ ..

— إذا لم أتزوجك فإنه أقرب للرحمة أن أدعك في سلام .. إننى
أريد أن أتغلغل فى أفراح وأتراح الحياة المنزلية حتى يتسنى لى أن أصورها
من واقع تجربتى الشخصية . لقد أحببت امرأة يوما يا كريستين ، وعندما
ذهبت إلى بيتها أخبرونى أننى أثرت اشمئزازها .. كان حى صادقا وشريفاً وقويا
يا كريستين .. وعندما خرجت من البيت أدركت أن هذا الحب قد قتل ..
ولكن الموت يعقبه البعث وكنت أنت ذلك البعث ..

— ولكنك لا تستطيع أن تتزوجنى ... ما قولك فى الأطفال ؟
وربما يتوقف أخوك عن إرسال النقود لك ..

— إننى أحترم المرأة التى تكون أما يا كريستين ، سنعى المولود
الجديد وسيتقى هيرمان معنا هنا .. أما الباقون فيمكنهم البقاء مع أمك ..
أما بالنسبة لثيو .. أجل ربما يقطع رأسى ولكنى عندما أكتب له الحقيقة
كاملة فلا أظن أنه سوف يتخلى عنى ..

وجلس على الأرض بجوار قدميها ، كانت تبدو أحسن كثيرا مما كانت
عليه عندما قابلها أول مرة .. فقد كان فى عينيها العسلية الحزينة مسحة
من السعادة .. وسرت فى شخصيتها روح جديدة ولم يعد الوقوف أمامه
لرسم سهلا بالنسبة لها إلا أنها بذلت جهدا شاقا وتذرت بالصبر .. وعندما
قابلها لأول مرة كانت جافة ومريضة وتعبه .. أما الآن فقد أصبح سلوكها
بأ كلة أقرب للهدوء واستعادت صحتها وعاشت حياة جديدة .. وبينما كان
جالسا يتطلع إلى وجهها الساذج الذى لا يخلو من مسحة من الجمال ..
أخذ يفكر مرة أخرى فى هذا السطر من كتاب ميشياليه كيف يحدث أن
توجد على الأرض امرأة وحيدة يائسة ؟ وقال ..

— سين .. سوف نمسك يدينا وسوف نقتصد بقدر المستطاع .. أليس كذلك؟ فأنا أخشى أن يأتى وقت أصبح فيه خاوى الوفاض تماما .. وسوف يكون فى وسعى أن أمد لك يد العون حتى تذهبين إلى لندن ..

ولكن عندما تعودين فلا أدري كيف ستجدينى وليس عندي ما أقتات به وليس عندي كسرة خبز وكل ما عندي سأقتسمه معك ومع الطفل ..

فانزلت كريستين من فوق المقعد إلى الأرض بجواره وأحاطت عنقه بذراعيها وأسندت رأسها على كتفه وقالت ..

— دعنى فقط أقيم معك يا فانسنت .. إننى لا أطلب شيئا أكثر من ذلك .. ولو لم يكن هناك سوى الخبز والقهوة .. فلن أشكو .. إننى أحبك يا فانسنت فأنت أول رجل يعاملنى معاملة طيبة .. ولست فى حاجة لأن تزوجنى إذا لم تكن تريد ذلك .. وسوف أقف أمامك لترسمنى وسوف أبذل جهدى وسوف أفعل كل ما تطلبه منى .. دعنى فقط أقيم معك .. هذه هى المرة الأولى التى أشعر فيها بالسعادة .. يا فانسنت .. لا أريد أى شيء .. وسوف أشاركك ما تملك فقط وأكون سعيدة ...

وكان بإمكانه أن يحس بالطفل الذى تحمله فى أحشائها وهو يضمها دافئا ينبض بالحياة .. وتحسس وجهها الحبيب برفق بأطراف أصابعه وأخذ يقبل الندوب واحدة بعد الأخرى .. وترك شعرها يسترسل على ظهرها وأخذ يسوى الحصل النحيلة بعزبات رقيقة يده .. ووضعت خدها السعيد المتورد على لحيته وأخذت تحكما برقة فى شعيراتها وقال :

— هل تحبيننى يا كريستين ؟

— أجل يا فانسنت .. إننى أحبك ..

— ما أجمل أن يكون المرء محبوبا .. فليسمه العالم خطأ إذا شاء ..

وقالت كريستين ببساطة ..

ليذهب العالم إلى الجحيم ..

— سأعيش كعامل .. فهذا يناسبني .. فأنا وأنت يفهم بعضنا بعضاً
ولسنا بحاجة إلى أن نأبه بما يقوله أى إنسان، ولسنا مضطرين إلى التظاهر
بعلاقة يرضى عنها المجتمع .. لقد نبذتني طبقتي منذ زمن طويل .. وأنا
أفضل أن أحصل على كسرة من الخبز بجانب مدفأتى مهما كانت متواضعة
ولا أعيش معك بدون زواج .

وجلسا على الأرض يستمدان الدفء من الوهج المنبعث من الموقد ..
وقد احتضن كل منهما الآخر بذراعيه ولم يقطع عليهما خلوتهما إلا ساعى
البريد .. وناول فنسنت خطاباً من امستردام جاء فيه ...

فنسنت ..

لقد سمعت توا عن سلوكك المشين .. أرجوك أن تلغى طلبى بالنسبة
للرسوم الستة وإن أهتم بعد ذلك بعملك ..
ك م . فان جوخ ..

لقد أصبح مصدره كله الآن يتوقف على ثيو .. ومالم يفلح في تفهم
ثيو طبيعة العلاقة بينه وبين كريستين فإنه أيضاً سيكون محقاً في قطع مبلغ
المائة الفرنك الشهرية عنه .. إنه يستطيع أن يعيش بدون أستاذه موف ..
وبدون تيرستيج التاجر ، الذى يشتري صورته .. وبدون عائلته ..
وأصدقائه وزملائه طالما بقي له عمله وكريستين .. ولكنه لا يستطيع أن
يعيش بدون هذه الفرنكات المائة التى تصله شهرياً .. وكتب خطابات
عاطفية طويلة لشقيقه شرح له فيها كل شئ وتوصل إلى ثيو أن يفهمه
ولا يتغلى عنه وعاش يوماً بعد يوم نهبا لخوف منهم من حدوث أسوأ
ما يتوقع .. ولم يجرؤ على أن يطلب المزيد من مواد الرسم إلا فى حدود
طاقته على الدفع .. ولا أن يتعمد برسم أى لوحات مائية أو يندفع إلى
الأمم .. وأبدى ثيو كثيراً من الاعتراضات .. ولكنه لم يدفع

سلوكه .. وأبدى له أيضاً النصيحة .. ولكنه لم يشعر أبداً إلى أنه سيتوقف عن إرسال النقود إذا لم يؤخذ بنصيحته وفي النهاية أكد فنسنت أنه على الرغم من استهجان لسلوكه فإنه سيستمر في إرسال معونته كما كان من قبل .

وخلت الأيام الأولى من مايو .. وكان الطبيب في ليون قد قال لكريستين إنها ستضع حملها في أحد أيام شهر يونيو .. ورأى فنسنت أنه من الحكمة ألا تنتقل معه حتى ينتهى الوضع وفي هذا الوقت كان يرجو أن يستأجر البيت الشاغر المجاور لشارع شنكفيج . وكانت كريستين تقضى معظم وقتها في الرسم ولكن حاجياتها كانت ما تزال في بيت والدتها وكافا يعترضان عقد زواجهما رسمياً عقب شفائها وذهب إلى لندن بمناسبة قرب وضع كريستين ولم يتحرك الطفل من الساعة التاسعة مساء حتى الساعة الواحدة والنصف وكان لا بد من سحبه بالجبث ولكنه لم يخرج على الإطلاق .. وقامت كريستين كثيراً من الألم ولكنها نسيت كل ذلك حينما رأت فنسنت وقالت .. سوف نبدأ قريباً في الرسم مرة أخرى ..

ووقفت فنسنت يتطلع إليها والدموع تترقرق في عينيه .. لم يهمه أن الطفل ينتسب لرجل آخر .. فقد كانت هي زوجته وكان الطفل ابنه وكان سعيداً والألم يعصر صدره ..

وعند ما عاد إلى شنكفيج وجد أن صاحب المنزل ومالك مخزن الخشب في انتظاره أمام المنزل ..

— مارايك في أن تأخذ هذا المنزل الآخر يا سيد .. فان جوخ ؟

إن إيجاره ثمانية فرنكات فقط في الأسبوع .. وسأدهنه وأبيضه بالمصيص لك وإذا كنت ستنتقى النوع الذى تفضله من ووق الحائط فإننى سألصقه لك ..

فقال فنسنت . .

— ليس بهذه السرعة . . إننى أود استئجار المنزل الجديد عندما تأتى زوجتى للبيت إلا إننى يجب أن أكتب إلى أخى أولاً . .

— حسناً . . يجب أن أضع بعض أوراق الحائط . . ولذلك أرجو أن تختار النوع الذى يعجبك وإذا لم تستطع أن تستأجر البيت فلا بأس . .

وكان ثيو يسمع عن البيت المجاور منذ عدة شهور . . وكان أوسع كثيراً وبه مرسنم وغرفة معيشة ومطبخ ومخزن صغير . . وغرفة نوم فى الدور العلوى وكان إيجاره يزيد أربعة فرنكات على إيجار المكان القديم ولكن نظراً لقدوم كريستين وهيرمان والطفل إلى شنكفيج فإنهم كانوا فى حاجة إلى المكان الجديد . . وقد رد عليه ثيو بأنه حصل على علاوة جديدة وأن فنسنت يمكن أن يعتمد على أنه سيتلقى ١٥٠ فرنكا شهرياً فى الوقت الحالى وعلى الفور أستأجر فنسنت المنزل الجديد فقد كانت كريستين توشك على الحضور فى خلال أسبوع . . وكان يريدان أن تجدا عند وصولها عشاء دافئاً وأعاره المالك رجلين من الساحة لحمل أثاثه من بيته القديم إلى المرسنم الجديد وجاءت والدته كريستين إلى هناك لترتيب الأشياء . .

(١٠)

كان المرسوم الجديد يبدو واقعياً جداً بورق الحائط الرمادى البنى ، وأرضيته الخشبية المصقولة وكانت هناك دراسات معلقة على الجدران وحامل
لصور فى كل طرف ومنضدة كبيرة بيضاء تصلح للعمل ، وقد وضعت أم
كريستين ستائر من الموسلين الأبيض على النوافذ ، وكان هناك ليوان ملحق
بالم رسم وضع فيه فنسنت كل لوحات الرسم والمحافظة وأعمال الخشب المحفور ،
وفى أحد الأركان يوجد دولاب للزجاجات والأواني والكتب . . وكان
فى حجرة المعيشة منضدة وبعض كراسى المطبخ وموقد غازى وكرسى كبير
من الخيزران ككريستين قرب النافذة ، وإلى جانبه وضع مهد حديدى صغير
له غطاء أخضر ، وفوقه لوحة محفورة من عمل رامبرانت لأمراأتين بجوار المهد
وإحداهما تقرأ فى الإنجيل على ضوء شمعة .

وقد استطاع أن يوفر كل شيء ضرورى جداً للمطبخ وعند ما عادت
كريستين كان فى استطاعتها أن تعد العشاء فى عشر دقائق واشترى سكيناً
إضافياً وشوكة وملعقة وطبقاً استعداداً لليوم الذى سيأتى فيه ثيو لزيارتهم
وفى الدور العلوى نصب سريراً متسعاً لنفسه ولزوجته إلى جانب السرير
القديم بما عليه من حشيات وملاءات فى ترتيب لا بأس به لهرمان وأحضر
هو وأم كريستين قشياً وعشياً بحرياً وأكياساً للراتب وحشياً بنفسيهما
المراتب فى الغرفة العلوية ، وعند ما غادرت كريستين المستشفى جاء الطبيب
الذى عالجهما وعرضة القسم وكبيرة الممرضات لوداعها . . وأدرك فنسنت
أكثر من ذى قبل أنها شخص يمكن أن تلقى عطفاً ومودة من الناس أصحاب
الشأن . . . وقال لنفسه : إنها لم تر أبداً ما هو خير ، فكيف يمكنها
أن تكون طيبة ؟

وكانت والدته كريستين وإبنتا هيرمان فى شكفنج لتحيتهما وكان عودا

حميداً. البيت لأن فنسنت لم يكن قد قال لها شيئاً عن العش الجديد . .
وجرت هنا وهناك وأخذت تلبس الأشياء والمهد . . . والمقعد المريح . . .
ولناء الزهور الذى كان قد وضعه على الأسكفة خارج نافذة غرفتها . . .
وكانت حالتها المعنوية مرتفعة.

وصاحت . .

لقد كان الأستاذ غريباً للغاية فقد قال :

— أود أن أقول هل أنت مغرمة بالجن وشراب المر ؟ وهل فى مقدورك
أن تدخنى السيجار ؟

واجابته قائلة . .

— نعم .

فقال . .

— ما سألتك إلا لأخبرك أنك لست فى حاجة للإقلاع عنها . . ولكن
إياك أن تستعملى الخل والفلفل والمستردة . . ويجب أن تأكلى اللحم مرة
واحدة على الأقل كل أسبوع . .

كانت غرفة نومها تشبه إلى حد كبير عنبراً فى سفينة لأنها كانت
مكسوة الجدران بالخشب وكان على فنسنت أن يحمل المهد الحديدى إلى
الدور العلوى كل ليلة وإلى حجرة المعيشة بالدور الأسفل مرة أخرى كل
صباح . . وكان عليه أن يقوم بكل أعمال المنزل التى كانت ما تزال كريستين
لا تقوى عليها لضعفها . . ترتيب الفراش وإشعال النار ، ورفع وحمل
الأشياء وتنظيفها وأحسن كما لو كان قد عاش مع كريستين والأولاد منذ عهد
بعيد . . وأنه كان فى بيئته ، وعلى الرغم من أنها كانت ما تزال تعاني من
أثر العملية فقد كانت تحس بتجدد قواها وانتعاشها . .

وعاد فنسنت من جديد إلى العمل وقد اطمأن قلبه . . ما أحسن أن

يكون للبرء بيت خاص به ليحس بضوضاء وتنظيم الأسرة حوله . . لقد
أمدته الحياة مع كريستين بشجاعة وحيوية للبضى في عمله . . وإذا لم يتخل
عنه ثبوته ولا ريب سوف يستطيع أن يصبح معسورا مجيدا . . في
البوريناك راض نفسه على العبودية من أجل الله . . أما هنا فقد اتخذ لها
جديدا ملبوسا أكثر واعتنق ديننا يمكن التعبير عنه في جملة واحدة . . إن
شكل عامل وبعض الحفر في أرض محروثة وقليل من الرمل والبحر والسماء
كانت موضوعات جادة بالغة الصعوبة ولكنها كانت في الوقت نفسه متناهية
الجمال لدرجة أنها كانت تستحق أن يكرس حياته لمهمة التعبير عن الشاعرية
السكينة فيها . .

وفي عصر أحد الأيام رينا كان عائدا إلى بيته من الروابي قابل
تيرستيج أمام بيت شنكفيج وقال تيرستيج . .

— يسعدني أن أراك يا فنسنت . . لقد فكرت في أن أجيء وأستفسر
كيف تتقدم . .

كان فنسنت يخشى العاصفة التي كان يعرف أنها ستهب لو صعد تيرستيج
إلى الدور العلوى . . فوقف يتحدث معه بضع لحظات على قارعة الطريق
حتى يستطيع أن يستجمع قواه . . وكان تيرستيج ودودا ولطيفا . .
وارتجف فنسنت . . وعند ما دخل الرجلان كانت كريستين تهدد الطفل
في مقعدها الخيزراني . . وكان هيرمان يلعب بجوار الموقد .

فتطالع تيرستيج إليهما وقتا طويلا جدا وقد فخر فاه من الدهشة ،
وعند ما تكلم كان حديثه بالإنجليزية فقال .

— ما معنى وجود هذه المرأة وهذا الطفل ؟

— كريستين زوجتي ، والطفل لبنا . .

— أنت تزوجتها فعلا ؟

- إننا لم نقوم بعد بإجراءات الاحتفال ، إذا كان ذلك ما تعنيه . .
- كيف يمكن أن تفكر في الحياة مع امرأة . . وأطفال هم . . ؟
- إن الرجال عادة يتزوجون . . أليس كذلك . . ؟
- ولكنك صفر اليدين ، وأخوك هو الذي يعولك ؟
- كلا ليس الأمر كذلك بتاتا . . إن ثيو يدفع لى مرتبا ، وكل ما أفعله هو ملكه واسوف يسترد ماله يوما ما . .
- هل جننت يا فنسنت ؟ إن مثل هذا السلوك لا يصدر إلا عن عقل معتوه ومزاج متقيم .
- إن السلوك الإنساني يا سيدى يشبه الرسم إلى حد كبير . . والمنظور كله يتغير بالوضع المنحرف للعين ولا يتوقف على الموضوع بل على الرجل الذى يشاهد المنظر .
- سوف أكتب لأبيك يا فنسنت . . سوف أكتب له وأخبره بالموضوع كله . .
- ألا ترى أنه سوف يكون من السخرية أن يتلقوا منك خطابا غاضبا ثم يتلقوا بعده سريعا التماسا منى بالحضور على نفقتى لزيارتى هنا . .
- أنت تنوى أن تكتب لهم بنفسك . .
- هل تسأل هذا السؤال ؟ سأفعل هذا ولا ريب . . ولكنك تتفق معى على أن الوقت الآن غير مناسب إذ إن والدى سوف ينقل إلى أبروشية نويين . . وحالة زوجتى الصحية الآن سيئة لدرجة أن تعرضها لآى قلق أو إجهاد يقضى عليها .
- لن أكتب إذن ولا ريب يا بنى إنك أحق كذلك الرجل الذى يريد أن يغرق نفسه . . وأنا لا أبغى إلا أن أنقذك من الغرق

إننى لا أشك فى نواياك الطيبة ياسيد تيرستيج وهذا هو السبب فى أننى أحاول ألا أغضب من كلماتك .. ولكن هذا الحديث لا يروق لى أبداً ..
وانصرف تيرستيج وعلى وجهه سمات الفشل وكان فاينسنبروخ هو الذى أطلق أول ضربة حقيقية للعالم الخارجى .. فقد دلف إلى الداخل فى غير مبالاة فى عصر أحد الأيام يرى إذا كان فنسنت ما يزال حياً ..
وقال ..

— هالو .. أرى أنك نجحت فى تدبير شئونك دون هذه الفرنكات الخمسة والعشرين .
— أجل ..

— والآن .. ألسن مسروراً لأننى لم أدلك ؟ ..
— إننى ما زلت أتمسك بأول عبارة قلنها لى عندما رأيتك فى بيت موف . وقد كانت « اذهب إلى الجحيم » ، وأنا أكرر الدعوة ..
إذا حافظت على هذه الروح فسوف تصبح فاينسنبروخ آخر .. إذ إن فى الصفات التى يمكن أن تجعل منك رجلاً حقيقياً .. لماذا لا تقدمنى إلى عشيقتك إذ لم يسبق لى هذا الشرف ؟
— افعل بى ما شئت يا فاينسنبروخ ولكن دعها فى سلام ..

كانت كريستين تهز المهد الحديدى بملاءته الخضراء وكانت تعلم أنها موضع للسخرية فتطاعت إلى فنسنت وقد ارتسخت على وجهها علامات الألم ..
وعبر فنسنت المكان حتى وصل إلى الأم والطفل ووقف بجانبهما وألقى فاينسنبروخ نظرة على الجماعة ثم نظر إلى صورة رامبرانت المعلقة على المهد وصاح ...

— أرى أنكم تصلحون موضوعاً للوحة رائعة وأود أن أصوركم وف اسوسمى هذه الصورة « العائلة المقدسة » ،

— فقفز فنسنت ليضرب فايسنبروخ وهو يسبه ولكن الأخير كان قد خرج من الباب بأمان وعاد فنسنت إلى عائلته وكانت هناك مرآة صغيرة معلقة على الحائط بجانب صورة رامبرانت وألقى عليها فنسنت نظرة فرأى صورهم الثلاثة منعكسة ، وفي لحظة من لحظات الصفاء الهائل . أدرك الحقيقة كما رآها فايسنبروخ .. رأى ابن الزنا والعاهرة ورجل البر .. وسألته كريستين ..

— ما الاسم الذي أطلقه علينا ...

— العائلة المقدسة ...

— ما معنى ذلك ؟ ..

— إنها صورة لمريم ويسوع ويوسف .. فانفجرت الدموع من أعينها ودفت وجهها في ملابس الطفل وركع فنسنت على ركبتيه بجانب المهد الحديدي ليواسيها .. الغسق يزحف من النافذة الشمالية ويلقى على الحجرة ظلا هادئا ومرة أخرى كان باستطاعة فنسنت أن يتفرد برؤية حقيقة ثلاثتهم كما لو كان غريبا عن المجموعة .. وفي هذه المرة كان يراهم من خلال بصيرة قلبه هو .. وقال ..

— لا تبكى ياسين .. لا تبكى يا حبيبتي .. ارفعى رأسك وجففى

دموعك .. لقد كان فايسنبروخ على حق ..

* * *

(١١)

واكتشفت فنسنت شفينجن والرسم بالزيت في آن واحد فقد كانت شفينجن قرية صغيرة للصيد تقع على وادى بين تلين رملين يحمياه على بحر الشمال ، وعلى الشاطئ كانت هناك صفوف من سفن الصيد المربعة ذات الصاري الواحد والأشرعة الداكنة اللون التى أتلقتها الرياح وكانت لها فى المؤخرة دفات خشنة مربعة بينما ألقيت فيها ونشرت عليها شباك الصيد استعداداً لرميها فى البحر وفوقها يرفرف علم صغير مائل لونه أحمر صدى أو أزرق بحرى وكانت هناك عربات زرقاء تسير على عجلات حمراء تحمل السمك إلى القرية بينما كانت زوجات الصيادين يرتدين قلفسوات بيضاء بألوان الجلد الزيتية قد ثبتت من الأمام بدوسين مستديرين من الذهب وقد احتشدت العائلات على حافة الحد للترحيب بسفن الصيد وكان الكورزال بأعلامها البهيجة التى ترفرف عليها بيتا للمتعة أعدت للأجانب الذين كانوا يحبون طعم الملح على شفافهم على ألا تعفى به حلوقهم . . وكان البحر يبدو رماديا بالقلفسوات البيضاء على الشاطئ وألوان متفاوتة دائمة العمق من الأخضر الباهت إلى لون أزرق راكد . . وكانت السماء رمادية باسعة مرصعة بالسحب وبين الحين والآخر تظهر على صفحتها علامة زرقاء لترحى للصيادين أن الشمس ما زالت تشرق فى هولنده . . لقد كانت شفينجن بقعة يعمل فيها الرجال. ويرتبط فيها الناس بالبحر وبالارض . . كان فنسنت قد أنجز عدة رسوم جيدة لمنظر من الطريق بالألوان المائية . . وكانت هذه الوسيلة مرضية بالنسبة للانطباعات السريعة . . ولكن الألوان المائية لا تنسم بالعمق والكثافة والصفة الخاصة للتعبير عن الأشياء التى يريد أن يفصح عنها . . كان يتحرق شوقا إلى الرسم بالزيت ولكنه كان يخشى أن يستعمله لأنه سمع الكثير عن المصورين الذين فشلوا لأنهم رسموا بالزيت قبل أن يتعلموا الرسم . .

ثم جاء ثيو إلى لاهاى . . .

وكان ثيو قد بلغ السادسة والعشرين من عمره . . . وأصبح تاجرا ماهرا فى اللوحات الفنية . . . وكثيرا ما كان يسافر لعمله وفى كل مكان يحل به كان معروفا بأنه من أحسن رجال الأعمال الشبان . . . وكان محل جوبل وشركاه قد بيع لبوسو وفالادون وكانوا يعرفون بالسادة .

وعلى الرغم من أنهما احتفظا لثيو بوظيفته السابقة فإن العمل فى بيع اللوحات الفنية لم يعد كما كان فى عهد جوبل والعم فنسنت ، فقد أصبحت اللوحات تباع بأعلى سعر يمكن الحصول عليه بغض النظر عن مدى قيمتها الفنية وكان المصورون الناجحون فقط هم الذين يلقون كل تعزید ویدنا كان العم فنسنت وتيرستيج وجوبل يرون أن من أهم واجبات التاجر فى اللوحات الفنية اكتشاف تشجيع الفنانين الناشئين ، أصبحوا لا يثشدون الآن غير كبار المصورين المشهورين ،

وكان القادمون الجدد إلى الحقل الفنى من أمثال ، مانیه ومونيه وبيسارو وسيسلى وبريتوار وبيرت موريسو وسيزان وديجا وجيومان وحتى الشبان الأصغر سنا — من أمثال كولونزوتريك وجوجان وسورا وسنيك كانوا يحاولون أن يقولوا شيئا يختلف عن الشيء الذى كان يردده دائما بوجيريو وأنصار المدرسة الأكاديمية ولكن دون أن يستمع إليهم أحد .

ولم يحدث أن عرضت لأسرة واحدة من هؤلاء الفنانين الثائرين أية لوحة أو عرضت للبيع تحت سقف (السادة) وكان ثيو قد أبدى استياء عميقا لأعمال بوجيريو وأنصار المدرسة الأكاديمية واتجه بعواطفه إلى المجددين الشبان . . . وفى كل يوم كان يبذل كل ما فى وسعه لإقناع « السادة » بعرض اللوحات الجديدة وحث الجمهور على أن يشتريها وكان هؤلاء السادة يعتقدون أن المجددين ليسوا إلا فئة من العابثين المجانين العاجزين تماما عن المعالجة الفنية بينما كان ثيو يعتقد أنهم أساتذة المستقبل . . . وظلت

كريستين بغرفة النوم في الدور العلوى عندما التقى الأخوان في المرسى . .
وعنما انتهيا من تبادل التحيات الأولية قال ثيو . . لقد أتيت من أجل
العمل أيضاً . . ولكن يجب أن أعترف لك أن هدفي الأول في لاهاي
هو أن أثنيك عن عزمك من إنشاء أية علاقة دائمة مع هذه المرأة . . وقبل
كل شيء ما شكلكما . . ؟

— هل تذكر مربيقتنا القديمة في زندوت لين فيرمان ؟

— أجل . .

— إن سين من هذا النوع من الناس . . إنها مجرد امرأة عادية بين
الناس . . إلا أنها بالنسبة لي تعد شيئاً سامياً . . وأى إنسان يحب امرأة
عادية من العامة وتحبها هي ينعم بالسعادة على الرغم من الجانب المظلم من الحياة . .
لقد كان إحساسي بأنني ذو فائدة هو الذى جعلني أفيق إلى نفسى ثانية وأعود
للحياة . . لأننى لم أبحث عنها بل وجدتني . . إن سين تطرح كل الموم
والملاعب التي تصاحب حياة المصور . . وقد أبدت استعدادها للوقوف
أمامي لرسمها بما يجعلني أعتقد أنني معها سأصبح فنانياً أحسن مما لو تزوجت
كأى . . أخذ ثيو يتمشى في المرسى وأخيراً تكلم بيدينا كان يتطلع في إمعان
إلى لوحة مرسومة بالألوان المائية وقال :

— الشيء الوحيد الذى لا أستطيع فهمه هو كيف يتأتى لك أن تقع في
حب هذه المرأة بينما كنت متدهلاً في حب كلى . . .

— لم أقع في الحب يا ثيو ، ليس بعد وهل لأن كلى نبذتني يجب
أن تذرى كل مشاعري الإنسانية ؟ . . عندما أتيت إلى هذا المكان لم تجدني
في حالة يأس وحزن بل وجدت مرسماً جديداً وبيتاً ينعم بالحرية والسعادة
لا مرسمها يحوطه الغموض بل مرسمها تمتد جذوره في أعماق حياة واقعية . .
مرسم به معهد ومقعد عال للعقل حيث لا يوجد ركود بل حيث كل شيء
يندفع إلى الأمام ويبحث ويبعث على النشاط . . وأنا أرى المرء يجب أن

يكون إحساسه بما يرسم كوضوح النهار وأنه يجب على المرء أن يعيش في واقع حياة الأسرة إذا أراد أن يعبر عن حياة الأسرة . .

— أنت تعلم أنني لا أقر أبدا الفوارق الطبقيّة يا فنسنت ولكن هل ترى أنه من الصواب . . فقاطعه فنسنت قائلا . . .

— لا . . لا أعتقد أنني قد جللت نفسي بالعار لأنني أشعر أن عملي يكمن في القلوب وأنني يجب أن أرتبط ارتباطا وثيقا بالأرض . . وأن أفهم حقائق الحياة بسرعة . . وأن أحقق تقدما وسط كثير من الهموم والمتاعب . .

فتقدم ثيو بسرعة ووقف يتطلع إلى أخيه وقال . .

— إنني لا أنزعك القول في ذلك . . ولكن ما ضرورة الزواج . . ؟

— لأن هناك وعداً بالزواج بيني وبينها . . وأنا لا أريدك أن تعدها عشيقّة أو امرأة تربطني بها علاقة دون اهتمام بما يترتب عليها من نتائج وهذا الوعد بالزواج له جانبان ، فهو أولا وعد بالزواج المدني حالما تسمح الظروف ، وثانياً هو في نفس الوقت وعد بأن يساعد بعضنا بعضا ويمكن أحدهما للآخر الإعزاز كما لو كنا قد تزوجنا حقاً . . وأن نتشاطر السراء والضراء . . ولكن لا ريب أنك ستنتظر قليلا قبل أن تشرع في إجراءات الزواج المدني ؟

— أجل يائبو . . إذا كان هذا هو ما تنشده مني سوف نؤجل عقده حتى أكسب مائة وخمسين فرنكا عن طريق بيع إنتاجي . . وعندما نستطيع الاستغناء عن محو فتك . . أعدك أنني لن أتزوجها حتى أحرز تقدما في رسمي إلى الدرجة التي أستطيع فيها الاعتماد على نفسي . . وبالتدريج . . وحيثما أبدأ في كسب بعض المال يمكنك أن ترسل لي كل شهر مبلغاً أقل وفي آخر الأمر لن أكون بحاجة بعد ذلك إلى نقودك وعندها سوف نتحدث عن الزواج المدني . .

— هذا يبدو أحسن ما تفعل ..

— ها هي هذه تجيء يا ثيو .. من أجل خاطري حاول أن تنظر إليها على اعتبار أنها زوجة وأم .. لأن هذه هي حقيقتهم ..

فم طت كريستين الدرجات التي في مؤخرة المرسم وكانت ترتدى ثوبا أسود نظيفا وكان شعرها مرجلا بعناية ومعقوصا إلى الخلف .. وقد وضعت على وجهها طبقة من الطلاء أخفت تقريبا آثار الجدرى وغدت جميلة في نوع من الأسلوب المنزلي وكان حب فنسنت يحيطها بهالة من الثقة والصحة .. وصاغت ثيو بهدوء وسألته إذا كان يريد فنجانا من الشاي وأصرت على أن يبقى ليتناول معها طعام العشاء وجلست في مقعدها المريح بجانب النافذة تطرز وتهز المهد وأخذ فنسنت يجري بانفعال هنا وهناك في المرسم ويعرض على ثيو صورا رسمها بالفحم ومناظر من الطريق رسمها بالألوان المائية ومجموعة دراسات رسمها بقلم بخار .. كان يريد أن يرى ثيو ما أحرزه من تقدم في عمله ..

وكان ثيو يؤمن بأن فنسنت سيصبح يوما مصورا عظيما ولكنه لم يكن أبدا على يقين من حبه للأشياء التي كان فنسنت قد صنعها .. وكان ثيو هاويا يستطيع أن يميز كل عمل جيد وله خبرة كبيرة في الحكم على القيمة الفنية، ولكنه لم يستطع أبدا أن يصل إلى قرار حاسم في إنتاج شقيقه .. فقد كان يرى أن فنسنت دائما في حالة التكوين ولم ير أبدا أنه قد وصل إلى مرحلة النضج .. وقال بعد أن عرض عليه فنسنت كل دراساته وتحدث عن أمنياته ..

— إذا كنت بدأت في الشعور بالحاجة إلى الرسم بالزيت فلماذا لا تبدأ؟

ماذا تنتظر؟

— انتظر التأكد من جودة رسمى ..

لقد قال موف وتيرستيج لاني لا أعرف . .

وقايسنبروخ يقول إنك تعرف . . أنت الشخص الذي يجب أن يكون له الحكم النهائي ، إذا كنت تشعر الآن بأنك تريد أن تعبر عن نفسك بلون أعمق فقد آن لك أن تفعل . . هيا . .

— ولكن التكاليف ياثيو . . فهذه الأنايب المذهلة تساوى ما يعادل ثقلها ذهبيا .

— قابلني في العاشرة من صباح الغد في فندقي وكلما أسرعت بإرسال اللوحات الزيتية أسرعت أنا في استرداد أموالى من هذا الاستثمار . وفي أثناء العشاء كان ثيو وكريستين يتبادلان حديثا شيقا . وعندما غادر ثيو البيت التفت فنسنت وقال له بالفرنسية وهو على السلم . .

— إنها لطيفة . . لطيفة حقا . . لم أكن أظن هذا . .

— وفي صباح اليوم التالى وبينما كانا يسيران فى طريق « فاجنشترات » كانا يمثلان تناقضا غريباً . . فالأخ الأصغر متأنق الثياب فى نهاية حذاؤه مصقول وثيابه منساعة وحلته مكوية ورباط عنقه معقود فى موضعه بأناقة وقبعته المستديرة السوداء وضعت على رأسه بزائفة أنيقة . . ولحيته السمراء الناعمة مشدبة بعناية ، وكان يمشى بخطوات متزنة متساوية . . أما الآخر فكان حذاؤه باليا وسراويله ملطخة بالبقع وكانت لا تنسجم مع المعطف الضيق وكان بلا رباط عنق ، وعلى رأسه قلنسوة كالتى يرتديها الفلاحون ملصقة بقمة رأسه ولحيته مشعثة فى خصلات حمراء نافرة وكان يسير وهو يترنح فى خطوات مضطربة غير متساوية وكان يلوح بذراعيه ويشير بيديه فى حركات تقسم بالانفعال وهو يتكلم . . ولم يقطعا إلى اللوحة التى كانا موضوعها . . وأخذ ثيو فنسنت إلى محلات جوبلز لشراء أنايب الرسم والفرش وقماش اللوحات وكان تيرستيج يعجب بثيو ويحترمه وكان يود أن يحب ويفهم فنسنت . . وعندما عرف ما جاء بشأنه

أصر على أن يجهز بنفسه كل المواد وأخذ ينصح فنسنت مبيناً له قيمة الألوان المختلفة .

وقطع ثيو وفنسنت الكيلومترات الستة عبر كيشان شفيننجن .. وفي تلك اللحظة كانت سفينة صيد تدخل الميناء ، وبالقرب من الأثر التذكاري كان هناك كوخ من الخشب جلس فيه رجل على مرمى البصر وحالماً وصل القارب وأمكن رؤياه برز الرجل ومعه علم كبير وكان يتبعه حشد من الأطفال وبعد بضع لحظات كان قد أخذ يلوح بالعلم ووصل رجل يمتطي جواداً هرماً وذهب ليحضر الهلب وانضم للجماعة ففر من النساء والرجال الذين تدفقوا على التل الرملي من القرية للترحيب بطاقم السفينة .. وعندما اقترب القارب لدرجة كافية خاض الرجل الذي يعتلي ظهر الجواد في الماء ثم عاد ومعه الهلب ثم عاد الصيادون إلى الشاطئ على ظهور رفاق كانوا يرتدون أحذية عالية من المطاط .. وعندما كان يصل كل منهم كان يقابل بصيحة عظيمة من صيحات التهليل والترحيب وعندما عادوا جميعاً إلى الشاطئ وسحبت الجياد القارب إلى الشاطئ سارت الفرقة بأكلامها إلى البيوت فوق التل الرملي كأنها قافلة يتقدمهم الرجل الذي كان يركب الحصان كأنه شبح طويل ..

وقال فنسنت ..

- هذا هو النوع الذي أود أن أصوره بألواني .
- دعني أحصل على لوحات بمجرد أن تصبح راضياً عن عملي . فقد أستطيع أن أجدها مشترين في باريس ..
- أواه يا ثيو .. يجب أن تجدهم .. يجب أن تبدأ في بيع أعمالي ..

(١٢)

وعندما غادر ثيو لاهاي بدأ فذسنت في تجربة ألوانه فقام بتصوير ثلاث دراسات بالزيت إحداها تمثل صفاء من أشجار الصفصاف المشدبة خلف قنطرة الجيست . . وأخرى عن عمر الفهم الرجوع وثالثة عن حدائق الخضراوات في مبرورفورت حيث كان رجل يرتدى سترة زرقاء يجمع البطاطس . . وكان الحقل من الرمل الأبيض . . قد قلبت أرضه جزئيا وكان ما يزال مغطى بصفوف من الأعواد الجافة . التي تنخلها الأعشاب الخضراء ، وعلى بعد كانت هناك أشجار خضراء داكنة وبعض الأسطح . . وعندما تأمل عمله في الرسم ملأه الزهو فقد كان على يقين من أن أى شخص لا يمكن أن يدرك أن هذه اللوحات هي ثمرة جهوده الأولى وكان الرسم وهو العمود الفقري للتصوير والهيكل الذي يدهم بقية اللوحة يصور الحياة في دقة وصدق . . وقد دهش قليلا لأنه كان يظن أن إنتاجه الأول سوف يحقق فعلا ذريعا وكان منهمكا في رسم أرض منحدرية في الغابات قد غطتها أوراق شجرة الزان الجافة المقروضة وكانت الأرضية بنية مائلة للحمرة خفيفة زادت في كثافة لونها ظلال الأشجار التي كانت تاتي عليه خطوطا وأحيانا كانت ترسم عليه بعض البقع وكان ينبغي الحصول على العمق في اللون والقوة الهائلة وصلابة الأرض . وبينما كان يصور أدرك لأول مرة مقدار ما يزال من الضوء في هذا الظلام وكان عليه أن يبقى على هذا الضوء وفي الوقت نفسه يحتفظ بعمق اللون الثرى . .

كانت الأرض بساطا من اللون البنى المحمر العميق تتألق تحت شمس الغروب في الخريف تلطف من حدتها الأشجار وبرزت شجيرات البتولا واستمدت الضوء من جانب واحد وكانت أوراقها خضراء متألقة . وكأنه الجوانب المظلمة من الجذوع داكنة وخضراء داكنة عميقة وخلف الشجيرات وراء الأرض الحمراء المائلة للبنى كانت السماء صافية رمادية تميل للزرقة

دافئة تكاد تكون زرقاء والسكر يتألق وكان يجاورها من الأمام بقعة قائمة الخضرة وزخرفة من الجذوع الصغيرة والأوراق المصفرة وكان هناك أشباح قليلة من الخطابين يحومون حول المكان كأنهم كتل مظلمة من الظلال الغامضة ورأى قلنسوة بيضاء لا مرآة تنحني لتمسك بفرع يابس برزت في فظاظه في مواجهة اللون الأحمر البني الداكن للأرض وظهر خيال أسود لرجل فوق السكلا وضع في مواجهة السماء وكان الشكل رائعا وملينا بالشاعرية .

وبينما كان يصور قال لنفسه .

يجب ألا أذهب قبل أن أضع فيها شيئا من الإحساس بمساة الخريف .. شيئا غامضا . شيئا خطيرا . ولكن الضوء كان يخفت وكان عليه أن يعمل بسرعة الأشكال التي رسمها بيضع ضربات قوية من فرشاة صلبة وقد أدهشه مدى تعمق جذور الأشجار الصغيرة بقوة في الأرض ، فحاول أن يصورها .. ولكن الأرض كانت لزجة لدرجة أن ضربة الفرشاة ضاعت فيها .. وحاول مرة ثم مرة في يأس حتى بدأ الظلام يتسلل وأخيرا رأى أنه قد غلب على أمره .. فلا فرشاة استطاعت أن تنقل أى شيء عن سمرة الطين اللازب الناصب للأرض ، وبشيء من البديهة العمياء ألقى بالفرشاة بعيدا واعتصر من أنابيب الألوان ما صور به الجذور والجذوع في اللوحة ، والتقط فرشاة أخرى وخفف الألوان الزيتية الكثيفة بيد الفرشاة وأخيرا وبينما كان الليل يرخى سدوله على الغابة صاح :

— نعم ها هي ذى الآن تقف هناك وهي ترتفع من الأرض وقد امتدت جذورها عميقة فيها .. لقد عرفت عما كنت أريد أن أقول ..

وزاره فايسنبروخ في هذا المساء وقال .. تعال معي عند بلشرى . سوف نعلم بمشاهدة بعض اللوحات وتبادل الحديث ولم يكن فنسنت قد نسي ما حدث في زيارته الأخيرة فقال — لا ، أشكرك .. إنى لا أريد أن أترك زوجتى ..

فسار فايسنبروخ حتى وصل إلى كريستين وقبل يدها واستفسر منها عن صحتها ولعب مع الطفل في مرح تام وكان من الواضح أنه لم يعد يذكر آخر ما قاله لها . ثم قال ..

— دعنى أرى بعضاً من رسوماتك الجديدة يا فنسنت فافتعل فنسنت مسروراً وتناول فايسنبروخ دراسة عن سوق الاثنين حيث كانوا يشدون بعض المظلات .. وأخرى عن صف ينتظر أمام مطبخ الحساء وثلاثة عن ثلاثة من الرجال المسنين في المصححة العقلية ... ورابعة عن سفينة صيد في شفينجن وقد ارتفع هلبها .. وخامسة أتمها فنسنت وهو جالس على ركبتيه في وحل الكشبان .. خلال هبوب عاصفة ممطرة ..

— هل هذه اللوحات للبيع ؟

لانى أود أن أشتريها ..

— هل هذه إحدى نكاتك التعسة يا فايسنبروخ ..

— لانى لا أمزح أبداً فيما يختص بالتصوير ..

إن هذه الدراسات رائعة ، كم تريد ثمنها لها .. ؟

فقال فنسنت في ضعف وهو يخشى أن يتعرض للسخرية في أية لحظة ..

— حدد الثمن الذى قراه ..

— حسناً . ما رأيك فى خمسة فرنكات للواحدة ؟ أى خمسة وعشرين

فرنكا للجموعة ..

— فأتسعت خدقنا فنسنت وقال ..

— هذا كثير جداً .. لقد دفع لى عمى كور فرنسكين ونصف فى

الواحدة

— لقد غشك يا ولدى .. وكل التجار يخشونك .. إنهم سيبيعون

لوحة من صنتك بخمسة آلاف فرنك ..

— ما قولك . . هل توافق ؟

— فايسنبروخ أنت أحياناً ملاك وأحياناً تكون شيطاناً مريداً . .

— هذا مجرد التنويع حتى لا يلبنى أصدقائي . .

وأخرج محفظة وناول فنسنت خمسة وعشرين فرنكاً وقال . . والآن تعال معي إلى بلشري فأنت في حاجة إلى قليل من التسلية ، سوف نرى إحدى الهزليات من تأليف توتى أوفرمانز وسوف يفيدك الضحك . . وهكذا ذهب فنسنت . . وكانت قاعة النادي مكتظة بالرجال وكانوا كلهم يدخلون طباقاً رخيصةاً وقريباً . . وكانت اللوحة الأولى مأخوذة عن صورة من الحفر لنيكولاس مايس وهي « اسطبل في بيت لحم ، وكانت جيدة للغاية في ألوانها وتوزيعها ، إلا أنها كانت ولا ريب خالية من أى تعبير وكانت الثانية مأخوذة عن لوحة رامبرانت « مسح يبارك يعقوب ، ورييكا تنتظر لتري هل ستنجع حيلتها . . وأصيب فنسنت بالصداغ بسبب الجو الحاقق فغادر المكان قبل تمثيل المسرحية الهزلية وعاد إلى البيت . . وبينما كان يسير أخذ يؤلف عبارات خطاب . . وأبلغ والده بالقدر الذى اعتقد أنه لائق من قصته مع كريستين وأرفق بالخطاب الفرنكات الخمسة والعشرين التى أعطاهما له فايسنبروخ وطلب من تيودورس أن يأتى إلى لاهاي وينزل ضيفاً عليه . .

وبعد ذلك بأسبوع جاء والده وكانت عيناه الزرقاوان ذابلتين وغدت خطواته أبطأ مما كانت وكان تيودورس قد أمر ولده بترك المنزل في آخر مرة كانا فيها معاً وفي غضون ذلك تبادلوا الكلمات الودية وكان تيودورس وأنا كورنيليا قد أرسلنا عدة لغافات من الملابس الداخلية والخارجية والسيجار والكهك المصنوع في البيت وكانا بين الحين والآخر يرسلان إليه ورقة بعشرة فرنكات ولم يدر فنسنت كيف سيعامل والده كريستين فأحياناً سيكون الرجال كرماء يفهمون الموقف وأحياناً أخرى يصابون

بالعمى ويتصرفون في خسة ولم يكن يظن أن والده سوف يظل لا يكثرث ويشير الاعتراضات قرب مهد طفل فالمد لا يشبه أى شيء آخر ولا مجال للخداع فيه وكان يرجو أن يعفو والده عما حدث من كريستين في ماضيتها المشين .

وكان تيودورس يحمل لفافة ضخمة تحت ذارعه ، وفتحها ففسنت فوجد بها معطفا صوفيا لكريستين فعرف أن كل شيء كان على مايرام . . وبعد أن صعدت كريستين إلى حجرة نومها في الدور العلوى جلس تيودورس وفسنت معا في الرسم . .

وقال الوالد . . .

— ففسنت . . هناك شيء واحد لم تذكره لى في خطابك . . هل الطفل ابنك ؟

— لا . . فقد كانت حاملا فيه عندما قابلتها . .

— أين والده . . ؟

لقد هجرها . .

— ولم ير من الضروري أن يفسر لو والده أن الطفل مجهول الأب . .

— ولكنك سوف تتزوجها يا ففسنت . . أليس كذلك . . فليس من الصواب أن تعيش على هذا النحو . .

— إننى أوافقك ، وإننى لأرغب فى السير فى إجراءات الاحتفال الرسمى بأسرع ما يمكن وليكتفى وثيراينا أنه من الأفضل أن أنتظر حتى أكسب مائة وخمسين فرنكا فى الشهر عن طريق رسمى . .

فتنهذ تيودورس وقال :

— أجل . ربما كان ذلك أفضل . . إن والدتك تود أن تأنى إلى البيت فى زيارة قصيرة يا ففسنت . . وكذلك أنا . . وسوف تتمتع بالإقامة فى نيورين يا ولدى . . إنها واحدة من أجمل قرى الهرابانت . . فالكليسة

منشيلة للغااية وهى تشبه السكوخ الجليدى للاسكيمو وهى تتسع لاقل من مائة فرد تصور ١١٠٠ . ويحيط المنزل بالابروشية أسوار من النباتات الشوكية يا فنسنت ، وخلف الكنيسة ساحة مليئة بالزهور بهار بهوات رملية و صليبان خشبية عتيقة ..

قال فنسنت ..

— صليبان خشبية .. أهى بيضاء .. ؟

— أجل .. وعليها الأسماء باللون الأسود ولكن الأمطار تعمل على محوها ..

— أ يوجد برج عال جميل يعلو الكنيسة يا أبى ؟ ..

— واحد لطيف رقيق يا فنسنت .. ولكنه يرتفع عاليا فى عنان السماء حتى لينخيل إلى أحيانا أنه يكاد يصل إلى الله ..

فقال : فنسنت وعيناه تتألقان ..

— تلقى ظلا رفيعا على المدافن .. أود أن أرسم ذلك .. ؟

— وهناك مروج وغابات ممتدة إلى جوارها .. والفلاحون يضربون الأرض بمعاولهم .. لابد أن تاتى إلى البيت لزيارتنا فى القريب يا ولدى ..

— أجل يجب أن أرى نيوفين .. الصليبان الصغيرة والبرج ، والناس الذين يـقولون الحقول .. إنى أعتقد أنه سيحيط بي دائما شيء مامن البرابنت .

وعاد تيودورس إلى بيته ليطمئن زوجته أن الأمور ليست سيئة مع ولدهم كما كانوا يتخيلون .. وانهمك فنسنت فى العمل بحماس متزايد ووجد نفسه يستعيد كلمات « ميليه » أكثر فأكثر ، الفن معركة ، ففى الفن يجب أن يجتهد المرء ولو ضحى بجلده .. لقد آمن به ثيو ووالده ووالدته لم يستمجنوا علاقته بكريستين ولم يعد أحد فى لاهاي يضايقه بعد الآن ..

وأصبح يتمتع بحرية تامة في أن يسير قدما في عمله . . وكان مالك مخزن الخشب المقطوع يرسل له كل الرجال الذين يأتون طالبين العمل . ولا يحصلون عليه ليعملوا لديه كموديلات . . وكلما فرغ جيبه أصبحت حافظة أوراقه عامرة وقد رسم الرضيع الذي يرقد في المهد إلى جانب الموقد مرات ومرات وعند قدوم أمطار الخريف كان يعمل خارج المنزل على ضوء شعلة زيتية مقتنصا ما يشاء من التأثيرات ، وسرعان ما أدرك أن المصور بالألوان هو ذلك الرجل الذي ربي لونا في الطبيعة ويعرف في الحال كيف يحل هذا اللون . . فيقول . . هذا الأخضر الرمادي أصفر مع الأسود وبه قليل من اللون الأزرق.

وسواء كان يرسم شكلا أو منظرا طبيعيا فإنه كان يتوق أن يعبر لا عن عاطفة الحزن بل عن الندم الشديد . . لقد كان يريد أن يصل إلى المدى الذي يقول عنده الناس عن عمله . . إنه عميق الشعور إنه رقيق الإحساس . .

كان يدرك أنه في أعين الناس ليس أكثر من شخص شاذ لا يصلح لشيء . . شخص ما ليس له مكان في هذه الحياة . . وكان يريد أن يظهر في عمله ما ينطوي عليه قاب مثل هذا الإنسان الغريب الأطوار ، هذا الإنسان الذي لا يصلح لشيء . . وفي أفقر الأكواخ وفي أقذر الأركان كان يرى صوراً وموضوعات للرسم وكلما قدم المزيد من الرسم فقدت الأنواع الأخرى من النشاط أهميتها لديه ، وكلما تخلص منها أسرع في إدراك الصفات القابلة للتصوير في الحياة . . فالفن كان يتطلب المثابرة على العمل . . وأن يعمل على الرغم من أي شيء وقوة ملاحظة مستمرة . . . وكانت الصعوبة الوحيدة التي تواجهه هي ارتفاع أثمان الألوان الزيتية ارتفاعا فاحشا وأنه كان يضع الألوان الزيتية في طبقات كثيفة . . وحينما كان يضغط الأنبوبة لتخرج منها الألوان ويضعها على اللوحة في كتل كبيرة عميقة فكانما كان يصب الفرنسكات في بحر الشمال ، وكان يرسم بسرعة

فائقة حتى أصبحت تكاليف لوحته هائلة وكان يستهلك من الألوان الزيتية في جلسة واحدة ما يكفي موف مدى شهرين كاملين ولم يكن في مقدوره أن يصور بألوان خفيفة ولم يكن في وسعه أن يرسم ببطء وتبخرت نقوده وامتلأ مرسمه بالصور ..

وحالما كان مرتبه يصل من عند ثيو الذي كان قد رتب أن يرسل له خمسين فرنكا مرة في أول الشهر ومرة أخرى في العشرين كان يندفع وهو يعدو إلى التاجر فيشتري أنابيب كبيرة من الألوان الطفلية والأزرق الكوبالت وأزرق بروسيا وأنابيب صغيرة من أصفر نابلي والسيان والازرق اللازوردى والصبغ النفطي ثم يظل يعمل في سعادة حتى ينضب مئبته من الألوان والفرنكات بعد أن يصل مرتبه من باريس بخمسة أو ستة أيام عادة وتبدأ متاعبه من جديد ..

وقد أدهشه أن يكتشف أنه يجب شراء أشياء كثيرة للطفل وأن كريستين تحتاج إلى أدوية بصفة دائمة وإلى ملابس جديدة وإلى أطعمة مخصوصة وأن هيرمان في حاجة إلى شراء كتب وأدوات للمدرسة التي أرسل إليها وأن البيت كان يثرا بلا قرار تبطلع مصابيح وأواني وأغطية ولحما وخشبا وستائر وسجاجيد وشموعا وملامات وأدوات فضية وأطباقا وأثاثا ونهرا ليس له آخر من الطعام .. وكان من الصعب عليه أن يعرف كيف يوزع الخمسين فرنكا بين رسمه وبين الثلاثة الذين يعتمدون عليه في معيشتهم ..

وعلمت كريستين في إحدى المرات عندما رأت فنسنت يختطف الخمسين فرنكا من مظروف ثيو ويبدأ في جمع الأنابيب الفارغة قائلة : مثلك كمثل العامل الذي يندفع إلى حانوت البيرة في ذات اللحظة التي يتناول فيها أجره ..

وأقام آلة جديدة لرسم المنظور تقوم على ساقين طويلتين يمكن تثبيتهما في المضاب الرملية وكلف الحداد بعمل زوايا من الحديد الإطار ، وكانت شفيتهاجن ببحرها وهضابها الرملية وصيادها وسفنهم الشراعية وجيادها وشبا كما تستمويه أكثر من كل شيء ..

وكان يسعى هير الكشبان الرملية كل يوم ، ينوء بحامله الثقيل . . وآلة الرسم المنظور حتى لا تفوته الطبيعة المتغيرة للبحر والسماء . . ولما جاء وقت الخريف وبدأ الفنانون الآخرون يلزمون نيران مراسمهم كان هو يخرج ليرسم في وسط الريح والمطر والضباب والماء وفي أرداد طقس كانت ألوانه التي لم تجف تصبح مغطاة بالرمال التي تحملها الريح والماء المالح.. وكان المطر يبل ثيابه والضباب والريح تبعث في جسده القشعريرة والرمال تدخل في أنفه وعينه ولكنه كان يحب كل لحظة منها . . ولم يكن هناك ما يوقفه عن الرسم ساعتها إلا الموت . .

وفي إحدى الليالي عرض على كريستين لوحة جديدة فقالت له « ولكن يافنسنت كيف يتأتى لك أن تجعلها تبدو واقعية هكذا . . » ونسى فنسنت أنه كان يتحدث إلى امرأة أمية من العامة وصار يتحدث مع فايسنبروخ أو موف وقال . .

— أنا نفسي لا أدرى . . فأنا أجلس ومعى لوحة بيضاء أمام البقعة التي تعجبني وأقول لنفسى هذه اللوحة البيضاء لا بد وأن تصبح شيئا ما . . وأظل أعمل وقتا طويلا وأعود إلى البيت غير راض عما فعلت . . وأضعها بعيدا في الحجرة الصغيرة وبعد أن أحصل على قسط من الراحة أعود فأظفر إليها في شيء من الخوف وأنا مازلت غير راض عنها . . لأن روعة الأصل تكون ساعتها محفورة في مخيلتي بجلاء بحيث لا أرى عما فعلته . . ولكن على الرغم من كل ذلك أعثر في راسي على صدى لما أذهلني وأرى أن الطبيعة قد باحتلى ببنىء ما . . ونحدثت معي وأنا قد نقلت هذا الحديث على اللوحة في إيماز . .

وفي هذا الاختزال الذي اتوقعه ربما أجد كلمات لا تفسير لها وربما وجدت أخطاء وتغرات . . ولكن يبقى بها دائما شيء ما من هذا الذي أخبرني به عن العابات، أو الشاطيء أو الشكل . . أتفهمين ذلك . . ؟

— لا . .

(١٣)

لم تكن كريستين تفهم إلا قليلا عما كان فنسنت يعمله وكانت تعتقد أن مهمته بتصوير الأشياء ضرب من الأفكار الثابتة التي تكلف غالبا . . وأدركت أن الرسم هو الصخرة التي بنيت عليها حياته . . ولم تبذل أية محاولة لمعارضته . . والنتيجة أن التقدم البطيء والتعبير الأليم في عمله ضاعا عليها تماما . . فقد كانت كريستين رفيقة طيبة لأغراض الحياة المنزلية العادية . . ولكن الحياة المادية المنزلية لم تكن تحتل إلا جزءا ضئيلا من حياة فنسنت وعندما كان يرغب في التعبير عن نفسه بالكلمات كان يجد نفسه مضطرا لأن يكتب إلى ثيو وكان يدبج له خطا باعاطفيا طويلا كل ليلة تقريبا يخبره فيه عن كل ما رآه وما صوره وما فكر فيه خلال النهار . . وعندما كانت تساوره الرغبة في أن يستمتع بتبصير الآخرين كان يلجأ إلى الروايات من الفرنسية والإنجليزية والألمانية والهولندية . . كانت كريستين لا تقاسمه في هذا الصدد إلا جزءا يسيرا من حياته ولكنه كان راضيا عن هذا ولم يكن يخالجه الندم على قراره باتخاذ كريستين زوجة له . . ولم يحاول أن يفرض عليها القيام بأعمال ذهنية إذ كان واضحا أنها ليس عندها الاستعداد لهذه الأعمال . .

ولم يكن ثمة بأس بكل هذا خلال شهور الصيف الطويلة والخريف وأوائل الشتاء عندما كان يخرج من البيت مبكرا في الساعة الخامسة والسادسة صباحا ليظل بعيدا عنه حتى يتلاشى ضياء النهار تماما وعندئذ كان يسعى إلى البيت عبر الهضاب في جو الخسق البارد إلا أنه عندما كانت تهب عاصفة ثلجية فظيعة لتحفل بالذكرى السنوية الأولى لانتقائهما في شرب النبيذ أمام محطة الراين وعندما كان فنسنت يضطر إلى العمل في البيت من الصباح حتى يرخي الليل سدوله كان من الصعب أن يحافظا على علاقة مرضية وعاد يرسم من جديد وكان يوفر من النقود التي يصرفها

على الألوان . ولكن الموديلات كانت تلتهم ماله على حساب بيته وأسرتة . .
فقد كان الناس الذين يقبلون أن يعملوا لقاء أجر زهيد في أسوأ نوع
من الأعمال الحفيرة يطلبون مبلغا كبيرا لا شيء إلا ليحضروا ويجلسوا
أمامه وطلب الإذن بالرسم في مصحة الأمراض العقلية ولكن السلطات
صرحت له بأن هذا الأمر لا سابقة له عندهم وفضلا عن هذا فإنهم كانوا
يقيمون طبقات جديدة ولهذا فإنه لم يستطع أن يعمل هناك إلا في أيام
الزيارة . . وكان أمه الوحيد ينحصر في كريستين . . فما إن استردت قواها
وتحسنّت صحتها حتى أصبح ينتظر منها أن تعمل كموديل . . وأن تعمل
بنفس الجهد الذي كانت تبذله قبل مولد الطفل . . ولكن كان لكريستين
رأى آخر . . ففي البداية كانت تقول له إنني لم أسترد قواي تماما . . انتظر
قليلا . . لست في عجلة من أمرك . . وعندما استردت صحتها تماما كانت
تعتقد أنها مشغولة جدا وكانت تقول له . . ليس الحال الآن كما كان من قبل
يا فنسنت، إن علي أن أعتني بالطفل . وعلى أن أحفظ بنظافة البيت كله . .
وأن أطبخ لأربعة أفراد ، وكان فنسنت يستيقظ في الخامسة من صباح كل
يوم ليقوم بأعمال المنزل حتى تنفرغ للوقوف أمامه لرسمها خلال النهار . .
فكانت تحتج قائلة . . . إنني لم أعد موديل يا فنسنت . . إنني زوجتك . .
— سين: يجب أن تقفي أمامي لأرسمك فلم يعد في طاقتي استئجار موديل
كل يوم وهذا أحد الأسباب التي جئت بك من أجلها إلى هنا . .

اجتاحت كريستين نوبة من النوبات التي تفقد فيها السيطرة على أعصابها
التي كثيرا ما كانت تحدث عندما لقيت فنسنت لأول مرة وقالت . .

— هذا كل ما صاحبته من أجله . . لكي توفر المال عن طريق
إنني مجرد خادمة لعينة لك . . وإذا لم أأخذ وضعاً لترسمني فسوف تاتي
بي مرة أخرى إلى قاعة الطريق .
ففكر فنسنت لحظة ثم قال . .

— لقد سمعت كل هذه الأشياء في بيت أمك . . إنك لم تفكرى فيها
من تلقاء نفسك . .

— حسنا . . لماذا إذا فعلت هذا . . إنها الحقيقة أليس
كذلك ؟ . .

— سين : عليك أن تكفى عن الذهاب إلى هناك . .

— لماذا أظن أنى أحب أى أليس كذلك ؟ . .

— ولكنهم يحطمون الروابط التى بنيت بيننا . . وأول ما يجب أن
تعرفيد هو أنهم سيعودون بك إلى الورا بأسلوبهم فى التفكير وأين سيكون
زواجنا إذن . .

— أأست أنت الذى تطلب منى الذهاب إلى هناك حينما يفرغ الطعام
فى البيت . . لتكسب مزيدا من المال . . وعندها لن أعود إلى هناك . .

وعندما تمكن فى النهاية من إقناعها باتخاذ وضع أمامه كانت لا تصالح
للتصوير فقد كانت ترتكب كل الأخطاء التى طالما أجهد نفسه فى حملها
على الإقلاع عنها . طوال السنة الماضية وأحيانا كان يساوره الشك فى أنها
كانت تعتمد الانتفاض والقيام بحركات خرقاء حتى تثير نفوره منها فلا يثقل
عليها بطلب اتخاذها وضعها خاصا بعد ذلك . . وفى النهاية وجد نفسه مضطرا
إلى التخلي عنها . .

ازدادت تفقات الموديلات اللاتى كان يستأجرهن للتصوير فى الخارج
وقد ترتب على ذلك أن تعددت أيضا الأيام التى كانوا يقضونها بلا نقود
يشترون بها الطعام . . وكذلك تعددت الأيام التى كانت كريستين تضطر
فيها لقضائها فى بيت أمها . . وفى كل مرة كانت تعود فيها من هناك كان
يلاحظ تغيرا طفيفا فى قوة تحملها وسلوكها ووجد نفسه محصورا فى هذه
الدائرة الخبيثة فلو أنه أتفق كل دخله على بيته لأمكن له أن ينقذ كريستين
من تأثير أمها عليها ولأمكنه أن يحافظ على علاقتهما هلى أحسن ما يرام .

إلا أنه لو فعل هذا فعليه أن يتغلب على عمله . . فهل ينقذ حياتها ليقضى على حياته هو . . . ؟

وإذا لم تذهب إلى واليتها عدة مرات كل شهر فسوف تموت جوعاً هي والأطفال . . وإذا ذهبت فإنها أخيراً سوف تحطم بيتهم . . فما العمل . . ؟

كريستين مريضة وتحمل طفلاً . . كريستين في المستشفى . . كريستين تسترد عافيتها بعد الوضع كلها صفة لشخص واحد . . امرأة مهمجرة . . يائسة . . شبه ميتة تعسة عظيمة الامتنان لكلمة حنان واحدة ، أو أى فعل يقصد به معاوتها — امرأة عرفت كل الألم . . كله في العالم وعلى استعداد لأن تفعل أى شيء في سبيل أن تتوقف آلامها لحظة واحدة والتي تبذل كل الوعود المحمومة من أجل نفسها ومن أجل الحياة . . أما كريستين عندما استردت عافيتها ثانية ، امتلأ جسمها وتورد وجهها بفعل الطعام الجيد والدواء والرعاية فقد كانت امرأة من نوع آخر . . فقد بدأت تنسى الألم . . ويضعف تصميمها على أن تصير ربة بيت ماهرة وأما طيبة ، وأخذت العادات والأفكار التي عرفتها في حياتها الماضية تعود إليهم تدريجياً . لقد عاشت بلا رابط في الطرقات وسط التراب ودخان السجائر السوداء والألفاظ الساقطة والرجال الخشنيين مدى أربعة عشر عاماً . . وباسترداد قواها الجسدية رجحت الأربعة عشر عاماً التي قضتها في كسل السنة الوحيدة التي عاشتها تحوطها الرعاية والحب الرقيق . . وأخذت تسأل إلى نفسها تغير خبيث لم يستطع فنسنت أن يفهمه في البداية ثم أصبح بالتدريج يدرك ما يدور حوله . . فحوالي هذا الوقت بالذات في بداية العام الجديد تلقى فنسنت خطاباً غريباً من ثيو لقد التقى أخوه في طرقات باريس بامرأة وحيدة مريضة ويائسة . . وكانت تعاني من مرض في قدمها يعوقها عن العمل . . ولقد أرشكت أن تقتل نفسها ولقد أرشد فنسنت ثيو إلى الطريق فحذا حذو أستاذه . . ووجد للمرأة مكاناً في بيت أصدقائه القدامى واستدعى

لها طبيبا قام بفحصها وتكفل بكل نفقات معيشة هذه المرأة وفي خطابات له كان يسميها مريضته . . وقال . .

— هل أتزوج مريضتي يا فنسنت : أهذه خير طريقة لخدمتها . هل على أن أسير في إجراءات الاحتفال القانوني ؟ . . إنها تعاني كثيرا وهي تعسة وقد هجرها الشخص الوحيد الذي أحبه فماذا على أن أفعله حتى أنقذ حياتها ؟

وقد تأثر فنسنت تأثرا عميقا وكتب مبديا عطفه . . ولكن مشكلة كريستين كانت تزداد تفاقمًا كل يوم . إذ كانت تضج بالشكوى حيثما لا يكون بالبيت سوى القهوة والخبز وتمير له في أن يتخلى عن استئجار الموديلات وينفق ماله في شئون البيت . . وعندما كانت تعجز عن امتلاك ثوب جديد كانت تهمل الثوب القديم وتدعه يتلطخ يقع الغمام والقذارة . وكفت عن رفو ثيابه وملابسه الداخلية ومرة أخرى وقعت تحت تأثير أمها التي أقنعتها بأن فنسنت إما أن يهرب منها وإما أن يأتى بها إلى قارعة الطريق، ولما كان ارتباطهما بعلاقة دائمة مستحيلا فما جدوى الاهتمام بالارتباط بعلاقة مؤقتة ؟

هل يمكنه أن ينصح ثيو بأن يقترب بمريضته ؟ . . وهل الزواج الشرعى هو الطريق الأمثل لإنقاذ مثل هؤلاء النساء ؟ أم أن أهم شيء هو سقف يظلمهم وطعام جيد يعود عليهم بالصحة والعافية وحنان يعيدهم ثانية إلى حظيرة حب الحياة ؟ . . وكتب لأخييه عذرا ومهلا . . ابنك كل ما فى وسعك من أجلها . . فهذا دافع نبيل . . ولكن عقد الزواج لن يساعدك بتاتا فإذا قويت أواصر الحب بينكما فسيقوم الزواج أيضا . . ولكن لئلا إذا كنت تستطيع لإنقاذها .

كان ثيو يرسل إليه خمسين فرنكا ثلاث مرات شهريا . . أما الآن فقد بدأت كريستين تحمل في تدبير شئون البيت وأخذت القود تفد في وقت أقل مما كان يحدث من قبل . . وكان فنسنت حريصا على الموديلات حتى يستطيع أن يجمع دراسات كافية لعمل عدة لوحات

واقعية . . وكان يأسف من أجل كل فرنك يجب أن يقطعته من نفقات الرسم ليضيع في البيت وكان قلبها يمتلئ حقدا على كل فرنك يضطر لأخذه من مصروف البيت . ليمتله الرسم . كما أنا يكافحان من أجل العيش . وكانت المائة والخمسون فرنكا كل شهر لا تكاد توفر له الطعام والمأوى فحسب . وكانت محاولة القيام بتوفير العيش لأربعة أشخاص بهذا المبلغ عملا يطول . ولكنه مستحيل . . وبدأ يدين لصاحب البيت وصانع الأحذية . . والبقال . والخباز وبائع الألوان . . ولكي تبلغ متاعبه ذروتها نقصت موارد ثيو . . وكتب له فنسنت خطابات تفيض بالتوسل ويقول فيها أكون شاكرا لو أمكنك أن ترسل المبلغ قبل اليوم العشرين بقليل أو على الأقل ليس بعده ، ليس لدى في البيت سوى فرخين من الورق ولم يبق لدى إلا آخر قطعة من قلم وأنا لا أملك فرنكا واحدا أنفقه على الموديلات أو الطعام . وكان يكتب هذه الخطابات ثلاث مرات كل شهر . . وعندما كانت تصله الفرنكات الخمسون كان يجد نفسه مدينا بها للتجار فلا يبقى لديه شيء يعيش منه في الأيام العشرة التالية . . .

كانت مريضة ثيو في حاجة لإجراء عملية جراحية لاستئصال ورم في قدمها ، وكان على ثيو أن يصحبها إلى مستشفى لا بأس به وفي الوقت نفسه كان يرسل مبلغا من المال إلى أهله في نوين لأن الأبروشية الجديدة كانت صغيرة ولم يكن دخل تيودورس يكفي دائما لتلبية حاجات أسرته . . فكان ثيو يعول نفسه ويعول مريضته وفنسنت وكريستين وهرمان وانتون والأسرة في نوين فكان يستنفد آخر سنتيم من مرقبه ولا يستطيع أن يرسل إلى فنسنت فرنكا آخر . .

وأخيرا حدث في حوالى أوائل مارس أن بقي فنسنت وليس معه إلا فرنك واحد قيمة ورقة مالية ممزقة رفضها التجار من قبل ولم يكن باقيا بالبيت أهمية واحدة ولا يمكن أن يصل المبلغ التالي من ثيو قبل تسعة أيام على الأقل وكان يخشى أشد الخشية من أن يدع كريستين تقع ثانية بين براثن أمها طوال هذه المدة فقال لها :

— سين : إننا لا نستطيع أن نترك الأطفال يتضورون جوعا . .
ومن الأفضل أن تأخذهم إلى بيت والدتك حتى يصل خطاب ثيو وتطلع
أحدهما للآخر لحظة وكانت تدور في ذهن كل منهما نفس الأفكار ولا يجرؤان
على التعبير عنها . .
وقالت . .

— أجل . أرى أنه لا مفر من هذا . .

وأعطاه البقال رغيفا من الخبز الأسود وبعض الجبن مقابل ورقة النقد.
الممزقة وأحضر بعض الموديلات إلى البيت على أن يدفع لمن أجورهن
فيما بعد وأصبح أكثر عصبية وصار عمله صعبا وجافا وكان الجوع يضعف
جسده . . وكانت تبدو عليه آثار المتاعب المالية المتوالية ولم يستطع أن
يعيش بدون عمل . . إلا أن كل ساعة كان يقضيها في العمل كانت تبين
له أنه لا يكسب أرضا . .

وفي نهاية الأيام التسعة وفي اليوم الثلاثين وصله خطاب من ثيو مرفقا
به خمسون فرنكا وكانت مريضته قد شفيت من العملية وألحقها بيت خاص
وكان ينوء بهذا العبء المالي أيضا . . . وتملكه اليأس وقال . . .

— أخشى أنى لا أستطيع ضمان شيء لك في المستقبل . .

هذه العبارة أطارت صواب فنسنت . . هل يعنى ثيو فقط أنه لن
يستطيع أن يرسل أى مبالغ بعد ذلك ؟ إن هذا فى حد ذاته لن يكون بالأمور
السيئة إلى هذه الدرجة، ولكن هل يعنى هذا أن أخاه قد توصل إلى نتيجة بأنه
عاطل عن الموهبة ولا يبشر بشيء فى المستقبل من خلال الرسوم اليومية
التي أرسلها له فنسنت ليريه ما أحرزه من تقدم فى عمله ؟

وأصبح لا ينام بالليل نهبا للقلق . . وكتب خطابا لثيو حالما قال يطلب
منه أيضا ، وأخذ يبحث فى يأس عن وسيلة لكسب عيشه ولكنه لم يجد . .

(١٤)

عندما ذهب لرؤية كريستين وجدها في صحبة والدتها وأخيها وعشيقة
أخيها ورجل غريب . . وكانت تدخن سيجارا أسود وتحسب شراب الجن
ولم يعد على الإطلاق أنها سرت لفكرة العودة إلى شنكفيج . . وقد أعادت
لها الأيام التسعة التي قضتها في بيت أمها عاداتها السيئة القديمة ووسائلها
المدمرة لكسب العيش وصاحت قائلة . .

— في وسمي أن أدخن السجائر إذا شئت . . وليس من حقك أن تمنعني
مادمت أحصل عليها بنفسى . . لقد قال لي الطبيب في المستشفى إنى أستطيع
أن أحتسب ما أشاء من الجن وشراب المر . . .

— أجل كدواء لفتح شهيتك . .

فانفجرت في ضحكة خشنة وقالت . .

— دواء . . يالك من ونطقت بجملة لم تستعملها منذ الأيام
الأولى لتعارفهما .

كان قدسنت قد بلغ حدا يرقى له من الحساسية فانفجرت في فربة من الغضب
الجناح وحذت كريستين حذوه وصرخت قائلة . . إنك لم تعد تهتني بأمرى . .
وأنت لا تعطينى شيئا آكله . . لم لا تكسب مزيدا من المال ، أى نوع
من اللام أنت بحق الجحيم . .

وبينما كان الشتاء القارس يختفى ليحل الربيع المتبرم كانت أحوال
قدسنت تنحدر من موى إلى أسوأ وتراكت عليه الديون ولكنه لم يستطع
أن يملأ معدته بالطعام المغذى ، انعكس هذا عاياه وأصبح لا يستطيع أن يتلح
نقطة واحدة وأثرت أمراض معدته في أسنانه فكان يقضى الليالى صاهرا

يتلفى من الألم وقد تطايرت شظايا هذا الألم فأصابته أذنه اليمنى وكانت طوال النهار تختلج في عصبية . .

وبدأت والدته كريستين تآتى إلى المنزل تشارك ابنتها الشراب والتدخين . . ولم تعد ترى أن كريستين ستكون سعيدة الحظ عندما تتزوج وحدث أزوجد فنسنت شقيقها هناك ولكنه انسل خارجا بمجرد أن دخل فنسنت . .

وسأل فنسنت . .

— لماذا جاء إلى هنا . . ماذا يريد منك . .

يقولون إنك ستلقى بي على قارعة الطريق . .

— إنك تعلمين ياسين أفنى لم أفعل هذا أبدا . . لن أفعل طالما رغبت في البقاء معي . .

— إن أمى تريد منى أن أرحل . . وهى تقول إنه ليس من صالحى أن أبقى هنا دون أن أجد شيئا أتباع به .

— وأين ستذهبين . .

— إلى البيت بالطبع . .

— وتأخذين الأولاد إلى البيت ؟

— هذا أفضل من الموت جوعاً هنا . .

— فى استطاعتى أن أعمل وأكسب عيشى

— وأى عمل ستزاولين . .

— حسن أى عمل . . خادمة أجيرة . . فى أحواض الغسيل . .

أظن . .

— ورأى لتوه أنها كانت تكذب وقال . .

— إذن فهذا ما يغريك على أن تفعله . .

— حسنا . . هذا ليس بالأمر السيء لهذه الدرجة فأنت تكسب
عيشك . . ؟

— اسمي ياسين . . إذا عدت لهذا البيت فأنت ضائعة وأنت تعلمين
أن والدتك سوف ترسل بك إلى الشوارع من جديد ، تذكرى ما قاله لك
الطبيب في ليدن . . إذا عدت إلى هذه الحياة فسوف تقتلين نفسك . .

— إنها لن تقتلنى . . إئتى على أحسن مايرام الآن . .

— إنك تحسبن بالعافية لأنك تعيشين فى حرص . . ولكن لو عدت
ثانية . .

— بحق يسوع من سيعود . . مالم ترسل بى . . إنى . . ؟

وجلس على ذراع مقعدها المصنوع من الأغصان ووضع يده على
كتفها . . كان شعرها مشعثا وقال :

— إذن صدقنى ياسين . . إئتى لن أنخلى عنك أبدا هل فى نيتك مشاركتى
ما أهلك ؟ سوف تقيمين معى ولكن يجب أن تباعدى عن والدتك وأخيك .
فهما سيوردانك موارد التهاكة عدينى من أجلك أنت أفك لن تريهما بعد
الآن . .

— أهدك بذلك . .

وعندما عاد بعد يومين هقب انتباهه من رسم دار البر وجد الرسم
خاليا ولا أثر لطعام العشاء وعثر على كريستين فى بيت أمها تحتسى
الشراب . .

وعندما عاد إلى البيت احتجت قائلة . .

— لقد أخبرتك أنني أحب أُمي . . وأعتقد أنني أستطيع أن أراها متى شئت ، لست ملكاً لك . . ومن حق أن أفعل ما أشاء . .

وانسأقت وراء عاداتها البذيئة التي ألفتها حياتها السابقة . . وعندما كان يحاول أن يقوم اعوجاجها ويقول لها إنها كانت تباعد بينها وبينه كانت تجيب عليه بقولها . .

— نعم إنني أعرف هذا تماماً . . إنك لا تريدني أن أبقى معك . .

فأوضح لها مدى قذارة البيت وشدة إهمالها فقالت . .

— حسناً . . إنني كسول ولا أصلح شيء . . ولقد كنت هكذا دائماً . . وهذا شيء لا سبيل لإصلاحه . . فإذا حاول أن يريها النهاية التي كان كسلها يقودها إليها كان ردها عليه .

— لست إلا امرأة منبوذة . . هذا صحيح . . وسوف أختتم حياتي بإلقاء نفسي في النهر . . وكانت والدتها تآني إلى المرسم تقريبا كل يوم وانتزعت من فنسنت تلك الرفيقة التي كان يقدرها في كريستين . . وأصبح البيت في حالة يرثى لها من الفوضى وأصبحت الوجبات غير منتظمة وسمح لهرمان بأن يهيم على وجهه في ثياب قذرة مهملة . . وأن يمتنع عن الذهاب إلى المدرسة وكلما قل جهد كريستين في العمل كلما أسرفت في التدخين وفي احتساء شرابها من الجن ولم تكن تقول فنسنت من أين حصلت على المال الذي اشترت به هذه الأشياء . .

وأقبل الصيف وخرج فنسنت إلى الخلاء ليرسم مرة أخرى ، وكان هذا يعني مخصصات جديدة من أجل الرسوم والفرش وقماش اللوحات والإطارات والحوامل الأكبر وأبلغه ثيو بتحسين أحوال مريضته . . ولكنه طرأت على علاقته بها مشكلات خطيرة . .

ماذا عليه أن يفعل لهذه المرأة بعد أن استردت صحتها . . ؟

أغلق فنسنت عينيه عن كل شيء يتعلق بحياته الخاصة وواصل الرسم . .
وكان يدرك أن بيته يتحطم على مسمع منه . . وأنه تورط في هوة الكسل
السحيقة التي تردت فيها كريستين وحاول أن يتغلب على يأسه بالانهماك
في العمل .

وفي كل صباح يرسم فيه مشروعا جديدا يراوده الأمل في أن تكون
لوحتة كاملة وجميلة بحيث تباع فوراً . . وتوفر له مطالب الحياة . . كان
في كل ليلة يعود للبيت وهو يدرك في حزن أنه ما تزال أمامه سنوات عديدة
حتى يملك زمام فنه كما كان يطمح في هذا . .

وكان عزاءه الوحيد في الطفل أنتون ، فقد كان الطفل معجزة في
حيويته وكان يلتهم كل شيء يمكن أكله وهو يضحك وينوح ، وكثيرا
ما كان يجلس مع فنسنت في الرسم على الأرض في أحد الأركان وكان
يصبح عند رؤية رسوم فنسنت ثم يجلس بهدوء يتأمل الرسوم المعلقة على
الحائط . . وكان ينمو ويبدش بأنه سيكون طفلا جميلا ممتلئا بالحياة وكلما
قلت عناية كريستين بالطفل كلما ازداد فنسنت حباله . . ورأى في أنتون
الأمل الحقيقي والجزاء الأولي لأحداث الشتاء الماضي .

ولم يزره فايسنبروخ سوى مرة واحدة . .

وعرض عليه فنسنت بعض الرسوم التي أنجزها في السنة الماضية وكان
غير راض عنها بناتا .

فقال له فايسنبروخ . .

يجب ألا يكون إحسانك نحوها هكذا فبعد سنوات طويلة سوف تعيد النظر
في هذه اللوحات الأولى من أعمالك وسوف تدرك أنها كانت صادقة وإنفاذة . .
ما عليك إلا أن تواصل العمل بكل جهد ولا تدع أي شيء يقف في
سبيلك . .

وكان ما أوقفه في النهاية لعلمة تلقاها على وجهه ففي خلال فصل الربيع أخذ مصباحا إلى صانع الآنية الخزفية لإصلاحه فأصر التاجر على أن يأخذ فنسنت إلى البيت بعض الأطباق الجديدة . .

— ولكني لا أملك مالا أدفعه ثمنها . .

— لا بأس . . لا ضرورة للعجلة . . خذها وسدد ثمنها عندما تحصل على المال .

وبعد شهرين طرق باب المرسوم وكان رجلا جسيما له رقبة غليظة كراسه وقال له متسائلا .

— ماذا تقصد بالكذب علي . . لماذا تأخذ بضائمي ولم تسدد ثمنها عندما حصلت على المال طوال هذه المدة ؟ . .

— أنا غاوى الوفاض تماما في هذه اللحظة وسوف أدفع لك حالا أنسلم نقودا . .

— هذا كذب . . لقد أعطيت نقودا لجارن صانع الأحذية . .

— إني مشغول ولا أحب أن يزجني أحد . . سادفع لك حينها أحصل على المال أرجوك أن تخرج . .

— سوف أخرج عندما تعطيني هذا المبلغ . . وليس قبل هذا . .

فدفع فنسنت الرجل نحو الباب في تهور وقال ، آمرا ..

— أخرج من بيتي . .

وكان هذا ما ينتظره البائع فما أن لمس حتم حتى سدد لسكته من قبضته اليمنى إلى وجه فنسنت . . فارتطم بالحائط ثم لطم فنسنت برقة أخرى وألقى به على الأرض وخرج دون أن يفوه بكلمة واحدة .

وكانت كريستين في بيت أمها . .

فزعف أنتون على الأرض وأخذ يربت على وجه فنسنت وهو يبكي ..
وبعد بضع دقائق عاد فنسنت إلى وعيه وجر نفسه على السلم إلى الدور
العلوى ورقد على الفراش .. ولم يلحق وجهه أذى من الضربات ولم يشعر
بأى ألم ولم يجرح نفسه عندما سقط بشدة على الأرض .. ولكن هاتين
الكمتين حطمتا شيئاً في أعماقه وغلبته على أمره .. وكان يعرف
هذا الشيء ..

وعادت كريستين إلى البيت وارتقت درجات السلم إلى الدور العلوى
وكان البيت خالياً من المال والطعام .. وكثيراً ما كانت تعجب كيف
استطاع فنسنت أن يبقى على قيد الحياة .. ورأته راقداً بعرض الفراش
ورأسه وذراعه تتدلى إلى جانب وقدماه تتدليان من الجانب الآخر ..
وسأله ..

- ماذا حدث ؟

- وبعد فترة طويلة وجد القوة ليستدير ويضع رأسه على الوسادة
وقال :

- سين .. لا بد أن أرحل من لاهى ..

- نعم .. أعرف ..

- يجب أن أبعث من هنا .. إلى مكان في الريف إلى درينث .. ربما
فستطيع أن تعيش بنفقات أقل ..
- أقربد أن أصحبك ؟ إن درينث جحر بشع .. ماذا أصنع عندما تنفد
منك النقود ولا تجد ما تبلغ به ؟

- لا أعرف ياسين .. أعتقد أنك لن تأكل ..

- هل تعدنى بأن تنفق الفرقكات المائة والخمسين على مطالب العيش
ولا تنفقاها على الموديلات والألوان ؟

- لا أستطيع ياسين .. فهذه الأشياء لها الأولوية ..

— أجل بالنسبة لك ..

— ولكننا ليست كذلك بالنسبة لك . ولم لا تكون كذلك ؟

— يجب أن أعيش أيضاً يا فنسنت وإني لا أستطيع أن أعيش بدون طعام ..

— وأنا لا أستطيع أن أعيش بدون أن أرسم ..

— حسناً .. إنه مالك . وأنت تأتي في المقدمة ..

فهمت .. هل معك بضع سنتيمات ؟ هيا بنا إلى مشرب النبيذ المواجه لمحطة الرايين .

كان المكان يعبق برائحة النبيذ اللاذع الطعم وكان هذا في وقت متأخر بعد الظهيرة ولكن المصاييح لم تكن قد أضيئت بعد .. وكانت المائدتان اللتان جلسا إليهما متقاربتين لأول مرة كانتا خاليتين وشقت كريستين طريقها إليهما وطلب كل منهما كأساً من النبيذ اللاذع الطعم وجعلت كريستين تاهو بكأسها ونذكر فنسنت كيف أعجبت يداها المعروقتان من العمل حينما كانت تقوم بمثل هذه الحركة على المائدة منذ ما يقرب من عامين .. وقالت بصوت خافت .. لقد قالوا لي إنك ستتركني .. وقد عرفت هذا أيضاً ...

— أنا لا أريد أن أهجرك ياسين ..

— ليس هذا هجراً يا فنسنت .. فأنت لم تفعل لي إلا ما هو خير ..

— إذا كنت مازلت راغبة في مشاركتي العيش فسوف أصحبك معي إلى درينث ..

فهرزت رأسها دون أن تحتاج بأي انفعال وقالت ..

— لا فلايس هناك ما يكفينا نحن الاثنين ..

— إنك تدركين هذا .. أليس كذلك ياسين ؟

— لو كان لدى أكثر لأعطيتك أى شيء . ولكن حينما يتحتم على أن
أختار بين إطعامك وسد نفهم عملى ..

فوضعت يدها على يده وكان فى استطاعته أن يحس بملس بشرتها الحشن
وقالت ..

— لا بأس .. يجب ألا تشعر بالحزن لهذا الأمر . لقد فعلت لى كل
ما فى وسعك وأعتقد أنه قد حان الوقت لىكى تفرق ... وهذا كل
ما فى الأمر ..

— هل تريد أن نتزوج ياسين .. إن كان ذلك يحقق لك السعادة فسوف
أتزوجك وأصحبك معى ..

— لا .. إننى سوف أعيش مع أمى وعلينا جميعا أن نحيا الحياة التى
تروقنا .. وسوف يكون الحال على مايرام .. فأخى سيستأجر بيتا جديدا
للفنائه ولى ..

وارتشف فنسنت كأنه حتى الثمالة وكان يحس بحرارة الرواسب التى
تبقى فى القاع وقال :

— لقد حاولت أن أساعدك ياسين ولقد أحبتك ومنحتك كل الحنان
الذى ينطوى عليه قلبى .. وفى مقابل هذا أريد منك أن تهمنى شيئا واحدا
من أجل .. شيئا واحدا فقط ..
فسأله فى حزن .. ماهو ؟

— لا تعودى مرة أخرى إلى التسكع فى الشوارع .. فهذا كفى
بالقضاء عليك ..

من أجل أنتون لا تعودى إلى تلك الحياة ..

— هل لدينا ما يكفى لشراء كأس أخرى من النبيذ ..
— أجل

وابتلعت نصف محتويات الكأس في جرعة واحدة ، ثم قالت ..
— أنا لا أعرف إلا أنني لا أستطيع أن أكسب ما يكفي وخاصة عندما
يتحتم علي أن أسدد نفقات كل الأطفال .. فإذا كنت سأذرع الطرقات
فهذا لأنه لا مفر من هذا وأيس لأن هذه هي رغبتى ..

— إذا توفر لك ما يكفيك من العمل فهل تعديني بالألا تعودى لهذا
الامر .. أليس كذلك .. ؟

— نعم ولأريب .. أعدك بهذا ..

— سوف أرسل لك نقودا ياسين كل شهر .. وسوف أنفق دائما
على الطفل وأريد منك أن تتيحى فرصة لهذا الولد الصغير ..
— سيكون على مايرام .. تماما كبقية إخوته ..

وكتب فنسنت لثيو يخبره بعزمه على الرحيل إلى الريف ويفصم علاقته
بكريستين .

وأجاب عليه ثيو برجوع البريد بخطاب طواه على ورقة أخرى نقدية
من فئة المائة فرنك ليسدد ديونه وكلمة حارة يدبر بها عن موافقته ..

لقد اختفت مريضتى فى الليلة الماضية .. وأضاف قائلا .. وقد تعافت
الآن تماما ولكن يبدو أننا لم نوفق فى الاهتمام إلى رابطة تناسبنا معا ..
لقد أخذت معها كل شيء ولم تترك لى أى عنوان .. وهذا أحسن
ولأريب .. والآن ها نحن قد أصبحنا أنا وأنت لا يدوقنا شيء ..

وحزم فنسنت كل الأثاث فى الدور العلوى إذ كان يريد أن يعود إلى
لاهاى وفى اليوم السابق لمفره إلى درينث تسلم رسالة وطردها من نيوفين
وكان بالطرد بعض التبغ . وإحدى فطائر الجبن من مصنع أمه ملفوفة فى
ورقة زبدة .. وكتب له والده يسأله ..

— متى ستأتى إلى البيت لترسم هذه الصليبان الخشبية فى المدافن . . ؟ . .
وأدرك فى الحال أنه يريد العودة إلى وطنه . . فقد كان مريضاً يتضور
جوعاً، وكانت أعصابه مهددة منهوك القوى خائر العزيمة . وسوف يعود
وطنه ليرى أمه ويتقضى بضعة أسابيع يسترد فيها صحته وروحه المعنوية
وعامره إحساس بالطمانينة لم يعرفه منذ مشهور طويلة عندما فكر فى ريف
بارابانت وأسوار النباتات الشوكية والمضاب الرملية والعازقين فى
الحقول . .

وصحبته كريستين والطفلان إلى المحطة . . ووقفوا جميعاً على
الرصيف وقد عبجروا عن الكلام وأقبل القطار واستغله فنسنت . . وهناك
وقفت كريستين وهى تضم الطفل إلى صدرها وتمسك بيد هيرمان . .
وأخذ فنسنت يرقبهم . .

تحرك القطار فى ضوء الشمس الساطعة . . واختفت المرأة إلى الأبد
فى ظلمات المحطة القذرة .

الكتاب الرابع

فيونين

(١)

كانت أبروشية نيونين تتألف من طابقين من الأحجار البيضاء وخلفها حديقة كبيرة وكانت هناك أشجار غار وسياج من النباتات وبركة وثلاث من أشجار السنديان المبتورة . . .

وعلى الرغم من أن تعداد سكان نيونين كان ألفين وستمائة نسمة فإن مائة واحدة منهم فقط كانوا من البروتستانت ، وكانت كنيسة تيودوريس صغيرة . . .

وكانت نيونين على بعد خطوة واحدة من السوق الصغيرة الرائجة في مدينة إيتن وكانت نيونين في الحقيقة عنقودا صغيرا من البيوت تصطف على جانبي الطريق الآتي من مدينة أيندهوفن عاصمة المنطقة .

وكان معظم سكانها يعملون فلاحين وفلاحين تتناثر أكوامهم في المروج وكانوا قوماً يخشون الله من الطبقة السكادحة يعيشون طبقا لأساليب ومادات أسلافهم . . .

وأمام الأبروشية وفوق الباب عُلقت هذه الأرقام من الحديد الأسود أو ١٧٦٤ وكان مدخل الباب يؤدي مباشرة إلى الطريق ويوصل إلى قاعة واسعة تقسم المنزل إلى قسمين : ففي الجانب الأيسر الذي يقسم غرفة الطعام والمطبخ كان هناك سلم غير متقن الصنع يؤدي إلى حجرات النوم في الدور العلوي ، وكان فنسنت يشاطر أخاه كور في الحجرة التي تقع فوق غرفة المعيشة ، وعندما استيقظ في الصباح استطاع أن يرى الشمس تشرق على البرج الرقيق لـ كنيسة والده . . . وتلقى في رفق بظلالها الرمادية على البركة . . . وعند غروب الشمس تكون درجات الألوان أكثر عمقا كما تكون عليه في الفجر كان فنسنت يجلس في مقعد بجانب

النافذة ويرقب اللون الذي ينعكس على صفحة مياه البركة الذي يقببه غطاءه
ثقيلاً من الزيت ثم يذوب . . . رويدا رويدا في الغسق . . .

كان فنسنت يحب والديه وكان والدها يبادلانه الحب ، واتخذ ثلاثتهم
قرارات حاسمة بأن يحافظوا على علاقتهم الودية وأن يسود بينهم الوفاق
وكان فنسنت يأكل ملاء بطنه وينام ملاء عينيه . . . وفي بعض الأحيان
كان يخرج للتريض في المروج ولكنه لم يتحدث ولم يرسم ولم يقرأ بتاتا . . .
وكان كل من في البيت دمثا رقيقا في معاملته له كما كان بدوره رقيقا معهم . . .
كانت بينهم رابطة تقسم بالوعي الذاتي . . . قبل أن يهملوا بالحديث كانوا
يقولون لأنفسهم . . .

يجب أن أكون هلى حذر . . . فليست أريد أن أقوض هذا الانسجام . . .
واستمر الانسجام طوال مرض فنسنت ؛ ولم يستطع أن يحس بالراحة في غرفة
يشاركه فيها قوم لا يشكرون على النحو الذي كان يفكر فيه . وعندما قال له
والده مرة سأقرأ رواية « فارست » لجوته وقد ترجمها الأب تن كيت ولهذا
فإنها ان تكون مخالفة للآداب إلى حد كبير . . . أحس فنسنت بغصة في حلقه . . .
لقد جاء إلى البيت لقضاء أجازة قدرها أسبوعان فقط . . . ولكنه أحب
البرابانت . . . وبوده لو أقام هناك . . . كان يحب أن يرسم ببساطة
وهدره من الطبيعة ولا يحاول أن يقول شيئا إلا ما رآه . ولم تكن تساروه
أية رغبة أخرى سوى أن يتعمق في الحياة في قلب الريف وأن يرسم
الحياة الريفية وكما فعل الأب الطيب ملبه . . . أراد أن يعيش مع الفلاحين
ويفهمهم ويصورهم . . .

وكان على يقين تام بأن هناك بعض الناس الذين جذبهم المدينة
وارتبطت بها حياتهم ومع ذلك احتفظوا بانطباعات واضحة عن الريف
وظلوا يشعرون بالحنين طوال حياتهم إلى الحقول والفلاحين . . . ولقد
عرف دائما أنه سوف يعود يوما إلى البرابانت ويبقى فيها إلى الأبد ولكنه
ما كان يستطيع أن يبقى في فيونين إذا لم يرحب به والده .

وقال لأبيه :

- إن الباب إما أن يفتح وإما أن يغلق ... فلنحاول أن نصل إلى نقطة
تلتقى فيها وجهات نظرنا ...

- أجل يا قنسنت ، لشد ما أرغب في هذا ... فأنا أرى أن تصويرك
قد بلغ حدا من الإجادة على أية حال وهذا يسرنى ...

- حسن جداً إذن فقل لي بصراحة ... هل تعتقد أن في وسعنا كلنا
أن نعيش هنا في سلام .

- هل تريد أن أبقى ... ؟

- أجل ..

- إلى متى ؟

- طالما تحب فهذا بينك ومكانك بيننا .

- وإذا اختلفنا؟ ..

- إذن ليس لنا أن نتزعج من أجل هذا .. فلنحاول أن نعيش مع
بعضنا في هدوء ووثام ..

- ولكن ماذا أصنع لتدير مرسوم ؟ فلا ريب أنك لا تريد أن تعمل
في البيت ..

لقد كنت أفكر في هذا ..

- لماذا لا تأخذ غرفة الدواجن التي في الحديقة .. يمكنك أن تستأثر
بها وحدك ولن يضطر إنسان إلى إزعاجك ..

غرفة الدواجن تقع خارج المطبخ بالضبط ولكن لم يكن هناك بينهما
باب مشترك وكانت مضجعا من حجرة لها نافذة صغيرة عالية تعلل على
الحديقة وكانت أرضيتها التي من الطين تنضج دائما بالرطوبة في الشتاء .

- سوف نفعل كمية كبيرة من الأخشاب هنا يا قنسنت ونجفف

المسكان . . ثم فضع أرضية من الخشب حتى تستطيع أن تنعم بالراحة التامة.
فما قولك في هذا ؟ . .

فتطلع فنسنت حوله ورأى غرفة متواضعة تشبه إلى حد كبير أكواخ
الفلاحين التي تتناثر في المروج ورأى أن في إمكانه أن يحولها إلى مرسوم
ريفي حقيقي . .

وقال تيودوروس . .

— إذا كانت هذه النافذة صغيرة جداً فإن لدى الآن بعض الفائض
من المال ونستطيع أن نوسعها . .

— لا . . لا . . إنها لا بأس بها كما هي الآن ، وسوف تتوافق لي نفس
السكبة من الضوء التي تنعكس على الموديل التي كانت ستتوافق لي لو كنت
أرسمه في كوخه الخاص . .

وأحضروا برميلا مشقوبا وأشعلوا ناراً عظيمة وعندما جفت كل الرطوبة
من الجدران والسقف وأصبحت الأرضية الطينية صلبة وضعوا عليها ألواحاً
خشبية، وحمل فنسنت إليها سريريه الصغير ومنضدة ومقعداً وحوامل لوحاته
وسمى رسومه وكتب بالفرشاه اسم « جوخ » بحروف غليظة على الحائط
المدهون باللون الأبيض الذي يقع بجوار المطبخ وأمامها ليصبح « مياه »
الهولندي . .

(٢)

كان أهم أهل نيونين هم النساجون .. وكانوا يقيمون في أكواخ من القش والطين مسقوفة بالغاب . تتألف عموما من حجرتين .. وكانت العائلة تعيش في حجرة لها كوة صغيرة تسمع بأن يتسلل منها شعاع من الضوء . وكانت في الجدران تجاويف مربعة على ارتفاع ثلاث أقدام من الأرض أعدت للسراير ، ومنضدة وبضعة مقاعد وموقد تشعل ناره بالحشب وصوان نير متقن الصنع للأواني والأطباق .. أما الأرض فكانت غير مستوية والجدران من الطين . وفي الغرفة الملحقة وهي في نحو ثلث حجم غرفة المعيشة وفي منتصف ارتفاعها نحتت طنف منحدرية ثبت فيها النول . وكان النساج الذي يعمل بانتظام يستطيع أن ينسج قطعة يبلغ طولها ستين ياردة في الأسبوع . وبينما كان ينسج كان على امرأته أن تطوى له ما ينسجه . وكان النساج يحصل من وراء هذه القطعة من القماش على ربح صاف قدره أربعة فرنكات ونصف في الأسبوع .. وحينما كان يأخذها إلى صاحب المصنع كان يتسلم غالبا الرسالة التي تحتّم عليه ألا يأخذ قطعة أخرى للبيت قبل مرور أسبوع أو أسبوعين ، وقد اكتشف فنسنت من عمال المناجم في البوريناك أنهم يتمتعون بروح مختلفة .. فقد كانوا هادئين ولم يسمع في أي مكان أي شيء مثل الأحاديث الثائرة .. ولسكنهم كانوا يبدون مرحين مثل خيول عربات الركوب أو الأغنام التي تقلها باخرة إلى إنجلترا .. وسرعان ما اكتسب فنسنت صداقتهم فقد وجد أن النساجين ليسوا إلا أرواحا بسيطة لا يطلبون إلا العمل الذي يكفيهم للحصول على البطاطس والبن وشريحة من لحم الخنزير الذي يعيشون عليه بين الحين والآخر ..

ولم يمانعوا في أن يرسمهم وهم يعملون إذ إنه لم يأت أبدا دون أن تخلو يده من قطعة من الحلوى لطفل الأسرة أو من كيس تبغ للجد العجوز .

وقد اكتشف نولا عتيقا من شجر البلوط البنى المائل إلى الاخضر او
حفر عليه تاريخ عام ١٧٣٠، وقرب النول أمام نافذة صغيرة تعال على رقعة
خضراء، كان هناك مقعد لطفل وكان الطفل يجلس فيه وهو يحدق في الماء كول
الطائر ساعات طويلة . .

كانت غرفة صغيرة بائسة لها أرضية من الطين ولكن فستنت وجد فيها
نوعا من الهدوء والجمال حاول أن يسجله في لوحاته

وكان يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح ويقضى اليوم بأكله في الحقول
أو في أكواخ الفلاحين والنساجين . . ومع هؤلاء الناس الذين كانوا يعملون
في الحقول وعلى الأنوال كان يشعر أنه في بيته ولم تكن عبثا هذه الأمسيات
العديدة التي قضاها مع عمال المناجم والحفارين في البقايا النباتية القديمة
والفلاحين بجانب النار .

وباستمرار مشاهداته لحياة الفلاح طوال ساعات النهار أصبحت
تستبويه لدرجة أنه لم يعد يشغل ذهنه بأى شيء آخر . كان يبحث عما
لا يحدث فيما يحدث .

وهاد إليه حبه القديم للرسم من الشكل ولكن مع هذا الحب الآن كان
قلبه يخفق بحب جديد . . للون . . كانت حقول القمح نصف الازرق ذات
لون ذهبي داكن وأحمر قان وبرونزي ذهبي ويرتفع أثره إلى الذروة
بالتناض بين لون السماء الأزرق الكوبالتى .

وفي الخليفة كانت أجساد نساء بالغة الخشونة ممتلئة بالحوية لفحت
الشمس وجوههن وأذرعتهم يرتدين ملابس زرقاء تليق خشنة متربة وقلنسوات
سوداء على هيئة البيرييه ينظرن بها شعرهن القصير .

وعندما كان يأتى وهو يتأرجح بشدة إلى الطريق الرئيسى وقد ثبت على

ظهره حامل صورته وتأبط لوحاته التي لم تجف ألوانها كان شيش النوافذ في كل بيت يفتح قليلا من أسفل وكان يشر بعينين نسائيتين مرتابتين تنفذ صائه في فضول .

وفي البيت اكتشف أن المثل القديم الذي يقول ...
الباب يجب أن يفتح أو يغلق ...

ليس صادقا تماما عند تطبيقه على العلاقات العائلية . . فقد اعتاد باب الهناء العائلي في الأوبرشية أن يظل في وضع غامض لا يمكن تحديد ما إذا كان مفتوحا أم مغلقا إذا كانت أخته إليزابيث تنفر منه وكانت تخشى أن تؤدي غرابة أطواره إلى تعطيم فرصها في الزواج في نيورين . أما ويلين فكانت تحبه ولكنها كانت تعتقد أنه ثقيل الظل . ولم يستطع أن يكتسب صداقة أخيه الأصغر كور إلا فيما بعد .

وكان فلسنت لا يتناول طعامه على مائدة الأسرة بل في أحد الأركان واضعا الطبق في حجره والرسوم التي أنجزها في يومه ملقاة على مقعد أمامه ، وكان يتفحص عمله بعينين نفاذتين ويمزقها أربا لما فيها من أخطاء وقيم رخيصة ولم يتحدث أبدا إلى أفراد الأسرة ، وكانوا بدورهم نادرا ما يخاطبونه ... وكان يلتهم خبزه جافا لأنه كان لا يريد أن يتعود على التورط في شيء . وإذا حدث أن تردد عرضا اسم كاتب عن يحبهم في أثناء الحديث على المائدة كان يلتف لهم ويتحدث معهم لحظة . . ولكنه اكتشف بوجه عام أنه كلما قل ما يقوله كل منهم الآخر كلما كان هذا خيرا لهم جميعا .

(٣)

كان قد مضى عليه نحو شهر عندما بدأ يخامره إحساس عجيب بأن أحدهم يرقبه . وكان يعرف أن أهل نيو فين كانوا يحدقون فيه ، وأن الفلاحين في الحقول قد اعتادوا أن يستندوا إلى فتوسهم ويحدقوا فيه باستغراب ولكن إحساسه في هذه المرة كان مختلفا فقد كان يخامره شعور بأن أحدهم لا يرقبه فحسب ، بل إنه أيضاً يقتفى أثره . وفي الأيام القليلة الأولى حاول أن يتخلص من هذا الشعور وقد نفذ صبره . ولكنه لم يستطع أن يتخلص من الإحساس بأن عينيْن كانتا تخترقان ظهره بنظراتهما النفاذة . . . وكثيرا ما كان يلقى على الحقل حوله نظرة سريعة فاحصة ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا . . . وفي إحدى المرات خيل إليه أنه لمح الطرف الأبيض لشوب امرأة وهو يتوارى خلف شجرة عندما كان يلتفت فجأة . . . وفي مرة أخرى وبينما كان خارجا من بيت أحد النساجين رأى شيئا يسرع في الطريق ومرة ثالثة أيضا وبينما كان يرسم في الغابة ترك حامل صورته وسار إلى الغدير ليشرب وعندما عاد وجد بصمات أصابع على اللون الذي لم يحف .

وقد استغرق نحو أسبوعين حتى استطاع أن يضبط المرأة وكان يقوم برسم الحفارين في المروج وكانت هناك عربة نقل عتيقة مهجورة على مقربة منه . وكانت المرأة تهف خلفها بينما كان يعمل فالتقط حامل صورته ولوحاته فجأة وتظاهر بأنه كان يتأهب للعودة إلى منزله . فأسرعت المرأة مندفعة في طريقهما . . فتبعها دون أن يثير شكوكها ورآها تدخل في البيت المجاور للأبروشية وقال . .

— من يقيم في البيت المجاور لنا من اليسار يا أماء ؟

— عائلة ييجيان . .

— ومن هم ؟

— لا نعرف عنهم كثيرا .. هناك خمس فتيات وأمههم ويبدو أن الأب قد توفي ..

— كيف يبدوون ؟

— من الصعب أن أقول لك .. لأنهم يميلون إلى الغموض ..

— وهل هم من الكاثوليك ؟

— لا .. لأنهم بروتستانت .. وكان الأب راعيا لكنيسة ..

— هل هناك من بين الفتيات من لم تتزوج بعد .. ؟

— أجل .. جميعهن .. لماذا تسأل .. ؟

— إنني أنساءل فقط ومن يعول هذه الأسرة .. ؟

— لا أحد ويبدو أنهم ثريات ..

— أعتقد أنك لا تعرفين اسم أية واحدة .. من الفتيات ؟

فتطلعت إليه أمه في فضول ثم قالت .. لا ..

وفي اليوم التالي ذهب ثانية إلى ذات المسكان في الحقول .. فقد كان يريد ألا تفوته زرقه أشكال الفلاحين التي تبدو في القمح الناضج أو تناقض الأوراق الذابلة في سياج من خشب الزان ..

وكان الناس يرتدون أثوابا من التيل الحشن الذي كانوا ينسجونه بأنفسهم وسدى النول أسود ولحمته زرقاء ويتألف من هذا الخليط نموذج مخطط باللونين الأسود والأزرق وعندما يمتلئون هذا القماش بتأثير الريح والطقس وتصبح كالحلة اللون إلى حد ما فإنه يصير هادئا ورقيقا لا حد له ليكشف عن ألوان لحم الجسد .

وعند الضحى أحس بأن المرأة وراءه مرة أخرى ولمح ثوبها بطرف عينيه في دغل وراء العربة المهجورة .

وغمغم لنفسه قائلاً . . سوف أمسك بها اليوم . حتى ولو اقتضى الأمر
أن أتوقف في وسط هذه الدراسة ، وكان قد تعود على أن يستعجل نتيجة
أى شيء أكثر من أى وقت مضى وأن يصور انطباعه عند النظر الذى يراه
أمامه بضربة عظيمة واحدة يشحنها بطاقة شديدة .

وكان أعظم ما أذهله في الصور الهولندية القديمة هو أنها رسمت بسرعة
وأن أساتذة التصوير تعجلوا رسم شيء بأول ضربة للفرشاة ولم يقوموا
بتنذيبها .

وقد صوروا بسرعة كبيرة لكيلا يمسوا صفاء انطباعهم الأول عن
الحالة التى تصوروها للتصميم . . ونسى كل شيء عن المرأة في فورة عاطفته
الخلقة وعندما تصادف أن ألقي نظره حوله بعد ساعة لاحظ أنها كانت قد
غادرت الدغل وأنها كانت الآن تقف وراء العربية وهم أن يقفز ويمسك
بها ويسألها لماذا كانت تقف أثره طوال هذا الوقت إلا أنه لم يستطع أن
ينزع نفسه من عمله . . وبعد برهة تلفت حوله مرة أخرى ولدهشته لاحظ
أنها كانت تقف أمام العربية وهى تحقق فيه بثبات وكانت هذه هى أولى مرة
تخرج فيها إلى العراء . .

وواصل العمل بأقصى ما يمكنه من حمية وكلما تضاعف جهده كلما بدا له
أن المرأة قريبة المنال . وكلما ازداد إحساسه بلهيب النظرات التى كانت
تخلق فيه من وراء ظهره . .

وأمال حامله قليلاً حتى يحصل على الضوء الكافى ورأى أنها كانت تقف
وسط الحقل في منتصف الطريق بينه وبين العربية وبدأت له كأمراة نومت
تنويمًا مغناطيسياً وتسير وهى نائمة . وافتربت منه خطوة خطوة وكانت
تتوقف في كل خطوة وتحاول أن تمنع نفسها وتتقدم بثبات تدفعها نحوه قوة
لا تستطيع أن تسيطر عليها . وأحس بها وراء ظهره . . فاستدار بسرعة

وأخذ يحدق في عينيها وكان يرأسه على وجهها تعبير محوم ينطق بالرعب ،
وكان يبدو عليها أنها أسيرة عاطفة ضالة لم تستطع أن تكبح جماحها . ولم
تتطلع إلى فنسنت وإنما أخذت تتأمل لوحته وانتظر منها أن تتكلم ولكنها
التزمت الصمت فاستأنف عمله من جديد وأنهى لوحته بكل ما يتفجر في
جسده من قوة ولم تتحرك المرأة وكان في وسعه أن يحس بثوبها وهو يلامس
معطفه . . . كانت ساعة متأخرة من العصر وكانت المرأة قد قضت ساعات
طويلة وهي واقفة في الحقل وكان فنسنت منهوك القوى وأعصابه متوترة إلى
أقصى حد بسبب ما كان من انفعاله في عملية الخلق الفني فنهض واقفا والتفت
إلى المرأة ، وجف ريقها فأخذت تبلل سقفها العليا بلسانها ثم راحت تبلل
الشفة السفلى بالشفة العليا إلا أن اللعاب سرعان ما تبخر وعادت شفهاها
تحترقان من جديد ووضعت يدها على حلقها وبدأ أنها كانت تجد صعوبة في
التنفس وحاولت أن تتكلم ولكنها لم تستطع .

فقال لها . .

— أنا جارك فنسنت فإن جوخ . . ولكني أظن أنك تعرفين هذا . .

فقلت بصوت هامس ضعيف لم يستطع أن يسمعه إلا بصعوبة .

— أجل . .

— أى فتاة من أخوات بيجيان أنت ؟

فارتجفت قليلا وأمسكت بكفه وتمالكت نفسها وحاولت مرة أخرى
أن ترطب شفيتها بلسان جاف .

وبذلت عدة محاولات لتتطرق قبل أن تنجح وقالت :

— مارجو . .

— ولماذا كنت تتبعينى يا مارجو بيجيان ؟ لقد كنت أعرف هذا منذ

عدة أسابيع ..

فأفلتت من شفتيها صرخة مكتومة وأنشبت أظافرها في ذراعيه لتسند
نفسها ثم خرت على الأرض مغشيا عليها .

فجثا فنسنت على ركبتيه ووضع ذراعه تحت رأسها وأزاح الشعر المنسدل
على عينيها وكانت الشمس على وشك المغيب بقرصها الأحمر فوق الحقول .
وكان الفلاحون يسمعون في طريق عودتهم منهوكي القوى . وكان فنسنت
يمفرده مع مارجو فأخذ يتطلع إليها فاحصا . . لم تكن جميلة ولا بد أنها قد
تجاوزت الثلاثين من عمرها وكان ثغرها يتوقف فجأة في الركن الأيسر ولاكن
في الركن الأيمن كان هناك خط رفيع يسير منحدرًا حتى يصل تقريبا إلى
الفك وكانت هناك هالات زرقاء وغضون تحت العينين وكانت البشرة تبدو
على وشك التغمض . . وكان مع فنسنت قليل من الماء في قارورة قبل وجه
مارجو بإحدى الخرق التي اعتاد أن يمسح بها اللون وفجأة فتحت عينيها
المغمضتين ورأى أنهما كاتتا عيني جيلتين عسايتين غامقتين . . فيهما رقة
روحية غامضة تقريبا وغمس أطراف أصابعه في قليل من الماء ومسح بها
وجه مارجو فارتجفت وهي تستند إلى ذراعه وسألها .

— هل أنت الآن أحسن يا مارجو ؟

وهناك رقدت برهة قصيرة وأخذت تتطلع إلى عينيهِ الزرقاوين
المائلتين إلى الخضرة النفاذتين المليستين بالعطف المشربتين بالفهم . . ثم ألقى
بذراعيها حول عنقه ودفنت شفتيها في لحيته في نشيج عنيف بدا أنه انتزع
من أعماق أحشائها .

(٤)

وفي اليوم التالي التقى فنسنت ومارجو في مكان حداده سلفا يبعد قليلا عن القرية وكانت مارجو ترتدى ثوبا من التيل الرقيق له ياقة عالية وتمسك في يدها بقبضة صيفية وعلى الرغم من أنها كانت ما تزال متوترة الأعصاب وهي في صحبته فإنها كانت تبدو أكثر تماسكا لنفسها من قبل . .

وعندما جاءت ألقى فنسنت بلوحة الألوان ولم يكن جمالها يوازي جزءا يسيرا من جمال كاي الرقيق ولكنها كانت امرأة جذابة إذا قورنت بكاي . .

ونهض من مقعده وهو لا يدري ماذا يصنع . فقد كان عادة متحاملا على النساء اللاتي كن يرتدين فساتين ، وكان يميل إلى السيدات اللاتي كن يرتدين سترات وجوفلات وكان يرى أن الطبقة الراقية من نساء هولندا ليس فيهن بصفة خاصة من الجاذبية ما يؤهلن للتصوير وغير جديرات بأن يتطلع إليهن ، وكان يفضل عليهن الفتيات من الخادومات وكن غالبا يشبهن الفتيات اللاتي صورهن « شادران » ، وانحنت مارجو عليه وقبلته ببساطة وبلا تكلف كما لو كانا حبيبين منذ زمن طويل ثم التصقت به وأخذت ترتجف لحظة . . وفرش فنسنت معطفه على الأرض لتجلس عليه وجلس هو على مقعده واستندت مارجو إلى ركبته وأخذت تتطلع إليه وارتمت في عينيها تعبير لم يره من قبل أبدا في هيني امرأة . .

وهتفت قائلة « فنسنت ، لمجرد تلذذها بنطق اسمه . .

وقال وهو لا يدري ماذا يصنع أو يقول . .

— نعم يا مارجو .

— هل أسأت الظن بي في الليلة الماضية ؟

— أسأت الظن بك . . لا . . ولماذا أفعل هذا ؟

— ربما كان من الصعب عليك أن تصدق . . ولكن عندما قبلتك

يا فنسنت بالأمس كانت هذه هي أول مرة أقبل فيها رجلا في حياتي . .

— ولكن لماذا؟ ألم تجرني الحب أبدا؟

— لا ..

— وأأسفاه ..

وران عليها الصمت برهة ثم قالت ..

— أليس كذلك؟ لا ريب أنك أحببت نساء أخريات .. فهل أنا

على خلق؟

— نعم ..

— كثيرات منهن ..؟

— لا .. ثلاث فقط ..

— وهل كن يبادلك الحب؟

— لا يا مارجو .. لم يكن الحب متبادلا ..

— ولكن لا بد أنهن قد أحبينك ..

— لقد كنت دائماً سيء الحظ في الحب ..

فاقتربت منه مارجو واستندت بذراعها على حجره وأخذت تداعب وجهه بأصابع يدها الأخرى وتتحسس عنقه القوي العالى القصبة وفه الممتلئ المنفرج وذقنه المستديرة وسرت في جسدها قشعريرة غريبة فأبعدت أصابعها وغمغمت قائلة ..

— كم أنت قوى .. كل شيء فيك قوى .. ذراعاك وذقنك ولحيتك ..

لم أعرف في حياتي رجلاً مثلك ..

فأمسك بشدة وجهها بين راحتيه إذاستجاب للحب والإثارة اللتين

كان يختلج بهما جسد الفتاة ..

وسأله في قلق ..

— هل تحبني قليلاً؟

— أجل ..

— هل ستقبلنى ؟

.. قبلها ..

— أرجوك .. لا تسيء الظن بى يا فتنت فأنا عاجزة عن كبح جماح
نفسى وأنت ترى أننى قد وقعت فى حبك .. ولم أستطع أن أبتعد
عن طريقك ..

— هل أحببتنى ؟ .. أحمقا قد وقعت فى حبى ؟ ولكن لم ؟

فرممت رأسها وقبلته فى جانب فنه وقالت ..

— هذا هو السبب ..

وجلسا وقد ران عليهما الصمت وكانت مقبرة الفلاحين تبعدهما
قليلا فنذا جبال كان الفلاحون يرقدون رقدتهم الأخيرة فى نفس الحقول التى
كانوا يحرثونها وهم أحياء وكان فتنت يحاول أن يعبر فى لوحته عن بساطة
الموت . مجرد سقوط ورقة فى الخريف . مجرد حفرة فى الأرض يقام عليها
صليب خشبى .. وكانت الحقول حوله حيث تنتهى مساحة الحشائش فى
المدافن خلف الحائط الصغير تصنع خطا أبديا يقابل السماء أشبه ما يكون
بأفق البحر .. وسأله برقة ..

— هل تعلم أى شى عنى يا فتنت ؟

— قليلا جدا ..

— هل أخبروك .. هل أخبرك أحد عن حقيقة عمرى ؟

— لا ..

— حسناً ، إننى فى التاسعة والثلاثين عن عمرى وفى خلال بضع شهور
سوف أتم الأربعين وفى السنوات الخمس الأخيرة كنت أحدث نفسى
قائلة إننى إذا لم يخفق قلبى بحب أحدهم قبل أن تنتهى الثلاثينات من عمرى .
فسوف أقتل نفسى ..

— ولكن الحب أمر يسير يا مارجو ..

— آه .. أهذا مات معتقد .. ؟

— أجل .. إن الصعوبة هو أن يجد الإنسان من يبادل له الحب ..

— لا .. ليس هذا بالأمر السهل في نيونين .. لقد أمضيت عشرين عاما وأنا أتحرق شوقا لحب أى إنسان ولم أستطع أن أحقق هذا أبدا ..
— أبدا ..

فحوت عنه نظراتها وقالت ..

— مرة واحدة .. فقد أحببت صبيا عندما كنت فتاة صغيرة ..
— وبعد ؟

— كان كاثوليكيًا .. وهم أبعدوه ..

— هم ؟

— والدتي وإخوتي ..

وركبت في طين الحقل العميق فتلطخ ثوبها الأبيض الجميل ورضعت
كلتا مرفقيها على فخذيها وأراحت وجهها بين يديها وكانت وكتاه تلامسان
جنبهما برفق ..

— إن حياة المرأة تكون غاوية إذا لم يكن هناك حب يملؤها
يا فانسنت ..

— أعلم هذا ..

— عندما كنت أستيقظ كل صباح كنت أناجي نفسي قائلة .. اليوم
سأعثر ولا ريب على رجل أحبه .. ولم لا .. ؟ إن النساء الأخريات يفعلن
هذا .. ثم يقبل الليل وأجد نفسي نهبا للوحدة والتعاسة صنف لا ينتهي من
الأيام الفارغة يا فانسنت فليس لدى ما أفعله في البيت فعندما أخدم وكانت كل
ساعة تمر أجد نفسي أتحرق شوقا إلى الحب .. وفي كل ليلة كنت أقول
لنفسى « ربما لا تشعرين اليوم بلذة الحياة .. » لقد عشت من أجل هذا
كله .. وظللت أهون على نفسي بالتفكير في أنه لا بد أن يأتى يوما رجل

أحبه بأى وسيلة . وتتابعت أعياد ميلادى .. السابع والثلاثون .. الثامن والثلاثون والتاسع والثلاثون .. وما كنت لأستطيع أن أواجه عيد ميلادى الأربعين دون أن أجرب الحب على الإطلاق .. ثم أتيت أنت يافنسنت . وأخيراً هأنذا أيضاً أذوق الحب ..

كانت صبيحة انتصار كمالو كانت قد أحرزت نصراً عظيماً .. ونهضت وهي تغم شفتيها استعداداً للتقبل فازاح شعرها الناعم خلف أذنيها وعندها ألقت ذراعيها حول عنقه وقبلته ألف قبلة فى كل موضع ..

وبينما كان فنسنت يجلس هناك على مقعد المصور الصغير ولوحة ألوانه إلى جانبه ومقبلة الفلاحين أمامه تماماً وبينما كان يضم المرأة الراكعة بالقرب منه وقد طواه سبل عاطفتها المتدفقة . شعر لأول مرة فى حياته بالمسح الشافى اللذيذ لحب جارف من امرأة .. وارتجف لأنه عرف أنه كان يقف على أرض مقدسة ..

وجالست مارجو على الأرض بين ساقيه وقد وضعت رأسها إلى اللوراء على ركبته وكان خداهما متوهجين وعيناها قلبيان وكانت تنفساتها عميقة وكانت تلتقطها فى صعوبة وفى غمرة حبها المتدفق كانت تبدو صغيرة لم تتجاوز الثلاثين ولم يستطع فنسنت أن يشعر نحوها بأية عاطفة بتاتاً ، فأخذ يتحسس بأصابعه بشرة وجهها الناعمة حتى أطبقت على يده وقبلتها ووضعت راحته على خدنها الملتهب ثم تكلمت بعد صمت دام فترة وقالت فى هدوء :

— إني أعلم أنك لا تحبني .. فهذا أكثر مما أطلب .. كنت أتضرع إلى الله أن يهب لي فرصة أنعم فيها بالحب .. ولم أحلم قط أنه يمكن لأى أحد أن يبادئني الحب .. فلمهم هو أن أحب يافنسنت وليس أن يحبني أحد .. أليس كذلك ؟

وفكر فنسنت فى أرسولا وفى كاي ثم أجاب نعم ..

فحكمت مؤخرة رأسها بركبته وهي تتطلع إلى السماء الزرقاء وقالت :

— وهل ستسمح لي بأن آتي معك ؟ وإذا كنت لا ترغب في الحديث فسوف أكتفي بالجلوس إلى جوارك ولا أفصح في بكلمة واحدة .. فقط دعني بقربك وأهدك أني لن أزعجك أو أتدخل في عملك ..

— في وسعك أن تأتي ولاريب .. ولكن خبريني يا مارجو، إذا كانت نيونين خالية من الرجال فلماذا لم ترحلي عنها وتقومى بزيارة إلى الأهل . ألم يكن معك المال ؟

— أوه نعم .. لدى الكثير من المال .. لقد ترك لي جدي دخلا طيبا ..
— إذن فلماذا لم تذهبي إلى أمستردام أو لاهاي ؟ كان يمكنك أن تقابلي بعض الرجال الظرفاء ..

— لقد منعوني من تنفيذ هذا ..

— لم تزوج واحدة من شقيقاتك .. أليس كذلك ؟

— نعم يا عزيزي نحن الخمسة لم نزوج ..

فأحس بالآلم يسرى في جسده .. كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي نادته فيها امرأة بقولها " يا عزيزي " ، لقد عرف من قبل مدى النعاسة التي يحس بها المرء حينما يحب شخصا لا يبادل له الحب .. ولكنه لم يخامره الشك قط في العذوبة الكاملة التي يحس بها عندما يجد امرأة طيبة تحبه بكل كيائها .. وكان يعتبر حب مارجو له حادثا غريباً لم يكن طرفا فيه ولكن هذه الكلمة البسيطة التي نطقت بها مارجو بهدوء وله غيرت حالته العقلية كلها فضم مارجو إليه واحتضن جسدها المرتجف .

وغمغمت قائلة ..

— ففلسنت .. فلسنت .. كم أحبك ..

— ما أغرب أن أسمعك تقوين كم أحبك ..

— لا يهمني الآن أني قد عشت كل هذه السنين دون أن اعرف

الحب . . فأنت يا أعز مخلوق عندي كنت تستحق الانتظار . وفي كل
أحلامي عن الحب لم أتصور أبداً أنه كان من الممكن أن يكون شعوري
نحو أي إنسان مثل شعوري نحوك . .

— وأنا أيضاً أحبك يا مارجو . .

سحببت نفسي من بين ذراعيه قليلاً وقالت . .

— لست في حاجة لأن تقول هذا يا فتنت . . قد يحدث بعد فترة من
الوقت أن تميل إلى قليلاً . . أما الآن فكل ما أظلمه منك هو أن
تدعني أحبك . .

وانسلت من بين ذراعيه وأزاحت معطفه جانباً وجاست ثم قالت . .

— عد إلى عملي يا عزيزي . . ينبغي لي ألا أقف في طريقك . .
وأنا أحب أن أأملك وأنت ترسم . .

* * *

(٥)

كانت مارجو تصحب فنسنت كل يوم تقريباً كان يخرج فيه ليرسم ..
وفي معظم الأحيان كان يسير عشرة كيلومترات حتى يصل إلى ذات البقعة
من المرج التي كان يرغب في أن يصورها وكانا يصلان معاً وقد أنهكت
قواهما وهدهما التعب من أثر الحرارة ولكن مارجو لم تجأ أبداً بالشكوى
فقد طرأ على المرأة تحول مروع ..

فشعرها الذي كان أسمر كلون جلد الفأر أصبح أشقر زاهي اللون
وشفتاها اللتان كانتا رقيقتين جافتين أصبحتا مليئتين حمراوين وبشرتها
التي كانت جافة وتكاد تكون مليئة بالتجاعيد غدت الآن ناعمة رقيقة دافئة
وبدت عيناها أكثر انساعاً عما كانتا عليه من قبل .. وبرز ثدياها ..
واكتسب صوتها جرساً جديداً وصارت خطواتها قوية تتفجر منها
الحوية .. لقد فجر الحب في داخلها نبعا غريباً وأصبحت تسبح دراما في
أكسير الحب الذي يفيض منه .. وكانت تحضر معها غذاء لا يتوقعه حتى
ترضيه وترسل إلى باريس لإحضار بعض الصور التي كان قد أبدى إعجابه بها
في سياق الكلام .. ولم تتطفل أبداً على عمله .. وعندما كان يصور كانت
تجلس إلى جواره في صمت تام غارقة في نفس العاطفة الجياشة التي كان
يشيعها في لوحاته ..

ولم تكن مارجو تعرف شيئاً عن الرسم ولكنها كانت ذات بديهة
سريعة وحساسة وكان لديها المقدرة على أن تقول الكلمة المناسبة في
اللحظة المناسبة ..

ووجد فنسنت أنها كانت تفهم دون أن تعرف هذا .. وأحدثت في
نفسه تأثيراً كأنه الكريمونا الذي أتلفه إهمال المصلحين .. وقال لنفسه ..

— لو أنني قابلتها منذ عشر سنوات فقط.

وسألته ذات يوم وهو يتأهب للبدء في لوحة جديدة ..

— كيف يتسنى لك أن تعرف أن البقعة التي اخترتها سوف تصلح
للتصوير على اللوحة؟

فذكر فنسنت برهة ثم أجاب ..

— إذا أردت أن أكون إيجابيا فيجب ألا أخشى الفشل فعندما أرى
لوحة بيضاء تحمق في بشيء من البلاهة فإن ما أفعله هو أن أطرح
عليها شيئا ..

— لا ريب أنك تطرح شيئا فلم أر قط في حياتي شيئا ينمو أسرع
من نمو لوحاتك ..

— حسن .. إن علي أن أفعل هذا فأنا أشعر بأنى سأصاب بالفشل
من اللوحة البيضاء التي تحق في .. وتقول لي « أنت لا تعرف شيئا .. »
— أتعنى أنه نوع من التحدى ..

— تماما .. فاللوحة البيضاء تحق في كمال بلهاء ولكنى أعلم أنها تخشى
الرسام جياش العاطفة الذي يجرؤ فيحطم مرة سحر عبارة « أنت لا تستطيع .. »
فالحياة نفسها تقلب أمام الإنسان صفحة بيضاء فارغة مشبعة للهمة لا أمل
فيها لا يكتب عليها يا مارجو أكثر مما هو مرسوم على هذه اللوحة البيضاء ..
— أجل هذا حق ..

— ولكن الرجل المؤمن النشط لا يهرب هذا الفراغ بل يقتحمه
ويعمل ويبنى ويخاق وفي النهاية لا تعود اللوحة فارغة وإنما تغطيها صورة
الحياة الثرية ..

كان فنسنت يستمتع بحب مارجو له .. ولم تنظر إليه أبدا بعينين
ناقدين. كل ما كان يفعله كانت تراه صوابا ولم تقل له أبدا إن أخلاقه كانت
غير مهذبة وإن صوته كان أجش وإنه كانت في وجهه خطوط غليظة .
ولم تله أبدا على أنه كان لا يكسب مالا ولم تقترح عليه أن يفعل أى شيء
غير الرسم وعندما كانا يسيران عائدتين إلى البيت في هدوء الغسق وذراعه
ملتفة حول وسطها وصوته رقيق من تأثير عطفها عليه كان يقول لها عن

كل الأشياء التي قام بها ولماذا كان يفضل تصوير الفلاحة وهي ترتدى ثياب الحداد عن رسم العمدة ولماذا كان يرى أن فتاة قروية في تنورتها وصدرتها الزرقاوين الملوئتين بالتراب والملطختين بالبقع أجمل في نظره من أى سيدة ولم يجادله في أى شيء وكانت تتقبل منه كل ما يقول كانت تحبه هو حياً جما ..

ولم يستطع فنسنت أن يعود على وضعه الجديد وكان يتوقع كل يوم أن تنفصم هذه العلاقة وأن تصبح مارجو قاسية عديمة الرحمة وأن تواجهه بفشله .. ولكن حبها أخذ يتزايد مع نضوج الثمار في الصيف وكانت تضفي عليه من العطف التام والعبادة ما لا تستطيع أن تمنحه إلا امرأة ناضجة وعندما لم يرضه أنها لم تنقلب عليه بإرادتها حارل أن يحرضها على لومه بتصوير لوحاته الفاشلة بحيث تبدو سوداء بقدر المستطاع ولكنها لم تر أنها كانت لوحات فاشلة ، بل رأت أنها كانت تعبيرات بسيطة أوضح لماذا فعل ما كان عليه أن يقوم به .

وأخبرها بقصة فشله في أمستردام وفي البوريناج وقال لها :
— لقد كان هذا فشلاً ولا ريب . كل ما فعلته كان خطأ ، والآن مارأيك ألم يكن كذلك ؟ فابتسمت له في عطف وقالت :
— إن الملك لا يخطئ ..

وفي يوم آخر قالت .. إن والدتي تقول لى إنك رجل شرير .. وقد بلغها أنك كنت تعيش فى لاهاى مع نساء ساقطات فقلت لهم إنه أفك وبهتان أنيم ..

فقص عليها فنسنت حكاية كريستين فاستمعت له مارجو بشيء من الحزن والأسى فى عينيها .. ذلك الأسى الذى كان يبدو فى نظراتها قبل أن يبدده الحب ، وقالت :

— أتدرى يا فنسنت أن بك شيئاً من أخلاق المسيح .. وإبنى لوائقة أن هذا كان ما سيراه أبى أيضاً ..

— أهذا كل ما يمكنك أن تجديه من كلمات تقولينها لي عندما أخبرك
أنى عشت عامين مع إحدى المومسات ..

— إنها لم تكن مومسا يا فتنت .. لقد كانت زوجتك وإن فعلك فى
إنقاذها لم يكن خطأ منك وكذلك فشلكم فى إنقاذ البورانين . فرجل
واحد لا يستطيع أن يفعل إلا القليل أمام حضارة بأكملها .

— حقاً إن كريستين كانت زوجتى وقد قلت لأخى ثيو وأنا صغير
إذا لم أستطع أن أعر على زوجة صالحة فسوف أتخذ زوجة سيئة ..
فزوجة سيئة خير من أن أعيش بلا زوجة على الإطلاق .. ، وران عليهما
صمت أثقل عليهما قليلاً فوضوع الزواج لم يعرض أبداً فى حديثهما وقالت
مارجو ..

— هنا شيء واحد آسف له فى مسألة كريستين ، كم كنت أود لو أنى
أفضيت هذين العامين أنعم فيهما بحبك ..

وكف عن محاولة نبذ حبها له وتقبله كشيء محتوم .

وقال لها : عندما كنت صغيراً يا مارجو كنت أعتقد أن الأشياء
رهن بالمصادفات أو الأحداث الصغيرة أو سوء التفاهم الذى لا يقوم
على سبب ولكن عندما تقدم بى العمر بدأت أرى دوافع أعمق وهذا حال
معظم الناس إذ كتب القدر المحتوم أن يبحثوا زمناً طويلاً عن الضوء .

— كما كان على أن أبحث عنك .

ووصلا إلى الباب المنخفض لكوخ أحد الفساجين فضطفت فتسنت على
يدها بحنان ففتحته ابتسامة عذبة تدل على الإذعان حق إنه أخذ يسحب
لماذا شاء القدر أن يحرمه من الحب طوال هذه السنوات ودلفا إلى الكوخ
ذى السقف القش .. وكان الصيف قد انصرم ليحل الخريف وبدأت الأيام
تصبح حالكة الظلام .. وكان هناك مصباح معلق يتدلى فوق النول الذى
كانت تنسج عليه قطعة من القماش الأحمر .. وكان الفساج وزوجته

يرتبان . . وكانت الأشكال السوداء المواجهة للضوء والتي تبرز من لون القماش تلقى ظلالاً على رقائق الخشب الطويلة الرقيقة وعوارش النول وتبادلت مارجو وفنسنت ابتسامة لها مغزى إذ كان قد علمها كيف ترى جوهر الجمال في الأماكن القبيحة . .

وجاء شهر نوفمبر وهو فصل سقوط الأوراق وهندما تساقطت أوراق الأشجار جميعاً في بضعة أيام كانت فيونين كلها تتحدث عن مارجو وفنسنت . . وكانت القرية تحب مارجو وكانت لا تأمن جانب فنسنت وتتوجس منه خيفة . . وحاولت والده مارجو وشقيقاتها الأربعة أن يفصمن هذه العلاقة ولكنها أصرت على أن ما كان بينهما لا يبدو أن يكون مجرد صداقة . وما الضرر إذا ما سارا معاً في الحقول ؟ وكان آل بيجمان يعلمون أن فنسنت لا يستقر في مكان وكانوا يتوقعون وهم على يقين أن يرحل عن القرية يوماً ما ولم يخامرهم القلق كثيراً ولكن أهل القرية لم يهدأوا وقيل مراراً وتكراراً إنه لا يمكن توقع خير من هذا الرجل الغريب الأطوار فان جوخ وإن آل بيجمان سوف يأسفون إذا لم يبعدوا ابنتهم وينقذوها من برائته .

ولم يفهم فنسنت مطلقاً لماذا كان أهل البلدة يكرهونه إلى هذا الحد فهو لم يتدخل في شئون أحد ولم يؤذ أحداً ولم يدرك أى صورة غريبة رسمها للناس في هذه القرية الصغيرة الهادئة التي لم تتغير فيها الحياة في كلمة أو إهادة منذ مئات السنوات . ولم يفقد الأمل في حلمهم على حبه إلا بعد أن اكتشف أنهم كانوا يرونه رجلاً عاطلاً .

وبينما كان يمر يوماً على دين فان دن بيك وهو صاحب حانوت صغير حياه هذا وألقى في وجهه بوجهة نظر أهل القرية . .
فقال :

— لقد أقبل الخريف الآن وولى الطقس الجميل . . أليس كذلك ؟

— نعم

— إن كل إنسان يعتقد أنك ستذهب قريباً إلى العمل .. أليس كذلك ؟
فأزاح فتسنت الحامل المربوط على ظهره إلى وضع يريحه أكثر وقال ..
— أجل .. إننى فى طريقى إلى المرج .

فقال له دين ..

.. لا .. إننى أعنى العمل .. العمل الحقيقى الذى تقوم به طول العام ..
فقال فتسنت بهدوء ..

— إن عملى هو التصوير ..

— إن كل إنسان يعنى عملاً تتقاضى عنه أجراً .. شغلاً ..

— عملى هو أن أذهب إلى الحقول كما ترانى الآن ياسيد فان دن ييك
كما تبيع أنت السلع وتعتبرها مهنتك تماماً ..

— حقاً .. ولكنى أبيع سلعاً ، فهل تبيع أنت ما تصنع ؟

كان كل فرد يتحدث إليه فى القرية يوجه إليه مثل هذا السؤال وكان
قد سئم الإجابة عليه فقال :

— إننى أبيع أحياناً .. فأخى تاجر فى اللوحات الفنية ويشترى منى ..

— يجب أن تذهب إلى العمل ياسيدى .. إذ ليس من الخير أن تتعطل على
هذا النحو فسوف يدركك السكر ولن يكون لديك شىء ..

— أتعطل .. إننى أعمل ضعف الوقت الذى تبقى فيه مخزنك مفتوحاً ..

— أتسمى هذا عملاً .. ؟ أن تجلس وتظل تعبث بالألوان ؟ ليس هذا

إلا عبث أطفال .. لقد وصلت إلى سن لا يجوز معه أن تضيع وقتك ..

كان فتسنت يعلم أن دين فان دن ييك يتحدث بلسان القرية فى هذا
الموضوع وأن العقلية الريفية ترى أن كلتى فان وعامل لا يستويان أبداً
ولم يعد يهتم بما تفكر فيه القرية ولم يعد يراهم أثناء مروره بهم فى
الطرق .. وعندما بلغ عدم ثقتهم به إلى أقصى حد إيجابى وقعت حادثة

أعادت إليه ثانية حب الناس .. فقد كسرت ساق آنا كورنيلا .. وهي تترجل من القطار في محطة هيلبوند ، وحملت بسرعة إلى البيت . وعلى الرغم من أن الطبيب لم يخبر الأسرة بشيء إلا أنه كان يخشى على حياتها .. وألقى فنسنت بعمله جانباً دون أن يفكر في شيء آخر .. وكانت تجربته في البوريناج قد جعلت منه مرضاً ممتازاً وأخذ الطبيب يرقبه مدى نصف ساعة ثم قال .. إنك لأفضل من امرأة ولسوف تكون والدتك بين أيد ماهرة ..

أما أهل نيونين الذين كان في استطاعتهم أن يكونوا كرماء في أوقات الأزمة كما كانوا يستطيعون أن يفسوا في أوقات الملل فقد حضروا إلى الأبروشية يحملون مالد وطاب من الأطعمة والكتب وكلبات المواساة .. وكانوا يحدقون في دهشة بالغة وراؤه يبدل غطاء السرير دون أن يحرك والدته .. وكان يقوم بغسل جسدها ويطعمها ويعتنى بالضهاد الذي في ساقها .. وما كاد يمر أسبوعان حتى كانت القرية قد أعادت النظر كلية بشأن رأيها في فنسنت وعندما كانوا يأتون كان يتحدث معهم بلغتهم وكان حديثهم يدور عن أحسن السبل لتجنب القرحات التي يسببها الفراش وأي الأطعمة ينبغي للمريض أن يتناولها وكيفية المحافظة على تدفئة حجرة المريض وبعد حديثهم معه على هذا النحو وتفاهمهم معه استقر رأيهم على أنه كان إنساناً بغض النظر عن كل اعتبار آخر .. وعندما تحسنت صحة والدته قليلاً وأصبح في مقدوره أن يخرج لرسم فترة قصيرة كل يوم كانوا يخاطبونه باسمه وبابتسامة تفر عنهم أغورهم ولم تعد مصاريح النوافذ تفتح قليلاً من أسفلها واحدة بعد أخرى وهو يسير في طرقات المدينة .. وكانت مارجو إلى جواره طوال هذا الوقت وكانت المرأة الوحيدة التي لم يذهلها مآرأته من إنسانيته وكانا يتحادثان ممسأ في حجرة المريضة يوماً عندما قال فنسنت إن مفتاح كثير من الأشياء هو المعرفة الكاملة لجسم الإنسان ولكن الوصول إلى هذه المعرفة يكلف غالباً ولا ريب وهناك كتاب

رائع في هذا المجال اسمه والتشريح للفنانين ، لجون مارشال .. ولكنه
غالى الثمن ..

— أليس لديك من المال ما تستغنى عنه ؟

— لا وإن يكون لدى حتى أبيع أى شيء ..

— فذسنت إنه ليسعدنى حقاً أن أفرضك بعض المال فأنت تعلم أن لى
دخلاً ثابتاً ولم أستطع أبداً أن أنفقه ..

— هذا كرم منك يا مارجو .. ولكننى لا أستطيع

فلم تلح عليه ولكن بعد مرور أسبوعين نزلته لفافة من لاهى ..
فسألها ..

— ماهذه ؟

— افتحها لترى ما بها .

كانت هناك بطاقة ملصقة بالشريط وكانت اللفافة تحتوى على كتاب
مارشال وقد كتب على البطاقة بمناسبة أسعد أعياد الميلاد كلها ..

فصاح قائلاً ..

— ولكنه ليس عيد ميلادى ..

فضحكت مارجو وقالت ..

— لا .. إنه عيد ميلادى أنا .. عيد ميلادى الأربعون ياقدسنت ..
لقد جعلتى أشعر بحاضر حياتى .. فتكرم وخذه ياعزيزى فأنا اليوم جد
سعيدة ، وبودى أن تشاركنى سعادتى ..

كانا فى مرسمة فى الحديقة ولم يكن هناك إلا ويليمين التى كانت تجلس
مع أمها فى البيت وكان الوقت يقترب من المغيب وكانت الشمس الغاربة
تلون الحائط الأبيض الناصع برقة من الضوء الخافت وأخذ قدسنت يقلب
فى الكتاب برقة . كانت هذه هى أول مرة يرى فيها شخصاً ما غير ثيو يبعد
سعادة فى أن يقدم له العون .. وألقى الكتاب على الفراش وتناول مارجو
بين زراعيه .. وكانت عيناها تذرفان الدموع من فرط حبه وكانا فى

خلال الشهور القليلة المنصرمة لم ينعموا بالمداعبات في الحقول إلا لما فقد
كانا يخشيان العيون ..

وكانت مارجو تستسلم للملاطفاته مسرورة . وفي إذعان كريم وكان
قد مضى على فراقه لسكريستين حتى الآن خمسة شهور .. وكان يشعر ببعض
القلق في الثقة بنفسه إلى حد بعيد .. ولم يكن يريد أن يعترف شيئاً يؤذى
به مارجو أو حباها له وأخذ يتطلع إلى عينيها العسليتين الرقيقتين بينما كان
يقبلها فابتسمت له ثم أغضت عينيها وانفجرت شفتاها قليلاً لتستقبل
شفتيه .. وضم كل منهما الآخر بقوة وقد التصق جسداهما من الشفر إلى
أنحس القدم .. وكان الفرض على بعد خطوة واحدة منهما فجلسا معاً وفي
هذا العناق الثابت نسي كل منهما السنوات الخالية من الحب التي جعلت
حياتهما مجدية ..

وغابت الشمس واختفت رقعة الضوء التي كانت على الجدار وسبحت
حجرة الدواجن في ضوء الخسق اللذيذ ومرت مارجو بيدها على وجه فنسنت
وكانت تصدر من حلقها أصوات غريبة هي لغة الحب .
وأحس فنسنت بنفسه يغمص في قاع هاوية سحيقة ليس لها إلا مخرج
واحد يقذف منه .

وانزع نفسه من بين ذراعي مارجو وقفز واقفاً وسار إلى حامل صوره
وغضن قطعة من الورق كان يرسم عليها وكورها في يده . ولم يكن هناك
صوت يسمع إلا نداء طائر العمق وهو يرفرف على أشجار السنط ورنين
الآجراس المعلقة في رقاب الأبقار العائدة إلى البيت . وبعد لحظة قالت
مارجو ببساطة وهدوء ..

— في إمكانك أن تفعل لو أردت يا عزيزي .

وسألها دون أن يلتفت إليها ..

— لماذا ..

— لأنني أحبك ..

— لن يكون هذا من العوالب ..

— لقد قلت لك من قبل يا فتنت إن الملك لا يخطيء أبداً ..

نخرج فنتسنع جاثياً على إحدى ركبتيه وكانت تضع رأسها على
الوسادة .. ومن جديد لاحظ الحظ الذي كان يمتد من الجانب الأيمن
لثغرها حتى يصل إلى فكها .. وقبله ولثم القنطرة الضيقة لأنفها .. وفتحت
طاقتي أنفها الممتلئتين ومر بشفتيه على بشرة وجهها التي بدت في فضايرة فتاة
تصغرها بعشر سنوات .. وفي ضوء الغسق كانت تبدو وهي مستلقية في
استسلام وذراعاها ملتفتان حول عنقه فائنة وغدت تلك الفتاة الجميلة التي
كان يعرفها الناس ولا ريب وهي في العشرين من عمرها وقال ..

— إنني أحبك أيضاً يامارجو .. لم أكن أعرف هذا من قبل ولكنني
الآن أعرف ..

— جميل منك أن تقول هذا يا عزيزي .. أنا أعرف أنك تميل إلى
قليلاً وأنا أحبك من كل قلبي وهذا يرضيني ..
وكان صوتها رقيقاً حالمًا .. لأنه لم يحبها كما أحب كاي وأرسولا بل إنه
حتى لم يحبها كما كان يحب كريستين ولكنه كان يشعر بعاطفة رقيقة نحو
هذه المرأة التي كانت ترقد بين ذراعيه في استسلام ..

كان يدرك أن الحب يكاد يشمل كل رابطة إنسانية وآلمه شيء في أعماق
نفسه عندما فكر في أنه لم يستطع أن يشعر إلا بالقليل من الحب للمرأة
الوحيدة في هذا العالم التي أحبه حباً لا حد له وتذكر ما عاناه من عذاب
لأن أرسولا وكاي لم تبادلاه الحب .. كان يحترم حب مارجو الجارف
له .. ولكنه بصورة لا يمكن تفسيرها وجدّه عبثاً ممقوتاً وبينما هو راكم
على الأرضية الخشبية لحجرة الدواجن وقد وضع ذراعه تحت رأس المرأة
التي أحبه بقدر ما أحب أرسولا وكاي ، أدرك أخيراً لماذا هربت
منه المرأتان ..

— مارجو إن حياتي بائسة ولكن يسعدني جداً إذا قبلت أن
تشاركيني إياها ..

— أريد أن أشاركك حياتك يا عزيزي .

— فستطيع أن نبقى هنا في فيونين .. أم هل تفضلين أن نخادرها بعد
أن نتزوج ؟

فحككت رأسها في ذراعه وهي تداعبه وقالت ..

— حيثما تذهب ..

(٦)

لم يكونا بأية حال متأهبين لمواجهة العاصفة التي هبت في صباح اليوم عندما أعلننا النبا لعائلتهما .. فبالنسبة لعائلة فان جرخ كانت المشكلة مجرد عجز مالى إذ كيف يتسنى له أن يتخذ لنفسه زوجة وشقيقه ثيو يعوله ؟ وقال له والده ..

— يجب أولاً أن تكسب مالا .. وأن تستقيم في حياتك .. وبعدها يمكنك أن تتزوج .

ولكن ما حدث من اضطراب في الأبروشية لم يكن إلا زوبعة صغيرة إذا قورن بما كان يحدث في البيت المجاور الذى كانت تقيم به النساء . كان لآل ييجمان خمس شقيقات لم يتزوجن جميعاً على استعداد لمواجهة العالم في جبهة صلبة وزواج مارجو سيكون دليلاً حياً أمام القرية على فشل الفتيات الأخريات ..

ورأت مدام ييجمان أنه من الأفضل أن تجنب أربعا من بناتها مزبداً من التعاسة ولا تدع واحدة منهم تنعم وحدها بالسعادة .. وفى ذلك اليوم لم تصحبه مارجو إلى أكواخ النساجين ، وفى ساعة متأخرة من بعد الظهر أفبلت إلى المرسوم وكانت عيناها منتفختين ومتورمتين، وبدت كهلة تجاوزت الأربعين كما لم يحدث من قبل وضمتته إلى صدرها لحظة فى نوع من العناق اليائس .. وقالت له ..

— لقد كن تقولن عليك بفضاعة طوال اليوم .. لم أعرف أنه فى الإمكان وجود رجل يتصف بمثل هذه الأخلاق الذميمة ويبقى على قيد الحياة ..

— كان يجب أن تتوقعى هذا ..

— هذا حق ولكن لم يخطر ببالى أبداً أنهن سيهاجمنك بهذه الطريقة التى تدل على الحقد .

فطوقها بذراعه فى رقة .. وقبلها فى خدها وقال :

- دعيني لي .. سأزوركن الليلة بعد العشاء وربما استطعت إقناعهن بأنى لست هذا الشخص الرهيب الذى يتصورنه ..
- وما إن وطئت قدماه عتبة بيت آل ييجيان حتى عرف أنه قد اجتاز أرضاً أجنبية قريبة وكان يخيم على البيت جو مشحون بالشرخلة سيم من النساء ، جو لم يقتحمه صوت رجل أو وقع قدميه ..
- وقادوه إلى البهو وكان بارداً ورطباً لم يدخله أحد منذ شهور وكان فنسنت يعرف أسماء الشقيقات الأربع ولكنه لم يكاف نفسه هناك رباط الأسماء بالوجوه فقد كن جميعاً صورة كاريكاتورية لما رجو .. وتحدثت الأخت الكبرى التى تدبر المنزل وأخذت على عاتقها مهمة استجوابه وقالت:
- تقول لنا ما رجو إنك ترغب فى الزواج منها ... فهل لنا أن نسأل ماذا حدث لزوجتك فى لاهاي ؟
- فشرح فنسنت لمن علاقته بكريستين فازدادت برودة جو البهو وهبطت بضع درجات ..
- كم عمرك ياسيد فان خوخ ؟ ..
- واحد وثلاثون عاماً ..
- وهل أخبرتك ما رجو بأنها فى ..
- إننى أعرف عمر ما رجو ..
- هل لى أن أسألك كم تكسب من المال ؟
- إننى أنقضى مائة وخمسين فرنكاً فى الشهر ..
- وما مصدر هذا الدخل ؟
- شقيقى يرسله لى ..
- اتعنى أن شقيقك هو الذى يعولك ؟
- لا .. إنه يدفع لى مرتباً شهرياً وفى مقابل هذا يحصل على كل ما أقوم برسمه ..
- وكم باع من هذه الرسوم ؟

— فى الحقيقة لا أستطيع أن أخبرك ..

— حسناً فى وسعى أنا أن أقول لك . لقد أخبرنى والدك أنه لم يبيع حتى الآن لوحة من لوحاتك .

— سيبيعها فيما بعد .. وسوف تدر عليه أضعاف أضعاف ثمنها الآن ..

— هذا أمر فيه نظر وهذا أقل ما يقال . فلتحدث فى الحقائق ..

وأخذت فسدت يدرس وجه الأخت الكبرى الجامد الذى يفتقر إلى الجمال ولم يكن فى استطاعته أن يتوقع أى عطف من هذا الجانب ..

وواصلت حديثها قائلة ..

— وإذا كنت لا تكسب شيئاً فهل لى أن أسألك كيف تتوقع أن تعمل زوجة ؟

— إن شقيقى بمحض اختياره يقامر بمائة وخمسين فرنكاً كل شهر وهذا شأنه هو لا شأنك .. وهو بالنسبة لى سيظل مرتباً ولانى لأعمل مجد وأشقى لى أكسبه . وبإمكانى أنا ومارجو أن نعيش على هذا المرتب لو أحسنا التدبير ..

وصاحت مارجو

— ولكننا لن نكون فى حاجة لهذا ..

فقالت لها شقيقتها الكبرى بلهجة آمرة :

— اسكتى يا مارجو

وقالت لها والدتها ..

— تذكرى يا مارجو أن لدى السلطة لإيقاف ذلك الدخول إذا ما اقترفت ما يشين سمعة أسرتك ..

فابتسمت فسنت وتساءل قائلاً :

— أيعد زواجهما منى عار ؟

— نحن لا نعرف عنك سوى القليل ياسيد فان جوخ . وهذا القليل

الذى نعليه عنك لا يسرك .. فمنذ متى وأنت تعمل كمصور ؟

— منذ ثلاث سنوات ..

— ومع ذلك فأنت لم تنجح بعد .. ترى متى تصل إلى النجاح ؟

— لا أدري .

— ماذا كنت تصنع قبل أن تحترف الرسم ؟ ..

— كنت تاجر فنون ثم مدرساً فبائع كتب ثم طالب لاهوت ثم مبشراً

إنجيلياً .

— وفشلت فيها كلها ؟

— لقد تخليت عنها جميعاً .

— لماذا ؟

— لأنها لا تناسبنى .

— وبعد كم من الوقت سوف تتخلى عن التصوير ؟

فصاحت مارجو :

— إنه لن يفعل ذلك أبداً ..

فقالت الأخت الكبرى ..

— يبدو لى ياسيد فان جوخ أنك متهور إذ ترغب فى الزواج من مارجو

فأنت لا أمل لك فى تبوء مكان بين أقرانك ولا تملك فرنكا باسمك وإيست

لديك وسيلة لكسب فرنك واحد وأنت عاجز عن الصمود فى أى نوع من

الوظائف وأنت تهتم على وجهك كعاطل أفاق .. فكيف تجرؤ على أن

تسمح لشقيقةتنا بأن تزوجك ؟

فتناول فنسنت خلبونه ثم وضعه مرة أخرى وقال :

— إن مارجو تحببني وأنا أحبها ، وأنا أستطيع أن أسعدها وسوف

نعيش هنا سنة أو نحو ذلك ثم نسافر إلى الخارج ولن تلقى منى سوى الحب

والعطف ..

فصاحت إحدى الشقيقات الأخريات وكان لها صوت حاد ..

— بل إنك ستتهجرها . . . لسوف تملأها وتهجرها إلى أحضان امرأة
ساقطة كالتي تركتها في لاهى . . .

وقالت أخرى . . .

— إنك لا تريد الزواج منها إلا من أجل مالها فحسب !

وقالت ثالثة . . .

— ولكنك لن تحصل عليه فوالدت ستحول المرتب مرة أخرى وتنفقه
على الضيعة .

فترقت عينا مارجو بالدموع ، ونهض فنسنت وأدرك أنه لا جدوى
من إضاعة الوقت مع أولئك السليطات . . . إن عليه أن يتزوج مارجو في
آيئد هوفن وأن يرحل فوراً إلى باريس . . . ولم يكن يريد أن يبتعد عن
البرابات في الوقت الحاضر إذ إن عمله هناك لم ينته بعد ولكنه ارتجف
عندما فكر في ترك مارجو في هذا البيت الذي تعيش به هؤلاء النساء
العاقرات . وقاست مارجو في الأيام التالية وبدأ تساقط الجليد . . . واضطر
فنسنت أن يعمل في مرسمه ولم تسمح أسرة بيجيان لمارجو بزيارته . . . فنذ
اللحظة التي كانت تنهض فيها من الفراش في الصباح إلى أن كان يسمح لها
بالتظاهر بالنوم كانت تذكره على سماع أقوال مقذعة ضد فنسنت . . .

لقد عاشت مع أمرتها أربعين عاماً ولم تعرف فنسنت إلا بضعة شهور
وكانت تذكره شقيقاتها لأنها كانت تعلم أنهن قد حطمن حياتها ولكن
السكرامية هي إحدى الأشكال الشديدة للغموض للحب وأحياناً يتولد عنها
إحساس قوى بالواجب .

قال لها فنسنت :

— لست أدري لماذا لا ترحلين معي أو على الأقل لماذا لا تتزوجين

منى هنا دون موافقتهم .

— لأنهن لن يسمحن لي .

— والدتك ؟

— شقيقتي أما والدتي فإنها تجلس وراءهن وتوافق .
— أيها ما تقوله شقيقتك ؟
— هل تذكر ماقلته لك إنني أحببت صبياً عندما كنت صغيرة ؟
— أجل . .

— لقد منعن هذا . أعني شقيقتي ولست أدري لماذا . فطوال حياتي
كن بمنعن هني الأشياء التي كنت أرغب فيها وعندما قررت زيارة أقاربي
في المدينة لم يسمحن لي بالذهاب وعندما أردت أن أقرأ لم يسمحن بدخول
الكتب الجيدة في البيت وفي كل مرة كنت أدعو فيها رجلاً لزيارتنا في البيت
كن يمزقته إرباً بعد مغادرته البيت حتى لا أطيق أبداً النظر إليه مرة أخرى .
وأردت أن أصنع شيئاً نافعاً في حياتي . أردت أن أصبح ممرضة أو أدرس
الموسيقى ولكنهن أبين على ذلك . . وكان علي أن أفكر في نفس الأشياء
التي يفكرن فيها وأن أعيش بالاضبط كما كن يعشن . .
— والآن ؟

— والآن لن يسمحن لي بالزواج منك .
وضاع من صوتهما وانزاعها كثير من الحيوية التي اكتسبتها أخيراً
وجفت شفاتها وبرزت التجاعيد الصغيرة حول عينيها .
— لا تشغلي بالك بهن يا مارجو . سوف نتزوج وسوف يكون هذا
نهاية لآلامك وقد اقترح على أخي كثيراً أن أذهب إلى باريس وسيكون
في استطاعتنا أن نعيش هناك .

ولم تحر جواباً . . وجلست على حافة الفراش وأخذت تمسك في أرض
الغرفة الخشبية ، وتقصت كتفها ، وجلست بجوارها وأخذ يدها في
يده وقال :

— اتخشين الزواج مني دون موافقتي . . ؟
فقلت وكان صوتهما واهناً خالياً من الاقتناع . .

— لا . سأقتل نفسي يا فندنت لو أخذوني منك ، لأننى لا أستطيع أن أتحمّل هذا . لا أطيقه بعد أن أحببتك ، سأقتل نفسي وهذا هو كل ما فى الأمر .

— ليس من الضرورى أن يعلن . فلنفعل هذا أولاً ثم نخبرهن فيما بعد .
— لا أستطيع أن أقف ضدهن . لأن عصبته بالنسبة لى ولا أستطيع أن أحرىهن جميعاً .

— حسناً ، لا تشغلى نفسك بمحاربتهم . ما عليك إلا أن تتزوجى منى وسيكون فى هذا نهاية لهذه المشكلة .

— لن تكون هذه هى النهاية بل إنها ستكون البداية فانت لا تعرف شقيقتى .

— ولىست أريد أن أعرف . . . ولكنى سأحاول معهن مرة أخرى الليلة .

وأدرك أن المحاولة لن تجديه شيئاً منذ اللحظة التى دلف فيها إلى البهو .
كان قد نسى جو المكان القارس .

وقالت الأخت :

— لقد سمعنا كل هذا من قبل يا سيد فان جوخ ، وهذا ان يقنعنا أو يؤثر علينا . . ولقد استقر رأينا فى هذا الموضوع . . إننا نود أن نرى مارجو سعيدة ولكننا لا نريد لها أن تحطم حياتها وقد رأينا أن نمهلك عامين فإذا مرا وكنت ماتزال ترغب فى زواجها فإننا سنسحب اعتراضاتنا .
فقال فندنت :

— عامين .

وقالت مارجو بهدوء :

— لن أكون هنا بعد سنتين .

— وأين ستكونين ؟

— سأكون من الأموات ، سأقتل نفسي إذ لم تسمح لي بأن أتزوج .
وفي أثناء هذا الطوفان من عبارات « كيف تجربين على التفوه بمثل
هذه الألفاظ ؟ » ، ها أنت ترين مدى تأثيره عليها ، هرب ففسدت وكان
لسنوات عدم التوافق أثرها على مارجو ولم تكن أعصابها قوية ولم تكن
صحتها على ما يرام . وكانت روحها المعنوية تنهار مع كل يوم يمر تحت وطأة
هجوم جبهة النساء الخمسة الذي لا هوادة فيه . قد تستطيع فتاة العشرين أن
تكافح وتشق طريقها دون أن تصاب بخدوش ولكن مارجو كانت قد
استنفدت كل ما عندها من مقاومة وقوة وإرادة وبدأت على وجهها التجاعيد
وعادت إلى عينيها تلك النظرات الحزينة القديمة وغدت بشرتها شاحبة خشنة
وازداد عمق الخط الممتد من الجانب الأيمن لشعرها وتبخر الحب الذي كان
يكنه ففسدت لمارجو بزوال حسناتها ولم يكن قد أحبها حقاً أو كان يرغب في
الزواج منها الآن تضاءلت رغبته أكثر من أي وقت مضى . وأحس بالخجل
لقسوته وهذا جعله أشد حماساً في حبه وغزله . ولم يعرف هل أدركت
مشاعره الحقيقية وسألها يوماً عندما استطاعت أن تهرب إلى مرسى
لبضع دقائق .

— هل تحبينني أكثر مما تحبينني يا مارجو ؟
فألقت عليه نظرة تفيض بالدهشة والعتاب وقالت :
— أوه يا ففسدت ؟

— إذن فلماذا تتوين التخلي عني ؟
فألقت بنفسها بين ذراعيه كطفل هذه التعب وخرج صوتها ضائعا
واهنا وهي تقول :

— لو كنت أعتقد أنك تحبني كما أحبك لوقفت أمام العالم أجمع ولكن
حينما لا يعنيك إلا قليلا ... ويعني عندهم الكثير ...
— أنت مخطئة يا مارجو .. فأما أحبك ...
فوضعت أصبعها برفق على شفثيه وقالت :

— لا يا عزيزى .. أنت تردد هذا .. ولكنك لا تحبنى .. وينبغى
ألا تتألم من أجل هذا .. وأنا أريد أن أكون العاشقة التى تمنح القدر
الأكبر من الحب ..

— لماذا لا تنفصلين عنهن وتكونين سيدة نفسك ؟

— من السهل عليك أن تقول هذا ، فأنت قوى وتستطيع أن تصارع
أى إنسان ، ولكنى فى الأربعين ... ولدت فى يونين ولم أذهب قط أبعد
من آيند هوفن ألا ترى يا عزيزى أننى لم أفهم صلتى بأى إنسان أو شىء
فى حياتى .

— أجل .. أرى هذا ..

— لو كان هذا شيئاً أردته يا فنسنت لحاربت من أجلك بكل ما أملك
من قوة واسكنه ليس إلا شيئاً أرغب فيه أنا وفضلاً عن هذا فإنه جاء بعد
فوات الألوان ... والآن انتهت حياتى ...

وخفت صوتها حتى استحال إلى همس ..

فرفع ذقتها بمخنصره وأمسكها بإبهامه .

ورأى الدموع تترقرق فى مآقيها . وقال :

— يا فتاتى العزيزة ، يا عزيزتى الحبيبة مارجو ، فى وسعنا أن نعيش
معاً طوال الحياة وكل ما عليك أن تقولى هو كلمة نعم .. احزمى ملابسك الليلة
بينما أهلك نيام وتستطيعين أن تناوليها لى من النافذة ، وسوف نسير إلى
آيند هوفن ونستقل قطار الصباح الباكر إلى باريس .

— لا جدوى من ذلك يا عزيزى فأنا جزء منهم وهن جزء منى ولكنى
سأخذ طريقى فى النهاية .

— مارجو أنا لا أطيق أن أراك تعسة على هذا النحو ..

فأدارت وجهها نحوه وقد جفت دموعها وابتمست له وقالت :

— لا يا قنسنت . . لأننى سعيدة . . لقد حصلت على ما كنت أتمناه . .
وقد كان رائعا أن أحبك .

فقبلها وأحس بملوحة الدموع على شفيتها ، تلك الدموع التى سالت
على خديها .
وقالت بعد قليل . .

— لقد توقفت سقوط الجليد ، هل تتوى أن تخرج غداً إلى الحقول
لترسم ؟
— أجل . . أظن هذا .

— وأين ستكون ؟ سألحق بك وقت العصر ؟
وفى اليوم التالى أخذ يعمل فى ساعة متأخرة وقد وضع على رأسه
قلنسوة من الفرو وجذب بإحكام بلوزة تيلية حول رقبته ، وكانت السماء
فى المساء بلون الزئبق الممزوج بالذهب . . فوق أشباح الأكواخ التى تقوم
بين كتل من الأدغال الوردية اللون وفوق ورود الحور الصغيرة السوداء
الباقية ، وكانت الأرض من الأمام لونها أخضر باهت يميل إلى البياض
تتفرقا خطوط من التربة السوداء وقصبات الغاب الجافة الشاحبة .
طوال حواف الخندق .

وجاءت مارجو تمشى على عجل عبر الحقل ، وكانت ترتدى نفس الثوب
الابيض الذى كانت ترتديه عندما التقى بها لأول مرة . . وقد ألقت على
كتفها وشاحا ، ولاحظ أن هناك مساحة من التورد فى وجنتيها وكانت تبدو
كالمرأة التى ازدهر جمالها من تأثير الحب منذ بضعة أسابيع فقط وكانت
تحمل فى يدها سلة بها أدوات الحياة .

وألقت ذراعيها حول عنقه وكان فى وسعه أن يحس بدقات قلبها وهو
ينحرق فى عنف وهى تحتضنه فدفع رأسها إلى الخلف وتطلع إلى عينيها
العسليتين وقد اختفت منها نظرات الحزن والأسى .
وسألها . .

— ما الخبر؟ هل حدث شيء؟

— فصرخت قائلة

لا .. لأننى .. لأننى فقط سعيدة للقائك مرة أخرى ..

— ولكن لماذا أتيت فى هذا الثوب الخفيف؟

فران عليها الصمت لحظة ثم قالت :

— يافنسنت .. مهما باعدت بيننا الظروف فإننى أريد منك أن تذكر

شيئاً .. شيئاً واحداً عني .

— ما هو يا مارجو؟

— هو أننى أحبك ! تذكر دائماً أنى أحبك أكثر من أى امرأة

أخرى فى حياتك كلها ..

— ولماذا ترتجفين على هذا النحو؟

— لا شيء .. لقد احتجزونى وهذا هو السبب فى أنى تأخرت فى

الرجوع .. هل أوشكت على الانتهاء؟

— سأنتهى بعد بضع دقائق .

— إذن دعنى أجالس خلفك وأنت تعمل كما تعودت أن أفعل ، وأنت

تعلم يا عزيزى أننى لم أرغب أبداً فى أن أقف فى طريقك أو أكون عقبة

أمامك .. وإنما أردت فقط أن تدعنى أحبك ..

فقال :

— أجل يا مارجو .

ولم يستطع أن يفكر فى شيء آخر يقوله .

— إذن فعد إلى العمل يا حبيبى وانتبه منه .. حتى يتسنى لنا أن نعود

معاً إلى البيت ..

وارتجفت قليلاً فأحكمت لف الوشاح حول كتفها ثم قالت ..

— قبل أن تبدأ يافنسنت فبأنى مرة أخرى قبلة كالتي طبعتها على شفتي

عندما كنت فى مرسلك ... عندما كنا نخلق فى أجواء السعادة وكل منا

بين ذراعى الآخر ..

فقبلها بجنان وجذبت أطراف ثوبها حولها وجلست وراءه . وكانت الشمس قد غابت وأرخت ليل الشتاء القصير سدوله على الأرض المنبسطة وجرفها الهدوء الذى يلف الريف فى المساء .

ورن فى السكون صوت فرقة زجاجة ثم نهضت مارجو على ركبتيها وأطلقت صرخة نصف مكتومة ثم ارتمت على الأرض فى تشنج عنيف فقفز فنسدت وألقى بنفسه أمامها .. كانت عيناها دامتتين وارتسمت على وجهها ابتسامة ساخرة وانتابتها سلسلة من التشنجات السريعة وتصلب جسدها وتقوس إلى الخلف وانثنت ذراعاها .

وانحنى فنسدت على الزجاجة التى كانت ملقاة على الجليد . كانت هناك بقايا مواد بلورية بيضاء ترسبت داخل الفوهة وكانت لرائحة لها .

وحمل مارجو بين ذراعيه وانطلق يجرى بجنون عبر الحقول ، كان على بعد كيلومتر من فيونين ... وكان يخشى أن تموت قبل أن يستطيع الوصول بها إلى القرية .. وكان الوقت قبيل ساعة العشاء وكان الناس يجلسون أمام دورهم ، وأقبل فنسدت من أقصى طرف المدينة وكان عليه أن يجرى وأن يهترق القرية بأكملها وهو يحمل مارجو بين ذراعيه ووصل إلى بيت آل بيجيان ودفع الباب وفتحه بركلة من حذائه ووضع مارجو على الأرض التى فى البهو وأقبلت الأم والشقيقات وهن يهولن وصاح قائلا :

— لقد تناولت مارجو السم ! ، سأحضر الطبيب !
وانطلق يجرى إلى طبيب القرية وسجبه من على مائدة العشاء ،
وسأله الطبيب :

— هل أنت واثق أنه كان الاستركنين ؟

— لأنه يشبهه .

— وهل كانت ماتزال على قيد الحياة عندما حملتها إلى البيت .

— أجل .

وعندما وصلا هناك كانت مارجو تتلوى على الأريكة . وانحنى عليها الطبيب وقال :

— لقد كان الاستر كنين ولاريب ، ولكنها تعاطت معه شيئاً لتقضى على الألم . . ويبدو لي من رائحته أنه صبغة الأميون ، ولم تدرك أنه سوف يكون له فعل الترياق .

وسأله الأم :

— إذن فسوف تعيش يادكتور ؟

— إن أمامها فرصة . . ينبغي أن نحملها إلى أوترخت في الحال . . إذ يجب أن توضع تحت الملاحظة الدقيقة

— هل يمكنك أن تحدد لنا مستشفى تفضله في أوترخت ؟

— لا أعتقد أنه من الحكمة دخولها مستشفى . . ومن الأفضل أن تذهبي بها إلى إحدى المصحات فترة معينة وأنا أعرف مصحة جيدة ، اطلبي تجهيز عربتك فيجب أن نستقل آخر قطار يقوم من أيندهوفن .

ووقف فنسنت ساكناً في ركن مظلم وأحضرت العربّة ووقفت أمام الباب ولف الطبيب مارجو في ملأه وحملها إلى الخارج وتبعته والدتها وشقيقاتها الخمس بينما التزم فنسنت المؤخرة ، وكان أهراد أسرته يقفون أمام الباب المجاور على عتبة الأبروشيته وقد احتشدت القرية بأجمعها أمام بيت آل بيجمان . . وخيم صمت رهيب عندما خرج الطبيب وهو يحمل مارجو بين ذراعيه ثم رفعها إلى العربّة ووقف فنسنت بجوارها وأمسك الطبيب باللجام والتفتت أم مارجو فرأت فنسنت ما يزال واقفاً وصرخت قائلة :

— أنت فعلت هذا ! أنت الذى قتلت ابنتى !

فتطلع الجمهور المحتشد إلى فنسنت وألب الطبيب ظهور الجياد بالسوط وتوارت العربّة خلف العاريق . .

(٧)

كان بين أهل القرية وبين فنسنت ود مفقود قبل أن تكسر ساعد أمه لأنهم كانوا لا يثقون به ولأنهم عجزوا عن فهم أسلوبه في الحياة . ولكنهم لم يصابوه أبداً العداء أما الآن فقد انقلبوا عليه انقلاباً شديداً . واستطاع أن يحس بكرامتهم تحيط به من كل جانب فقد كانوا يديرون له ظهورهم عندما كان يقترب منهم ولم يقبل أحد أن يتحدث إليه أو يزوره وأصبح واحداً من المنبوذين .

ولم يهتم بالامر طالما كان لا يمس سواه — إذ كان النساجون والفلاحون يستقبلونه في أكواعهم كصديق ولكن عندما كف الناس عن الذهاب إلى الأبروشية لرؤية والديه أدرك أنه لا مناص من الرحيل . وعرف فنسنت أن خير ما يفعله هو أن يغادر البرابانت كلية ويدع والديه في سلام ، ولكن إلى أين يذهب ؟ لقد كان البرابانت موطنه وكان يود لو عاش هناك طوال حياته . وكان يريد أن يرسم الفلاحين والنساجين .. ففي هذا وجد المبرر الوحيد لعمله . وعرف أنه من أروع الأشياء التحقق في الجليد ، في الحريف الذي يبدو في الأوراق الذابلة ، وبين الخططة الناضجة في الصيف وفي الربيع وسط الحشائش وأنه شيء رائع أن يبقى ذوقاً بين الحاصدين وبنات الفلاحين في العراء في الصيف وبحوار فار المدهاة في الشتاء وأن يحس أن الحياة التي كانت هكذا دائماً وسوف تظل دائماً على هذا النحو .

وكانت لوحة (أنجيلوس) التي رسمها ميليه أقرب ما استطاع إنسان أن يتوصل إلى خلقه من الأشياء المقدسة . ووجد سذاجة حياة الفلاحين الحقيقة الوحيدة الخالدة .. وكان يجب أن يرسم في الخلاء وفي البقعة نفسها وهناك وكان عليه أن يرسم مئات من حشرات الذباب ويكافح التراب والرمل

وتتعرض اللوحات للتخدوش عندما كان يحملها ساعات طويلة عبر الدوح والنباتات الشوكية .

ولكنه عندما كان يعود كان يعرف أنه كان يقف وجها لوجه أمام الحقيقة وأنه قد اقتبس منها شيئا من بساطتها الأساسية . فإذا كانت لوحاته التي استوحاها من الفلاحين تفرح منها رائحة لحم الخنزير والدخان والبطاطس فإن هذا لم يكن بعيدا عن الصراب وإذا فاحت رائحة روث من اسطبل فهذا دليل على أنه اسطبل وإذا عبقت الحقول برائحة الحنطة الناضجة أو نفاية طيور البحر أو السماد فإن هذا يكون سليما أيضا وحل مشكلته بطريقة بسيطة للغاية فعلى مسافة قصيرة من الطريق كانت الكنيسة الكاثوليكية وبجوار بيت الحارس وكان جوهانوس شافرات حائكا للثياب وكان يعمل بهذه المهنة عندما كان يعنى من خدمة الكنيسة ، وكانت زوجته أدريانا سيدة طيبة فأجرت لنفسه غرفتين وهي تحس بشيء من السرور لأنها استطاعت أن تغفل شيئا للرجل الذي انقلبت عليه القرية كلها وكان يقسم بيت آل شافرات في الوسط عمر كبير وكان على يمين الداخل جناح العائلة وعلى اليسار غرفة جلوس كبيرة تطل على الطريق وإلى الخلف منها غرفة أصغر ، وقد أصبحت غرفة الجلوس مرسمة فنسنت والغرفة التي وراءها مخزنا له . وكان ينام في الدور العلوى في غرفة السطوح المشرقة .. وكان نصفها يستعمل لفشر غسيل أسرة شافرات وكان في النصف الآخر سرير عال ، وكرسی . . وعندما كان الليل يرخى سدوله كان فنسنت يلقى بملابسه على المقعد ويقفز إلى السرير ويدخن حفنة من الطباقي ويتأمل الوهج الذي يذوب في الظلمة ثم يستسلم للنعاس ... ووضع في المرسم لوحاته المصورة بالألوان المائية والطباشير ورسوم لرجال ونساء كانت تتميز بأشكالها الزنجية وأنوفها الفطساء وبمظام الفك البارزة والأذان المريضة وكانت هناك لوحات لنساجين وأنوال يستخدمها نساجون ولساء يدرن الماكوك وفلاحين يزرعون البطاطس ، وكسب صداقة

أخيه كور وصنعا معاً حيوانا وجمعا على الأقل ثلاثين عشا مختلفا من أعشاش الطيور وكل أنواع الفراش والنباتات من المرج وما كوكبات وعجلات للغزل ومدافئ للفراش وآلات للفلاحين وقلنسوات وقبعات قديمة وأحذية خشبية وأطباقا وكل شيء يتصل بحياة الريف بل لإنهما وضعنا شجرة صغيرة في ركن من الأركان الخلفية واستقر ليبدأ العمل .

واكتشف أن عليه أن يضع قليلا من الأصفر اللون حتى يبدو أصفر فاقعا إذا ما وضعه بجوار البنفسجى أو الأزرق المائل إلى البنفسجى ..
وتعلم أيضا أن العزلة هي نوع من السجن ..

وفي مارس كان والده قد سار مسافة كبيرة في الهارى لزيارة مريض من رعايا كنيسة فسقط متكوما على الدرجات الخلفية للأبروشية . وعندما وصات إليه أنا كورنيلا كان قد فارق الحياة .. ودفنوه في الحديقة بالقرب من الكنيسة العتيقة .

وحضرثيو لتشييع الجنازة وفي هذه الليلة جلسا في مرسى فلسنت وأخذنا يتحدثان أولا عن شئون الأسرة ثم عن عمالهما .
وقال ثيو :

— لقد عرض على مبلغ ألف فرنك في الشهر لكي أترك العمل مع محل جوبلز وأذهب إلى محل جديد .

— وهل في نيتك أن تقبله ؟

— لا أعتقد . ، ففي رأيي أن سياستهم ستكون تجارية بحتة ..

— ولكنك كنت تكتب لى وتقول إن جوبلز ...

— أعلم ذلك .. فالسادة أيضا يجرون وراء الأرباح الضخمة إلا أنى قضيت معهم اثني عشر عاما فلم أغير عملى من أجل بضع فرنسات ؟ قد

يضعوني يوما على رأس أحد فروعهم فإذا قاموا بهذا فسوف أبدا في بيع لوحات الانطباعيين .

— الانطباعيون ؟ أعتقد أنني رأيت هذا الاسم مكتوبا في مكان ما .
فمن هم ؟

— أوه . إنهم ليسوا إلا بعض المصورين الناشئين في باريس ، أدوارد مانيه وديجا ورينوار وكلود مونييه وسيسلي وكورييه ولوتريك ، وجوجان وسيزان ، سيرا ...

— من أين حصلوا على هذا الاسم ؟

— من معرض عام ١٨٧٤ في نادار ، وكان لسكلود مونييه لوحة معروضة هناك أطلق عليها اسم " انطباع " . شروق الشمس ، فأطلق ناقد في إحدى الصحف يدعى لويس ليروى عليه معرض الانطباعيين فلصق بهم هذا الاسم .

— هل يستعملون ألوانا مشرقة أو ألوانا قاتمة ؟

— أوه ، ألوانا مشرقة أفهم يفضون الألوان القاتمة .

— إذن فلا أظن أنني أستطيع أن أعمل معهم إذ في نيتي أن أغير طريقة تلويني واسكني سأتجه إلى استخدام الألوان الأشد قتامة بدلا من الألوان الأكثر إشراقا .

— ربما تغير رأيك عندما تبحىء إلى باريس .

— ربما .. وهل يبيع أى واحد منهم شيئا من لوحاته ؟

— إن ديران روبل يبيع أحيانا لوحة مائية ، وهذا كل ما أعرفه عن الجميع .

— إذن كيف يعيشون ؟

— الله وحده يعلم . يذكأهم في الغالب . فروسو يعطى دروسا في السكأن للأطفال ، وجوجان يقترض من أصدقائه القدامى في البورصة ، وسيرا

تعوله والدته ، وميزان يعوله والده .. ولست أدري من أين يحصل الآخرون على المال ..

— وهل تعرفهم جميعا يا ثيو ؟

— إنني أتعرف عليهم شيئا فشيئا ، وقد كنت أحاول إقناع « السادة ، بأن يفردوا لهم ركنا صغيرا لعرض إقتاجهم في محل جوبلز ولكنهم رفضوا أن يلبسوا لوحة لمصور انطباعي بعصا طولها عشرة أقدام .

— يبدو أن هؤلاء الرفاق من النوع الذي يجب أن أقابله اسمع يا ثيو .. إنك لاتصنع شيئا مطلقا لكي أحصل على بعض المتعة بلقاء غيري من المصورين . فسار ثيو إلى النافذة الأمامية للرسم وأخذ يحدق في الرقعة الصغيرة المزروعة بالحشائش والتي كانت تفصل بيت الحارس عن الطريق المؤدى إلى آيندهوفن .

ثم قال :

— تعال إذن إلى باريس لتقيم معي ، ولأرب أنك سوف تنتهي هناك أخيراً إلى شيء .

— لست على استعداد للذهاب الآن .. فأماي بعض العمل الذي يتطلب الإنجاز هنا أولاً ..

— حسن .. إذا بقيت في الريف فلا أمل لك في الاشتراك مع الفنانين من أمثالك .

— ربما كان هذا صحيحا ، إلا أن هناك شيئا واحداً يا ثيو أستطيع أن أفهمه ، فأنت لم توفق أبداً إلى بيع رسم واحد أو صورة واحدة لي والواقع أنك حتى لم تحاول أبداً . والآن هل حاولت ؟

— لا

— ولم لا ؟

— لقد عرضت أعمالك على الخبراء وهم يقولون ...
فهز فنسنت كتفيه وقال :

— أوه .. الخبراء ! إننى أعلم تماما التفاهات التى يتورط فيها معظم الخبراء . لا ريب أنك يجب أن تعلم ياثيو أن آراءهم لا علاقة لها كثيراً بالجودة التى تنطوى عليها إحدى اللوحات .

— حسن ، ما كان ينبغي أن أقول لك هذا . إن لوحاتك يمكن بيعها تقريباً ، ولكن ...

— ثيو ، ثيو ، هذه هى نفس الكلمات التى كنت تكتبها لى بشأن رسولى الأولى من « إيتن » ،

— إنها صداقة يافنسنت ، فأنت تبدو دائماً على وشك الوصول إلى نضوج رائع وأنا أتناول كل رسم جديد بشغف وأرجو أن تكون المعجزة قد حدثت أخيراً . ولكن طالما ...

قاطعه فنسنت وهو يضرب غليونه على المائدة .

— بالنسبة لموضوع صلاحيتها للبيع أو عدم صلاحيتها فهذا منشار قسيم لا أريد أن أحطم عليه أسناني .

— تقول إن لديك عملاً هنا إذن فيها وحاول أن تنميه وكلما أسرعت بالجيء إلى باريس كان هذا خيراً لك ، ولكن إذا كنت فى الوقت نفسه تريد أن يباع لك شيء فأرسل لى صورا بدلاً من هذه الدراسات فليس هناك من يرغب فى شراء دراسات .

— حسن .. من الصعب أن تقول متى يكون الرسم دراسة ومتى يكون لوحة . فلنصور من اللوحات قدر ما نستطيع ياثيو وانتقبل أنفسنا على علاقتنا بكل أخطائنا ومزايانا وأنا أقول ونحن ، لأننى أحصل منك على المال وأنا أعلم مدى ما تتكلف من جهد فى سبيل الحصول عليه من أجل وهذا يعطيك الحق فى أن تعتبر أن نصف العمل من ابتكارك .

فسار ثيو حتى وصل إلى نهاية الحجرة وأخذ يبحث بغطاء قديم للرأس كان معلقاً على شجرة ثم قال :

— أوه .. أما بالنسبة لهذا ...

(٨)

لم يكن فنسنت قد زار الأبروشية قبل وفاة والده إلا زيارات عابرة لتناول العشاء أو لقضاء ساعة في صحبة والديه وبعد تشييع الجنازة أوضحت له شقيقته إيزابث أنه كان شخصاً غير مرغوب فيه بتاتا فقد كانت الأميرة تريد أن تحتفظ بموقف معين وشعرت والدته أنه مسئول عن حياته الخاصة وأن من واجبها أن تقف بجانب بناتها ..

وكان الآن يعيش في وحدة تامة في نيونين ولقد استعاض عن الناس بدراسته للطبيعة .. وقد بدأ بصراع لا يمل لمتابعة الطبيعة ولكن كل شيء جاء مجانباً للصواب .. وانتهى بأن شرع يتكرر في هدوء من لوحة ألوانه وأذعنت له الطبيعة وتبعته صاغرة ..

وهندما كان يحس بالبؤس في وحدته كان يفكر في المنظر الذي جرى في مرسم فايسنبروخ واستحسان المصور السليط اللسان للألم ووجد في مصوره المخلص ميله فلسفة فايسنبروخ في أقوى صورة معبرة :

« لا أريد أبداً أن أكتب جماع الألم لأنه كثيراً ما يكون حافزاً للفنانين على التعبير عما في نفوسهم تعبيراً قوياً ، »

وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين أسرة من الفلاحين تحمل اسم « دى جروت » وتتألف من أم وأب وابن وبنيتين وكلهم كانوا يعملون في الحقول وكان آل جروت كغالبية الفلاحين في البرابانت لهم الحق في أن يطلق عليهم ذوى السحنات السوداء شأنهم شأن عمال المناجم في البوريناج فقد كانت لهم سحنات زنجية وكانت فتحات أنوفهم واسعة ومفرطحة وكانت أنوفهم معقوفة وشفاهم غليظة متدلّية وآذانهم طويلة بارزة . وكانت تقاطعهم بارزة إلى الأمام من الجبهة وكان الرأس صغيراً ومدياً وكانوا يسكنون في كوخ من غرفة واحدة بها تجاويف في الجدران تستخدم للأسرة

وفي منتصف الغرفة كانت هناك منضدة ومقعدان وبضع صناديق ومصباح
معلق يتدلى من السقف الخشن الملىء بالعروق وكانوا يتناولون مع العشاء
قدحا من القهوة السوداء وربما كانوا يتناولون شريحة لحم الخنزير مرة كل
أسبوع . كانوا يزرعون البطاطس ويحرثون الأرض فتخرج البطاطس
وتلك كانت حياتهم كانت ستين دى جروت ابنة حلوة في السابعة عشرة من
عمرها وكانت تضع على رأسها غطاء عريضا أبيض وقت العمل وكانت
ترتدى سترة سوداء لها ياقة بيضاء ..

واعتماد فنسفت أن يزورهم كل مساء وكان هو وستين يضحكان معا فترة
طويلة . وكانت تصبح قائلة :

« انظر .. إني سعيدة جميلة ، إني أستحق الرسم هل أضع قلنسوتي
الجديدة على رأسي من أجلك ياسيدي ..

— لا ياستين .. إنك جميلة كما أنت الآن .

— أنا جميلة ؟

وكانت تنطاق في ضحكات صاخبة وكانت لها عيناان واسعتان باسمتان
وتقاطيع جميلة وكان وجهها ينبض بالحياة . وعندما كانت تنحني لتقطع
حببات البطاطس الكبيرة من الحقل كان يرى في خطوط جسدها من الرشاقة
الأصلية أكثر مما كانت تملكه كاي وقد تعلم أن اللحن الجوهرى في رسم
الشكل هو الحركة وأن أكر خطأ ارتكبه أساتذة الفن القدامى في حق رسم
الأشكال في اللوحات هو أنهم امتنعوا عن رسمها .

« ورسم آل جروت وهم يعزقون الحقل وصورهم وهم يعدون المائدة
في البيت ويا كلون البطاطس المسلوقة وكانت ستين دائما تنظر إليه خلسة
من فوق كتفيه وتمزح معه . وأحيانا كانت ترتدى قلنسوة وباقة نظيفتين
في يوم أحد وتسير معه في الحلاء . وكانت هذه هي التسلية الوحيدة التي كان
يعرفها الفلاحون ، رسالته مرة ..

— هل كانت مارجو ييجمان تحبك ؟
— أجل .

— إذن فلماذا حاولت أن تنتحر ؟
— لأن أسرتها لم تسمح لها بالزواج مني .
— لقد كانت حمقاء . أتعرف ماذا كنت أفعل بدلا من الانتحار ؟
كنت أحبك !

وضحك في وجهه ثم جرت إلى دغل من أشجار الصنوبر . . وظلا
طوال النهار يضحكان ويلهوان بين أشجار الصنوبر ورأهما أرواح آخرون
من المتريعين .

وكانت ستين قد جبلت بطبيعتها على الضحك وأصغر الأشياء التي كان
يقولها فذسنت أو يعملها تجعلها تطلق من بين شفثيها ضحكات صاخبة وكانت
تصارعه وتحاول أن تلقيه على الأرض ، وعندما كانت لا تعجبها الأشياء
التي رسمها في بيتها كانت تسكب عليها القهوة أو تقذف بها في النار وكثيراً
ما كانت تأتي إلى مرسمه وتتخذ وضعا لرسمها وعندما كانت تغادر المرسم
كان المكان يبدو في حالة يرثى لها من الفوضى .

وهكذا مضى الصيف وفي أعقابه الخريف وأقبل الشتاء من جديد . .
واضطر سقوط الجليد فنسنت أن يعمل في مرسمه طوال الوقت وكان أهل
نيواين لا يحبون أن يتخذوا وضعا ليرسمهم ولولا حاجتهم إلى المال لما أقبل
إليه أحد وكان قد قام برسم ما يقرب من تسعين حائكة ثياب لكي يرسم
صورة لمجموعة تتكون من ثلاث حائكات .

وكان يريد أن يرسم عائلة دي جروت وهي تتناول عشاءها المكون
من البطاطس والقهوة ولكن لكي يرسم لهم صورة متقنة شعر بأن عليه
أن يرسم أولا كل فلاح في المنطقة المجاورة ولم يكن القسيس الكاثوليكي
أبدا من المحبذين لتأجير غرفة في بيت حارس الكنيسة للرجل الذي كان

ملحدا وقتاناً معاً . ولكن طالما أن فنسنت كان هادئاً ومودباً فإنه لم يجد سبباً يتذرع به لطرده .

وأقبات يوما أدريانا شافرات إلى مرسمه وقد بدا عليها الانفعال وقالت - الأب باولز يود أن يراك حالا !

وكان الأب أندريا باولز رجلا ضخم الجثة أحمر الوجه وقد ألقى نظرة عجل على المرسم وقرر أنه لم يشاهد في حياته مثل هذه القوضى المجنونة وسأله فنسنت بأدب :

- ماذا أستطيع أن أفعل لك أيها الأب ؟

- أنت لا تستطيع أن تفعل لي شيئا ولكن باستطاعتي أنا أن أفعل لك شيئا ! سوف أحكم عليك من خلال هذا الموضوع بشرط أن تفعل ما يقال لك .

- أي موضوع تشير إليه يا أبي ؟

- إنها كاثوليكية وأنت بروتستانتي ، ولكنني سأحصل لك على إذن خاص من الأسقف . تأهب للزواج خلال بضعة أيام . فتقدم فنسنت إلى الأمام حتى يتأمل الأب باولز في ضوء النهار الذي كان يتسلل من النافذة وقال :

- أخشى أن أقول إنني لا أفهم شيئا يا أبي .

- بل إنك تفهم ما أقول . ولا فائدة من هذا التظاهر بعدم الفهم . إن ستين دي جروت تحمل طفلا ! وشرف هذه العائلة يجب أن يهان . - يا لها من شيطانة !

- يمكنك ولاريب أن تدعو الشيطان وهذا حقاً من عمل الشيطان . - هل أنت واثق من هذا يا أبي ؟ ألسنت مخطئاً ؟

- إنني لا أوجه الاتهام للناس حتى أضع يدي على الدليل الأكيد .

- وهل أخبرتك ستين . . هل قالت لك إنني كنت هذا الرجل ؟

- لا . . لقد رفضت أن تصرح لنا باسمه . .

- إذن فلماذا تخلع على أنا هذا الشرف ؟
- لقد شوهدتنا معاً مراراً .. ألم تكن تحضر إلى هذا المرسوم كثيراً ؟
- بلى .
- ألم تكن تنزه معها بين الحقول يوم الأحد ؟
- بلى . . لقد فعلت هذا .
- حسن . . أى دليل أعظم من هذا أحتاج إليه ؟
- فضل فذسنت صامتاً برهة ثم قال بهدوء :
- يوسفنى أن أسمع منك هذا أيها الأب وخاصة إذا كان سيجر المتاعب على صديقتى ستين ولستنى أؤكد لك أن علاقتى بها كانت فوق مستوى الشبهات . .
- أتوقع منى أن أصدق هذا ؟
- فأجاب فذسنت :
- لا . . إننى لا أتوقع هذا منك .
- وعندما عادت ستين فى تلك الليلة من الحقول كان فى انتظارها على عتبة كوخهم وكانت بقية الأسرة قد دخلت لتناول طعام العشاء فتمالك ستين بجواره وقالت :
- سوف أجيء لك بشخص آخر قريباً لترسمه .
- إذن فهذا صحيح يا ستين ؟
- طبعاً . . هل تريد أن تتحسسها ؟
- وتناولت يده ووضعتها على بطنها .
- وشعر بتضخم بطنها وقال لها :
- لقد أخبرنى الأب بأولز منذ قليل بأننى والد الطفل .
- فضحكت ستين وقالت :
- كنت أتمنى لو كنت السبب ولستنى لم ترغب فى ذلك قط . هل أنا مخبطة ؟
- فتطلع إلى العرق الناشء من سيرها فى الحقول والذي كان يغطى

بشرتها الداكنة وإلى تقاطيعها الغليظة غير المستقيمة وأنفها الكبير دوشتيها
الممتلئتين .

ابتسمت له فقال :

— كنت أود هذا أنا أيضاً يا ستين .

وقالت له .

— إذن فالأب باولز قال .. إلك أباه . هذا أمر مضحك .

— وماذا يضحك في هذا ؟

— هل تسكنتم سرى ؟

— أعدك بهذا .

— إنه من رجال كنيسته .

فاطلق فنسنت صغيراً وقال :

— وهل تعلم أسرتك بهذا ؟

— لا بالطبع ، ولن أخبرهم بذلك أبدا ... ولكنهم يعلمون أنك

أنت المستول ...

فداف فنسنت إلى داخل الكوخ ولم يلحظ تغييراً في الجو إذ تقبل
آل دي جروت مسألة حمل ستين بنفس الروح التي كانوا يستقبلون بها حمل
البقرة في الحقل ولم تتغير معاملتهم له عما كانت عليه من قبل وأدرك أنهم
كانوا يؤمنون ببراءته .

ولكن القرية لم تشاركهم هذا الرأي ، فقد كانت أدريانا تنصت على
الباب وسرعان ما نقلت الأخبار إلى جيرانها وإن هي إلا ساعة حتى علم
ألفان وستمائة من سكان نيونين أن دي جروت سوف تلازم الفراش حتى
تضع طفل فنسنت وأن الأب باولز سوف يكرهما على الزواج .

كان نوفمبر قد حل منذراً بالشتاء وأن له أن يرحل إذ إنه لم ير فائدة في
بقائه بعد ذلك بنيونين فقد رسم كل شيء يستحق الرسم في القرية وتعلم كل
شيء يجب أن يعرفه عن حياة الفلاحين وكان لا يعتقد أنه يستطيع أن يعيش

في مواجهة حقد القرية وانضج له أنه قد آن له أن يرحل ولكن إلى أين يذهب .

وطرقت أدريانا الباب ثم قالت له بحزن :

— يا سيد فان جوخ ... يقول الأب باولز إن عليك أن تغادر هذا البيت حالا وتقيم في مكان آخر .

— حسن جداً ، كما يجب .

وسار في المرسوم وهو يتطلع إلى عمله ... سنتان قاسيتان من العبودية ، ومئات من الدراسات عن النساجين وزوجاتهم وعن الأنوال والفلاحين في الحقل وعن جذوع الأشجار في قلب حديقة الأبروشية وعن برج الكنيسة القديمة والمرج وأسوار النبانات الشوكية في حرارة الشمس وعن برودة الغسق في الشتاء .

وأحس بهم ثقيل فقد كانت أعماله كلها تتناول جزئيات كانت تحتوى على أجزاء من كل مرحلة في حياة الفلاح في البرابانت ولكن لم تكن هناك قطعة واحدة من أعماله تمثل حياة الفلاح في مجموعها وتصور روح أوجه وبطاطسه المسلوقة . أين صورته للفلاح البرابانتى التى تضاهى صورة إنجيليوس ؟ كيف يستطيع أن يرحل قبل أن يرسمها ؟ وألقى نظرة سريعة على نتيجة الحائط ... كان ما يزال باقيا اثنا عشر يوما على بداية الشهر ، فنادى على أدريانا وقال لها :

— بلغى الأب باولز أننى دفعت الإيجار لأول الشهر ولن أرحل قبل ذلك الحين ...

وجمع حامل لوحاته وصوره وقماش لوحاته وفرشه . وسار بجر قدميه حتى وصل إلى كوخ آل دى جروت وكان البيت خاليا . وبدأ العمل برسم لداخل الحجرة بالقلم .

وعندما عادت الأسيرة من الحقل مزق الورقة . . . وجلس آلدى جروت يتناولون طعامهم من البطاطس المسلوقة والقهوة السوداء ولحم الخنزير . ونشر فنسنت لوحاته وانهمك في العمل حتى أوت الأسيرة إلى فراشها . وظل طوال تلك الليلة يعمل لإنهاء اللوحة في مرسمه ثم نام أثناء النهار وعندما استيقظ أحرق لوحته وهو يحس باشمئزاز وحشي ثم انطلق مرة أخرى إلى بيت آلدى جروت وكان فنسنت قد تعلم من أساتذة الفن الهولندي القدامى أن الرسم واللون كانا شيئاً واحداً .

وجلس آلدى جروت في نفس الأوضاع التي تعودوا عليها طوال حياتهم وأراد فنسنت أن يصور بوضوح الطريقة التي كان هؤلاء الناس يتناولون بها طعامهم من البطاطس في ضوء المصباح وكيف عزقوا الأرض بهذه الأيدي ذاتها التي كانوا يضعونها في الطبق كان يريد أن يعبر عن العمل اليدوي وكيف كانوا يكسبون عيشهم بأمانة وشرف .

وكانت عاداته القديمة في الانهماك بكل قوة في تصوير لوحة قد غدت الآن طبيعة ذليلة فأخذ يعمل بسرعة هائلة وحيوية متدفقة ولم يفكر فيما كان يعمل إذ كان قد رسم مئات الفلاحين والآكواخ والأسرات وهم يجلسون أمام طعامهم من البطاطس المسلوقة .

وقالت الأم .

— كان الأب باولز هنا اليوم ...

فسألها فنسنت .

— وماذا كان يريد ؟

— لقد عرض علينا بعض المال بشرط ألا نتخذ وضعاً لرسمنا .

— وماذا قلتم له ؟

— قلنا له إنك صديقنا .

وأضافت ستين .

— وقد قام بزيارة كل بيت حولنا ولكنهم أبلغوه أنهم يفضلون أن يكسبوا فلساً واحداً من اتخاذهم وضماً لترسمهم فيه ولا يقبلون إحسانه .

وفي صباح اليوم التالي حطام لوحته مرة أخرى واستولى عليه شعور امتزج فيه الغضب بالعجز إذ لم يبق أمامه إلا عشرة أيام وكان عليه أن يرحل عن نيونين بعد أن غدت لا تحتل ولكنه كان لا يستطيع أن يغادرها إلا بعد أن يحقق وعده لميليه .

وفي كل ليلة كان يعود إلى كوخ آل دى جروت ويظل يعمل حتى يغلبهم النعاس فلا يقوون على الجلوس .

وفي كل ليلة كان يجرب تركيبات جديدة للألوان بقيم ونسب مختلفة.. وفي كل يوم كان يرى أنه قد أخطأ وأن عمله لم يصل حد إلى درجة الكمال

وحل اليوم الأخير في الشهر وكان فلسنت قد عمل بهجنون دون أن ينعم بقطعة من النوم أو يذوق طعاماً في معظم الأوقات . كان يعيش على طاقتة العصبية وكلما فشل كلما اشتد انفعاله . وكان في انتظار آل دى جروت عندما أقبلوا من الحقول . وكان قد نصب حامل صورته ومزج ألوانه وشده لوحته على الإطار . كانت هذه هي فرصته الأخيرة في الصباح كان عليه أن يرحل عن البرابانت للأبد .

وظل يعمل ساعات وفهم آل دى جروت فعندما انتهوا من تناول عشاءهم ظلوا جالسين إلى المائدة وأخذ يتغنون برقة بلمبة عمال الحقول ولم يعرف فلسنت ماذا كان يصور . وكان يتعجل رسم الشيء دون تفكير أو شعور ينشأ بين يده وبين حامل صورته وكان آل دى جروت يغلبهم النعاس ويهد التعب فلسنت عندما تبلغ الساعة العاشرة بعد أن يكون قد فعل كل ما في

طاقته باللوحة وجمع حاجياته وقبل ستين وودعهم جميعاً ، وراح يجر قدميه في ظلمة الليل . وهو لا يدري أنه كان يسير . . وفي المرسوم وضع اللوحة على أحد المقاعد وأشعل غليونته ووقف يتأمل لوحته . كان العمل كله خاطئاً من أساسه ، فقد أغفل أشياء كثيرة . وكان خالياً من الروح . لقد فشل مرة أخرى وضاعت من عمره سنتان من العمل في البرابيات ودخن غليونته حتى احترق التبغ كله ثم حزم حقيبته وجمع كل دراساته من على الحائط ومن المكتب ووضعها جميعاً في صندوق كبير ثم ألقى بنفسه على الأريكة ولم يدرك مضي من الوقت . ثم استيقظ وانتزع اللوحة من الإطار وألقى بها في أحد الأركان ووضع لوحة جديدة . . ثم مزج بعض الألوان وجلس وبدأ العمل . . إن المرء ليبدأ بصراع يائس لمحاكاة الطبيعة ولكن كل شيء يسير خطأ ثم يفتي المرء بأن يتسكّر في هدوء من لوحة ألوانه ويجد أن الطبيعة تسلس له قيادها وتصبح طوع أمره . ويعتقد الناس أني أتخيل ولكن هذا ليس صحيحاً فأنا أتذكر وكان هذا بالضبط ما قاله بيترسون في بروكسل . . لقد كان شديد الصلة بموديلانه . ولم يستطع أن يحقق المنظور . . بل كان يصب نفسه في قالب الطبيعة أما الآن فإنه كان يصب الطبيعة في قالب نفسه . . ورسم كل شيء بلون ثمرة البطاطس الناضجة التي لم تنزع عنها قشرتها والتي يسكوها التراب كان بها غطاء المائدة الكتاني القذر ، والحائط الملوّث بالدخان . . والمصباح الذي يتدلى من عروق السقف الخشنة وستين وهي تقدم إلى والدها البطاطس المسلوقة والام وهي تصب القهوة السوداء . . والآخر وهو يرفع قدح القهوة إلى شفثيه وعلى وجوههم جميعاً كانت ترسم سمات الاستسلام الهادئ والصبر والإذعان للنظام الذي سنته الطبيعة للأشياء منذ القدم ، وأشرقت الشمس وتسفل شعاع من النور من خلال نافذة غرفة الخزين ، ونهض فتسنت وأحس بفيض من الهدوء التام والاطمئنان وزال عنه ما كان يكابده من انفعال في خلال الاثني عشر يوماً الماضية وتطلع إلى عمله . كانت تفوح منه رائحة لحم التخزير والدخان

وبخار البطاطس المسلوقة وابتسم فقد رسم لوحته التي تضارع إنجايوس
واهتدى إلى الشيء الذي لا يفنى في الشيء الذي يزول وسوف يظل الفلاح
الباراباتي خالداً . ونظف اللوحة ببياض بيضة وحمل صندوقه الذي
يحتوي رسومه ولوحاته إلى الأبروشية وتركها مع أمه وودعها ثم عاد إلى
مرسمه وكتب على لوحته « أكلة البطاطس » ووضع معها بعضاً من أحسن
دراساته ثم انطلق إلى باريس ..

الكتاب الخامس

باريس

(١)

في صباح اليوم التالي جلسا يتناولان طعام إفطارهما المكون من الكعك
والقهوة وسأل ثيو :

— إذن لم يصلك خطابي الأخير ؟

فأجاب فنسنت .

— لا أظن ، وماذا كان به ؟

— أخبر ارتقاني لمنصب مدير قاعة جويليل .

— حقاً ياثيو ، ولكنك لم تحدثني أمس عن هذا بكلمة واحدة .

— لقد كنت بالغ الانفعال فلم تع مافلت . إني مكلف بإدارة قاعة
الفنون في بوليفار ومتمارتر .

— هذا رائع ياثيو ! ما أجل أن تكون مطلق التصرف في قاعة للفنون !

— ولكنني لست كذلك حقاً يا فنسنت فعلى أن أسير على سياسة
آل جويليل ولا أحيد عنها ولكنهم سمحوا لي بتعليق لوحات «الانطباعيين»
في الطابق الأرضي ولهذا ...

— ولما منهم تعرض ؟

— مونييه وديجا وبيسارو ومانيه .

— لم أسمع عنهم قط من قبل .

— إذن نخير لك أن تأتي معي إلى قاعة الفنون وتلقي على ما فيها

نظرة طويلة ؟

— ترى ما معنى هذه الابتسامة الماكرة التي ترسم على شفثيك ياثيو ؟

— أوه لاشي . أريد مزيداً من القهوة ؟ يجب أن نتصرف بعد بضع

دقائق فتند تعودت الذهاب إلى المحل سيراً على الأقدام كل صباح .

— شكراً .. لا لا نصف قذح فقط . تبالك يا ثيو ! ولكم يسرنى أن
أتناول طعام الإفطار على مائدتك مرة أخرى !

— كنت أترقب قدومك إلى باريس منذ وقت طويل وكان لابد أن
تأتى أخيراً بالطبع وإن كنت أعتقد أنه كان يحسن بك لو انتظرت حتى
حلول شهر يونيو عندما أنتقل إلى مسكنى فى شارع لببىك المكون من ثلاث
حجرات وأظن أنه ليس لديك هنا ما يشغلك .

فاستدار فنسنت فى معقده وأخذ يتطلع حوله . وكانت شقة ثيو مكوّنة
من حجرة واحدة ومطبخ صغير وغرفة صغيرة وكانت الحجرة مفروشة
بأثاث جميل أصيل من طراز لويس فيليب ولكن لم يكن فيها من الفراغ
ما يسمح بالحركة وقال فنسنت :

— لعمري لو وضعت حاملاً للرسم فسوف نضطر إلى نقل بعض القطع
من أثاثك الجميل إلى فناء الدار .

— أعلم أن المكان مزدحم ولكن الفرصة سنحت لى لشراء هذه
القطع فى إحدى الصفقات الراجعة وهى ما أنا فى حاجة إليه بالضبط لتأثيث
الشقة الجديدة . هيا بنا يا فنسنت فسوف أصبحك معى فى نزهى المفضلة
أسفل التل إلى البوليفار . وإفك ان تعرف باريس إلا إذا تفست عبيرها
فى الصباح الباكر . وارتدى ثيو معطفه الأسود الثقيل وكان يرتفع إلى
ماتحت رباط رقبتة الناصع البياض وأجرى الفرشاة لآخر مرة على
خصلات شعره الصغيرة التى عقصها على جانبي مفرق رأسه ثم قام بتسوية
شعرات شاربه ولحيته الناعمة ووضع على رأسه قبعة سوداء صلبة القوام
(بولر) وتناول قفازيه وعصاه ثم انطلق إلى الشارع .

— حسناً يا فنسنت هل أنت على استعداد ؟ يا إلهى ! ما أبشع منظر !
قد تستطيع ارتداء هذا الزى فى أى مكان آخر ولكنك لو سرت به فى
باريس لقبضوا عليك .

فتطلع فنسنت إلى نفسه وقال :

— وماذا به من عيب ؟ لقد كنت أرتديه طوال العامين الماضيين
تقريباً ولم يقل أحد عنه شيئاً .
فضحك ثيو وقال :

— لا بأس لقد اعتاد الباريسيون على رؤية أمثالك من الناس وعند ما
تدلق قاعة الفنون أبوابها سأحصل لك على بعض الملابس
وانطلقا يهبطان سلماً ملتوى الدرجات ومرا بفرقة الحراسة وعبرا
الباب إلى شارع لا فال وهو شارع واسع جداً يقع في حي تجارى وبه مخازن
كبيرة لبيع العقاقير وإطارات الصور والقطع الأثرية . وقال ثيو :
— تأمل هؤلاء السيدات الثلاثة الجميلات في الطابق الثالث من
عمارتنا .

فتطلع فنسنت إلى أعلى ورأى ثلاثة رؤوس ركبت فوق ثلاثة صدور
من المصيص وكتب تحت الأولى كلمة « نحت » وتحت الوسطى كلمة « عمارة »
وتحت الثالثة كلمة « تصوير » فقال :

— ما الذى دفعهم إلى الاعتقاد بأن فن التصوير نمثله جارية قبيحة ؟
فأجاب ثيو :

— لا أدري ولكنك على أية حال أصبت كبدا الحقيقة

ومر الرجلان بمحال العاديات في لغميه روين حيث اشترى ثيو أثاثه
من طراز لويس فيليب وبعد لحظة وصلا إلى شارع مونمارتر وكان يلتوى
في رشاقة لأعلى التل إلى طريق كليشى وتل مونمارتر وجنوب التل إلى قلب
المدينة وكان الشارع تغمره أشعة الشمس وتقوح فيه رائحة باريس
وهي تنفض من سباتها وترى فيه الناس يأكلون كعك « الكراوسان »
ويرتشفون القهوة في المخابز وتشهد فيه حوانيت الخضراوات واللحوم
والجبن ، وهي تفتح أبوابها لمزاولة تجارتها اليومية .

كان قطاعاً بورجوازيّاً حافلاً بالمخازن الصغيرة وكان العمال يسرون في وسط الشارع وربات البيوت يقلبن البضائع في الصناديق أمام المحلات ويساو من التجار في تدمير . وتنفس فنسنت بعمق ثم قال :

— ها هي باريس بعد أن غبت عنها كل هذه السنين .

— نعم ، إنها باريس عاصمة أوربا ولا سيما لفنان .

وبهر فنسنت تدفق الحياة على سفح التل فها هم النادل بستراتهم المخططة بخطوط حمراء وسوداء متتالية وها هن ربّات البيوت يحمان أرغفة الخبز تحت أذرعهن وهي مكشوفة الأبصار وها هي عربات اليد على حافة الطريق وها هن الوصيفات في خفاف لينة وها هم رجال الأعمال الساجدون في طريقهم للعمل .

وبعد أن مروا بمحلات لا تحصى للجزارة والحلوى والخبز وغسل الثياب والمقاهى الصغيرة انحنى شارع مونمارتر إلى وسط التل ثم انحدّر إلى ميدان شاتودن وكان على شكل دائرة غير كاملة تسكونت من التقاء ست شوارع ، ثم عبرا الميدان ومرا بنوتردام دى لوريت وهي كنيسة مربعة مبنية بالحجر الأسود وعلى سطحها ثلاث تماثيل للملائكة تسبح في رقة في السموات العلا وتطلع فنسنت إلى ما هو مكتوب على الباب . وقال :

— هل يقصدون بها يا ثيو الحرية والمساواة والإخاء ؟

— أعتقد هذا وتدّ تعمّر الجمهورية الثالثة طويلاً إذ إن أنصار الملكية في حكم الموتى وسوف يتسلم الاشتراكيون مقاعد الحكم وقد قال لي إميل زولا بالأمس إن الثورة القادمة ستكون ضدّ الرأسمالية وليست ضدّ الملكية .

— زولا ! جميل منك أن تعرفه يا ثيو .

— لقد قدمنى له بول سيزان ونحن نجتمع كلنا فى مقهى « باتينيول » ،
مرة كل أسبوع وسوف أصحبك معى إلى هناك فى المرة القادمة .

وبعد أن غادرا ميدان « شاتوون » ، فقد شارع مونمارتر طابعه البورجوازى
واتسم بمظهر أكثر جلالاً وغدت الحوانيت أكبر حجماً والمقاهى أكثر
عماً كانت والناس أحسن زياً والمباني أبهى منظراً وكانت الممرات الجانبية
تزخر بقاعات الموسيقى وكانت الفنادق تضى منظراً بهيجاً وحلت عربات
الركوب محل عربات البضائع .

وسار الأخوان فى خطى نشطة وأخذت أشعة الشمس الضعيفة تشد
وكانت رائحة الهواء توحى بعيشة الثراء والحياة المعقدة التى يحياها
سكان المدينة .

وقال ثيو :

— بما أنك لا تستطيع العمل فى البيت فإنى أقترح عليك أن تذهب
إلى أستديو كورمان .

— ومن هو ؟

— حسناً ، إن كورمان من أنصار المدرسة الأكاديمية كمعظم الأساتذة ،
ولإذا لم تتقبل نقده فإنه سيدخل عنك

— وهل هذا يكفى كثيراً ؟

فربت ثيو على نخذ فنسنت بعصاه وقال :

— ألم أقل لك إنى رقيت وسوف أصبح واحداً من هؤلاء السراة
الذين ينوى زولا أن يطيح بهم فى ثورته القادمة !

وأخيراً انتهى شارع مونمارتر إلى بوليفار مونمارتر الواسع الفخم بمخازنه
الكبيرة وطرقه المسقوفة ومحلاته الغالية .

وكان البوليفار — الذى أصبح بوليفار الطليان والذى يؤدى إلى ميدان

الأوبرا بعد مسير بضعة مبانٍ — أم شارع عمومي في المدينة ورغم خلو الشارع في هذه الساعة من الصباح فإن الموظفين كانوا يتأهبون داخل المخازن لمواجهة يومهم الخافل بالعمل . وكان الفرع الذي يديره ثيو من محلات جوبلز يشغل رقم ١٩ بعد مسير بضعة مبانٍ من يمين شارع مونمارتر . وعبر فنسنت و ثيو الشارع العريض وتوقفا بجانب مصباح غازي في الوسط حتى تمر بهما عربة ثم استأنفا سيرهما إلى قاعة الفنون .

واحتفى الموظفون في ملابسهم الأنيقة لثيو وهو يسير في بهو قاعة الفنون وتذكر فنسنت كيف كان ينحن لتيرستيغ وأوباخ عندما كان يعمل كاتبا وكان الهواء عاطرا بأريج الثقافة الرفيعة ، وهو عطر ظن أن أنفه قد نسيه وعلى جدران البهو رأى لوحات لبورجيو وهينر وديلاروش وفوق الصالون الرئيسي كانت هناك شرفة صغيرة يؤدي إليها سلم خلفي وقال ثيو :

— إن اللوحات التي تريد أن تراها في الطابق الأسفل وحالما تنتهي من مشاهدتها تعال وأخبرني برأيك فيها .

— لماذا تعلق شفتيك يا ثيو ؟

فابتسم ثيو ابتسامة هريضة وقال : إلى الملتقى ، واختفى في مكتبه

(٢)

— هل أنا في مستشفى للمجانين؟

وتعثر فنسنت وهو يسير مغمض العينين إلى المقعد الوحيد في الطابق الأرضي وجلس وهو يفرك عينيه . لقد اعتاد منذ بلغ الثانية هشة من عمره أن يرى لوحات قائمة مظلمة ، لا تكاد ترى فيها لمسات الفرشاة وكل التفاصيل فيها صحيحة وكاملة وألوانها المستوية تتداخل في بعضها أما هذه اللوحات التي تضحك له وهي تطل من الجدران في مرج فلم تكن تشبه أية لوحات سبق له أن رآها أو حلم برؤياها . لقد دالت إلى غير رجعة المسطحات المستوية الرفيعة والعاطفة الرصينة ومزيج الألوان السمرات التي اعتادت أوربا أن تفرق بها لوحاتها منذ مئات السنين وهامى لوحات يغمرها ضوء الشمس وتفيض بالضوء والهواء وتتدفق بالحياة ، لوحات لراقصات الباليه خائف المسرح نفذت بألوان بدائية حمراء وخضراء وزرقاء نثرت بلامبالاة بجانب بعضها . وتطلع إلى التوقيع وكان ديجها .

وكانت هناك مجموعة من المناظر الخلوية على شاطئ النهر صور فيها لون منتصف الصيف بنضرتة العظيمة وشمسه المحرقة وهي تتوسط كبد السماء وكانت لمونيه .

ولم ير فنسنت بين مئات اللوحات التي كان قد شاهدها مثيلا لهذه اللوحات المناطقة التي يغمرها الضوء ويتخللها الهواء ويفوح شذاها العطر وكان أشد الألوان قنامة بين الألوان التي استخدمها مونيه أخف اثني عشر مرة من أفتح لون رآه في كل متاحف هولندا وكانت لمسات الفرشاة جريئة وكل ضربة منها واضحة وكل لمسة تنسجم مع إيقاع الطبيعة وكان سطح اللوحات مغطى بطبقة كثيفة من الطلاء الثين .

ووقف فنسنت أمام صورة لرجل يرتدي قنالة صوفية ويمسك بدفة قارب صغير في استغراق شديد يتميز به الرجل الفرنسي الذي يستمتع

بأجازته بعد ظهر يوم الأحد وجلست بجانبه زوجته في استسلام . وتطلع
فنسنت إلى اسم الفنان وقال بصوت عال :

— مونييه أيضاً ؟ هذا غريب ، فليس ثمة تشابه بينها وبين مناظره
الخلوية .

وتطلع مرة أخرى وأدرك أنه كان على خطأ . . . فقد كان مانيه وليس
مونييه . وتذكر قصة لوحتي مانيه « نزهة على الحشائش » و « أوليبياء » وكيف
اضطر رجال الشرطة إلى إحاطتهما بالحبال لمنع الناس من تمزيقهما بالمدى
والبصق عليهما ولم يعرف لماذا كانت لوحات مانيه تذكره بمؤلفات
إميل زولا إذ يبدو فيها نفس التطلع الشديد إلى استجلاء الحقيقة وتوقد
الذهن والجرأة والإحساس بأن الخلق هو الجمال ولا يهم إن كان يبدو
وضيعاً ، وأخذ يدرس التنفيذ الفنى (للتكنيك) عن قرب ورأى أن مانيه
وضع الألوان الأساسية أحدها وراء الآخر دون مراعاة للتدوج وأنه
أغفل الكثير من التفاصيل ولم يعرف أين تنهى تماماً الألوان والخطوط
والضوء والظلال فقد كانت تتداخل في بعضها .

وقال فنسنت :

— تماماً كما تراها العين وهي تنذبذب في الطبيعة .

وسمع صوت موف يشغب أذنيه قائلاً :

— ألا يمكنك أن تستقر على طريقة معينة في رسم الخطوط يا فنسنت ؟

وجلس مرة أخرى وأغرق في التفكير في اللوحات وبعد برهة فطن
إلى إحدى الوسائل البسيطة التي أحدثت ثورة كاملة في فن التصوير فهو لاء
المصورون جسموا الهواء في لوحاتهم هذا الهواء المليء بالحياة والحركة
أعزني شيئاً ما على المناظر التي كانت تشاهد فيها ، وأدرك فنسنت أن لوحات
أنصار المدرسة الأكاديمية خلت من الهواء وكانت مجرد فراغ أبيض ملأوه
بأشياء جامدة .

ولكن ما أغرب هؤلاء الرجال الجسدا لقد اكتشفوا الهواء !
اكتشفوا الضوء والحياة والجو والشمس ورأوا الأشياء تترشح بفعل
الطاقات التي لا حصر لها والتي تعيش في هذا الفيض الدافق .

وأدرك فنسنت أن فن التصوير لن يكون كما عرفه من قبل وأن آلات
التصوير وأنصار المدرسة الأكاديمية قد ينقلون نسخاً طبق الأصل
أما المصورون فسوف يرون كل شيء مصفى حسب طبيعتهم والشمس
تغمر بالضوء والهواء الذي يعملون فيه . وبدا له كما لو كان هؤلاء الرجال
قد ابتدعوا فناً جديداً .

وعاد وهو يتعثر في المقاعد وكان ثبو في البهو الرئيسي وقد التفت له
والابتسامة تداعب شفثيه وأخذ يتطلع إلى وجه شقيقه في لهفة وقال :

— حسناً يافنسنت ؟

فشق فنسنت وقال :

— أواه ياثيو !

وحاول الكلام ولكنه لم يستطع واندفع إلى الطابق الأسفل ثم استدار
وبادر بالخروج من قاعة الفنون .

وسار في الشارع العريض حتى وصل إلى مبنى مشمن الأضلاع عرف
فيه دار الأوبرا ولمح بين المباني الحجرية قنطرة فانطلق إليها وانزلق إلى
حافة الماء وغمس أصابعه في السين ثم عبر القنطرة دون أن يلقى نظرة
واحدة على تماثيل الفرسان البرنزية وشق طريقه إلى الشوارع التي لا عهد له
بها والتي على الشاطئ الأيسر وأخذ يعبر صعداً في ثبات ومر بمقبرة ثم
استدار إلى اليمين ووصل إلى محطة كبيرة للسكك الحديدية ونسى أنه كان
قد عبر نهر السين فسأل شرطياً أن يده له على شارع لافال فقال له الشرطي :

— شارع لافال ؟ إنك يا سيدي لا تسير في الجانب الصحيح فهذه

مونبارناس ويفبني أن تهبط التل وتعبر نهر السين ثم تصعد مرة أخرى إلى مونمارتر .

وأخذت يسير على غير هدى في شوارع باريس دون أن يهتم إلى أين تقوده قدماء ومر بشوارع عريضة نظيفة بها حوانيت فخمة ثم بأزقة وضيقة قذرة ثم انتهى إلى شوارع بورجوازية غصت على جانبيها بصنوف لا نهاية لها من حانات النيزد ومرة أخرى وجد نفسه على قمة تل أقيم فوقه قوس نصر وكان يطل من الشرق على شارع تحف بجانبه أشجار وتحيط به منزهات تشغل رقعا ضيقة وينتهي بميدان فسيح في وسطه مسلة مصرية ثم لمح في الغرب غابة واسعة .

وفي ساعة متأخرة من عصر اليوم عثر على شارع لا قال . وكان الالم الذي يعتصره قد خدر إحساسه بالتعب كله وانطلق مباشرة إلى حيث حرم لوحاته وصوره التخطيطية للدراسة ونشرها كلها فوق الأرض وحلق في لوحاته رباه اكم هي قائمة وكثيية اكم هي ثقيلة لا حياة فيها فقد كان يرسم كما لو كان يعيش في قرن خابر ولم يدرك هذا .

وعاد ثيو إلى المنزل عند الفسق فوجد فنسنت جالسا على الأرض في خمول فركع بجانب شقيقه وكانت خيوط النهار الأخيرة تتلاشى من الحجرة وأخذ ثيو للصمت قليلا ثم قال :

— إنني أدرك إحساسك يا فنسنت فقد ذهلت لروعة ما رأيت أليس كذلك ؟ لقد نبذنا تقريرا كل شيء مقدس في عرف فن التصوير .

وتلافت عينا فنسنت الصغيرتين في ألم بعيني ثيو وقال :

— لم لم تقل لي يا ثيو ؟ ولم لم أعرف ؟ لماذا لم تأت بي إلى هنا من قبل ؟

لقد تركتني أضيق سدى ست سنوات طوال من عمري .

— أقول أضعتما ؟ هذا هراء . لقد صقلت فيها موهبتك الفنية وهما أنت

ترسم بأسلوب ففست فان جوخ لا بأسلوب أى شخص آخر فى العالم ولأنك جئت إلى هنا قبل أن يتبلور أسلوبك الخاص فى التعبير ليهرتك باريس فى بوقتتها .

— ولكن ماذا عساي أن أصنع ؟ انظر إلى هذه النفايات !

وركل بقدمه لوحة كبيرة قائمة الألوان وقال :

— إنها لا حياة فيها ياثيو ولا تساوى شيئاً .

— اتسألنى ماذا أنت صانع ؟ سأقول لك . ينبغي أن تتعلم كيفية استخدام الضوء واللون من الانطباعيين وأن تقتبس منهم قدر ما تستطيع ولا شيء أكثر من هذا إذ يجب ألا تقلدكم واحرص ألا يكتسحك الطوفان ولا تدع باريس تغرقك .

— ولكن يجب أن أتعلم كل شيء من جديد ياثيو فكل ما أفعله خطأ .

— بل إنك مصيب فى كل ما تفعل ماعدا معالجتك للضوء واللون فانت مصور انطباعى منذ أمسكت بالقلم فى البوريناك — انظر إلى رسمك ! وتأمل لمسات فرجونك ! لم يرسم أحد قط بمثل هذا الأسلوب قبل مانيه . تأمل خطوطك ! إنك لا ترسم أبدا خطا واضحا محددًا . انظر إلى مارسمته من رجوه وأشجار وأشكال فى الحقول إنها انطباعاتك وهى لجة لم تكتمل بعد ولكن تنضع بشخصيتك وهذا معناه أنك انطباعى لأنك لا ترسم بأسلوب شخص آخر سواك ولا تقيد نفسك بالقواعد والتعليمات وأنت يافست واحد من أبناء هذا الجيل وأنت انطباعى سواء كرهت أو رضيت .

— أو اه ياثيو كم أحب هذا !

— إن أعمالك معروفة بين المصورين الشبان الذين يوثق بهم . أوه لا أقصد هؤلاء الذين تباع لوحاتهم بل أقصد هؤلاء الذين يقومون بالتجارب الهامة وهم يتوقون إلى التعرف بك ولا شك أنك ستتعلم منهم أشياء رائعة .

— وهل يعرفون أعمالى ؟ أيعرف الانطباعيون الشبان أعمالى ؟

وركع فنسنت على قدميه حتى يستطيع أن يرى ثيو بوضوح وفكر
ثيو فى الأيام الحالية فى زندوت عندما كانا يلهوان معاً على أرض حجرة
الأطفال وقال :

— نعم بالتأكيد . ماذا ظننت أنى كنت أفعل فى باريس كل هذه
السنين ؟

لأنهم يعتقدون أن لك عينا نفاذة وأصابع فنان ماهر وكل ما يلزمك
أن تفعله الآن هو أن تخفف من ألوانك وأن تتعلم كيف تصور الهواء
بحيويته المتألقة . أليس رائعاً يا فنسنت أن نعيش حتى نشهد حدوث مثل
هذه الأشياء الهامة ؟

— ويحك يا ثيو أيها الشيطان العجوز . ويحك أيها الشيطان العجوز
الكبير !

— هيا وانفض على قدميك يا فنسنت وهون عليك . لنرتد ملابسنا
ونذهب لتناول طعام العشاء وأصحبك إلى مطعم أيفرسل وهم يقدمون
فى باريس أشهى أنواع الشاتوبريان . وسوف أقيم لك مأدبة حقيقية
وأقدم لك فيها يابنى زجاجة من الشمبانيا احتفالاً باليوم العظيم الذى انضم
فيه فنسنت فان جوخ إلى سكان باريس !

* * *

(٣)

وفي صباح اليوم التالي أخذ فنسنت أدوات الرسم وانطلق إلى استوديو كورمان وكان عبارة عن حجرة واسعة في الطابق الثالث يغمرها ضوء قوى ينفذ إليها من الشارع وفي أحد طرفيها كان يقف رجل عار كموديل في مواجهة الباب وتناثر فيها ما يقرب من ثلاثين مقعداً وحاملاً خصصت للطلبة وقيد فنسنت اسمه بين طلبة كورمان وخصص له حامل للرسم وظل يرسم زهاء الساعة فتح بعدها باب الصلاة ودلفت منه امرأة كانت تعصب وأمها وتمسك يديها فكهما فألقت على الموديل العارى نظرة رعب ثم صاحته « يا إلهي » وانطلقت تجري . واستدار فنسنت إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال :

— ترى ماذا أصابها ؟

— أوه هذا يحدث كل يوم فقد كانت تبغى هياذة جارنا طبيب الأسنان وعادة تسكني الصدمة التي تصيبهن من رؤية رجل عار لشفاء آلام أسنانهن ولعمري إذا لم ينتقل طبيب الأسنان فإن مصيره الإفلاس . إنك طالب مستجد ، أليس كذلك ؟

— بلى وهذا ثالث يوم لى فى باريس .

— وما اسمك ؟

— فان جوخ .

— وما اسمك أنت ؟

— هنرى تولوز لوتريك . أتيت بصلة القربى لثيو فان جوخ ؟

— إنه أخى .

— إذن فلا بد أنك فنسنت ! حسناً، يسرنى أن أتعرف بك فإن أخاك

خير من يتعامل مع الفنانين فى باريس وهو الوحيد الذى يتيح للشبان فرصة الظهور وهو لا يفعل هذا لحسب بل يكافح من أجلنا وإذا كان جمهور

باريس قد رحب بنا فإن الفضل في هذا يرجع إلى ثيو فان جوخ وكلنا نعتقد أنه لطيف جداً .

— وهذا ما أعتقد أنه أيضاً .

وتطلع فنسنت إلى الرجل باهتمام وكانت للوتريك رأس مفلطحة وكانت تقاطيع وجهه وأنفه وشفتاه وذقنه بارزة عن رأسه المفلطحة وكانت له لحية سوداء تبرز بعيداً عن ذقنه بدلا من أن تنمو لأسفل وسأل لوتريك .

— ماذا يدعوك إلى أن تغشى مكانا كريها كاستوديو كورمان ؟

— لا بد لي من مكان أرسم فيه . لم تفعل أنت هذا ؟

— أكون ملهونا لو عرفت .. لقد عشت طوال الشهر الماضي في ماخور في مونمارتر ورسمت صوراً شخصية للفتيات وهذا كان في نظري عملاً يستحق الذكر أما الرسم في استوديو فهو عبث أطفال .

— بودى أن أرى دراساتك لهؤلاء السيدات .

— حقاً ؟

— بلا شك ولم لا ؟

— لأن معظم الناس يعتقدون أنني مجنون بسبب تصويري للراقصات والمهرجين والعاهرات ولكنك تجد في هؤلاء الطابع الأصلي .

— أعلم هذا فقد تزوجت واحدة في لاهاي .

— حسناً ! إن كل أفراد عائلة فان جوخ على حق ! اسمع لي بأن أرى

رسمك التخطيطي (الاسكتش) للموديل ، اسمع لي ؟

— خذها كلها . لقد رسمت أربعة .

فقطع لوتريك إضع لحظات إلى الرسوم التخطيطية ثم قال :

— أرى أننا سنتفق معا يا صديقي فنحن نفكر بأسلوب واحد . هل

ترأي كورمان هذه الرسوم التخطيطية ؟

— لا .

— عندما يراها سيكون هذا آخر عهدك بهذا المكان وسوف تكون هدفاً لسهام نقده لقد قال لى أمس : إنك تبالغ يا لوتريك . أنت تبالغ دائماً فى كل دراماتك خط واحد من الرسم الهزلى (الكاريكاتور) .

وقد أجبتة هذا ليس رسماً هزلياً يا عزيزى كورمان بل طابع مميز .
فلمت عينا لوتريك السوداء وان الضيقتان وقال :

— ألا زلت ترغب فى رؤية هذه الصور الشخصية التى رسمتها لفتياتى ؟
— بلى بالتأكيد .

كان لوتريك عنق غليظة مكتنزة وكتفان عريضتان وعندما نهض على قدميه رأى فنسنت أن صديقه الجديد كان كسيحاً وكان لوتريك وهو واقف لا يزيد طولاً عنه وهو جالس وكان جذعه البدين يرتكز على رأس مثلث عند وسطه ثم ينحدر بشدة ليرتكز على ساقيه الصغيرتين للعاجزتين .

وسارا فى بوليفار كليش وكان لوتريك يستند بشدة على عصاه ويتوقف بين هنيهة وأخرى ليلتقط أنفاسه وبعد مسير مجموعة من المباني فى هذا الجانب من المولان روج استدرا ليصعدا التل نحو البوت مونمارتر وكان لوتريك يتوقف راغماً للراحة من آن لآخر وقال :

— لعلك تعجب ما إذا أصاب ساقى يافان جوخ ولعمري إن كل واحد ليقسأل عن هذا . حسناً سأخبرك .

— أرجوك . لا داعى لأن تحدثنى عن هذا .

— ولكن يجب أن تعرف .

وانكأ على عصاه واستند إليها بكتفيه ثم استأنف قائلاً :

— لقد ولدت وأنا مصاب ببلن العظام وفى الثانية عشرة من عمري

انزلت قدمي على أرض صلبة للرقص فكسرت عظام فخذي الأيمن وفي
العام التالي سقطت في حفرة فكسرت ساقى اليسرى ومنذ ذلك الحين لم
تم ساقى بوحدة واحدة .

— وهل أنت تعلم لهذا ؟

— كلا فلو كنت طبيعياً كأتراي لما استطعت أن أكون مصوراً
فوالدي هو الكونت دي تولوز وأنا ثاني إخوتي في وراثة اللقب ولو شئت
لصنعت في وسعي الحصول على عصا الماريشالية ولركبت بجانب ملك فرنسا
إن كان هناك ملك لفرنسا ولكن بالله لماذا يرضى المرء أن يكون كوتتا
بينما يستطيع أن يصبح مصوراً ؟

— هذا حق وأخشى أن أقول إن أيام الكونتات قد ولت .

— لنستأنف سيرنا فاستوديو ديجا في نهاية هذا الطريق . يقولون
إنى أقلد أعماله لأنه يرسم راقصات الباليه وأنا أصور فتيات ملهى المولان
روج فليقولوا ما يحلو لهم . هاهو مسكنى في شارع فونتين رقم ١٩ مكرر
وأنا أقطن في الطابق الأرضي كما لعلك حذرت .

ودفع الباب ليفتحه وأوما لفنست بالدخول وقال :

— إنى أهيش بمفردى . اجلس إذا استطعت أن تجد مكاناً صالحاً للجلوس .

وتطلع فنست حوله وإلى جانب اللوحات والأطارات وحاملات
التصوير والمقاعد الخالية من المساند والسلام المتحركة والستائر رأى
منضدتين كبيرتين تزحمان الاستوديو وكانت إحداهما محملة بزجاجات ملئت
بالأنبذة النادرة وقنينات ملئت بسوائل متعددة الألوان وعلى المنضدة
الأخرى تكومت أحذية للراقصات وباروكات للرأس وكتب قديمة
وملابس للسيدات وقفازات وجوارب وصور مبتذلة ورسوم يابانية ثينة
ولم يكن هناك وسط هذه الفوضى الضاربة مكان رحب يستطيع أن يجلس
فيه لو تريك ليصور وقال :

— ماذا بك يافان جوخ ؟ ألا تستطيع أن تجد لك مكانا تجلس فيه ؟
ماعليك إلا أن تدفع ماعلى الأرض من سقط المتاع وتأتى بالمقعد إلى النافذة .
هنا نام سبع وعشرون فتاة ولقد بت مع كل واحدة منهن . ألا توافقنى
على أنه من الضرورى أن تبيت مع امرأة حتى تقبها تماماً ؟
— أجل .

— ها هي الرسوم التخطيطية . لقد أخذتها إلى تاجر فى الكابوسين
فقال : لماذا تصر على رسم هذا القبح يا لوتريك ؟ لماذا تصور دائماً أحط
من تقابلهم من الناس وأشدم خسة ؟ فهؤلاء النسوة من المنبوذات اللاتى
لفظهن المجتمع وعلى وجوههن ترسم آثار التبذل والانغماس فى الرذيلة فهل
يعنى الفن الحديث أن تبدع شيئاً قبيحاً ؟ هل عميت أيها المصورون عن الجمال
فلم تعودوا ترسمون سوى حالة الناس ؟

فقلت له : عفوا ولكن أعتقد أنى سأصاب بالغثيان ولا أحب أن
ألوث سجادتك الجميلة . هل الإضاءة كافية يافان جوخ ؟ أتريد بعض
الشراب ؟ قل ماذا تفضل ؟ فلدى كل ما يمكن أن تكون فى حاجة إليه .

وسار وهو يتطلع بين المقاعد والمناضد والستائر فى حركات رشقة
ثم صب كأسا من الشراب وقدمه إلى فنسنت وصاح قائلا :

— نخب القبح يافان جوخ وأرجو ألا تصيبك الأكاديمية بالعدوى !
واحتمى فنسنت شرابه وأخذ يدرس الرسوم التخطيطية السبعة
والعشرين التى رسمها لوتريك لفتيات أحد ملاهى مونمارتر وأدرك أن الفنان
قد صورهن كما رآهن فقد كانت صورا شخصية موضوعية لم يراع فيها قواعد
السلوك الأدبى ولم يأبه فيها بأى تأويل أخلاقى وشاهد التعاسة والألم وتبدل
الإحساس والحسنة الدنيئة والبعد عن كل الصفات الروحية وقد ارتسمت
بجلاء على وجوه الفتيات وسأله :

— هل تحب الصور الشخصية للفلاحات يا لوتريك ؟

— نعم إذا كانت لا تفيض بالعاطفة .

— حسناً إنى أرسم فلاحات وإنه ليروعنى أن هؤلاء السيدات أيضاً من الفلاحات وتنطق صورهن بمناجرتهم فى أجسادهن . أليست الأرض والجسد شكلين مختلفين لنفس المادة ؟ وهؤلاء السيدات . إنهن يكتزنن اللحم ، ذلك اللحم البشرى الذى ينبغى أن يرعينه لينبض بالحياة . لعمرى هذا عمل رائع يالوتريك . لقد فعلت شيئاً يستحق أن يذكر بالحمد والشناء .

— ألا ترى أنهن قبيحات ؟

— بل إنها أصدق صور انتقادية لحياتنا وهذا فى نظرى أرقى أنواع الجمال . ألا تظن هذا ؟ ولعمرى لو سمحت إلى رسم صور مثالية للسيدات تفيض بالعاطفة لأخرجت لنا صوراً قبيحة لأن صورتك الشخصية ستكون دنيئة وزائفة والكنيك صورت الحقيقة كاملة كما رأيته وهذا هو معنى الجمال ، أليس كذلك ؟

— رباه ! لم لا يكون فى العالم الكثير من أمثالك ؟ تفضل واشرب كأساً آخر !

ونخذ من هذه الرسوم التخطيطية ما نشاء ! تخير منها ما يروقك !
فرفع فنسنت لوحة أمام الضوء وتمن فيها لحظة ثم صاح قائلاً :
« دوميه ! هذا هو من تذكرنى به » .

فأشرق وجه لوتريك وقال :

— نعم إنه دوميه — أعظمهم على الإطلاق والشخص الوحيد الذى تعلمت منه شيئاً . رباه شد ما أمقت هذا الرجل !

— ولكن لماذا تصور أشياء تكرهها ؟ إنى لا أرسم إلا الأشياء التى أحبها .

— إن أعظم فن ينبع من الكراهية يافان جوخ . آه ! أرى أنك معجب بلوحة جوجان .

— ماذا قلت ؟ لمن هذه اللوحة ؟

— لبول جوجان . أتعرفه ؟

— كلا .

— إذن يجب أن تتعرف به . هذه اللوحة لسيدة وطنية من المارتنيك وقد عاش جوجان هناك فترة وهو يحب إلى درجة الجنون رسم الموضوعات البدائية ولكنه مصور عظيم وله زوجة وثلاثة أولاد ويشغل وظيفة في بورصة العقود تدبر عليه دخلاً سنوياً قدره ثلاثون ألفاً من الفرنكات ، وقد اشترى لوحات من بيسارو ومانيه وسيسلي بما يساوي خمسة عشر ألفاً من الفرنكات ورسم صورة شخصية لزوجته في يوم زفافهما وقد اعتقدت أنها الفتة جميلة منه واعتاد جوجان أن يرسم في أيام الأحاد . هل تعرف نادي بورصة العقود للفنون ؟ لقد عرض مرة صورة على مانيه فقال له إنها رائعة جداً فأجاب جوجان ، أوه . ولكن لست إلا أحد الهواة ، فقال مانيه ، لا فليس بين المصورين هواة اللهم إلا هؤلاء الذين يرسمون صوراً قبيحة ، وكان لهذه الملاحظة مفعول الخرف فادارت رأس جوجان ولم يرسم منذ ذلك الحين إلا وهو محمور وتغلى عن وظيفته في البورصة وعاش عاماً في روين هو وأمرته على مدخراته ثم أرسل بزوجته وأطفاله إلى بيت والدهما في استوكهولم ومنذ ذلك الحين يعيش وهو فاقد الإدراك .

— يبدو أنه لطيف المعشر .

— ولكن ينبغي أن تكون حريصاً عندما تراه إذ إنه يتلذذ بتعذيب أصدقائه . مارأيك يا فان جوخ في أن تسمح لي بأن أصبحك لرؤية المولان روج والاليزيه مونمارتر ؟ إنني أعرف كل الفتيات هناك . أتعشق النساء يا فان جوخ ؟ أقصد أنتحب أن تبيت معهن ؟ أما أنا فأعشقهن فما رأيك في أن نقضى ليلة يوماً ما ؟

- لا مانع .

- رائع . أعتقد أنه آن لنا أن نعود لاستوديو كورمان . مارأيك في قليل من الشراب قبل أن نذهب ؟ إليك الآن كأسا آخر لتفرغ الزجاجاة . احترس وإلا قلبت هذه المنضدة . لا بأس فسوف تتكفل الخادمة برفع كل هذا النفايات وإنى أعتقد أنى سأضطر إلى الانتقال من هنا قريباً جداً . إنى فى رغد من العيش يا فان جوخ فالذى يخشى أن ألعبه لأنه أنجب كسيحاً مثل ولدا فإنه يعطينى كل ما أطلبه ، وأنا لا أجد معى سوى لوحاتى عند ما أنتقل من مكان وأستأجر لى استوديو خالياً تم أشتري الأشياء واحدة واحدة . وعندما أضيق به ذرعاً أنتقل منه مرة أخرى . وبهذه المناسبة أى نوع تفضل من النساء ؟ الشقراوات أم ذوات الشعر الأحمر ؟ لا تهتم بالإغراء . تأمل كيف تناسب هذه السقوف المعدنية إلى بوليفار كليش . كأنها محيط أسود . أوه يا للجحيم ! لا داعى لأن أنتظر أمامك بهذا فأنا أستند على هذه العصا وأشير إلى المناظر الجميلة لأن الله خلقنى عاجزاً ولا أستطيع السير أكثر من بضع خطوات فى كل مرة ! لا بأس فكلنا عاجزون فى ناحية ما . هيا بنا .

* * *

(٤)

وبدأ له الأمر سهلاً فشكل ما عليه أن يعمل هو أن يلقي بلوحة ألوانه القديمة ويشترى بعض الألوان الفاتحة ويصور كأي انطباعي . وما إن انتهى أول يوم من هذه التجربة حتى دهش فنسنت وثار قليلاً وفي نهاية اليوم الثاني تملكته الحيرة وتناوبته مشاعر الحزن والغضب والخوف وفي نهاية الأسبوع كان في أشد حالات الحنق والغضب فبعد أن أمضى شهوراً مضنية في تجاربه مع الألوان اكتشف أنه ما يزال في بداية الطريق فقد كانت لوحاته قائمة كئيبة وألوانها لزجة . وكان لوتريك يجلس في استديو كورمان بجانب فنسنت يرقب تصويره ويلعن أسراب الذباب ولكنه أحجم عن تقديم أية نصيحة له .

وإذا كان هذا الأسبوع قد مر قاسياً على فنسنت فإنه كان أقسى ألف مرة على ثيو ولا عجب فقد كان ثيو لطيف المعشر ، كريم الأخلاق ، رقيقاً في عاداته ومعيشتته ، وكان متأنقاً إلى أقصى حد في ملبسه ، دمثاً في حديثه ، يحافظ على أناقة منزله وعمل عمله ، ولم يكن يملك إلا جزءاً صغيراً من قوة فنسنت وحيويته الدافقة .

وكانت الشقة الصغيرة التي يسكنها في شارع لا فال لا تكاد تتسع لثيو وأثاثه المش من طراز لويس فيليب ولم يكد ينتهي الأسبوع الأول حتى أحال فنسنت المكان إلى حانوت لسقط المتاع فقد كان يذرع غرفة المعيشة ويركل قطع الأثاث التي تعترض طريقه ويلقي باللوحات والفراجين ويفرغ أنايب الألوان على أرض الحجر ويرصع الأرائك والمناضد بملابسه المتسخة وأطباقه المكسورة ويلوثها برذاذ طلائه وبالجملة فقد قلب حياة ثيو الذي كان يحرص على التمسك بأهداب آداب السلوك

وصاح ثيو :

— فنسنت ، فنسنت لا تكن حاد الطبع إلى هذا الحد !

وكان فنسنت يذرع أرض الشقة الصغيرة وهو يعض على أصابعه
ويتمتم بكلمات لنفسه ثم تهالك جالساً في أحد المقاعد الخشبية وزجر قائلاً :

— لاجدوى من هذا فقد بدأت متأخراً جداً وبلغت من السكبر سنأ
لا أستطيع فيه أن أغير ما بنفسى — رباه لقد تعبت ياثو ! وفي هذا
الأسبوع بدأت في رسم عشرين لوحة ولكنى لم أستطع أن أبدأ من جديد
فسرعان ما تغلب على طريقتى في التنفيذ الفنى وهأنذا أعترف لك بأنى
انتهيت ! ولن أستطيع العودة إلى هولندا لتصوير الأغنام بعد ما شهدته
عيناى هنا . لقد أتيت متأخراً جداً لأشق طريق الرئيسى إلى ميدان الفن
رباه ماذا عساى صانع ؟

وقفز ثم سار نحو الباب وهو يترنح ليلمس بعض الهواء النقي ثم أغلقه
بعنف ورفع مصراع النافذة ليفتحها ويحلق لحظة في مطعم « باتاى » ثم
أغلق النافذة بشدة حتى تحطم زجاجها تقريباً وسار نحو المطبخ في خطوات
واسعة ليطفىء ظمأه وسكب على أرض الحجرة نصف الماء ثم عاد إلى
غرفة المعيشة والماء يسيل على جانبي ذقنه .

— حسناً ، مارأيك ياثو ؟ أينبغى أن استسلم للقنوط ؟ هل انتهى
أمرى ؟ يبدو أن الأمر هكذا ، اليس كذلك ؟

— فنسنت ، إلك تنصرف كالأطفال . هل لك أن تهدأ لحظة وتصفى
إلى . لا ، لا ، قف ولا تذرع الحجرة هكذا حتى أستطيع أن أحدث إليك ،
وبالله هلا خلعت هذا الحذاء الثقيل إذا كنت تنوى أن تركل به هذا
السكرسى المموه بالذهب كلما مررت به .

— لقد تركتك ياثو تعولنى ست سنوات طوال ، فما الذى حصلت
عليه فى مقابل هذا ؟ مجموعة من الصور السمرام القائمة ورجل فاشل
لا أمل فيه .

— اسمع يا بنى العزيز . عندما أردت تصوير الفلاحات هل استطعت أن تلم بكل دقائق التصوير فى أسبوع أم أن الأمر اقتضى منك خمس سنوات ؟

— هذا حق ولكنى كنت ما زلت مبتدئاً .

— وما أنت تبدأ اليوم بتعلم الألوان ! هذا قد يستغرق منك خمس سنوات أخرى .

— ولكن ألا يمكن أن ينتهى هذا يا ثيو ؟ أليزغى على أن أتردد طوال حياتى على المدرسة ؟ لقد بلغت الثالثة والثلاثين من عمرى فتنى بحق الله أصل إلى مرحلة النضوج ؟

— هذه آخر تجربة لك يا فنانة وقد رأيت كل شئ يتم تصويره فى أوربا وأعمال الرجال التى تقبع فى طابق الأسفل هى آخر صيحة فى التصوير وعندما تخفف الوانك . . .

— أواه يا ثيو ! أعتقد أن هذا فى استطاعتى ؟ ألا تظن أنى فاشل ؟

— بل لى أمل إلى الاعتقاد بأنك غبى أحق : أريد أن تتقن فى أسبوع واحد قواعد أعظم ثورة حدثت فى تاريخ الفن ؟ هيا بنا فنزه على التل ونرطب رموسنا بالهواء فلو مكثت معك فى هذه الحجرة خمس دقائق أخرى فقد انفجر .

وفى عصر اليوم التالى قام فنانة بتصوير رسوم تخطيطية باستديو كورمان وظل به لساعة متأخرة ثم ذهب إلى ثيو فى قاعة جويليل .

وكانت السماء فى أوائل شهر أبريل مصبوغة بلون الشفق وكانت صفوف المباني ذات الطوابق الستة تسبح فى ضوء قرنفلى اللون — وكانت كل باريس تتناول المشروبات وغصت المقاهى التى على جانبي شارع مونمارتر

رجال يتحادثون مع أصدقائهم ومن داخل المقاهى كان ينفث صوت
موسيقى هادئة يعزفونها للقرويح عن الباريسيين بعد ما كابدوه في يومهم من
عناء ، وكانت المصاييح الغازية تضاء والنذل يبسطون المفارش على الموائد
في المطاعم والموظفون في المصالح يجذبون مصاريع النوافذ من الحديد
المموج ويفرغون البضائع من الصناديق الموضوعة على الجوانب وأخذ ثيو
وفنسنت يتجولان على مهل وعبرا ميدان شاتودن بضوضائه التى تصدر
من العربات القادمة إليه من الشوارع الستة المؤدية إليه ، ومرا بنوتردام
دى لوريت ثم عرجا على التل ووصلا إلى شارع لافال .

— هل لنا أن نتناول فاتحا للشهية يا فنسنت ؟

— لا مانع ولنجلس في مكان نستطيع أن نشهد منه الجمهور .

— إذن لنذهب إلى مطعم باتاى فى شارع ديزاييس فقد يهبط علينا
بعض أصدقائى .

وكان يتردد على مطعم باتاى كثير من المصورين ولم يكن فى مقدمته
من الخارج إلا أربع أو خمس موائد ولكن كانت فى داخله غرفتان
رحبتان .

وكانت مدام باتاى تتقدم الفنانين دائما إلى إحدى الحجرتين وتقود
البورجوازيين إلى الأخرى وكانت تستطيع أن تدرك من أول نظرة لآى
الطبقتين ينتمى أى رجل . وصاح ثيو :

— أيها اللنادل : هات زجاجة من شراب كوميل أكاو .

— وبما تشير على ياثيو ؟

— جرب شراب الكوانترو يجب أن تشرب على سبيل التجربة فترة
حتى تهتدى إلى مشروبك المفضل .

ووضع الساقى أمامهما زجاجتى شرابهما على طبقين وقد كتب عليهما
الثن بحروف سوداء وأشعل ثيو سيجارا بينما أشعل فنسنت غليونته .

ومرت بهما الغسالات وهن يرتدين مآزر سوداء ويحملن فى أذرعهن
سلالا مليئة بالملابس المسكوية كما مر بهما عامل يخطر ومعه سمكة من نوع
الرنجة غير ملفوفة وكان يحملها من ذيلها وشاهداً مصورين يرتدون أسمالا
ومعهم لوحات لم يجف بعد طلاؤها وقد ثبتت فى الحامل ورجال أعمال
على رؤوسهم قبعات من نوع الدرب يرتدون سترات رمادية مبرقشة
وربات لليوت يفتعلن خفافا من القماش ويحملن زجاجة نبيذ أو قطعة من
اللحم لفت فى ورقة . ونساء جميلات يرتدين جونلات طويلة فضفاضة
تضيّق عند الوسط وتدلّ على رؤوسهن قبعات صغيرة يزينها الريش .

— أليس هذا استعراضاً رائعاً يائيو ؟

— بلى فيباريس لا تصحّو قبل تقديم أطباق فوايح الشبهة .

— كنت أحاول أن أفكر ما الذى يجعل من باريس تلك المدينة الرائعة ؟

— بصراحة لا أدري فهذا لغز قديم وأعتقد أن السر يكمن فى طبيعة
الفرنسيين أنفسهم فهنا يتمتع الناس بحرية نموذجية ويعيشون فى تسامح
شديد ويتقبلون الحياة كما هى . هالو ! هاهو أحد أصدقائى وهودى أن
تقابله . مساء الخير يا بول . كيف حالك .

— بخير . أشكرك يائيو .

— هل لى أن أقدم لك أخى فنسنت فان جوخ ؟ فنسنت هذا بول
جوجان . اجلس يا بول لتشرب زجاجة من الأيسنت الذى لاغنى لك عنه .

ورفع جوجان زجاجة الأيسنت وذاق الشراب بطرف لسانه ثم أطبق
عليها بقمه والتفت إلى فنسنت وقال :

- ما رأيك في باريس يا سيد فان جوخ ؟
— إنى أحبها كثيراً .
— حقاً ! هذا غريب . بعض الناس ما يزالون يحبونها أما أنا فإني أراها
علبة هائلة لسقط المتاع وفيها حثالة الحضارة .
— إن شراب السكواترو لم يعجبني كثيراً يا ثيو ، فهل لك أن تشير
على بشيء آخر ؟
فقال جوجان :
— جرب شراب الأيسنت يا فان جوخ فهو في نظري الشراب الوحيد
الجدير باهتمام أى فنان . .
— ما رأيك يا ثيو ؟
— ولم تسألنى ؟ جرب بنفسك . أيها النادل زجاجة من شراب الأيسنت
للسيد . يبدو أنك راض عن نفسك اليوم يا بول فماذا حدث ؟ هل بيعت
إحدى لوحاتك ؟
— لم يحدث شيء من هذا القبيل يا ثيو ولكنى مررت بتجربة شائقة في
هذا الصباح ؟
فغمز ثيو بعينه لنفسه وقال :
— هلا حدثتنا عنها يا بول . أيها النادل ! زجاجة أخرى من الأيسنت
لمسيو جوجان .
وتذوق جوجان شرابه الجديد من الأيسنت بطرف لسانه وبلل حلقه
بجرعة ثم بدأ يقول :
— أتعرف ذلك الزقاق المسدود ، أمياس فرنييه ، الذى يتفرع من
شارع دى فوردنو ؟ حسناً . فى الساعة الخامسة من صباح اليوم سمعت الأم
فورييل زوجة سائق عربة النقل تصيح « النجدة ! لقد شق زوجى نفسه ! »

فقفزت من فراشى وارتديت سراويل (وهى كل ما أملك من متاع الدنيا) واختطففت مديّة وهبطت السلم وقطعت الحبل وكان الرجل قد مات ولكن جسده كان ما يزال دافئاً ودمه ما يزال حاراً وأردت أن أحمل الرجل إلى فراشه ولكن الأم فوريل صرخت فى قائلة :

— قف ! يجب أن ننتظر حتى يأتى رجال الشرطة !

ولما كان منزلى يطل من الجانب الآخر على فراش بستانى السوق فقد ناديت البستانى قائلاً :

— « أعندك بطيخة صفراء ، ؟ فأجاب قائلاً ، نعم ياسيدى وبطيخة ناضجة ، وتناولت بطيختى فى طعام الإفطار دون أن أفكر فى الرجل الذى شق نفسه فالحياة حلوة كما ترى ولكل سم ترياق . وقد دعيت لتناول طعام الغداء فارتديت أحسن قمصانى وفى ليتى أن أدخل السرور على قلوب أصحابى وحدثهم بالقصة فابتسموا ولم يدوا أى اهتمام بل إنهم طلبوا منى قطعة من الحبل الذى شق به الرجل نفسه .

وتطلع فنسنت باهتمام إلى بول جورجيان . وكانت له رأس همجي كبيرة وشعره أسود وله أنف ضخم ينحدر من طرف عينه اليسرى إلى الركن الأيمن لفمه وكانت عيناه واسعتين بارزتين كلوزتين تنبعث منهما نظرات سودارية وحشية وفرق عينيه تنوء من العظام وتحتهما خدان مستطيلان وذقن عريضة — كان رجلاً عملاقاً يتمتع بحيوية متدفقة .

وابتسم ثبو ابتسامة خفيفة وقال :

— أخشى يا بول أن تكون مصاباً بالصادية فلا يمكن أن يكون تلذذك برؤية هذا المشهد طبيعياً تماماً . والآن يجب أن أنصرف لارتباطى بموعد سابق لتناول طعام الغداء . أقدم أنت معى يانفنت ؟

فقال جورجيان :

— بل دعه يبق معي ياثيو فانا أريد أن تتوثق صلاتي بشقيقك .
— حسن جداً ولكن إياك أن تدعه يجرع كثيراً من شراب
الابسنت فإنه لم يتعود على هذا . كم الحساب أيها النادل ؟
وقال جوجان :

— إن أخاك على حق يافنسنت وإذا كان ما يزال يتميب عرض
أعمال صغار الفنانين فإني أعتقد أن فالدون يضطره لفعل هذا .
— ولكنه يعرض لوحات لموفيه وسيسلي وبيسارو ومانيه في الشرفة .
— هذا حق ولكن أين أعمال سيرا ؟ وجوجان ؟ وسيزان وتولوز
لوتريك ؟ لعمري إن الفنانين الآخرين يكبرون في السن ويسرقهم الوقت .
— آه إذن فأنت تعرف تولوز لوتريك ؟

— هنري ؟ طبعاً ! ومن لا يعرفه ؟ إنه مصور عظيم ولكنه مجنون إذ
يعتقد أنه مالم يبت مع خمسة آلاف امرأة فإنه دليل على أنه ليس كامل
الرجولة وهو يستيقظ كل صباح وقد برح به الألم بسبب ما يعانيه من نقص
لعجز ساقيه وفي كل ليلة يغرق هذا الإحساس بالنقص في كئوس
الشراب وبالتمرغ في أحضان امرأة ولكنه في اليوم التالي يعاوده ولولم
يكن مجنوناً لكان واحداً من أحسن مصورينا . لسوف ندلف إلى هنا
فلاستديو الخاص بي في الطابق الرابع — تنبه إلى هذه الدرجة فهي
مكسورة .

وصعد جوجان ثم أضاء مصباحاً ليرى فنسنت حجرة صغيرة تقع في
أعلى المنزل بها حامل للرسم وسرير من النحاس الأصفر ومنضدة وكرسي
وفي قبوة قرب الباب شاهد فنسنت بعض الصور الفوتوغرافية البديئة .

— هل أستطيع أن أقول بعد رؤية هذه الصور إن أفكارك عن الحب
ليست سامية .

— ترى أين تجلس فوق الفراش أم على المقعد ؟ هناك فوق المائدة
بعض التبغ لحشو غليوةك . حسنا ، إننى أحب النساء على أن يكن بدينات
وحليعات وإنى لأضيق ذرعاً بكل امرأة ذكية وطالما تمنيت أن تكون لى
عشيقه بدينة ولسكنى لم أعثر قط على واحدة من هذا النوع ولهذا فإهن طالما
سخرن بى لأسببها ومن حاملات . هل قرأت قصة نشرها شاب يدعى
موباسان فى الشهر الماضى ؟ إنه تحت وصاية زولا وقصته عن رجل يحب
أمرأة بدينة وفى ليلة عيد الميلاد أعد مائدة هشاء لشخصين وانطلق خارجا
ليأتمس رفيقة تؤنسهُ فلقى امرأة تناسبه تماماً ولكنهما ما إن بدأ فى تناول
المشويات حتى ولدت طملا يتفزع ويتشى ؟

— ولكن هذا لا علاقة له بالحب إلا قليلا يا جوجان .

فتمدد جوجان فوق الفراش ووضع تحت رأسه ذراعا ملفوفة
العضلات وأخذ ينفخ سحب الدخان على العارضات الخالية من الطلاب ثم قال :
— لا أقصد أن أقول إننى لا أتأثر بالجمال يا فتنتى ولسكنى فقط
لا أعيره وزنا فأنا لا أعرف الحب كما ترى وقولى عبارة : أنا أحبك ،
قد يحطم كل أسنانى ولسكنى ليس لدى ما أشكومنه وإنى لأتمثل بقول المسيح
« الجسد هو الجسد والروح هى الروح ، وشكراً لهذا فبلغ قليل من المال
يكفى لإشباع مطالب جسدى وترك ردى فى سلام .

— لعمري إنك تأخذ الأمور بمنتهى البساطة !

— لا ، فاختيار من تشا طرنى الفراش ليس أمراً سهلاً وإنى لأحس
بلذة مضاعفة مع المرأة التى تشا طرنى الالة ولسكنى أفضل الاكتفاء
بالاتصال البدنى الأجوف ولا أتورط فى الانفعالات بل أوفرها للتصوير .

— كنت سأعرف هذا مؤخرا . ، شكراً فلا أعتقد أنى سأتحمل مزيدا
من الابسنت . كلا مطلقاً هيا بنا فاخى ثيو يعتقد أن أعمالك راتعة فهل لى
أن أرى بعض دراساتك ؟

فوثب جوجان وقال :

— كلا فدراساني شخصية ولا تخص أحداً سوى مثل خطاباتي ولكن
سأريك لوحاتي ولأمكنك أن تستطيع الرؤية بوضوح في هذا الضوء . حسناً ،
لأبأس مادامت تصر .

وركع جوجان على ركبتيه وجذب كومة من اللوحات من تحت
الفراش وأوقفها واحدة بعد أخرى وأسندها إلى زجاجة الأيسنت على
المائدة وكان فنسنت يتوقع أن يرى شيئاً غير عادي ولكنه لم يشعر
إلا بالدهشة والذهول عندما رأى أعمال جوجان فقد شاهد مجموعة مهوشة
من الصور التي تسبح في ضوء الشمس رسم فيها أشجاراً لم يكتشفها بعد أي عالم
بالنبات وحيوانات لم يشك في وجودها كوفييه ورجالا من خلق خيال
جوجان وحده وبحراً من المحتمل أن يكون من فيض بركان وسما لا يمكن
أن يسكنها إله وشاهد صوراً سمجة كثيرة الزوايا لوطنيات تخفي عبوسهن
البدائية الساذجة سر اللانهاية . لوحات حاملة فغدت بألوان صارخة قرنفلية
وبنفسجية وحمراء مرتعشة ومناظر كلها زخرفية تتفجر فيها مجموعة من النباتات
والحيوان بفعل حرارة وضوء الشمس .

وغنم فنسنت قائلاً :

— إلك كلوتريك .. تذكره ، تذكره بكل ما فيك من قوة .

فضحك جوجان وقال :

— مارأيك في تصويري يا فنسنت ؟

— بهراحة لا أدرى . أمهلني بعض الوقت لأفكر في الأمر واسمح
لي بالعودة لمشاهدة أعمالك مرة أخرى .

— تعال وقتها تحب فليس في باريس اليوم من يجيد التصوير مثلي سوى
شاب واحد هو جورج سيرا وهو مثلي يحب الرسم البدائي . أما باقي الحق
في باريس فإنهم مهذبون .

وتساءل فنسنت

— جورج سيرا؟ لا أعتقد أنى سمعت عنه

لا، إنك لم تسمع عنه فليس فى المدينة تاجر يقبل عرض لوحاته ومع ذلك فهو مصور عظيم .

— بودى أن أقابله يا جوجان .

— سأأخذك معى إلى هناك فيما بعد — ماقولك فى أن تتناول طعام

للغشاء عند بروان . هل معك أى نقود؟ ليس معى إلا فرنكان ولذا بحسن بنا أن نأخذ معنا هذه الزجاجة . هيا انصرف أنت أولا وسوف أحمل لك المصباح حتى نقطع نصف الطريق ولا تدق عنقك .

* * *

(٥)

كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً عندما انطلقا إلى بيت سيرا .
وسأله فنسنت .

— ألا تخشى أن توقظه ؟

— كلا وربى إني أنه يعمل طوال الليل ومعظم النهار ولا أظن أنه ينام ،
هـاهو المنزل وهو ملك لوالدة جورج وقد قالت لي مرة :

« ابني جورج يريد أن يصور ، حسن جداً فليصور فلدى من المال
ما يكفيننا نحن الاثنين طالما أن هذا يسعده ، وهو ابن بار بها ولا يشرب
ولا يدخن ولا يسب ولا يخرج لمطاردة السيدات ولا ينفق نقوداً على أى
شئ سوى مواد الرسم وليس له إلا رذيلة واحدة هي الرسم وقد سمعت أن
له عشيقة وابناً يعيشان بالقرب منه ولكنه لم يحدثنا عنهما قط .

وقال فنسنت :

— أرى أن المنزل يسوده الظلام فكيف ندخل دون أن نوقظ كل
أفراد الأسرة ؟

— إن جورج في الطابق الأعلى ومن المحتمل أن نرى ضوءاً من الجانب
الأخر وعندها نقذف نافذته بحصاة ويجدر بك أن تترك فعل هذا لي لأنك
إذا لم تقذف بها المكان الصحيح فقد تصيب النافذة التي في الطابق الثالث
وتوقظ والدته .

ونزل جورج سيرا ليفتح الباب ووضع أصبعه على شفتيه وتقدمهم
ليصعد بهم ثلاثة طوابق على السلم ثم أغلق خلفه باب الغرفة التي تقع في أعلى
المنزل . وقال جوجان .

— جورج أرد أن أقدم لك فنسنت فان جوخ شقيق ثبو وهو
يرسم كأي هولندي ولكن بعض النظر عن هذا فإنه رفيع لطيف المعشر .

وكانت غرفة سيرا في أعلى المنزل واسعة جداً وتمتد تقريباً بطول المنزل وعلى الجدران كانت لوحات هائلة لم تتم بعد وأمامها صقالة وتحت المصباح الغازي وضعت مائدة عالية مربعة وفوق هذه المائدة وضعت لوحة لم تحف ألوانها بعد . وقال :

— يسرني أن أتعرف بك ياسيد فان جوخ . أرجو أن تأذن لي ببعض دقائق . أسمع لي؟ ينبغي أن أملأ فراغ مربع صغير قبل أن يحف اللون .

وصعد فوق مقعد عال بلا ظهر وجثا فوق لوحته وكان المصباح الغازي يشتعل بلهب صغير ثابت وكان ما يقرب من عشرين وعاء من الأوعية الصغيرة للألوان قد رصت على المنضدة على شكل خط مستقيم وخمس « سيرا » طرف أصغر فرشاة للرسم ، رآها فنسنت في حياته ، في أحد هذه الأوعية وبدأ يضع نقطة صغيرة من اللون ، على اللوحة في دقة حساية متناهية وكان يعمل بهدوء وبدون أي انفعال وكانت طريقته بعيدة وآلية نقطة وراء نقطة وكان يمسك بفرشاة مستقيمة في يده ولا يكاد يغمسها في وعاء اللون ثم يرسم نقطة وراء نقطة على اللوحة القماشية ، مئات من النقاط الدقيقة .

وأخذ فنسنت يرقبه وقد فخر فاه وأخيراً استدار « سيرا » على مقعده وقال :

— ها أنذا قد جوفت هذه المساحة .

وقال جوجان :

— أسمع بأن تريها لفنسنت يا جورج؟ إنه قادم من مكان لا يصورون فيه إلا البقر والأغنام . ولم يعرف أن هناك فنا حديثاً إلا منذ أسبوع .

— تفضل بالجلوس على هذا المقعد ياسيد فان جوخ .

جلس فنسنت على المقعد وأخذ يتطلع إلى اللوحة المنشورة أمامه ولم تكن شبيهة بأي شيء سبق له أن رآه سواء في ميدان الفن أو في الحياة

وكان المنظر يمثل جزيرة جرانديجات بها مخلوقات بشرية رسمت بأسلوب معماري من نقط لانهاية لها بالوان متدرجة وكانت تقف كبرجين في كاتدرائية من الطراز القوطي . وكانت الحشائش الخضراء والنهر والقوارب والأشجار كلها عبارة عن مجموعة غامضة ومبهمة من النقط الضوئية وصورت اللوحة ما في الألوان من ظلال خفيفة وكانت أحف من الألوان التي جرؤ على استعمالها كل من مانيه أو ديكا أو حتى جوجان في لوحاته . وكانت الصورة انسحابا إلى منطقة الهارموني المجرد تقريبا ولو قدر لها أن تنبض بالحياة لما كانت حياة طبيعية فقد كان الهواء يملؤها بإضاءة متألقة خالية من الأنفاس . وكانت طبيعة صامتة للحياة مهتزة تجردت للأبد من كل حركة . ووقف جوجان إلى جانب فنسنت وضحك عندما شاهد ما ارتسم على وجهه من تعبير وقال .

— هون عليك يا فنسنت فلوحات جورج تذهل كل من يراها لأول مرة . دعنا من هذا وقل لي ما رأيك .

فالتفت فنسنت إلى سيرا وقال معتذرا :

— أرجو أن تغفر لي ياسيدي ولكنني صادفت في الأيام القليلة الماضية كثيراً من الأشياء الغريبة لدرجة أفقدتني الاتزان وقد تدربت على الرسم بالطريقة الهولندية التقليدية ولم تخالجنى أى فكرة عما يمثلها الانطباعيون والآن فيني أجد فجأة أن كل ما آمنت به قد أصبح منبوذا .

فقال سيرا :

— إنني أقدر موقفك فطريقتي ثورة على كل فن التصوير ولهذا فيني لا أتوقع منك أن تقبلها من أول نظرة وكان فن التصوير — كما تعرف ياسيدي وحتى وقتنا هذا — مسألة تخضع للخبرة الشخصية ولذا فيني أهدف إلى أن أجعل منه علما مجردا ولهذا يجب أن تعلم كيف ترتب بطريقة منطقية معلوماتنا عن الإحساسات التي تخالجننا ونتوصل إلى ضابط أفكارنا

رباضيا وكل إحساس بشرى يمكن بل ويجب أن يقلل حتى يصبح عبارة مجردة من اللون والخط ودرجة اللون (التون) . هل رأيت أوانى اللون على ماقدتى ؟

— أجل لقد لاحظتها .

— كل واحد من هذه الأوانى يأسيد فان جورج يحتوى على عاطفة إنسانية معينة ويمكن حسب مواصفات علمها فى المصانع وبيعها فى الصيدليات ولا ضرورة بعد ذلك لمزج الألوان فى لوحة (البالت) كيفما اتفق فهذا أسلوب انتهى زمنه ومن الآن فصاعدا يمكن للصور أن يذهب إلى الصيدلية ويرفع فقط أغشية الأوانى الصغيرة بحثا عن اللون المنشود . إن هذا عصر العلم ، وسوف أجعل من فن التصوير علما يدرس فالشخصية يجب أن تختفى ويصبح الرسم فنا هندسيا دقيقا كفن العمارة . أفاهم أنت ما أقول يا سيدى ؟

فقال فنسنت :

— كلا أخشى ألا أكون قد فهمت .

فلكن جورج فان فنسنت وقال :

— اسمع يا جورج . لماذا تصر على القول بأن هذه الطريقة من ابتكارك ؟ لقد مارسها بيسارو قبل أن تولد .

— هذا كذب .

وتورد وجهه سيرا وقفز من فوق مقعده وهرب إلى النافذة وأخذ يبق بأصبعه على الأسكفة ثم عاد وهو يندفع كالعاصفة وقال :

— من قال إن بيسارو مارسها قبلى ؟ إنى أقول لك إنها من ابتكارى وكنت أول من فكر فيها وقد تعلم بيسارو طريقته التقييمية منى وقد اطلعت على تاريخ الفن منذ عهد الإيطاليين الأوائل وأقول لك إن أحدا لم يفكر فيها قبلى فكيف تجرؤ ... !

وعض على شفثيه في وحشية ثم سار إلى إحدى صقالاته وأدار ظهره
المحذب إلى فنسنت وجوجان .

وذهل فنسنت تماماً لما طرأ عليه من تبدل فقد كانت تقاطيع الرجل
المنحني على لوحته المنشورة فوق المنضدة باردة تماماً كتمثال من رخام
وكانت عيناه هادئتين كأن الأمر لا يعنيه وما أشبه به بعالم منسكب على عمله في
معمله وانساب صوته بأدرا كما لو كان يلقي محاضرة تربوية وكان يظلل
عينيه نفس القناع التجريدي عندما اتى بلوحاته كان غير الرجل الذي رآه
في طرف الحجرة التي في أعلى المنزل والذي كان يعض على شفثيه السفلى
الغليظة الحمراء البارزة من بين لحيته المستديرة وكان في سورة غضبه يغفل
خصلات شعره الأسود الذي صفقه بعناية من قبل .

وقال جوجان وهو يغمز بعينه لفنسنت .

— أوه هون عليك يا جورج فكل واحد يعرف أن الطريقة من
ابتكارك ولولاك لما كان هناك أسلوب الترقية .

فسكن غضب سيرا وعاد إلى المنضدة وبدأت سورة الغضب تختفي في
بطء من عينيه . وقال فنسنت :

— يا سيد سيرا كيف يمكن أن تجعل من فن التصوير علماً مجرداً
طالما أنه أساساً تعبير عما يحس به الفرد ؟

— اسمع ! ساريك .

واختطف سيرا صندوقاً للألوان من فوق المنضدة وجثا فوق الأرض
الخشبية العارية وكان المصباح الغازي يرسل ضوءاً خافتاً فوق رؤوسهم في
سكون الليل التام وركع فنسنت بجانبه بينما جلس جوجان القرفصاء على
الجانب الآخر وكان سيرا ما يزال مهتماً بما أخذ يتكلم بحدة ونشاط وقال :
— في رأي أن كل المؤثرات في فن التصوير يمكن أن تمثل في صيغ .
لفرض أني أريد أن أرسم منظر أفي سيرك وها هو حصان هاري الظاهر وأمامه

المدرّب وهنا القاعة والمتفرجون وأنا أريد أن أرسم لوحة توحى بالمرح
فما هي العناصر الثلاثة للتصوير ؟ الخط والتون واللون . حسن جداً . لكن
أضني المرح أرسم كل خطوطى فوق الخط الأفقى هكذا وأجعل الألوان
الفاتحة هي الحالية هكذا والتون دافئاً هكذا . ها هي ذى ! ألا توحى إليك
بالمرح المجرد ؟

فأجاب فنسنت :

- حسناً ، إنها قد توحى بالمرح مجرداً ولكن ليس فيها المرح نفسه .
فتطلع إليه سيرا وهو جاثم فى مكانه ورغم اختفاء وجهه فى الظلام
فقد لاحظ فنسنت جمال وجه الرجل .
- إنى لا أسمى وراء المرح ذاته بل أنشد جوهر المرح . أتعرف
أفلاطون يا صديقى ؟
- أجل .

- حسن جداً . إن ما يجب على المصورين أن يتعلموه هو تصوير
جوهر الشيء لا الشيء ذاته . وعندما يصور الفنان حصاناً يجب ألا يرسم
حصاناً معيناً بالذات تستطيع أن تتعرف عليه عندما تراه فى الشارع
فالكاميرا تستطيع أن تلتقط صوراً فوتوغرافية بل يجب أن تفعل شيئاً
أكثر من هذا وما ينبغى علينا أن نسجله عندما نصور حصاناً يا سيد .
فإن جوخ هو الصفة المميزة للحصان كما ذكرها أفلاطون أى الجوهر
الخارجى للحصان . وعندما نصور رجلاً فينبغى ألا نصور حارس الباب
وهو أنفه ثولولة بل الصفة المميزة للرجل . روح وجوهر كل رجل -
هل فهمت ما أعنيه يا صديقى ؟

فقال فنسنت :

- نعم ولكنى لا أتفق معك فى رأى .

- سنتفق فيما بعد .

ونمض سيرا وخلع سماقه ومسح به صورة السيرك التى رسمها على الأرض ثم أردف قائلا :

— والآن لننشر على المسدود . ها أبدا أقوم برسم منظر فى جزيرة جرانديجات وأرسم كل خطوطى أفقية هكذا وبالنسبة للتون فإنى أساوى بين الهدافى والبارد وبالنسبة للون أسوى بين الظلام والضوء وهكذا . هل تراها ؟

فقال جوجان .

— استمر يا جورج وكف عن توجيه هذه الأسئلة السخيفة .

— والآن يأتى دور تصوير الحزن فترسم كل خطوطنا بحيث تسير فى اتجاه نازل هكذا ونجعل التونات الباردة هى الغالبة هكذا والألوان القائمة هى السائدة هكذا . ها هو ذا جوهر الحزن أى طفل يستطيع رسمه فالصيغة الرياضية بتركيب نسب معينة لرسم الفضاء فى لوحة سوف تنشر فى كتيب صغير وقد توصلت أنا إليها وما على المصور إلا أن يقرأ الكتاب ويذهب إلى الصيدلى ويشترى الألوان المعينة للون المطلوب وينفذ القواعد المكتوبة وبذا يكون مصورا كاملا يرسم بطريقة علمية ويستطيع أن يعمل فى ضوء الشمس أو فى ضوء مصباح غازى ويجوز أن يكون راهبا أو داعرا ولا يهم إن كان فى السابعة أو فى السبعين من عمره وكل الرسوم يمكن أن تصل إلى درجة من الكمال المعمارى المجرد .

فأخذ فنسنت يطرف بعينه وضحك جوجان وقال :

— إنه يعتقد أنك مجنون يا جورج

فمسح سيرا رسمه الأخير بسماقه وقذف به فى ركن مظلم ثم سأله .

— أحقا ما يقول يا سيد فان جوخ ؟

فقال فنسنت محتجا .

— لا لا . فطالما وصمونى أيضا بالجنون حتى أصبحت أستعذب سماع

كلمة مجنون ولكن ينبغى أن أقرر لك أن أفكارك غريبة جدا !

فقال جوجان .

— إنه يقصد أن يقول يا جورج

وسمعوا طريقة حادة على الباب فزجر جوجان قائلاً .

— رباه ! لقد أيقظنا والدتك مرة أخرى ! ولقد سبق أن أبلغتني
بأنها ستستخدم معي فرشاة الشعر إذا لم أبتعد من هنا في الليل .

— ودخلت والدته سيرا وكانت ترتدى فستاناً ثقيلاً وقلنسوة
للنوم وقالت :

— لقد وعدتني يا جورج ألا تعمل طول الليل بعد ذلك . أوه . أهذا
أنت يا بول ؟ لم لا تدفع لإيجار بيتك ؟ فتجد مكاناً تبيت فيه بالليل .

— لو قبلت أن أفهم هنا أيتها الأم سيرا . فلن أكون ملزماً بدفع أى
إيجار مطلقاً .

— لا ، شكراً . يكفي وجود فتان واحد فى الأسرة . لقد أحضرت
لك بعض القهوة والكعك وإذا كان لابد أن تعمل فينبغى أن تأكل .
أظن أنه يجب أن أنزل لإحضار زجاجتك من الآبست يا بول .

— لهالك لم تشربها كاماً أيتها الأم سيرا ؟

— بول ، تذكر ما قلته لك عن فرشاة الشعر .

وبرز فنست من الظلام فقال سيرا .

— أماء هذا صديق جديد تعرفت به إنه فنسنت فان جوخ .

فصاغت الأم سيرا وقالت :

— إنى أرحب بقدوم أى صديق لابنى حتى لو حضر فى الساعة الرابعة

صباحاً ، ماذا تحب أن تشرب يا سيدى ؟

— لو سمحت سأتناول كأساً من الآبست مع جوجان .

فصاح جوجان قائلاً :

— هذا لا يمكن ! فالأم سيرا تصرف لي حصه محددة ولا تسمح لي
إلا بوجاجة واحدة كل شهر ولذا أرجو أن تشرب شيئاً آخر وإن يفرق
حلقك الجاهل بين الأيسنت والشاريز الأصفر .

وجلس الرجال الثلاث والأم سيرا يتحدثون ويرتشفون القهوة
ويأكلون الكدك حتى أشرق الفجر ورسمت أشعة الشمس مثلثاً صغيراً
من الضوء الأصفر على النافذة الشمالية وقالت الأم سيرا .

— يجب أن أرتدى ملابسى فقد طلع النهار وأرجو أن تحضر ليلة
يا سيد فان جوخ لتناول العشاء معنا أنا وجورج وإنه لمن دواهى سرورنا
أن تحضر .

وعند الباب الأمامى قال سيرا لنفسمنت .

— أخشى أن أكون قد شرحت لك طريقتى بسذاجة ولذا أرجو أن
تعود فى أى وقت تشاء لنعمل معاً وعندما تستوعب طريقتى سترى أن
التصوير لم يعد كما كان . حسناً ، يجب أن أعود لأتم لوحتى وعلى أن
أجوف فضاء صغيراً آخر فيها قبل أن أنام . أرجو أن تبلغ تحيات
لأخيك .

وسار فنسنت وجوجان فى الممرات الحجرية المهجورة وصعد التل
إلى مونمارتر وكانت باريس ما تزال تغط فى نومها والنوافذ الخضراء مغلقة
بأحكام والستائر مسددة على أبواب الحوانيت وكانت عربات النقل الريفية
فى طريقها للعودة بعد أن أفرغت حمولتها من الخضروات والفواكه
والأزهار فى الأسواق . وقال جوجان .

— لنصعد إلى قمة الهضبة ونرقب الشمس وهى توظف باريس .

— كم أحب هذا .

وبعد أن وصلا إلى بوليفار كليش عرجا على شارع ليبيك الذى كان
يلتوى حول مولان دى لاجاليت ويشق طريقه المتوى صعدا إلى تل

مونتارتر . وأخذت المنازل تقل تدريجيا وبدأت أمامها سهول مستوية حافلة بالازهار والأشجار وانتهى شارع ليبيك فاتخذ الرجلان طريقا متعرجا خلال الغابة وقال فنسنت .

— قل لي بصراحة يا جوجان ما رأيك في سيرا ؟

— جون ؟ كنت أعتقد أنك ستسأل عن هذا ، إنه يعرف عن اللون أكثر من أى رجل آخر منذ عهد ديلا كروا وله نظريات منطقية في الفن وأرى أن هذا خطأ فالمصورون لا يجوز لهم التفكير فيما يصنعون بل يجب أن يتركوا النظريات للنقاد ولا شك أن جورج سيساهم مساهمة فعالة في تطوير اللون وقد يكون غرامه بالفن المعماري القوطي عاملا في التعجيل برد فعل بدائي في الفن ولكنه مجنون . بل ومجنون تماما كما لعلك رأيت بنفسك .

وكان صمودهما شاقا ولكنهما عندما وصلا إلى القمة شاهدا باريس كلها وقد امتدت أمامهما والسقوف السوداء التي تشبه البحيرة وأبراج الكنائس العديدة التي تبرز في ظلام الليل وكان نهر السين يقسم المدينة إلى نصفين ويبدو كخط ملتهو من الضوء وكانت المنازل تنحدر أسفل تل مونتارتر إلى وادي السين ثم تكافح صعودا للوصول إلى مونتبارناس وكانت الشمس ساطعة وتضيء بأشعتها غابة قنطرة وفي الطرف الآخر من المدينة كانت أشجار غابة بولونيا الخضراء فاعسة وتسبح في الظلام وكانت معالم المدينة الثلاث وهي دار الأوبرا في الوسط ونوتردام في الشرق وقوس النصر في الغرب تقف في الهواء كهضبات من الحجر الملون .

(٦)

وهبط السلام على الشقة الصغيرة في شارع لا فال وحمد ثيو نجمه السعيد على الهدوء ولكن هذا لم يدم طويلا فإن فنتسنت بدلا من أن يشق طريقه في بطة وبدقة من خلال لوحة ألوانه القديمة بدأ يقلد أصدقاءه في غمرة رغبته الملحة في أن يكون مصورا انطباعيا نسي كل ما تعلمه عن قواعد التصوير . وبدأت لوحاته نسخا فظة لما يرسمه سيرا وتولوز لوتريك وجوجان وكان يعتقد أنه يتقدم بصورة رائعة .

وقال له ثيو ليله :

— قل لي يا بني ما اسمك ؟

— فنتسنت فان جوخ .

— أوافق أنت أنه ليس جورج سيرا أو بول جوجان ؟

— بحق الشيطان ماذا ترى إليه يا ثيو ؟

— أعتقد حقاً أنه يمكنك أن تكون مثل جورج سيرا ؟ ألا تدرك أنه لم يخلق إلا لوتريك واحد منذ بدأ هذا العهد ؟ وأنه لا يوجد إلا جوجان واحد فقط وحمدا لله ! من الغباء أن تحاول أن تقلدكم .

— ولكنني لا أقدم بل أعلم منهم .

— بل أنت تقلدكم أرني لوحة من لوحاتك الجديدة وسوف أقول لك على الفور من كنت تنمض شخصيته ليله أمس .

— ولكنني أتحسن طول الوقت يا ثيو — تأمل كيف أصبحت هذه الصور أكثر بهجة وإضاءة .

— بل ، إنك تنحدر كل يوم من سبي إلى أسوأ فانت ترسم كل لوحة بمهارة أقل مما كان يصور بها فنتسنت فان جوخ . اعلم يا بني أن الطريق غير معبد أمامك وقد يقتضي الأمر منك سنوات من العمل الشاق فهل أنت

عاطل عن الموهبة حتى تقلد أعمال الآخرين ؟ ألا يمكنك أن تتشبه بما ينبغي أن يقدموه .

— ولكنى أرى ياثيو أن هذه اللوحات رائعة !

— وأنا أقول لك إنها سريعة !

واستمرت المعركة .

وفي كل ليلة كان يعود فيها ثيو من عمله في قاعة الفنون وهو منهوك القوى متوتر الأعصاب كان يجد فنسنت في انتظاره على أحر من الجمر ليريه لوحة جديدة وكان يقفز بوحشية حالمًا يرى ثيو قبل أن تتاح الفرصة لأخيه لينخلع قبعته ومعطفه ويقول له :

— انظر ! والآن قل لي إن هذه ليست لوحة جيدة ! وقل إن الوانى

لم تتحسن ، تأمل في تأثير ضوء الشمس ! انظر إلى هـ ...

وكان على ثيو أن يختار بين أن يكذب ويمضى أمسية جميلة مع شقيقه الحبيب أويصارحه بالحقيقة فيظل يطارد به عنف في البيت حتى ينبجج للفجر ورغم ما كان يشعر به ثيو من تعب شديد فإنه لم يستطع إلا أن يصارحه بالحقيقة وسأله في صوت متعب .

— متى ذهبت لأحر مرة إلى استوديو دوراند رويل ؟

— وماذا يهمك من هذا الأمر ؟

— أجب على سؤالى .

فقال فنسنت في خوف .

— حسنًا كان هذا عصر أمس .

— هل تعرف يا فنسنت إن في باريس خمسة آلاف مصور يحاولون تقليد

ادوارد مانيه ؟ وأن معظمهم يفعلون هذا خيرا منك ؟

وكانت أرض المعركة أصغر من أن تسعهما معاً .

وجرب فنسنت خدعة جديدة فالتقى بكل ما في جعبته من معلومات

عرفها عن الانطباعيين في تصوير لوحة واحدة .

وفي تلك الليلة غمغم ثيو قائلاً :

— رائعة . سنطلق على هذه اللوحة اسم « تلخيص » بل سوف نطلق اسما على كل شيء في اللوحة فهذه الشجرة من عمل جوجان أصلا ولا شك أن الفتاة التي في الركن من عمل تولوز لوتريك وأستطيع القول بأن ضوء الشمس الذي رسمته على مجرى النهر من عمل سيدلى أما الألوان الملونة والأوراق الخضراء فلبيسارو والهواء لسيرا وأما الشكل الأوسط فلداييه .

وكافح فنسنت بمرارة وكان يكدح طول اليوم وعندما كان ثيو يعود البيت ليلا كان يتعرض للعقوبة الممودة كأنه طفل صغير واضطر ثيو أن يبيت في غرفة المعيشة حتى لا يستطيع فنسنت أن يصور هناك بالليل وكانت مشاجراته مع ثيو قد خلفته بالغ الاحتياج شديد الانزعاج فلم يستطع للنوم سبيلا . وكان يقضى الساعات الطويلة يجادل أخاه ويحاوره ويظل ثيو معه في عراك حتى يتغلب عليه النوم من الإعياء وما يزال النور مشتعلا وفنسنت يحاول أن يدعم أقواله بحركات ثائرة . شيء واحد منع ثيو من الذهاب هو اعتقاده بأنه سينتقل عما قريب إلى شارع ليبيك حيث يختص بغرفة للنوم يخلق عليه بابها بقفل متين . ولما سئم فنسنت من الجدل حول لوحاته أخذ ينخص صفو ليالى ثيو بالدخول معه في مناقشات مفضية حول الفن ومهمة الفن وتعاسة كل من يمتن الفن وقال له شا كيا :

— إنى لا أستطيع ان أفهمك يا ثيو فما أنتذا مدير قاعة من أهم قاعات العرض في باريس ومع ذلك لا تريد أن تعرض لوحة واحدة لأخيك .
— إن فالدون لا يسمح لى .

— وهل حاولت ؟

— آلاف المرات .

— حسناً ، لنسلم أن لوحاتى لم تصل بعد إلى مستوى كاف من الإجابة ، فما رأيك في لوحات سيرا ؟ وجوجان ؟ ولوتريك ؟

— إنهم كلما أتوا إلى بلوحات جديدة أتوسل إلى فالدون ليسمح لى بتعليقها في الطابق الأرضى .

- هل أنت مدير لهذه القاعة أم لقاعة أخرى ؟
— للأسف أنا أعمل هناك فقط .
— إذن يجب أن تتخلى عن هذه الوظيفة فهي مشينة ولا تليق بك .
ولو كنت مكانك ياثيو لما تحملت هذا الوضع ولبادرت بتركهم .
— فالتحدث مليا في هذا الأمر صباحا يا فنسنت فقد قضيت يوما شاقا
وأريد أن أنام .
— ولكني لا أريد الانتظار حتى الصباح بل أريد أن أتحدث معك
في هذا الأمر الآن فوراً . أى فائدة تجنيها ياثيو من عرض لوحات مانيه
وديجما . لقد عرف الناس أعمالهما وبدأا يبيعان لوحاتهما وأرى أن الفنانين
الشبان أحق بأن تكافح الآن من أجلهم .
— أمهاني بعض الوقت فقد يتيسر لي هذا بعد ثلاث سنوات أخرى .
— لا ! إننا لانستطيع الانتظار ثلاث سنوات ويجب أن نعمل
الآن . أواه ياثيو لماذا لاتتخلى عن وظيفتك وتفتح قاعة للفنون يكون
لك فيها مطلق التصرف ؟ فكر في هذا وسوف تتخلص من فالدون
وبورجيو وهينز !
— ولكن هذا يستلزم مالا يا فنسنت وأنا لم أدخر شيئا .
— ستحصل على المال بأي شكل .
— إن مهنة الفن بطيئة الثرات كما تعرف .
— فلتسكن بطيئة ، سنعمل ليلا ونهارا حتى تكون نفسك .
— وماذا سنفعل في أثناء ذلك ومن أين نأكل ؟
— قلومنى لانى لا أكسب عيشي ؟
— هلا ذهبت للنوم يا فنسنت وتركنتى فأنا منهوك القوى
— لا أريد أن أنام بل أريد أن أعرف الحقيقة . أهذا هو السبب
الوحيد الذى يدفعك إلى التمسك بوظيفتك عند جويل ؟ أهذا لأنك مضطر

إلى أن تموانى ! هيا وقل الحقيقة : قل لى عبء ثقيل على كاهلك وأنى حبر
عشرة فى سبيل حريتك وإنى أدفعك إلى التمسك بوظيفتك ولو لم أكن
لتمتعت بحريتك .

— لو كنت أكبر وأقوى منك قليلا لضربتك لأعيد إليك صوابك
وأعتقد أنى سأطلب من جوجان أن يأتى ويفعل ذلك ، إن عملى سيكون مع
جويل الآن وإلى الأبد يافنسنت وعملك هو الرسم الآن وإلى الأبد ، ونصف
دخلى من عملى مع جويل سيكون لك ، ونصف دخلك من الرسم سيكون
لى . والآن ابتعد عن فراشى ودعنى أنام وإلا ناديت شرطيا !

وفى مساء اليوم التالى ناول ثيو فنسنت مظروفا وقال :

— إذا لم يكن لديك مايشغلك هذه الليلة فإنه يمكننا الذهاب للحضور
هذا الحفل .

— ومن الذى يقيمه ؟

— هنرى روسو ، ألق نظرة على الدعوة .

وكانت بطاقة الدعوة تتضمن بيتين من الشعر وبعض الأزهار المرسومة
وسأل فنسنت .

ولكن من هو ؟

— إننا ندعوه موظف الجمر فقد كان جاييا لعوائد الجمر فى المقاطعات
حتى بلغ الأربعين من عمره واعتاد أن يصور فى أيام الأحاد كما يفعل
جوجان ، ومنذ بضع سنوات حضر إلى باريس واستقر فى قطاع العمال
حول الباستيل ولم يتلق فى أى يوم من حياته قسما من التعليم ومع ذلك
فإنه يصور ويكتب الشعر ويؤلف الموسيقى ويلقى دروسا فى الكمان على
أطفال العمال ويعزف على البيانو ويدرس الرسم لرجلين عجوزين .

— وإى نوع من الأشياء يرسمها ؟

— حيوانات خيالية ضخمة تبرز من أحراش لا توجد إلا فى الخيال

وما في هذه الغابة أقرب ما يكون لما في حديقة الأرجان بغابة بولونيا وهو
فلاح وبدائي بطبيعته ويسخر منه كل الناس حتى جرجان .

— وما رأيك في عمله يا ثيو ؟

— حسنا . لا أدري فكل واحد يقول إنه معتوه ومجنون .

— أهو كذلك ؟

— بل إنه طفل ، طفل بدائي وعندما نحضر حفل الليلة ستتاح لك
الفرصة للحكم عليه بنفسك فكل لوحاته معلقة على الجدران .
— لا بد أن لديه مالا وفيرا حتى يمكنه إقامة حفلات .

— لعله أفقر رسام في باريس اليوم فهو يضطر إلى استئجار المكان
الذي يلقي عليه الدروس لأنه لا يستطيع أن يشتريه ولكنه يهدف من
وراء إقامة هذه الحفلات إلى غرض آخر ستكتشفه بنفسك .

وكان المنزل الذي يعيش فيه روسو تسكنه عائلات عمال من ذوى الحرف
اليدوية وكان روسو يستأجر به غرفة في الطابق الرابع وكان الشارع يغص
بأطفال يلعبون ويصخبون وكان المطبخ والحمام ودورة المياه المشتركة والتي
تقع في الممر تزكم الأنوف برائحها الشديدة وتخرج الألفاس واستجاب
هنري روسو لطرقات ثيو وفتح الباب وكان رجلا قصيرا بدينا قوى البنية
طبقا لخطوط فنسنت وكانت أصابع يده قصيرة بتراء ورأسه مربع الشكل
تقريبا وله أنف وذقن كبيران وعينان واستعان بريثتان وقال في لهجة
ناعمة ولطيفة .

— لقد شرفتني بالحضور يا سيد فان جوخ .

وقدم ثيو له فنسنت فأحضر لهما روسو مقعدين وكسافت الغرفة بهيئة
الألوان تقريبا وقد ركب روسو على النوافذ ستائر الريفية المصنوعة من
القماش المبرقش باللونين الأحمر والأبيض وغطيت الجدران بلوحات
متوحشة وأدغال ومناظر طبيعية لا تخطر بالبال .

وفي ركن الحجر كان يقف أربعة من الصبية الصغار بجانب ييانو قديم
محطم ويحملون في أيديهم آلات السكان بعصية وعلى الطنف فوق المدفأة
رص روسو الكمك الذي صنعه في البيت ونثر فيه حبات الكراوية وكانت
هناك بعض الأرائك والمقاعد المتناثرة في الحجر .

وقال روسو :

— أنت أول من وصل يا سيد فان جوخ ، لسوف يشرفني التناقد جيوم
بيل بحضور حفلاتي ، وترامت إلى أسماعهم جلبة من الشارع وسمعوا صراخ
الأطفال ودمدمة عجلات العربات وهي تسير على الحصباء ودفع روسو
الباب ليفتحه فانسابت أصوات نسائية ناعمة من البهو ، وسمعوا صوتاً
يهدد قائلاً :

— تابع السير . تابع السير . يد على الدرايزين وأخرى على انفك .
وعلى أثر هذه الفكاهة سمع روسو بوضوح ضحكة عالية فالتفت إلى
فنسنت وابتسم .

وفكر فنسنت أنه لم ير قط رجلاً تنطق عيناه بمثل هذه للبراءة والصرامة
وليس فيهما أثر للحقد أو التبرم . واندفعت إلى الغرفة جماعة مكونة من نحو
عشرة أو اثني عشر شخصاً ، وكان الرجال يرتدون ملابس السهرة أما النساء
فكن يلبسن فساتين فاخرة وينتعلن خفافاً عالية جميلة وفي أيديهن قفازات
طويلة بيضاء وعلى أثر دخولهن فاح في الحجر شذى عطورهن الثمين
ومساحيقهن الرقيقة وانتشرت رائحة الحرير والمخمرات القديمة .

وصاح جيوم بيل بصوته العميق المريب :

— حسناً يا هنري هانحن هؤلاء قد أتينا ولكننا لانستطيع أن نمكث
طويلاً لأننا ذاهبون لحضور الحفلة الراقصة التي تقيمها الأميرة دي بروجلي
ولكن يجب عليك في الوقت نفسه أن تعمل على تسلية ضيوفي .
واندفعت فتاة هيفاء ذات شعر أفعم وترتدي فستاناً مكشوف الصدر
من طراز أمير وقالت :

— أوه أريد أن أراه — فكروا فقط أننا في حضرة المصور العظيم الذى نتحدث عنه بباريس كلها — هل لك أن تقبل يدي يا سيد روسو ؟ وقال أحدهم .

— حذار يا بلانش فأنت تعرفين . . . هؤلاء الفنانين .

وابتسم روسو وقبل يدها وانزوى فتسنت في ركن بينما أخذ بيل وثبو يتجاذبان هنيهة أطراف الحديث وأخذ باقي الجماعة يسرون أزواجاً في الحجرة وهم يعلقون على مختلف اللوحات تعليقات تصحبها ضحكات هادرة ويعبثون باستائر روسو وتحفه . وينقبون في كل ركن بالحجرة ويطلقون عليه نكتة جديدة .

وقال روسو :

— إذا تفضلتم بالجلوس سيداتي وسادتي فسوف تشنف فرقى الموسيقى أسماعكم بعزف قطعة موسيقية من تأليني وإني أهديها للسيد بيل وقد أطلقت عليها اسم أغنية رافال .

فصاح بيل :

— اسمعوا جميعاً ! سيقوم روسو بتسليتنا . جيني ! بلانش ! جاك ! اجلسوا فسوف تسمعون قطعة رائعة .

ووقف الصبية الأربعة يرتجفون أمام الماعزف الوحيد المحطم وأعدوا مكاناتهم وجلس روسو إلى العزف وأغلق عينيه وقال بعد لحظة :

— استعدوا

وبدأ يعزف وكانت القطعة الموسيقية التي ألهمها من الأناشيد الكنائسية البسيطة وحاول ففست أن يستمع ولكن ابتسامات الجماعة المتكلفة طغت على الموسيقى وأخيراً صفقوا جميعاً وهتفوا استحساناً وذهبت بلانش إلى البيانو ووضعت يديها على كتفى روسو وقالت :

— لقد كان هذا جميلاً منك يا سيدى ، جميلاً حقاً ، وقد حرك عزفك مشاعرى وكان له أثر عميق لم أصادفه من قبل .

— هذا ثناء لا أستحقه منك يا سيدتى .

فصرخت بلائش وهى تضحك قائلة :

— هل سمعت هذا يا جيوم . إنه يعتقد أنى أتعلقه !

وقال روسو :

— سأعزف لكم الآن قطعة أخرى من تأليفى .

— بل غن لنا أغنية من شعرك يا هنرى ولا شك أنك تعرف قصائد

عديدة .

فكشر روسو عن أنيابه فى خفة كالأطفال وذهب إلى المنضدة وتناول
حزمة من القصائد المكتوبة وعبث فيها بأصابعه ثم انتقى منها واحدة
وجلس إلى البيانو وبدأ يعزف وكانت الموسيقى جيدة فى نظر فنسنت
واستطاع من خلال السطور القليلة التى استمع إليها أن يتبين أن القصيدة
ساحرة وجذابة ولكن تأثير الاثنين معا كان مضحكا وصرخت الجماعة
وأخذوا يضربون ييل على ظهره .

— أراه يا جيوم — أنت كلب . ما أشد مكرك !

وبعد أن انتهى روسو من عزفه ذهب إلى المطبخ وعاد يحمل عددا من
أقداح القهوة السمينة الخشنة ووزعها على ضيوفه فالتقطوا حبات الكراوية
من الكعك وألقوا بها فى قهوة كل منهم بينما أخذ فنسنت يدخن غليونه
وقد انزوى فى ركن الحجرة .

— هيا يا هنرى أرنا آخر لوحاتك فقد أتينا لهذا . يجب أن نراها

هنا فى مرسمك قبل أن يذهبوا بها لمتحف اللوفر .

فقال روسو

— لقد رسمت بعض اللوحات الجميلة الجديدة وسوف أقتزعها لكم

من الحائط .

وتجمع الحاضرون حول المنضدة وكل منهم يحاول أن يفوق الآخر فى

إسرافه فى المجاملات .

وشبهت بلائش وقالت :

— هذا تصوير رائع جدا ورسم رفيع . يجب أن أحصل على إحدى اللوحات لأزين بها مخدعي ولن أستطيع أن أعيش يوما آخر دون أن أحصل عليها ، سيدي العزيز كم تطلب ثمناً لهذه التحفة الخالدة ؟

— خمسة وعشرون فرنكا .

— خمسة وعشرون فرنكا ! تصوروا ! خمسة وعشرون فرنكا فقط ثمناً لهذه التحفة الفنية العظيمة ! وهل مستهديها إلى ! — هذا يشرقي .

وقال بيل

— لقد وعدت أن أشتري واحدة لفرانسواز . سأخذ هذه الخطيبتي ياهنري ولا بد أنها أجمل اللوحات التي رسمتها .

— إنني أعرف ما يروقك يا سيد بيل .

وأنزل لوحة لحيوان غريب الخلقة يعيش في دغل كذلك الذي ورد ذكره في إحدى القصص الخيالية فولول السكل صارخا على بيل وقالوا : — ما هذا ؟

— إنه أسد

— لا بل هو نمـر .

— وأقول لك إنها المرأة التي تغسل ملابسى فقد تعرفت عليها .

وقال روسو بلهجة تقطر عذوبة .

— واسكن هذه أكبر قليلا يا سيدي وسوف تكلفك ثلاثين فرنكا .

إنها تستحق ذلك ياهنري ، لعمرى إنها تستحق هذا الثمن . . ولا شك أن أحفادى سيبيعون هذه اللوحة البديعة يوما بثلاثين ألفا من الفرنكات وصاح كثير من الآخرين .

— وأنا أريد واحدة . أريد واحدة . يجب أن آخذ واحدة لأصدقائى .

فهذا أحسن معرض في هذا الموسم .

وصاح بيل

— هلبوا بنا جميعا وإلا تأخرنا عن حضور الحفلة الراقصة وهاتوا معكم لوحاتكم ولا شك أن هذه الأشياء ستكون سبباً في حدوث ثورة في منزل الأميرة دى بروجلى ، إلى اللقاء يا هنرى ، لقد أمضينا معك وقتاً ممتعاً للغاية ونحن نتوقع منك أن تقيم لنا حفلة أخرى قريباً .

وقالت بلاش وهي تسد أنفها بمنديلها المعطر .

— إلى اللقاء يا أستاذى العزيز - لن أنساك قط وسوف تعيش للأبد في ذاكرتى .

وصرخ أحد الرجال قائلاً :

— دعيه وشأنه يا بلاش وإلا فإن الرجل المسكين لن يغمض له جفن طوال الليل .

واحتشدوا وأخذوا يهبطون الدرج فى صخب ويطلقون على بعضهم اللعنات مخلفين وراءهم سحابة من العطر الثمين ليمتزج برائحة البناء اللينة .
وسأله فنسنت فى هدوء .

— أليك مانع ياثيو من العودة وحدك للمنزل ؟ فبوى أن أبى لا تعرف بالسيد . وانصرف ثيو ولم يلحظ روسو فنسنت وهو يخاق خلفه الباب ثم يستند إليه واستمر يعد النقود المكومة فوق المائدة .
— ثمانون فرنكا - تسعون فرنكا - مائة ، مائة وخمسة .

ثم نظر لأعلى ورأى فنسنت يرقبه فعاد إلى عينيه تعبير الطفولة وبساطتها ودفع للنقود جانباً ووقف هناك وهو يتسم فى بلاهة .
فقال فنسنت .

— هلاخمت هذا القناع عن وجهك يا روسو فلست إلا فلاحاً ورساماً مثلك . فترك روسو المنضدة وسار إلى فنسنت وضغط على يده بحرارة وقال :
— لقد أراى أخوك صورك عن الفلاحات الهولنديات وهى جيدة بل إنها أحسن من صور ميليه وقد تأملتها مراراً عديدة وإنى أعجب بك يا سيدى !

— وأنا كنت أقابل لوحاتك ياروسو وهؤلاء يهزمون بأنفسهم وإني
لمعجب بك أيضاً .

— أشكرك . ألا تجلس وهلا ملأت غليونك بتيغى ؟ لقد جمعت مائة
 وخمسة من الفرنكات وسوف أستطيع أن أشتري تبغا وطعاما وقاشا لرسم
لوحاتي . وجلسا إلى المائدة متقابلين وأخذا يدخنان في مودة وأخلدا إلى
الصمت واستغرقا في التفكير .

— أظن أنهم يقولون إنك مجنون ياروسو ؟

— أجل وإني لأعرف هذا وقد سمعته في لاهاي يقولون إنك
مجنون أيضاً .

— أجل إن الأمر كذلك .

— فليظنوا بي ما يشاءون ففي يوم ما سوف تعلق لوحاتي في لكسمبورج .
وقال فنسنت :

— أما لوحاتي فسوف تعلق في متحف اللوفر .

وكان كل منهما يقرأ ما يجول في ذهن الآخر في عينيهِ وانفجرا
في ضحكة تلقائية من القلب . وقال فنسنت :

— لعمرى إنهم على حق يا هنري فنحن مجنونان !

— فسأله روسو .

— إذن فهل لنا أن نشرب نخب هذا ؟

* * *

(٧)

وفي يوم الأربعاء التالى طرق جوجان باب الشقة وقت العشاء وقال :

— طلب منى أخوك أن آخذك إلى مقهى باتينبول هذا المساء لأنه
صيتاً آخر فى العمل فى قاعة الفنون . لعمري إن هذه اللوحات لذيذة . أيمكن
أن أراها ؟

— بالتاكيد . لقد رسمت بعضها فى البرابانت والبعض فى لاهاي .

وحماق جوجان فى الصور طويلاً ورفع يده بضع مرات وفتح فيه
كما لو كان يهم بالكلام ولكن يبدو أنه لم يستطع ترتيب أفكاره
وأخيراً قال :

— أرجوك معذرة لسؤالى يافنسنت ولكن هل يمكن اتفاقاً أن تكون
مصاباً بالصرع ؟

وكان فنسنت يرتدى سترة من جلد الغنم سبق أن أثارت هلع ثيو وكان
قد هثر عليها فى متجر للأشياء المستعملة وأصر على ارتدائها .

والتفت إلى جوجان وحماق فيه ثم قال :

— مصاب بماذا ؟

— بالصرع . أقصد أنك واحد من هؤلاء الناس الذين يتعرضون
لنوبات عصبية .

— لست منهم فيما أعرف يا جوجان ، ولكن لم تسأل ؟

— حسناً . إن صورتك هذه تبدو كما لو كانت توشك على الانفجار من
لوحاتك . وعندما أتأمل فى عملك وليست هذه أول مرة أقوم فيها بهذا
فإنى أحس بأنها تثير أعصابى فلا أكاد أستطيع أن أسيطر عليها وأحس

بأنه إذا لم تنفجر الصورة فإن هذا بلا شك سوف يحدث لي ! أنعرف
أى جزء من جسمي يتأثر أكثر بلوحاتك ؟

— لا ، أى جزء ؟

— أمعاني فكل ما في داخل جسمي يبدأ في الارتجاف وأحس بشعور
ينتابني من الاهتمام والارتجاج بحيث أكاد لا أستطيع كبح جماح نفسي .

— إذن لعل في استطاعتى أن أبيعها كمقاير ملىنة . ولم لا تعلق
إحداها في دورة المياه وتتطلع إليها في ساعة معينة كل يوم ؟

— ولكنى أتكلم جاداً يا فنسنت فأنا لا أعتقد أن في استطاعتى أن
أعيش مع لوحاتك لأنها كفىلة بأن تثير كوامن جنوني في خلال أسبوع .

— هل لنا أن ننصرف ؟

وسارا في شارع مونمارتر إلى بوليفار كليش .

وسأله جوجان

— هل تناولت عشاءك

— لا ، وهل تناولته أنت ؟

— لا . إذن فهل لنا أن نذهب إلى مطعم باتاي ؟

— فكرة صائبة ولكن هل معك أية نقود ؟

— ليس معي سنتيم واحد . وكم معك أنت ؟

— إنني مفلس كالعادة وكنت أنتظر ثيو ليأخذني معه إلى الخارج .

— يا للأسى ! إذن فلن نجد شيئاً نأكله .

— هيا بنا نذهب ونرى طبق اليوم على أية حال .

وسارا في شارع ليبيك نحو أعلى التل ثم استدارا يمينا إلى شارع ديزايبس
وكانت مدام باتاي قد أعدت قائمة للطعام كتبت بالحبر على عجّل وسهرتها
على إحدى أشجارها المغروسة في قدور مقلدة أمام المطعم .

وقال فنسنت :

— أم م م — ضلع عجل بالبسلة . هذا طبق المفضل .

فقال جوجان :

— ولكننى أكره لحم العجل ولهذا فإنى مسرور لأننا لن نأكل .

— ياللسخف !

وأخذا يضربان على غير هدى فى الشارع وفى المتنزه الصغير المثلث

الشكل عند سفح التل .

وقال جوجان

— هالو ! هذا بول سيز ان نأثم على مقعد — ست أدرى لماذا

يستخدم هذا الأبله حذاءه كوسادة — هيا بنا فوقظه .

وجذب من سراويله الحزام وطواه ثم جلد به بشدة قدمى الرجل

لأنهم اللتين لا يغطيهما سوى جواربه فقفز سيزان وهو يصرخ من الألم

وقال :

— ويحك يا جوجان أيها الصادى الجهنمى ! أهذا مزاح فى رأيك ؟

سأضطر يوما إلى سحق جمجمتك .

— لعل فى هذا درسا لك حتى لا تترك قدميك مكشوفتين . ولم تضع

هذا الحذاء الرينى القذر تحت رأسك ؟ أعتقد أنه أسوأ من ألا تضع وسادة

على الإطلاق .

وأخذ سيزان يفرك باطن كل قدم على حدة ثم ارتدى حذاءه فى

نأف وقال :

— إنى لا أستخدامهما كوسادة بل أضعهما تحت رأسى خشية أن

يسرقهما أحد وأنا نائم .

والتفت جوجان إلى فنسنت وقال :

— قد تظن أنه فنان يوشك أن يموت جوعا ولكن والده يملك مصرفا

ونصف مقاطعة إكس أن بروفانس . بول أقدم لك فنسنت فان جوخ

شقيق ثيو .

فتصافح سيزان وفنسنت
وقال جوجان

— بما يوسف له أننا لم تقابلك منذ نصف ساعة ياسيزان فقد كان
يمكنك أن تنضم إلينا وتتناول طعام العشاء في مطعم باتاي حيث يقدمون
لك أحسن طبق من لحم ضلع العجل بالبسلة ذقته في حياتي .

وسأله سيزان

— أكان حقا طيبا ؟

— طيبا ؟ لقد كان لذيذا شهيا . أليس كذلك يا فنسنت ؟

— بلى .

— إذن أظن أنه ينبغي أن أذهب لأصيب منه شيئا . هل لكم أن
تأتوا معي ؟

— لا أدري إذا كان في استطاعتي أن آكل قطعة أخرى — أتستطيع
ذلك يا فنسنت ؟

— أظن هذا من الصعب ومع ذلك فليس لدى مانع إذا أصر
سيزان .

— كن لطيفا يا جوجان فأنت تعلم أني لا أحب تناول الطعام وحدي
وخذ شيئا آخر إذا كنت قد نلت كفايتك من لحم العجل .

— حسن . لا مانع من أجل خاطرك . هلم بنا يا فنسنت .

وعادوا من شارع ديزاييس إلى مطعم باتاي .

وقال الساقى :

— طاب مساؤكم ياسادة ، هل اخترتم ما تطلبون ؟

— أجل أحضر لنا ثلاثة من طبق اليوم .

— حسنا وأي نوع من النيذ .

— اختر النيذ أنت ياسيزان لأنك خير بهذه الأشياء أكثر مني .

فلتر ما هنالك . سافت استيف وبوردو وسوترن وبون .

فقاطعه جوجان في لحظة صادقة .

— هل جربت شراب البومارد ؟ أعتقد أنه خير ما عندهم من النبيذ .

فقال سيزان للماقي .

— إذن فهات لنا زجاجة من شراب البومارد .

والتهم جوجان طعامه من لحم العجل والبسلة الخضراء في لمح البصر
ثم التفت إلى سيزان وكان الأخير لم يشته بعد من تناول نصف عشائه
وقال :

— سمعت يابول أن كتاب زولا الأخير يبع منه آلاف النسخ .

فأتى عليه سيزان نظرة تقطر بالمرارة والحزن ودفع طعامه
في امتعاض والتفت إلى فنسنت وقال :

— هل قرأت هذا الكتاب يا سيدى ؟

— كلا ولكنى انتهيت من قراءة « جرمينال » ،

فقال سيزان :

— إنه كتاب ردىء بل كتاب كل ما فيه زيف وافتراء وفضلا عن
هذا فإن سطره تنطق بأخط خيانية يمكن أن ترتكب باسم الصداقة .
فهذا الكتاب يا سيد فان جوخ عن مصور ، عنى أنا ، وإميل زولا من
أقدم أصدقائى فقد نشأنا معا فى أكس ودخلنا المدرسة معا وما أتيت إلى
باريس إلا لأنه كان هنا وكنا أنا وإميل أقرب إلى بعضنا من الأشقاء
وكنا خلال أيام حداثتنا قد وضعنا الخطّة لأن نمضى معا حتى نصبح من
كبار الفنانين . والآن انظر كيف يفعل معى هذا .

فقال فنسنت :

— ولكن ماذا فعل بك ؟

— لقد سخر منى وهزأ بى وجعل منى أضحوكة القوم فى كل باريس .
كنت أنبئه يوما بعد يوم بنظرياتى فى الضوء ونظرياتى فى تمثيل الأشياء الجامدة
تحت المظاهر السطحية وأبلغته بأرائى عن لوحة الألوان الثورية وكان يصغى
إلى ويشجعنى ويستجوبنى ولسكنه كان طوال الوقت يجمع المواد اللازمة لنشر
كتابه ولاتبين كم كنت أحمق .

وتجرع كأسه المترعة بالنبيذ والتفت إلى فنسنت واستأنف كلامه قائلا
وعيناه الصغيرتان تتألمان وتشتعلان بنيران الحمق والضغينة .

— وقد جمع زولا منا ثلاثة فى هذا الكتاب يا سيد فان جوخ وهم أنا
وبازيلي وصبي مسكين تعس اعتاد أن ينظف مرسم مانيه وكان لهذا الصبي
مطامح فنية ولسكنه أخيرا شق نفسه فى لحظة تملكك فيها اليأس . وقد
صورنى زولا كشخص مغرق فى الخيال وتعس تائه فى يدهاء الضلال يظن
أنه سيحدث ثورة فى الفن ولسكنه لا يرسم بالطريقة التقليدية لسبب واحد
هو افتقاره إلى موهبة الرسم ثم يجعلنى أشق نفسى من فوق الصقالة التى أصور
عليها تحفتى الرائعة لأنى أدرك فى النهاية أن ماظننته عبقرية لم يكن إلا تخاريف
مجنون بل ويضع فوقى فنانا آخر من أكس ، وهو نحات ينتج أعظم
النفايات الأكاديمية ابتذالا ويجعل منه فنانا عظيما .

فقال جوجان :

— هذا أمر يبعث حقا على التسلية خصوصا وكلنا نذكر أن زولا كان
أول من هلك وكبر لثورة إدوار مانيه فى التصوير . لقد فعل إميل للتصوير
الانطباعى أكثر ما فعل أى رجل آخر على قيد الحياة .

— أجل، إنه يعبد مانيه لأن إدوار تغلب على أنصار المدرسة الأكاديمية
ولكنى عند ما أحاول أن أتجاوز نطاق الانطباعيين يقول عني إنى أحمق
وأبله أما إميل فإنه متوسط الذكاء وصديق مكروه ومنذ مدة طويلة امتنعت
راغما عن الذهاب لبيته وهو يعيش مثل أى بورجوازي لعين ، طنافس ثمينه

تسكو الأرض وقفازات فوق طنّف الموقد وخدم ومكتب محفور ومنحوت من الخشب يكتب عليه روائع أعماله . اف ا لعمري إنه لينتمى إلى الطبقة المتوسطة أكثر من مانیه وقد كان هذان الاثنان يورجوازين قوأمين ولهذا اتفقت أهواؤهما ولما كنت قد أتيت من نفس المدينة التي جاء منها إميل ولأنه يعرفني منذ كنت صبياً فإنه يعتقد أنى لا يمكن أن أقوم بأى عمل ذى بال .

— ولكنى سمعت أنه كتب (كتالوجا) لصورك التي عرضت في صالون اللوحات المرفوضة منذ بضع سنوات فماذا كان من أمره ؟
— لقد مزقه إميل يا جوجان قبل أن يرسله للطبعة .

وسأله فنسنت

— ولكن لم فعل هذا ؟

— لعله خشى أن يظن النقاد أنه لم يكفلنى إلا بدافع صداقتى القديمة له ولو كان قد نشر هذا الكتيب لرسخت أقدامى ولكنه بدلا من ذلك نشر هذه الرواية .

وهذا كثير بالنسبة لصداقتنا فقد أصبحت لوحاتى في صالون « اللوحات المرفوضة » يسخر منها تسع وتسعون في المائة من الناس وهذا دوارند رويل يعرض لديجك ومونيه وصديقى جيومان ولكنهم يرفضون أن يمنحوني مساحة قدرها بوستان وحتى أخوك ياسيد فان جوخ يخشى أن يضع لوحاتى في طابقه الأرضى ولعل التاجر الوحيد في باريس الذى قبل أن يعرض لوحاتى في نافذته هو الأب تانجى وهذا المسكين لم يستطع أن يبيع كسرة خبز للمليونير جاتع .

وسأل جوجان ..

— ألا يزال في الزجاجة شيء من شراب اليومار يا سيزان ؟ شكرا .
واطل ما أخذه على زولا أنه يجعل غسلاته يتحدثون كما تفعل الغسالات الحقيقية وعند ما يتركن ينسى أن يغير أسلوبه .

— حسنا ، لقد سئمت باريس وسوف أعود إلى أ كس وأقضى هناك بقية

عمرى وأنعم بالتل الذى يصعد من المادى ويطل على جانب البلد بأكمله
ففى الريف تجد ضوء الشمس الساطع واللون الصافى وباله من لون! وإنى
لأعرف أن هناك رقعة من الأرض قرب قمة التل معروضة للبيع
وتكسوها أشجار الصنوبر وهناك سوف أشيد لنفسى مرصما وأزرع
بستان تفاح وأبنى حائطا حجريا كبيرا حول الأرض وأمزج الزواج
المكسور بالاسمنت أهلى الحائط لأحجب عنى الناس وأصبح فى عزلة عن
العالم ولن أغادر الريف ما حيت أبدا .. أبدا ..

فغمغم جوجان وهو يحتسى كأسه من شراب البومار ..

— ويحك أتريد أن تقضى حياتك ناسكا ؟

— أجل .. سأقضيها ناسكا ..

— ناسك أ كس .. ما أجمله من عنوان .. يحسن بنا أن نذهب إلى

مقهى باتينبول فسوف نجد الكل هناك الآن ..

* * *

(٨)

وكان الكل هناك تقريبا وكان أمام لوتريك كوم عال من الأطباق حتى إنه كان يريح عليها ذقنه وكان جورج سيرا يتحدث في هدوء مع انكيتان وهو مصور نحيف طويل القامة حاول أن يمزج بين طريقة الانطباعيين وطريقة الرسوم اليابانية وكان هنري روسو يخرج من جيبه بعض الكعك ويغمسه في قهوة باللبن بينما انهمك ثيو في مناقشة حادة مع اثنين من نقاد الفن الحديث من باريس .

وكانت باتينبول فيما سبق ضاحية تقع عند مدخل بوليفار كليش وهناك جمع إدوار مانيه حوله مردييه من سكان باريس وقبل وفاة مانيه اعتاد تلاميذ مدرسة باتينبول أن يجتمعوا مرتين في المقهى كل أسبوع وتقابل هناك ليجرو وفانتان لاتور وكورييه ورينوار كلهم وتوصلوا إلى نظرياتهم في الفن ولكن الآن أصبح يدير المدرسة الفنانون الشبان .

ورأى سيزان إميل زولا فصار إلى مائدة نائية وطلب قهوة وجلس بعيدا عن الناس وقدم جوجان فنسنت لزولا ثم تهالك جالسا في مقعد بجانب تولوز لوتريك وترك زولا وفنسنت وحدهما أمام مائدتهما .

— لقد رأيتك قادمًا مع بول سيزان يا سيد فان جوخ ولا شك أنه قال لك عن شيئا أليس كذلك ؟ ...

— بلى . .

— وماذا قال ؟

— أخشى أن أقول إن كتابك أصابه ببحر عميق .

فتنهّد زولا ودفع المائدة بعيدا عن المقعد الجلدي ليفسح مكانا لكرشه الضخم وسأله . .

— هل سبق لك أن سمعت عن علاج شفا ينجر ؟ يقولون إن الرجل الذي لا يشرب شيئا مع وجبات الطعام يمكنه أن يفقد في خلال ثلاثة شهور ثلاثين رطلا من وزنه . .

— لم أسمع به من قبل . .

— لقد آلمني كثيرا أن أكتب هذا الكتاب عن بول سيزان ولكن كل كلمة وردت به حقيقة لامرأه فيها . هل يمكنك وأنت مصور أن تزيف صورة شخصية لصديق . . لا شيء إلا لأنها كانت سبب تعاسته ؟ لا شك أنك لن تفعل هذا وبول شاب عظيم وكان أعز أصدقائي إلى أن أغلق على لوحات بول في صيوان حتى لا يكون موضعاً لسخريتهم .

— ولكن لا شك أن عمله لا يمكن أن يكون رديئاً لهذا الحد . .

— بل إنه أسوأ يا عزيزي فان جوخ . . أسوأ . . هل رأيت شيئاً من أعماله ؟ هذا يفسر سذاجتك لأنه يرسم كما يفعل طفل في الخامسة من عمره وصدقني أصبحت أعتقد أنه قد جن تماماً . .

— ولكن جوجان يحترمه . .

واستأنف زولا كلامه قائلاً . .

— وبما يسحق قلبي أن أرى سيزان يضع عمره في رسم هذه اللوحات الخيالية وأرى أنه يجب عليه أن يعود إلى إكرو ويخلف أباه في وظيفته في المصرف ولعله بهذا يمكن أن يكون له شأن في حياته ولا شك أن الأمور إذا سارت على هذا النحو فإنه سيشتق نفسه يوماً ما كما تنبأت بذلك هل قرأت هذا الكتاب ياسيدي ؟

— لا . . ولكنني اتهمت من قراءة جرمينال . .

— حقاً . . وما رأيك فيه ؟ . .

— أعتقد أنه خير ما كتب منذ عهد بلزاك . .

— أجل ، إنه تحفتي الرائعة وقد ظهر في جليبلاس في العام الماضي وحصلت في مقابل هذا على مبلغ لا بأس به من المال وقد بيع من هذا الكتاب حتى الآن أكثر من ستين ألف نسخة ولم يكن دخلي في حياتي كبيراً كما هو اليوم . . ولهذا سأضيف لمنزلي جناحاً جديداً في «مدان» . وهذا الكتاب تسبب في حدوث ثورة هائلة وعندما تحدث فعلي الرأسمالية السلام ! ولكن أي نوع من اللوحات تصور ياسيدي ؟ لقد أخبرني جوجان باسمك الأول . . ترى ما هو ؟

— فنسنت . . فنسنت فان جوخ . . وثيوفان جوخ شقيق . .
فوضع زولا القلم الذي كان ينسكت به في الحجر الرخامى الذى يعلو
المائدة وأخذ يحملق في فنسنت . . ثم قال . .

— هذا غريب . .

— ما هو هذا الغريب ! . .

— اسمك لقد سمعت به من قبل في مكان ما . .

— ربما يكون ثيو قد ذكره أمامك . .

— لا شك أنه فعل هذا ولكن الأمر ليس كذلك . . انتظر قليلا !

إنه «جرمينال» هل ذهبت إلى مناطق مناجم الفحم .

— نعم وقد عشت سنتين في البوريناج البلجيكية . .

— البوريناج — بيتى وازم ! ماركاس !

ورجاء اتسعت عينا زولا الكبيرتان في وجهه الملتحي المستدير وقال . .

— إذن فأنت خليفة المسيح !

فتورد وجه فنسنت خجلا وقال :

— ماذا تقصد بهذا !

— لقد قضيت خمسة أسابيع في البوريناج وأنا أجمع المواد لكتاب

«جرمينال» وقد حدثني عمال المنجم عن رجل مسيحي عمل بينهم كقس إنجيلي . .

— أرجوك أن تخفض صوتك . .

فطوى زولا يديه ووضعهما فوق كرشه ثم دفعه للداخل وقال :

— لا داعي للخجل يا فنسنت . . فإن ما حاولت أن تقوم به هناك شيء

يستحق هذا الجهد ولكنك اخترت بيئة غير صالحة فالدين لا يؤثر في الناس

في كل مكان ولا يقبل العيش في بؤس في هذه الحياة الدنيا إلا الناس ذوو

النفوس الوضيعة الذين يحملون بالنعم في الحياة الآخرة .

— لقد اكتشفت هذا ولكن متأخرا جدا . .

— لقد قضيت سنتين في البوريناج يا فنسنت وزهدت في طعامك ومالك بل

وتخلّيت عن ملابسك وعملت حتى أشرفت على الهلاك فإذا أخذت من هذا؟
لا شيء وقد وصفوك بأنك رجل معتوه وطاردوك من الكنيسة ولم تكن
الأحوال عندما رحلت بأحسن منها عندما أتيت ..
— بل أعلمها كانت أسوأ ..

— ولكنني سأبجح فيما فشلت فيه فإن الكلمة المكتوبة سوف تحدث
ثورة ولا شك أن كل عامل يجيد القراءة في بلجيكا وفرنسا قد قرأ كتابي
وليس في كل الإقليم مقهى أو كوخ حقير لا يملك نسخة من كتاب «جرمينال»
ولاشك أن هؤلاء الذين لا يعرفون القراءة قد استمعوا إليه وهو يتلى عليهم
المرّة تلو المرّة وقد قاموا حتى الآن بأربعة إضرابات وهناك عشرات غيرها
في الطريق . إن البلد كلها تهض وسوف يخلق «جرمينال» مجتمعا جديدا
لم يستطع دينك أن يحققه فبماذا كوفئت على هذا؟
— بماذا؟

— يضع فرنسكات .. آلاف وآلاف منها .. هل لك أن تشاركني
الشراب؟ ..

واحتدت المناقشة حول مائدة لوتريك وأثارت انتباه كل واحد من
الحاضرين وسأل لوتريك وهو يفرقع أصابعه واحداً إثر الآخر ..
— ما رأيك في طريقتي ياسيرا؟

وتجاهل سيرا هذا التعريض وكانت تقاطيع وجهه الجميلة الهادئة الجامدة
التعبير لا توحى بوجه رجل فحسب بل بجوهر جمال الرجولة وقال :
— هناك كتاب جديد عن انكسار الألوان ألفه أمريكي يدعى أوجدين
رود وأعتقد أنه دراسة متقدمة عن هلوينز وشيفرال ولو أنه لا يشجع على
قراءته مثل كتاب دي سوبر فيل وكلكم تستطيعون قراءته وتستفيدون منه
فقال لوتريك :

— أنا لا أقرأ كتباً في التصوير وأترك هذا الأمر للعامة .
ففك سيرا أضرار سترته المخططة بخطوط سوداء ويبيضاء وعدل من وضع
رباط رقبته الأزرق العريض المنقط وقال :

— ولكنك أنت نفسك من العامة طالما أنك تخمن سلفاً أى لون ستستخدم .

— إنى لا أخمن بل أعرف بالسليقة . .

وقال جوجان :

— ولكن العلم ليس إلا منهجاً فسلوكه يا جورج وقد أصبحنا نطبق استخدام الألوان بطريقة علمية بعد سنوات من العمل الدائب والتجربة .

— هذا لا يكفي يا صديقى فعصرنا يميل إلى الإنتاج الهادف وقد ولت إلى الأبد أيام الإلهام والتجربة الخطأ .

وقال روسو :

— أنا لا أستطيع قراءة هذه الكتب فهى تسبب لى صداعاً ومن ثم اضطر إلى التصوير طول اليوم كي أتخلص منه .

فضحك الجميع والتفت افسكتان إلى زولا وقال :

— هل قرأت الهجوم الذى شنته هذه الصحيفة المسائية على كتاب « جرمينال » . .

— لا وماذا قالت ؟

— لقد وصفك الناقد بأك أسوأ كاتب لا أخلاقى ظهر فى القرن التاسع عشر . .

— تلك هى صيحتهم القديمة . . ألا يمكنهم أن يجدوا شيئاً آخر يقولونه ضده ؟

فقال لوتريك :

— ولكنهم على صواب يا زولا فأنا أرى أن كتبك جنسية قدرة ولا شك أنك خليق بأن تعرف القذارة عندما تراها . .

— لقد أثرتك هذه المرة بالوتريك . .

وصاح زولا منادياً . .

— يا نادل دورة أخرى من الشراب . .

فختمهم سيزان قائلاً :

— علينا الآن أن نوطن النفس على قبول منهج معين فعندما يطلب إميل

شرابا فهذا معناه أنك مضطر لسباع محاضرة تستغرق ساعة ..
وأحضر الساقى كئوس الشراب وأسعل المصورون غلايينهم وضائق
الحلقة التى تجمعوا حولها .. وكانت المصاييح الغازية ترسل فى الحجرة أشعة
حلزونية ولم يكن يسمع من حديث الجالسين إلى الموائد الأخرى إلا همهمة
خافتة وكلمات تتبادل فى مودة .
وقال زولا :

— يقولون إن كتي منافية للآداب لنفس السبب الذى يلصقون من
أجله هذه الصفة بلوحاتك ياهنرى والجمهور لا يمكن أن يفقه أنه لا مجال
فى الفن للأحكام الأخلاقية لأن الفن منفصل عن الأخلاق بل وعن الحياة
وأنا أرى أنه ليس ثمة صور فاحشة أو كتب بذينة بل هناك صور لا نفقه
مغزاها أو كتب لم نفهم معانيها .. فلوحة « العاهرة » لتولوز لوتريك
لا تنافى الآداب لأنها مثيرة للأحاسيس وحلوة للغاية لدرجة أنه يكفىك أن
تنظر إليها مرة واحدة فتصاب بالغثيان ..

فأوما ثيو برأسه موافقا وقال ..

— أجل .. هذا حق ..

ورأى فنسنت أن المصورين كانوا يحترمون زولا لأنه كان ناجحا .
فحسب .. فهم يزورون مفاهيم النجاح العادية — بل لأنه كان يطرق مجالا
يبدو لهم صعبا وغامضا وكانوا يصغون له وهو يقول :

— وذهن الإنسان العادى يفكر فى تعبيرات ثنائية ، الضوء والظل والحلو
والمر والحبيث والطيب ، وهذه الثنائية لا توجد فى الطبيعة فليس هناك خير
ولا شر فى هذه الحياة الدنيا بل هناك فقط وجود وتصرف وعند ما نصف
فعلا فإننا نصف مظهرا للحياة وعندما نطلق أسماء على هذه التصرفات مثل
الغواية أو الفحش فإننا ندخل فى نطاق الهوى الشخصى ..

وقال ثيو ..

— ولكن ماذا يفعل الجمهور يا إميل بدون معيار للأخلاق ؟

فهب تولوز لتجدته وقال :

— الأخلاق ليست إلا منوما ليغمض الناس عيونهم عن تبين فساد دون
زخرف الحياة الدنيا ..

وقال سيرا ..

— إن ثورتك يازولا على الأخلاق ليست إلا فوضى بل هي في هذا
فوضى تؤدي إلى عدم وقد جربت من قبل ولم تنجح ..
وقال زولا موافقا :

— لا بد بالطبع أن نخضع لبعض القوانين فخير الجماعة يتطلب بذل
تضحيات من الفرد وأنا لا أعترض على التمسك بالأخلاق ، بل أعترض فقط
على الحياة والحفر الذي يصق على لوحة « أولمبيا » ويريد أن يصادر أعمال
موباسان وأقول لكم إن الأخلاق في فرنسا تنحصر اليوم في أضيق نطاق ..
ألا فلندع الناس يبيتون مع من يعشقون فاني لأعرف أن هناك خلقا أسمى
من هذا ..

فقال جوجان ..

— وهذا يذكرني بحفلة عشاء أقمتها منذ بضع سنوات إذ قال لي رجل
من المدعوين .. « لعلك قدرك يا صديقي أني لا أستطيع أن أصحب زوجتي
لحفلات العشاء التي تقيمها إذا حضرتها عشيقتك » ، فأجبتة قائلا .. حسن
جدا سأرسلها هذا المساء لتبيت في الخارج ،

وعندما انتهينا من تناول العشاء وانصرفوا جميعا إلى منازلهم نهضت
السيدة الشريفة التي أمضت الليل كله وهي تتشاءب ثم كفت عن التثاؤب
وقالت لزوجها : « هلا تحدثنا حديثا شائقا قبل أن نفعلها .. فقال لها زوجها ،
بل دعينا لا نفعل شيئا سوى الحديث فقد أكلت كثيرا هذا المساء ..

وصاح زولا وسط الضحك ..

— وهذا ينبئنا بالقصة كلها .

وقال فنسنت :

— هلا تركنا الحديث عن الأخلاق لحظة وعدنا إلى الخلاعة في الفن فلم يصف أحد صوري بأنها بذيئة ولكن اتهمت اتهاما لا يتبدل يفوق في شناعته الخلاعة والقبیح ..

فقال تولوز لوتريك :

— لعمري لقد أصبحت المهدف هذه المرة يا فنسنت ..

وقال جوجان موافقا :

— أجل هذا هو جوهر الخلاعة الجديد هند الجمهور .. هل قرأت ما كتبه عنا هذا الشهر جريدة مركيزدي فرانس ؟ عبادة القبیح ..

فقال زولا :

— لقد وجهت إلى سهام هذا النقد نفسه فيالأمس قالت لي كونتيسة :

«سيو، زولا يا عزيزي .. لماذا يعمد رجل له مثل موهبتك الفذة إلى تهليب الأحبار ليرى أى نوع يزحف تحتها من الحشرات القذرة؟»
وتناول لوتريك صحيفة قديمة أخرجها من جيبه وقال :

— اسمعوا لما قاله الناقد عن لوحاتي التي عرضت في آخر صالون للبصوريين

المستقلين ..

« قد يكون تولوز لوتريك حقيقا بالوم لا يتهاجر برسم الخلاعة التافهة والمتع الفظة والموضوعات الحقيرة ولكن يبدو أنه لا يحس بجمال الطلبة وتناسق الشكل ورشاقة الحركة وقد يكون حقا قد صور بفرشاته الرقيقة كائنات سقيمة للتسكوين مبتورة الأعضاء كريهة لفرط قبحها ولكن أى فائدة في هذا الانحراف؟»

فغمغم فنسنت قائلا :

— هذه خيالات فرانز هالس ..

وقال سيرا :

— حسناً ، لعمري إنه على حق لأنكم معشر الرجال إذا لم تكونوا قد انخرقتم فإنكم هلى الأقل قد ضللتكم الطريق .. فالقن بحجب ألا يتناول إلا الأشياء المجردة كاللون والزخرفة .. ودرجة اللون (التون) ولا يجوز أن نستخدمه لتحسين الأحوال الاجتماعية أو إبراز القبح فالتصوير ينبغي أن يكون كالموسيقى شيئاً منفصلاً عن عالمنا كل يوم .

وقال زولا :

— فى العام الماضى توفى فكتور هيجو ودفنت معه حضارة كاملة .. حضارة كانت تقوم على الإيماءات الجميلة والخيال البارع والأكاذيب الخبيثة والمهارة فى الاحتيال ولكن كتبتى تمثل الحضارة الجديدة ، حضارة القرن العشرين البعيدة عن الآداب العامة وبالمثل لوحاتكم وقد كان بورجيو يجر جيفته حول باريس ولكن يوم عرض إدوارد مانيه لوحته « نزهة على الحشائش » أصابه النحس ومات يوم انتهى مانيه من تصوير لوحته « أوليمبيا » — حسناً .. إن مانيه قد مات الآن وكذلك دوميه ولكن ما يزال ديجا ولوتريك وجوجان أحياء ليتابعوا أعمالهم ..

وقال تولوز لوتريك :

— لا تنس أن تدرج اسم فنسنت فان جوخ فى هذه القائمة ..

وقال روسو :

— بل ضعه فى رأس القائمة ..

فقال زولا :

— حسناً جداً يا فنسنت ، إراك مرشح لزعامة مدرسة القبح فهل تقبل

هذا الترشيح ؟

فقال فنسنت :

— بل إني أخشى الأسف أن أكون قد ولدت فى دنياه ..

وقال زولا :

— أيها السادة لنقم بصياغة منشورنا فأولا نحن نعتقد أن كل حقيقة جميلة مهما بدا وجهها كالحا ونحن نقبل الطبيعة على علاقتها دون جحود ونؤمن بأن في الحقيقة القاسية جمالا يفوق ما في الأ كذوبة اللطيفة وأن هناك في الدنيا من الشاعرية أكثر مما في كل صالونات باريس .. ونحن نعتقد أن الألم خير لأنه أعمق المشاعر البشرية جميعا ونحن نعتقد أن الجنس شيء جميل حتى عندما نرسم صورة شخصية لبغى وقواد ونحن نضع الحق فوق القبح والألم فوق الجمال والحقيقة القاسية الساذجة فوق كل ما في فرنسا من ثروات ونحن نتقبل الحياة على علاقتها دون أن نصدر عليها أحكاما ونحن نعتقد أن المومس فاضلة كأي كونتيسة وأن حارس الباب نافع كالقائد وأن الفلاح صالح كالوزير لأنهم جميعا يصاحون نماذج للطبيعة ونحن جميعا نسيج من تصميم الحياة ..

وصاح تولوز لوتريك ..

— لنرفع كثر من أيها السادة ونشرب نخب منافاة الآداب وعبادة القبح ولعل هذا يزيد في جمال وإبداع العالم ..

وقال سيزان :

— نخب اللغو !

وقال جورج سيرا :

— ومرة أخرى نخب اللغو

* * *

(٩)

وفي غرة شهر يونية انتقلا إلى شقتيها الجديدة بالمنزل رقم ٤٥ بشارع
ليبيك بمونمارتر . وكان المنزل لا يبعد عن شارع لافال إلا قليلا . . وما كان
عليهما إلا أن يسيرا في شارع مونمارتر إلا مسافة لا تزيد عن بضع مبان إلى
بوليفار كليش ثم يتخذنا شارع ليبيك الملتوى ويمرا بالمولاندى لا جاليت
تقريبا في الجزء الريفي من التل .

وكانت شقتيها تقع في الطابق الثالث وتتكون من ثلاث حجرات
وغرفة صغيرة ومطبخ وكانت حجرة المعيشة مريحة بفضل ما فيها من أثاث
ثيو القديم الجميل من طراز لويس فيليب والمدفأة الكبيرة التي كانت تقيمهم
شربرد باريس . وكان ثيو بارعا في شئون تدبير المنزل ويحب أن يرى
كل شيء في موضعه واتخذ الحجرة المجاورة لغرفة المعيشة حجرة لنومه
بينما كان فنسنت ينام في الحجرة الصغيرة التي يقع خلفها مرسمه وكان عبارة
عن حجرة عادية الاتساع ولها نافذة واحدة . .

وقال ثيو :

— لا داعي لأن تعمل بعد ذلك في استوديو كورمان يا فنسنت . .

وكانا يرتبان قطع الأثاث في حجرة المعيشة ثم يعيدان تنظيمها . .

— لا ، وشكرا فمازلت في حاجة إلى تصوير بعض الفتيات
العاريات .

فوضع ثيو الأريكة عبر الحجرة المجاورة للغرفة الصغيرة ثم قاس
الحجرة بعين الناقد وسأله .

— ولكنك لم تتم لوحة واحدة بالألوان منذ وقت طويل أليس
كذلك ؟

— نعم

— ولم لم تفعل؟

— وما الفائدة؟ إلى أن أستطيع مزج الألوان .. أين تريد أن أضع هذا المقعد المريح يا ثيو؟ تحت المصباح أو بجوار النافذة أما الآن وأما أمك مرسمًا خاصًا بي

واستيقظ. فنسنت في صباح اليوم التالي مع شروق الشمس ووضع حامل الصور في مرسمه الجديد ووضع قطعة من القماش فوق إطار ثم وضع الملون (البالت) الجديد المتألق والذي اشتراه له ثيو وأخذ في تلمين أطراف فراجه واما إن حان الوقت حتى وضع القهوة وذهب إلى الخبز لشراء بسكوت هش .

وكان ثيو يستطيع أن يحس بانفعال فنسنت واضطرابه وهما على مائدة الإفطار فقال له :

— حسنا يا فنسنت . لقد أمضيت في المدرسة ثلاثة شهور — أوه . لا أقصد مرسم كورمان بل أقصد مدرسة باريس ! ولقد رأيت أهم تصوير تم في أوروبا في خلال ثلاثمائة سنة والآن أنت على استعداد لأن . . .

فدفع فنسنت بإفطاره الذي أكل منه نصفه ثم وثب واقفا على قدميه وقال :

— أعتقد أني سأبدأ .

— اجلس وانت من إفطارك فلديك متسع من الوقت ولا داعي للقلق فسوف أشتري لك الألوان والقماش بالجملة فيكون منها تحت تصرفك كمية كبيرة ويحسن بك أن تجرى جراحة لأسنانك فإني أريد أن تكون دائما في صحة تامة ولكن بالله عليك اشرع في عملك بعناية وبطء ! وعندما عاد ثيو لبيته هذا المساء وجد أن فنسنت قد جلد نفسه في

سورة غضبه . لقد كان يعمل في تقدم مطرد في حرفته مدى ست سنوات في ظروف سيئة تثبط الهمة وتسحق الفؤاد والآن وقد أصبح كل شيء له مهينا اكتشف أنه في حالة عجز أذل كبرياه .

وبلغت الساعة العاشرة ولما استطع ثيو أن يهدئه ولكن عندما خرجا لتناول طعام العشاء عادت إلى فنسنت بعض ثقتته بنفسه وكان ثيو يبدو شاحبا ومتعبا .

وكانت الأسابيع التالية بمثابة عذاب لهما معا وعندما كان ثيو يعود من عمله في قاعة الفنون كان يجد فنسنت في إحدى الحالات المائة المختلفة التي يعاني فيها من سموات غضبه ولم تكن ثمة فائدة على الإطلاق للقفل القوي الذي وضعه على بابه وكان فنسنت يجلس على حافة سريريه ويجادله حتى الساعات الأولى من الصباح وإذا حدث أن استغرق ثيو في النوم فإن فنسنت كان يهزه من كتفيه ويوقظه .

وفي ليلة توصل إليه ثيو وقال :

— هلا كففت عن السير لحظة وجلست ساكنا . وبالله لا تشرب هذا الأيسنت اللعين ولا تظن أن جوجان قد طور ألوانه بهذه الوسيلة . والآن استمع إلى أيها الأبله اللعين . ينبغي أن تمنح نفسك إجازة لمدة عام على الأقل قبل أن تبدأ في النظر إلى عملك بعين الانتقاد . وما الفائدة في أن تهلك نفسك في العمل حتى تسقط مريضاً ! العمرى إنك لتزداد نحافة وتغدوا أكثر عصبية ولا شك أنك تعرف أنه لن يكون في وسعك أن تنتج أروع أعمالك وأنت بهذا الحال .

وأقبل صيف باريس بموجاته الحارة وكانت الشمس تصلى الشوارع بشواظ من نار فكان الناس يجلسون في باريس أمام مقاهيهم المفضلة حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا ويحتسون المشروبات الباردة . وتفتحت

الأزهار في تل بوت بمونمارتر وتألقت بألوانها الزاهية للصارخة وكان
نهر السين يتعطف خلال المدينة في طريقه المتلألئ وعلى شاطئيه ثمة أشجار
مورقة وأجزاء ظليلة من الحشائش الخضراء .

وكان فنسنت يرفع على ظهره حامل اللوحات صباح كل يوم وينطلق
باحثا عن منظر يصوره ولم يعرف قط مثل هذه الحرارة عندما كان يقيم
في هولندا ولم ير قط من قبل مثل هذا اللون الأساسي العميق وكان يعود
من جولاته التصويرية مساء كل يوم في الوقت المناسب تقريبا ليشارك في
المناقشات الحادة في الطابق الأرضي من محل جويل .

وجاءه جوجان يوما ليعاونه في مزج الألوان وسأله

— من أين تشتري هذه الألوان ؟

— إنني أشتريها بالجملة .

— يجب أن تعاضد الأب تانجي وتشتري منه فأسعاره أقل الأسعار
في باريس كما أنه يأتى الرجل عندما يكون مقلسا .

— ومن هو هذا الأب تانجي ؟ لقد سمعتك من قبل تذكر اسمه .

— ألم تقابله بعد ؟ رباة ! إذن ينبغي ألا تتردد لحظة أخرى فأنت
والأب الرجلان الوحيدان اللذان قابلتهما ووجدت أنهما شيوعيان حقا
من كل قليهما . هيا والبس قلنسوتك الجميلة المصنوعة من فراء الأرنب
فسوف نذهب إلى شارع كلوزيل .

وبينما كانا ينعطفان في شارع ليبيك أخبره جوجان بقصة الأب
تانجي فقال له :

— قبل أن يأتى إلى باريس كان يعمل في الطلاء والتجصيص ثم عمل
طعاما للألوان في محل إدوارد وبعدها شغل وظيفة حارس باب في مكان
ما بالتل .

وتفرغت زوجته للعناية بشئون المنزل فبدأ الأب يتجر بالألوان في المحل
وقابل بيسارو ومونيه وسيزان فأحبوه منذ ذلك الوقت وبدأنا كلنا نشترى
منه حاجتنا من الألوان وانضم إلى الشيوعيين مع الطليعة الأخيرة وبينما يحلم
يوما وهو يقوم بواجب الحراسة هبطت إلى موقعه الحربى عصا به من فرساي
ولم يستطع الرجل المسكين أن يطلق الرصاص على إنسان آخر من البشر وألقى
بقدارته فحكم عليه بعامين يقضيهما في الخدمة في القواديس في برست بسبب
خيانته ولكننا أنقذناه منها. وكان قد استطاع أن يوفر بضع فرنكات ففتح
محله الصغير في شارع كلوزيل وقام لوتريك بطلاء واجهته باللون الأزرق
وكان أول رجل يعرض لوحة لسيزان في باريس ومنذ ذلك الحين ونحن
نعرض بضاعتنا هناك. وليس هذا كي يبيع لوحة. آه لا! فالحق أن الأب
عجب عظيم للفن ولما كان فقيرا وموارده لا تسعفه بشراء اللوحات فإنه
يعرضها في حانوته الصغير حيث يمكنه أن يعيش بينها طوال اليوم.

— أتعني أنه لن يبيع لوحة حتى لو تلقى عرضا طيبا لشرائها ؟

— لا قطعا. فهو لا يأخذ إلا اللوحات التي تروق له وعندما يتعلق
بلوحة فلن تستطيع أن تنتزعها من محله. وقد كنت هناك يوما عندما حضر
رجل حسن البزة وأعجب بلوحة لسيزان فسأله عن ثمنها ولعل أى تاجر
سواه في باريس كان يطير جذلا لو باعها بستين فرنكا ولكن الأب تأنى
تطلع إلى اللوحة طويلا ثم قال آه. هذه اللوحة. إنها لوحة رائعة لسيزان
ولا يمكن أن أفرط فيها بأقل من ستانة فرنك، ولما هرول الرجل خارجا
تناول الأب اللوحة من فوق الحائط وأمسكها أمامه ودموعه تنساقط من
عينيه.

— إذن ما فائدة عرض أعمالكم في محله ؟

— حسنا ! إن الأب تأنى شخص غريب ولا يعرف عن الفن إلا
طعن الألوان ومع ذلك فإن له حاسة فنية قلبا تخطىء يميز بها اللوحة الأصلية

فإذا طلب منك إحدى لوحاتك فلا تتردد في إعطائها له لأنها ستكون بداية رسمية لك في ميدان الفن الباريسي . هاهو شارع كلوزيل . لتتشن ويدخل فيه . وكان شارع كلوزيل طريقا واحدا يصل شارع دي مارتير بشارع هنري مونيه وكان حافلا بالمحلات الصغيرة التي تقع تحت طابقتين أو ثلاثة من المساكن المخلقة وكان محل الأب تانجي يقع عبر الشارع بجانب مدرسة ابتدائية للبنات .

وكان الأب تانجي يتطلع إلى بعض الرسوم اليابانية وكانت وقتئذ أحدث ماورد لباريس .

— أيها الأب — لقد أحضرت لك صديقا هو فنسنت فان جوخ وهو شيوعي متحمس فقال الأب تانجي في صوت ناعم كهوت النساء تقريبا .
— يسرني أن أرحب بك في محلي .

وكان تانجي رجلا صغير الجسم له وجه مكتمل وعينان تواقتان كعيني كلب أليف وعلى رأسه قبعة من القش لها حافة عريضة وكان يجذبها إلى ماتحت مستوى حاجبيه وكانت له ذراعان نصيرتان ويدان بترأوان ولحية خشنة وكان يفتح عينه اليمنى نصف فتحة عينه اليسرى . وسأل في حياء .

— أحقا أنت شيوعي ياسيد فان جوخ ؟

— لست أدري ماذا تقصد بالشيوعية أيها الأب تانجي ولكني أعتقد أن كل إنسان يجب أن يعمل في المهنة التي يحبها أكثر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وفي مقابل هذا يحصل على كل ما هو في حاجة إليه .

فضحك جوجان وقال :

— هكذا بهذه البساطة .

فقال الأب تانجي :

— آه لقد عملت في بورصة العقود يابول . أليس المال هو الذي يحيل

الرجال إلى وحوش ضارية ؟

— بلى ولكن هذا يصدق أيضا على الافتقار إلى المال .
— لا إن الافتقار إلى المال لا يمكن أن يفعل هذا ولعلك تقصد الافتقار
إلى الطعام وضروريات الحياة .

فقال فنسنت :

— صدقت أيها الأب تانجى فالأمر كذلك تماما .

فقال الأب تانجى :

— إن صديقنا بول يزدري الرجال الذين يربحون المال ويستخف بنا
لأننا لا نستطيع أن نكون ثروة ولكنى أفضل أن أتمنى للطبقة الأخيرة
ولا شك أن أى رجل يعيش على دخل يزيد عن خمسين سنتيما في اليوم أفاق .
فقال جوجان :

— وإذن فالفضيلة قد حلت عندي بحكم الحاجة فهل لك أن تأتمنى أيها
الأب تانجى وتعطينى قليلا من اللون ؟ وإني لأهرف أنى أدين لك بمبلغ كبير
من المال ولكنى سأعجز عن العمل مالم . . .

— نعم يا بول . . سأعطيك شيئا على الحساب ولو كنت أقل ثقة بالناس
وكنت أنت أعظم ثقة لتحسنت حالنا معا . ولكن أين اللوحة التى وعدتني
بها ؟ قد أستطيع أن أبيعها وأسترد ثمن ألوانى .
فغمز جوجان بعينه لفنست وقال :

— سأحضر لك لوحتين أيها الأب لتعلقهما جنباً إلى جنب والآن هلا
سمحت لى بأنوبة من اللون الأسود وأخرى من اللون الأصفر .
— ادفع ما عليك تحصل على مزيد من الألوان !

والتفت الرجال الثلاثة فى وقت واحد وكافت مدام تانجى قد دخلت إلى
المحل بعد أن صفقت الباب المؤدى إلى مسكنهم وكانت امرأة نحيلة صغيرة
الجسم لها وجه هزيل قاسى الملامح وعينان تفيضان بالمرارة وقالت لجوجان
وهى تصخب :

— أظن أننا نعمل لوجه الله ؟ هل تعتقد أننا نستطيع أن نأكل شيوعية

تأنجى ؟ هيا وادفع هذا الحساب أيها المحتال وإلا أبلغت عنك الشرطة !
فابتسم جورجيان ابتسامة تأخذ بمجامع القلوب وتناول يده مدام تأنجى
وقبلها في لطف وكياسة وقال :

— آه يا اكسانتيب . كم تبدين ساحرة هذا الصباح !
ولم تفهم مدام تأنجى لماذا كان هذا الحيوان الجميل يصر على أن يدعوها
باسم اكسانتيب ولسكنها كانت تحب سماعه وتطرب لهذا الشئ .

— لا تظن أنك تستطيع خداعى أيها الكسول البليد فإنى أعمل كالرقيق
فى طحن هذه الألوان القذرة ثم تاتى أنت وتسرقها .
— لا تقسى على يا عزيزتى اكسانتيب الغالية فإن لك روح فنانة وإن
لأستطيع أن أتبين هذا بين تقاطيع وجهك الجميل .
فرفعت مدام تأنجى مبدعتها كما لو كانت تهم بمسح روح الفنانة عن
وجهها وصرخت قائلة :

— أف ! يكفيننا وجود فنان واحد فى العائلة ولعله قال لك إنه يريد
أن يعيش بخمسين سنتيا فى اليوم فبالله من أين تعتقد أنه سيحصل على هذه
السنتيات الخمسين إذا لم أكسبها له !

— إن كل باريس تتحدث عن سحرك ومهارتك ياسيدتى العزيزة .
وانحنى ومرة أخرى مس بشفتيه يدها المجددة فلافت وقالت :
— حسنا ، إنك أفاق تحسن المداينة ولسكنك تستطيع أن تحصل هذه
الدفعة على بعض اللون بشرط أن تحاول سداد ما عليك .

— واعترافا منى بهذا الجميل يا اكسانتيب الجميلة سأرسم لك صورة
شخصية سوف تعلق يوما فى متحف اللوفر وتخلد ذكرانا معا .
وجلبل الجرس الصغير على الباب الأمامى ودلف منه رجل
غريب وقال :

— لمن هذه الصورة المعلقة فى نافذتك . تلك الطبيعة الصامتة !

— ليول سيزان .

— سيزان ألم أسمع عنه من قبل أهي للبيع ؟

— آه لا . للأسف هي قد ...

فألقت مدام تانجى بمزرتها ودفعت تانجى من طريقها وهرولت فى اهتمام نحو الرجل وقالت :

— واكنمها للبيع طبعاً . إنها صورة جميلة . طبيعة صامتة . أليست كذلك ياسيدى ! هل رأيت من قبل مثل هذه التفاحات ! منبيعها لكم بشمن . رخيص ياسيدى ما دامت تعجبك .

— وكم تطلبون !

فقالت المدام بصوت فيه نبرة التهديد .

— ما ثمنها ياتانجى !

فابتلع تانجى ريقه بصعوبة وقال :

— ثلاث ...

— تانجى !

— مائة ...

— تانجى !

— حسناً ، مائة فرنك . .

فقال الغريب :

— مائة فرنك ؟ مقابل لوحة لمصور من النكرات ؟ أخشى أن تكون

قد غاليت فى الثمن . لقد كنت على استعداد أن أفق حوالى خمسة وعشرين فرنكاً .

فانزعت مدام تانجى اللوحة من النافذة وقالت :

— تأمل ياسيدى . إنها لوحة كبيرة وهناك أربع تفاحات — أربع

تفاحات بمائة فرنك . وأنت تريد أن تدفع خمسة وعشرين فرنكا فقط .
إذن لم لا تأخذ تفاحة واحدة ؟

فأخذ الرجل يدرس اللوحة لحظة ثم قال :

— نعم — بوسعى أن أفعل هذا . اقطعي هذه التفاحة بطول اللوحة
وسوف آخذها .

فهرولت المدام عائدة إلى شقتها وأحضرت مقصا وقطعت التفاحة التي
في الطرف ولفتها في قطعة من الورق وناولتها للرجل وأخذت منه الخمسة
والعشرين فرنكا وسار خارجا وهو يحمل اللقافة تحت ذراعه .
وقال تانجي وهو يئن .

— لوحة سيزان الأثيرة عندي . لقد وضعتها في النافذة ليراها
الناس لحظة ثم ينصرفون وهم سعداء .

ووضعت السيدة اللوحة المشوهة على المائدة وقالت :

— في المرة القادمة إذا أراد شخص شراء لوحة لسيزان ولم يكن
معه ما يكفي من النقود فبيع له تفاحة خذ مقابلها أى شيء يمكنك الحصول
عليه فإنها لاقيمة لها على أى حال وهو يصور منها الكثير . لا داعي لأن
تضحك يا بول جوجان فسوف يحدث لك نفس الشيء وسوف أنتزع
لوحتك هذه من الحائط وأبيع كل واحدة من فتيانك العاريات لقاء خمسة
فرنكات للصورة .

فقال جوجان :

— عزيزتي أكسانتيب . بما يوسف له أننا تقابلنا بعد فوات الأوان .
فلو كنت شريكتي في بورصة العقود لسكننا الآن نملك فرنسا .

وعندما انصحبت السيدة إلى مسكنها الواقع خلف المحل قال الأب
تانجي لفنسننت :

— هل أنت مصور ياسيدي ! أرجو أن تشتري من محلي ألوانك وربما
تسمح لي برؤية بعض لوحاتك !

- يسعدني أن أفعل هذا . هذه رسومات يا بانية بدیعة . أهي للبيع ؟
— أجل لقد أصبحت طرازاً شائعاً في باريس منذ أخذ الإخوان كونكور
في جمعها وهي تؤثر في مصوري بنا الشبان إلى حد كبير .
— تمجيني هاتان الاثنتان وأود أن أدرسهما فسكن تريدهما ؟
— ثلاثة فرنكات لكل واحدة .
— سأأخذهما - أواه يا إلهي لقد نسيت . فقد أنفقت آخر فرنك معي
هذا الصباح . أمعك ست فرنكات يا جوجان ؟
-- بالله لا تسخر مني .
فوضع فنست الرسوم اليا بانية على المائدة وهو آسف وقال :
— أراني مضطراً لتركهما أيها الأب تانجي .
فوضع الأب الرسوم في يد فنست وتطلع إليه وقد ارتسمت على وجهه
البائس ابتسامة تنسم بالود والحياء وقال :
— إنك في حاجة إليهما اعملك فأرجوك أن تأخذهما وسوف تدفع لي
ثمهما فيما بعد .

(١٠)

وقرر ثيو أن يقيم حفلا لأصدقاء فنسنت فأعد أربعاً وعشرين بيضة مسلوقة تماماً واشترى برميلا صغيراً من البيرة وملاً أطباقاً لا تحصى بالبسكوت والفطائر وكان دخان التبغ في حجرة المعيشة كثيفاً لدرجة أن جوجان كان يبدو كإحدى السفن من عابرات المحيط تبرز من بين الضباب وذلك كلما تحرك بيده الضخم من طرف ، إلى آخر وجثم لوتريك في ركن وأخذ يكسر البيض على ذراع مقعد ثيو الأثير ويبعث القشر فوق السجادة وكان روسو بالغ الانفعال بسبب رسالة معطرة تلقاها في هذا اليوم من إحدى السيدات المعجبات وكانت تريد أن تقابله وأخذ يردد عليهم القصة وقد اتسعت عيناه من فرط الدهشة وكان سيرا قد استخلص نظرية جديدة وأكره سيزان على أن يتسمر بجانب النافذة لبشرحها له بينما أخذ فنسنت يصب البيرة من البرميل الصغير ويضحك على نكات جوجان البذيئة ويتساءل مع روسو عما عساه تكون السيدة صديقه ويجادل لوتريك أيهما أعظم تأثيراً في الفنان الانطباعي ويستحوذ على اهتمامه أم الخطوط أم نقط اللون. وأخيراً أنقذ سيزان من براثن سيرا .

وكانت الحجرة تتفجر من فرط الانفعال الذي كان يملك من فيها من الرجال وكانوا كلهم من الشخصيات القوية الشديدة الأناية الذين تسيطر عليهم فكرة تحطيم الأصنام المهتزة ، وكان ثيو يطلق عليهم اسم المساسيين فقد كانوا يحبون الجدل والعراك والسياب ويدافعون عن نظرياتهم الخاصة ويدحضون كل ماعداها وكانت لهم أصوات جهورية خشنة ولعل بهو يبلغ حجمه عشرين ضعفاً لغرفة جلوس ثيو خليق بأن يضيق ذرعاً بمثل هذه القوة الدينامية لهؤلاء المصورين المخرمين بالصخب والعراك .

وقد كان المهرج الذي ساد الحجرة وملاً فنسنت حماساً وحركة وأطلق

لسانه من عقاله سببا في إصابته ثيو بصداق مؤلم إذ كان هذا الطنين غريبا على طبيعته الهادئة ولا شك أنه كان يحب هؤلاء الرجال الذين يملأون الغرفة حبا جما . ألم يدخل من أجلمهم في معركة هادئة لا تنتهى مع آل جوبيل ولكنه وجد أن هذا الصخب والضجيج غير المألوف لهذه الشخصيات شيء يخالف طبيعته الهادئة وكان في شخصية ثيو شيء من رقة الأنثى ولا حظ تولوز ذلك فقذفه مرة بإحدى دعاياته الثقيلة المعتادة وقال :

— بما يوسف له أن ثيو شقيق لفنسنت فقد كان يصلح أن يكون له زوجة رائعة ..

ووجد ثيو أن بيع لوحات بورجيو أمر مقبوت لنفسه وأنه من السخف أن يصور فنسنت مثلها ومع ذلك فقد كان يدرك أنه لو باع لوحة لبورجيو لسمح له فالودون بعرض لوحات ديجا ولعله يستطيع يوما أن يغري فالودون بعرض لوحه لسيزان ثم لجوجان أو لوتريك وأخيرا لعله يستطيع في يوم بعيد أن يعرض لوحة لفنسنت فان جوخ .

والتى نظرة أخيرة على الغرفة المشحونة بالدخان والضجيج والعراك ثم انسل خارجا من الباب الأمامى دون أن يلاحظه أحد وسار فى التل وحيدا حيث أخذ يحلق فى أضواء باريس المنتشرة أمام عينيه .

واخذ جوجان يحاور سيزان ويلوح بإحدى يديه الى يقبض بها على بيضة مسلوقة وبسكوطة بينما يمسك بيده الأخرى كأساً من البيرة وكان يفخر بأنه الرجل الوحيد فى باريس الذى يستطيع أن يشرب البيرة والغليون فى فمه .

وصاح قائلا :

— لأن لوحاتك باردة ياسيزان . باردة كالثلج وهى تدفع الدم جامدا فى عروقي عندما أتطلع إليها وليس فى اللوحات القماشية الطويلة التى نشرتها للتصوير ذرة واحدة من العاطفة .

فأفحمه سيزان قائلا :

- إن لا أحاول رسم العاطفة بل أدع هذا وأنت ترسم ماتراه بعينيك، وهذا هو ماترسم به .

- وبم يرسم اى شخص آخر؟

فألقي جوجان نظرة سريعة على الحجرة وقال :

- بكل شيء فلوتريك يرسم هناك بطحاله وفنسنت فان جوخ يرسم قلبه وسيرا يرسم بعقله وهو لعمرى أمر سيء كرسمك بعينيك وروسو يرسم بخياله .

- وبم ترسم يا جوجان؟

- من . . . أنا ؟ لا أدري فلم أفكر من قبل فى هذا الأمر .

فقال لوتريك :

- إذن دعنى أخبرك - إنك ترسم بصورتك !

وعندما تلاشت ضحكات القوم على جوجان جثم سيرا بجسمه على ذراع أريكه وصاح قائلاً :

- تستطيع أن تهزأ برجل يرسم بعقله واسكن هذا كان عنوانى فى أن أكتشف كيف يمكن أن أجعل لوحاتنا مزدوجة الأثر .

فتأوه سيزان وقال :

- أينبغى أن أصغى لهذا الهراء مرة أخرى ؟

- اخرس ياسيزان ! وأنت يا جوجان هلا جلست فى مكان ما حتى لا تفسد نظام الحجرة كلها وأنت ياروسو هلا كففت عن ترديد هذه القصة اللعينة عن تلك السيدة المعجبة بك وأنت يا لوتريك فأولنى بيضه ، ويا فنسنت هل لك أن تناولنى بسكوتة . والآن استمعوا إلى جميعاً !

— ماذا بك يا سيرا؟ لم يسبق أن رأيتك نائرا هكذا منذ أن بصق ذلك الرجل على لوحتك في صالون اللوحات المرفوضة !

اسمعوا ! ماهو التصوير اليوم؟ الضوء . وأى نوع من الضوء؟ الضوء المتدرج . نقط من اللون تناسب إحداها في الأخرى . — هذا ليس تصويرا بل ترقيمية !

— بالله يا جورج أتريد أن تتعالى علينا مرة أخرى بسمو وأدوارك؟

— اخرس ! إننا فنتهى من رسم لوحة فماذا تفعل؟ ننقلها إلى أحد الأغنياء ليضعها في إطار ذهبي بشع ويقضى بذلك على آخر أثر لنا — والآن أقترح الآن دع صورة تفلت من أيدينا حتى نضعها في إطار وندهن الإطار بحيث يصبح جزءا مكمل للصورة .

— ولستك إن تمضى في هذا الأمر طويلا ياسهرا فكل صورة يجب أن تعلق في حجرة فإذا كانت الحجرة قد طليت جدرانها بلون خاطيء فإن هذا كفيل بأن يقضى على الصورة والإطار معا .

— هذا صحيح ولكن لم لاتطلى الحجرة بحيث تتلاءم مع الإطار؟

فقال سيرا:
«...»
— هذه فكرة صائبة .

— وما قولك في البيت الذى تقع فيه الحجرة؟
والمدينة التى يقع فيها هذا البيت؟

اواه يا جورج ! إنك لاتخطر لك إلا أسوأ الأفكار يا جورج !
وهذا ناشيء من تصويرك بذهنك .

إنكم لا تصورون لأن بأذهانكم رؤوساً خاوية !

— لينظر كل واحد منكم إلى وجه جورج — بسرعة ! لقد استطعنا أن نشير غضب العالم تماما هذه المرة .

وسألهم فنسنت .

— لماذا تتعاركون أيها الرجال ؟ لم لاتعملون معاً .

فقال جوجان :

— إنك الشيوعى فى هذه المجموعة . فهلا أخبرتنى بما يعود علينا

إذا عملنا معاً ؟

فقال فنسنت وهو يلقى فى فمه بصفار بيضة مسلوقة .

— حسناً جداً . سأخبركم فقد توصلت إلى خطة . نحن جماعة من

النكرات وقد مهد الطريق أمامنا مانيه وديجا وسيسلى ويسارو واعترف
بهم كفانيين وعرضت أعمالهم فى أكبر قاعات الفن وأصبحوا مصورى

الجراند بوليفار وأما نحن فليس لنا إلا أن نذهب إلى الشوارع الجانبية
البيتى بوليفار فلم لانعرض لوحاتنا فى المطاعم الصغيرة فى الشوارع الجانبية

والمطاعم التى يتناول فيها العامل طعامه ؟ وسوف يسهم كل منا بخمس
لوحات مثلاً وسوف نضعها عصر كل يوم فى مكان جديد ونبيع اللوحات

بأى ثمن يكون فى طاقة العمال دفعه ففضلاً عن أن فى هذا فرصة لعرض
أعمالنا دائماً أمام أنظار الجمهور فإننا سنعمل على أن يكون فى وسع الفقراء

من سكان باريس مشاهدة الفن الأصيل وشراء لوحات جميلة مقابل
لاشئ تقريباً .

المهث روسو وقال وقد اتسعت عيناه من فرط الإثارة :

— هذا رائع .

ودمدم سيرا متأنفاً وقال :

— إنى لامتغرق عاماً حتى أتهى من تصوير لوحة . فهل تظن

أنى سأبيعها لتاجر قدر لقاء خمسة فلسات ؟

— تستطيع أن تسهم بدراساتك الصغيرة .

— نعم ولكن لنفرض أن المطاعم لم تقبل عرض لوحاتنا ؟

— بل ، لأنهم سيقبلون ولا ريب .

— ولم لا ؟ لأنها لن تكلفهم شيئاً وسوف تضفي على مطاعمهم جمالا .

— وكيف تدبر هذا الأمر ؟ ومن سيجد المطاعم ؟

فصاح فنسنت قائلا :

— لقد فكرت في هذا . سنعين الأب تانجى مديراً لأعمالنا وعليه أن

يجد المطاعم ويعلق الصور ويحصل النقود .

— لعمري إنه رجلنا ولا ريب .

— هيا ياروسو تكرم وأسرع إلى عمل الأب تانجى وقل له إنه مطلوب

اللقيام بعمل هام .

فقال سيزان :

— يمكنكم اعتبارى من الخارجين على هذه الخطة .

فسأله جوجان :

— ماذا بك ؟ أتخشى أن تثلوث لوحاتك الجميلة بنظرات العمال ؟

— ليس هذا هو الأمر ولكنى عائد إلى إكس في نهاية هذا الشهر .

فقال فنسنت وهو يحثه :

— هلا جربتها مرة ياسيزان وإذا لم تنجح فلن نخسر شيئاً .

— أوه — حسن جدا .

وقال لوتريك :

— وعندما ننتهى من المطاعم نستطيع أن نبدأ في المواخير وأنا

أعرف السيدات في مونتارتر ولهن عملاء أحسن وأعتقد أننا سنحصل منهم على أعلى الأثمان .

وجاء الأب تانجى يهزول متلهفأ واستطاع روسو أن يروى له ما حدث

في انضاب وكانت قبعته المستديرة المصنوعة من القش تميل بزاوية على رأسه، ووجهه المكتنز الصغير يشع بالحماس وينطق بالتلف، وعندما سمع الخطة صاح قائلاً :

— نعم . نعم . إني لأعرف خير مكان يصلح لهذا . إنه مطعم نورفينز وصاحبه صديق لي وجدراة عارية وسوف يسره هذا ولا ريب وعندما تنتهي من هناك فإني أعرف مطعمًا آخر في شارع بيير — أوه إن هناك آلافًا من المطاعم في باريس .
وسأل جوجان :

— ومتى سيقام أول معرض لنادي البيتي بوليفار .
وسأل فنسنت :

— ولم نوجهه ؟ لم لا نبدأ به غدا ؟

وأخذ تانجي يحجل على قدم واحد ويزع قبعته ثم كبسها ثانية في رأسه وقال :

— أجل . أجل — غدا ! هاتوا لوحاتكم صباحًا وسوف أعلقها عصرًا في مطعم نورفينز وسوف تكون حدثًا تهز له مشاعر الناس عندما يأتون لتناول طعام العشاء . سوف تباع اللوحات كما تباع الشموع المقدسة في عيد الفصح . ما هذا الذي تعطونه لي ، كأسًا من البيرة ! حسنًا ! أيها السادة نخب تفادي الفن الشائع في البيتي بوليفار وتمنيات لأول معرض له بالنجاح .

(١١)

وعصر اليوم التالى طرق الأب تانجى باب شقة فنسنت ثم قال :
— لقد طفت بالآخرين وأنباتهم أننا لن نستطيع أن نعرض لوحة
في مطعم نورفينز ما لم نتناول هناك عشاءنا .
— لا بأس

— حسنا لقد وافق الآخرون ولن يتيسر لنا أن نعلق اللوحات قبل
الرابعة والنصف فهل يمكنك أن تحضر إلى محلى فى الساعة الرابعة ؟ لسوف
نذهب كلنا معا .

— سأكون هناك .

وعندما وصل إلى المحل الأزرق فى شارع كلوزيل كان الأب تانجى
يحمل اللوحات على عربة يد وكان الآخرون يدخلون فى الداخل
ويتناقشون فى الرسوم اليابانية وصرخ الأب قائلا :
— هانحن أولاء على استعداد .

وسأله فنسنت :

— ايمكننى أن أعاونك فى دفع العربة .

— لا . لا فأنا المدير .

ودفع العربة إلى وسط الشارع وبدأ صعوده الطويل وسار خلفه
المصورون اثنين اثنين فسار أولا جوجان ولوتريك فقد أرادا أن يكونا
معاً بسبب اللوحة الهزلية التى رسمها وكان سيرا يستمع إلى روسو الذى
كان بالغ الانفعال بسبب رسالة معطرة أخرى تلقاها عصر هذا اليوم
وسار فى المؤخرة فنسنت وسيزان وكانا عابسين وأخذا يتمتهان بكلمات
مثل الوقار والحشمة .

وقال جوجان بعد أن مالوا إلى طريق التل :

— قف أيها الأب تانجى فهذه العربية ثقيلة ومحملة بتحف رائحة خالدة —
دعنى أضعها لك قليلا .

فصاح الأب تانجى وهو يجرى .

— لا لا فأنا حامل العلم فى هذه الثورة وعند ما تنطلق أول رصاصة
سأكون أول شهيد يسقط فى الميدان .

وكان هؤلاء الرجال بملابسهم غير المتجانسة الغريبة الشكل يسرون
فى موكب مضحك وسط الشارع خلف عربة يد عادية ، ولم يعبأوا بنظرات
المارة المتفكرين بل أخذوا يضحكون ويتحدثون فى حماس .

وصاح روسو :

— هل أخبرتك يا فنسنت بنياً ذلك الخطاب الذى تلقيته عصر هذا
اليوم ؟ وأنه معطر أيضا ومن السيدة نفسها .

وهرول يجرى بجانب فنسنت وهو يلوح له بذراعه وأخذ يردد له نفس
القصة التى لا تنتهى وما أن انتهى منها حتى عاد ليسير مع « سيرا » ونادى
لوتريك على فنسنت وسأله .

— أتعرف من هى السيدة التى يتحدث عنها روسو ؟

— كلا وأنى لى أن أعرف ؟

فتصنع لوتريك الالبقسام وقال :

— إنها من وحى خيال جوجان فقد شاء أن يتيح لروسو أن يعيش فى
قصة غرام لأن الفتى المسكين لم يعرف من قبل امرأة ولسوف يزوره
جوجان بالرسائل المعطرة شهرين ثم يضرب له موعدا ويرتدى ملابس
امرأة ويقابل روسو فى إحدى حجرات مونتارتر التى لها ثقب يمكن منها
اختلاس النظر وسوف نكون كلنا عند الثقب نرقب روسو وهو يطارح
الغرام لأول مرة ولا ريب أنه سيكون منظرأ رائعا .

— لعمرى إنك شيطان مريد يا جوجان .

فقال جوجان :

— أوه — هون عليك يا فذسنت فإنى أعتقد أنها ستكون دعابة جميلة .

وأخيراً وصلوا إلى مطعم نورفيز وكان مكاناً متواضعاً منزوياً بين متجر للأنيذة ومخزن للبهيمات الخاصة بالخيول وطلبت واجهته الخارجية بورنيش أصفر بينما طلبت جدرانه الداخلية بلون أزرق فاتح وكانت هناك نحو عشرين مائدة مربعة مغطاة بمفارش مخططة بخطوط بيضاء وحمراء وفي الخلف قرب باب المطبخ كان هناك خباء لصاحب المطعم .

وظل المصورون يتشاجرون ساعة كاملة حول أيهم أحق بأن تعلق لوحاته وكان الأب تانجى فى حالة ارتباك تقريباً وبدأ الغضب يملك صاحب المطعم لأن ساعة تقديم العشاء قد اقتربت والمطعم ما يزال فى حالة يرثى لها من الاضطراب ورفض سيرا مطلقاً أن تعرض لوحاته لأن زرقه الجدران ستقضى على زرقه سماواته ولم يسمع سيزان بتعلق لوحاته عن الطبيعة الصامتة بجانب ملصقات لوتريك التعسة وتضايق روسو لأنهم أرادوا أن يلصقوا لوحاته على الحائط الخلفى قرب المطبخ وأصر لوتريك على تعليق لوحاته الكبيرة فى دورة المياه

وقال : هذه أعظم لحظة جديدة بالتأمل فى حياة الإنسان .

وأقبل الأب تانجى إلى فذسنت وقد أوشك أن يحطمه اليأس وقال : إليك هذين الفرناكين وأضف إليهما ما استطعت ثم أسرع بدعوة الكل إلى ذلك البار عبر الشارع فلو استطعت فقط أن أفرع خمس عشرة دقيقة لا استطعت أن أفتى من كل شىء .

وأفلحت الحيلة فندما عادوا إلى المطعم كان المعرض قد انتظم فكفوا عن العراك وجلسوا إلى مائدة كبيرة بجانب باب الشارع وكان الأب تانجى قد وضع بطاقات غطى بها الجدران كتب فيها :

هذه اللوحات للبيع بثمن رخيص — خابروا صاحب المطعم .
وبلغت الساعة الخامسة والنصف ولم يكن طعام العشاء يقدم إلا في
الساعة السادسة وبدأ الرجال يعملون كالتليذات ، وفي كل مرة كان يفتح
فيها الباب الأمامي كانت العيون كلها تتحول إليه يحدوها الرجاء ولم يحضر
عملاء مطعم نوفيتر حتى دقت الساعة الخامسة .

وهمس جوجان في أذن سيرا :
— انظر إلى فنسنت . لعمرى إنه لأشد قلقاً من الممثلة الأولى .
وقال لوتريك :
— أتريد أن تعرف ماسوف أصنع يا جوجان ؟ أراهنك على ثمن
العشاء بأن سأبيع لوحة قبلك .
— وأنا قبلت الرهان .

فقال لوتريك :
— أما أنت ياسيزان فإن أراهنك بثلاثة مقابل واحد
فغضب سيزان لهذه الإهانة بينما ضحك منها الجميع .
وقال فنسنت :
لاتنسوا أن الأب تانجي هو الذى يقوم بالبيع فإياكم أن يحاول أحدكم
مساومة المشتريين .
وسأل روسو

— ولكن لم لا يأتون ؟ لقد تأخر الوقت :
وكلما اقتربت ساعة الحائط من السادسة ازدادت أعصاب الجماعة
توتراً ونفوسهم قلقاً وأخيراً كفوا عن الهذر والمجون وتعلقت أنظار
الرجال بالباب وجثم فوق صدورهم شعور متوتر . وغنم سيرا قائلاً :
— إن هذا الشعور لم يخالفنى عندما عرضت لوحات مع المستقلين
أمام أنظار كل النقاد في باريس .

وهمس روسو قائلا :

— انظروا انظروا ! هذا الرجل يعبر الطريق في طريقه إلى هنا ولا ريب أنه من العملاء ولكن الرجل مر بمطعم نورفينز ثم اختفى ودقت ساعة الحائط ست مرات وما أن انتهت الدقة الأخيرة حتى فتح الباب ودخل أحد العمال وكانت ملابسه رثة وقد ارتسمت عليه خطوط الشقاء فقوست ظهره وكشفه وقال فنسنت :

— سوف نرى الآن ما يفعل .

ولكنه سار مطرقا إلى مائدة في الجانب الآخر من الحجرة ثم ألقى بقبعته على مشجب وجلس وأشرأبت أعناق الستة وأخذوا يرقبونه ، وأمعن الرجل النظر في قائمة الطعام وطلب طبق اليوم وبعد لحظة أخذ يرشف حساءه بملعقة كبيرة ولم يرفع عينيه عن طبقه .

وقال فنسنت :

حقاً هذا غريب .

ودخل عاملان يشتغلان بطرق المعادن فالتقى عليهما صاحب المطعم تحية المساء فتمتا بصوت كالحوار وتهالكا جالسين في أقرب مقعدين ثم انهماكا في الحال في عراك شديد حول شيء حدث لهما في خلال هذا اليوم .

وأخذ المطعم يمتلئ بالتدريج وأقبلت بعض السيدات مع أزواجهن وبدأ كما لو كان كل واحد يعرف أين مائدته التي اعتاد الجلوس إليها وكان أول ما نظروا إليه هو قائمة الطعام وعندما قدم لهم الطعام انهمكوا في تناول طعامهم ولم يرفعوا عنه عيونهم قط وبعد أن انتهوا من تناول طعام العشاء أشعلوا غلايينهم وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ونشروا نسخاتهم المطوية من جريدة المساء وبدأوا يطالعونها .

وحوالى الساعة السابعة أقبل الساقى وسألهم :

— أريد السادة أن أقدم لهم الآن طعام العشاء ؟

فلم يجر أحدهم جواباً فانصرف الساقى ودخل رجل وامرأة وبينما كان يقذف بقبعته على المشجب لاحظ الرجل صورة لروسو تمثل نمرأ يبرز من خلال الأدغال فأشار إليها وأخذ يحدث زميلته وتصلبت عضلات كل واحد حول مائدة المصور ونهض روسو نصف قيام وقالت المرأة شيئاً فى صوت خفيض وضحكت ثم جلسا ورأسهما متقاربان وبدأ يلتهمان طعامهما فى نهم.

وحوالى الساعة الثامنة إلاربعا قدم لهم الساقى الحساء دون أن يطلبوها فلم يمسها أحد منهم ولما بردت رفعها الساقى وأحضر لهم طبق اليوم فأخذ لو تريك يرسم بشوكتة صوراً فى المرق ولم يستطع أحد أن يهيب شيئاً من الطعام غير روسو ونزع كل منهم حتى سيرا زجاجة من النبيذ الأحمر الحاذق وكان المطعم يشيع فيه الدفء من رائحة الطعام وعبير الناس الذين اشتغلوا وهرقوا فى حرارة الشمس .

وأخذ العملاء يدفعون حسابهم الواحد تلو الآخر ثم يلقون تحية عاجلة على صاحب المطعم وينصرفون .

وقال الساقى :

— آسف أيها السادة فقد بلغت الساعة الثامنة والنصف وحان وقت إغلاق المطعم فانتزع الأب قانجى اللوحات من الجدران وحملها إلى الشارع ثم دفع العربية عائداً لبيته وأخذ يخرق ظلام الليل الذى أسدل أستاره .

(١٢)

واختفت من قاعات الفنون ربح جويل العجوز عم فنسنت فان جوخ
للأبد وحلت محلها سياسة تقوم على بيع اللوحات كأي سلعة أخرى
كالأحذية أو أسماك الرنجة وكان ثيو ينهك نفسه ليربح مزيداً من النقود
ويبيع لوحات رخيصة .

وقال فنسنت :

— قل لي ياثيو لم لا أترك آل جويل ؟

فأجاب ثيو في صوت متعب .

— إن تجار الفن الآخرين لا يقلون عنهم سوءاً وفضلاً عن هذا فقد
أمضيت معهم وقتاً طويلاً وخير لي ألا أغير عملي .

— ولكن يجب أن تديره ، إنني أصر على أن تفعل هذا فأنت تزداد
تعاسة كل يوم هناك — لانهم بي أنا أستطيع أن أذهب إذا أحببت
ولعمري لآنت ياثيو أحسن وأحب من عرفت من تجار الفن في باريس
فلم لا تفتح لنفسك محلاً ؟

— أواه يا آلهي ! أينبغي أن نتحدث في هذا مرة أخرى ؟

— اسمع ياثيو فقد خطرت لي فكرة رائعة . سنفتح محلاً على الشيوخ
لبيع اللوحات الفنية وكلنا سوف نعطيك لوحاتنا ونعيش على قدم المساواة
بما نحصل عليه من المال ونستطيع أن نسهم معاً في جمع ما يكفي من المال
لفتح محل صغير في باريس وسوف نستأجر منزلاً في الريف لنعيش ونعمل
فيه . لقد باع بورقيبة أمس لوحة للوتريك وباع الأب تانجي بضع لوحات
لسيزان وأنا على يقين بأن في وسعنا اجتذاب المشتريين الشبان للوحات
الفنية في باريس ولن نكون في حاجة إلى كثير من المال لتدير أمورنا
في هذا المنزل في الريف بل سنعيش معاً في بساطة بدلاً من أن نحفظ
بأثني عشر بيتاً في باريس .

— إني لأحس بعداع فظيع يا فنسنت فهلا تركبتني الآن أذهب لأنام
— لا تستطيع أن تنام يوم الأحد . اصنع لي ياثيو . إلى أين أنت
ذاهب ؟ لا بأس . اخلع ملابسك إذا أردت ولكني سأحدث إليك على أية
حال وسوف أجلس على طرف فراشك . والآن أنت تحس بالتعاسة لعملك
مع جويل وكل المصورين الشبان في باريس قد عقدوا العزم على النجاح وفي
استطاعتنا أن نحصل معاً على بعض المال . . .

وفي الليلة التالية أقبل الأب تانجي ولوتريك مع فنسنت وكان ثيو
يراوده الأمل في أن يكون فنسنت قد خرج هذه الليلة وكانت عينا الأب
تانجي ترقصان من فرط الانفعال وقال :

— ياسيد فان جوخ هذه فكرة رائعة يا سيد فان جوخ وينبغي أن
تنفذها . لسوف أنخلي عن محلي وأنتقل معكم إلى الريف وسوف أطحن
الألوان وأقوم بفرد لوحات القماش وأصنع الإطارات ولن أطلب منكم إلا
الطعام والمأوى . فوضع ثيو كتابه وهو يتهد وقال :

— ومن أين لنا بالمال لنبدأ المشروع ؟ مال لنفتح به محلاً ونستأجر
منزلاً ونطعم الرجال ؟
فصاح الأب تانجي قائلاً :

— إليك فقد أحضرت معي مائتين وعشرين فرنكاً وهي كل ما ادخرته
خذها يا سيد فان جوخ فسوف نتعاون في إقامة مستعمراتنا .

— إنك رجل عاقل يا لوتريك فما رأيك في كل هذا الهراء ؟
— أعتقد أنها فكرة صائبة جداً فإن الأمور وهي تسير الآن هكذا
تجعلنا لا نكافح باريس كلها فحسب بل تجعلنا نحارب أنفسنا فلو استطعنا
أن نكون جهة متحدة .

— حسناً جداً . إنك غني فهل أنت على استعداد لمعاونتنا .

— أوه كلا . . . إذا كانت المستعمرة ستقوم على تمريضها بالإعانات فإنها سوف تفقد أغراضها . وسوف أساهم بمبلغ مائتين وعشرين فرنكا مثل الأب تانجى .

— ولكننا فكرة مجنونة ! وإذا عرفتم أيها السادة شيئا عن دنيا الأعمال فأسرع الأب تانجى إلى ثيو ولوى يده وقال :
— أقوم إليك يا عزيزى السيد فان جورج ألا تصفها بأنها فكرة مجنونة ولعمري إنها لفكرة جليلة وينبغى عليك فقط أن . . .

— لا مجال للتراجع الآن يا عزيزى ثيو . لقد تغلبنا عليك ! وسوف نزيد مبلغ المال ، ونعينك رئيسا لنا . لقد ودعت عمالك عند آل جويل وتخلصت من برائتهم وأنت الآن مدير لمستعمرة الفن على الشيوخ .
فغطى ثيو عينيه بيده وقال :

— بوسعى أن أرى نفسى أدير أعمالكم يا معشر الطفحة من الحيوانات المتوحشة وعند ما عاد ثيو فى الليلة التالية وجد بيته يعج بمصورين تملكهم الانفعال وكان الجو يعبق بدخان التبغ الرخيص بالأصوات والجلبة وكان فنسنت نجم الحفل وقد جلس على مائدة غير صلبة فى وسط غرفة المعيشة .

وصاح قائلا :

— كلا ، كلا لن يكون هناك دفع — لا نقود مطلقاً . سوف لا نرى النقود عاما بعد آخر وسوف يبيع ثيو اللوحات ويوفر لنا الطعام والمأوى ومواد الرسم .

وسأل سيرا !

— وما قولك فى الرجال الذين لن تباع أعمالهم ؟ إلى متى سنعملهم ؟

— طالما راق لهم أن يبقوا معنا ويعملوا .

فصاح جوجان مزجرا :

— ما أروع هذا لسوف نرى كل المصورين الهواة في أوروبا يقفون على أعتاب أبوابنا !

— يعيش ثيو ! يعيش ثيو ! يعيش ثيو

واشتد انفعال كل منهم إلى حد كبير وأراد روسو أن يعرف ما إذا كان في استطاعته أن يلتق دروسا في عزف البيانو وهو في المستعمرة وقال : أفسيكتان إنه مدين بأجرة منزله من ثلاثة شهور وإنه يحسن بهم أن يعثروا على المنزل الريفي في أقرب فرصة ، وأصر سيزان على أن يسمع لآي رجل يصرف نقوده الخاصة إذا كان عنده شيء منها .

فصاح فنسنت قائلا :

— لا فهذا سيقضى على تضامنا المشترك ويجب أن نتقاسم كل شيء بالتساوي وأراد لوتريك أن يعرف ما إذا كان يمكنهم استضافة نساء في البيت وأصر جوجان على إكراه كل واحد على الإسهام بلوحتين على الأقل كل شهر .

وصرح سيرا قائلا :

— إذن لن أشارك معكم فانا لا أنهي إلا من لوحة واحدة كل عام .
وسأل الأب تانجي :

— وما قولكم في مواد الرسم ؟ هل أعطى لكل واحد نفس الكمية من الألوان والقماش كل أسبوع ؟
فصرخ فنسنت قائلا :

— كلا ، كلا ولا ريب فكلنا نحصل على قدر ما نحتاج إليه من المواد لا أكثر ولا أقل تماماً كالطعام .

— نعم ولكن ما مصير الفائض من المال ؟ بعد أن تبدأ في بيع لوحاتنا ؟
ومن يحني الأرباح ؟
فقال فنسنت :

— لا أحد يجنى الأرباح وحالما يتوافر لنا مبلغ صغير من النقود سنفتح بيتا في بريتاى ثم نفتح بيتا آخر في بروفس وقريبا ستكون لنا بيوت في كل أنحاء الريف وعندها سوف ننتقل من مكان لآخر .

— ومن أين ندفع أجر السفر بالقطار ؟ أن دفعها من الأرباح ؟

— نعم ؟ وكى مرة يمكننا أن نسافر ؟ ومن الذى يقرر هذا ؟

— ولنفرض أن هناك عدة مصورين لا يكفيهم منزل واحد فى

خلال أحسن الفصول فهل لك أن تخبرنى من ستركه فى زمير البرد ؟

— ثيو ، ثيو إنك مدير هذا العمل فهلا أخبرتنا عن كل هذا . هل

يستطيع أى واحد أن ينضم ؟ وهل هناك حد لعدد الأعضاء ؟ وهل ينبغي

علينا أن نصور طبقا لأسلوب معين وهل سيتاح لنا الحصول على نماذج

(موديلات) فى البيت ؟

وانفض الاجتماع عند الفجر وكان الناس تحتهم قد أنهمكوا أبدانهم وهم

يكمنسون بمقشاتهم وذهب ثيو لينام فى نحو الساعة الرابعة بينما أحاط بفراشه

فنسنت والآب تاجى وبعض الفنانين الذين ازدادوا حماسا وأخذوا يحثونه

على أن يسلم آل جويل إشعارا بأنه ستركهم أول الشهر .

وازداد الانفعال والتلف شدة بمرور الأسابيع وكانت دنيا الفن فى

باريس منقسمة إلى معسكرين وتحدث المصورون الراسخون عن هؤلاء الفتية

المجاين من إخوان فان جوخ وثار الجدل بين الآخرين دون انقطاع حول

التجربة الجديدة .

وأخذ فنسنت يتحدث ويعمل بجنون ليلا ونهارا وكان عليه تصفية

كثير من التفاصيل . كيف يحصلون على المال وأين يستأجرون المحل وكيف

يتقاضون الأثمان وأى الرجال يمكنهم الاتساب ومن الذى يدير المنزل فى

الريف وكيف يديره . ووجد ثيو نفسه منجذبا رغم إرادته تقريبا فى هذه

الثورة المحمومة وكانت شقته فى شارع لبيلك تزدحم كل ليلة من لياالى الأسبوع

وأقبل رجال الصحافة لتسقط الأنباء وجاء النقاد الفنيون لمناقشة الحركة

الجديدة وهرع المصورون من كافة أنحاء فرنسا إلى باريس كي ينضموا إلى المنظمة .

ولو قدر لثيو أن يكون ملكا لكان فنسنت مستشارا ملكيا فقد كان يرسم الخطط ويضع القوانين الأساسية ويعد الميزانيات ويخترع الأعذار لجمع المال ويدين القواعد واللوائح وينشر المنشورات للصحف ويوزع عجلات لتعريف أوروبا بأهداف مستعمرة الفن على الشيوع وشغل بهذا حتى نسي أنه مصور .

وتدفقت إلى خزائن المنشأة حوالى ثلاثة آلاف فرنك وأسهم المصورون بآخر فرنك استطاعوا أن يقتصدوه وأقيم سوق على قارعة الطريق في بوليفار كليش وأخذ كل رجل ينادى على لوحاته ووصلتهم من جميع أنحاء أوروبا رسائل تحوى أوراقا مالية من الفرنكات قدرة ومغضنة وأقبل إلى الشقة محبو الفن في باريس وشهدوا ذلك الحماس للحركة الجديدة ولم ينسوا أن يلقوا بورقة مالية في الصندوق المفتوح قبل أن ينصرفوا وكان فنسنت يعمل سكرتيرا وأميناً للصندوق .

وأصر ثيو على ضرورة الحصول على خمسة آلاف فرنك قبل أن يستطيعوا البدء وكان قد استأجر محلا في شارع ترونشيه رأى أنه حسن الموقع واكتشف فنسنت قصرا ريفيا قديما فخرا في غابة سان جومان آن لى يمكنهم الحصول عليه مقابل لاشئ تقريبا . واستمر تدفق لوحات المصورين الذين رغبوا فى الانضمام إلى شقة شارع ليبك حتى لم يعد ثمة مكان يمكن أن تطأه قدم وكان مئات من الناس يدخلون ويخرجون من الشقة الصغيرة وكانوا يتجادلون ويتعاركون ويتبادلون السباب ويأكلون ويشربون ويشيرون بأيديهم فى وحشية وأخطر ثيو بالانتقال .

وبعد مضي شهر كانت قطع الأثاث من طراز لويس فيليب قد تمزقت إربا إربا . ولم يجد فنسنت الآن وقتا للتفكير حتى فى لوحة ألوانه فقد كان عليه أن

يدبج الرسائل ويقابل الناس ويعنى بأمر المنازل ويضرم نيران الحماش في قلب كل من يقابله من المصورين الجدد والهواة وكان يتحدث حتى يبع صوتته وكانت عيناه محومتين من فرط الجهد ولم يكن يتناول طعامه بانتظام ولم يجد فرصة للنوم فقد كان يعمل باستمرار ويعمل ويعمل .

وعند ما حل الربيع تم جمع خمسة الآلاف فرك و كان ثيو ينوي إخطار آل جوبيل بأنه ستركهم أول الشهر وقد قرر أن يستأجر علا في شارع ترونشيه وأودع فنسنت تأميناً صغيراً لاستئجار المنزل الواقع في شارع سان جرمان وقام ثيو وفنسنت والاب تانجى وجوجان ولوتريك بإعداد قائمة بالأعضاء الذين سيفتتحون المستعمرة . ومن أكدياس اللوحات التي تجمعت في الشقة انتقى ثيو ماسيعر منه في معرضه الأول وقام بين روسو وانتيكان شجار مرير فقد اختلفا: أيهما يقوم بعمل الديكور لواجهة المحل وأيهما يقوم به داخله ؟

ولم يعد ثيو يعبا بأن أطاروا للنوم من عينيه فقد غلب عليه الحماش كما حدث لفنسنت في البداية وأخذ يعمل بهمة لتنظيم كل شيء حتى يتيسر افتتاح المستعمرة في الصيف وكان يجادل فنسنت باستمرار ويحاوره فيها إذا كان ينبغي استئجار المنزل الثاني على شاطئ المحيط الأطلسي أو على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

وذهب فنسنت لينام في الساعة الرابعة صباح يوم وقد أنهكت قواه تماماً ولم يوقظه ثيو فنام حتى الظهر وقد تجددت قواه فأخذ يتجول في مرسمه وكانت اللوحة المثبتة على الحامل قد مضى عليها عدة أسابيع وجف الطلاء من لوحة الألوان وتشقق وغطاه التراب وتبعثرت أفايب الألوان في أركان الحجرة وتصلبت فراجينه من أثر الطلاء القديم .

وسمع صوتاً يتردد في داخله ويسأله في لطف :

— صبراً لحظة يا فنسنت . هل أنت مصور ؟ أم أنك متعمد عام .

وتناول أكدياس اللوحات التي يعوزها التجانس من حجرة ثيو وكومها

على سريريه ولم يترك في الرسم إلا لوحاته الخاصة فأوقفها على الحامل واحدة واحدة وأخذ يقضم أظافره ويحلق فيها .

نعم لقد أحرز تقدماً كبيراً وخفت ألوانه بالتدرج وبدأت تكافح لتحقيق إضاءة تتألق كالبلور ولم تعد محاكاة للغير ولا يمكن أن تكشف في لوحاته أثراً من آثار أصدقائه وأدرك لأول مرة أنه كان في سبيله لتنمية تنوع خاص من التكنيك الحقيقي فقد كان لا يشبه أى شيء آخر رآه من قبل ولم يعرف كيف توصل إلى هذا .

لقد قام بتصفية الانطباعة حسب طبيعته وكان يوشك أن يصل إلى أسلوب قريب للتعبير وفجأة توقف .

ووضع لوحاته التي هي أحدث عهداً على الحامل وأوشك مرة أن يصرخ بأعلى صوته فقد اكتشف تقريباً شيئاً ! كانت صورته قد بدأت تكشف عن أسلوب محدد وأنه بدأ يهاجم بأسلحة ابتدعها في الشتاء .

لقد منحته الأسابيع الكثيرة التي قضاه في الراحة إدراكاً لرسم المنظور في لوحاته ورأى أنه كان ينمى تكنيكاً انطباعياً من ابتكاره .

وألقي على صوزته في المرأة نظرة تعمق . وكانت لحيته في حاجة إلى التهنيد وشعر رأسه في حاجة إلى القص واتسخ قميصه وتهدلت سراويله كخرقة مهمللة فضغط على سنرته بمسكواة ساخنة وارتدى أحد قمصان ثيو وأخذ من الخزافة ورقة مالية من فئة خمسة الفرفسكات وذهب إلى الحلاق . وعندما أصبح نظيفاً منسقاً سار وهو يفكر إلى محل جويل في بوليفار .
هو نمارتر وقال :

— هل يمكن يا ثيو أن تأني معي برهة قصيرة ؟

— ماذا هناك ؟

— ارتد قبعتك — أهنك ، قهبي لا يمكن أن يرانا فيه أحد ؟

وجلسا في الناحية الخلفية من المقهى في ركن منعزل وقال ثيو :

— أتعرف يا فنسنت أن هذه أول مرة منذ شهر أحادثك فيها على انفراد؟

— أعرف هذا يا ثيو واخشى أن أكون قد تصرفت تصرف الخلق — وكيف كان ذلك؟

خبرني بصراحة يا ثيو هل أنا مصور أم متعهد عام؟ — ماذا تقصد أن تقول؟

— لقد انشغلت جداً بتنظيم هذه المستعمرة ولم يتسع لي الوقت للرسم وعندما يبدأ العمل بالمنزل ان تيسر لي لحظة فراغ واحدة . — هذا صحيح .

— إنني أريد أن أصور يا ثيو فلم أجد نفسي في العمل طوال هذه السنوات السبع لأصبح مديراً لبيت يقيم به مصورون آخرون وأقول لك إنني جرد مشتاق لفرشاتي وإن الشوق قد برحني بحيث أريد أن أفر من باريس وأسافر في أول قطار .

— ولكن كيف تفعل هذا يا فنسنت الآن بعد كل ما — لقد أخبرتك بأنني كنت غيباً — استطيع أن تتحمل سماع اعتراف ثيو . — نعم؟

— لقد سمعت من كل قلبي رؤية المصورين الآخرين وضقت ذرعا بأحاديثهم ومللت سماع نظرياتهم ومشاهدة عراكم الذي لا ينتهي . أوه لاداعي لأن تبتسم فإني أعلم أن أسهمت في هذا العراك وهذا هو بيت القصيدة ماذا اعتاد موف أن يقول : « إن الرجل يستطيع إما أن يصور وإما أن يتحدث عن التصوير ولكنه لا يستطيع أن يفعل كلا الأمرين في وقت واحد ، حسناً يا ثيو . أكنت تعولني طوال السنوات السبع الماضية لكي تسمعني أ فجر هذه الأفكار؟

— لقد قمت يافنسنت بالكثير من العمل الطيب لصالح المستعمرة .
— أجل ولكن الآن ونحن على أهبة الانتقال ، هناك أدرك أن لا أريد
الذهاب ، فلن أستطيع العيش هناك والقيام بأى عمل ، وإنى لاتساءل يا ثيو عما
إذا كان فى وسعى أن أجعلك تفهم هذا .. ولكن هذا فى استطاعتى ولا ريب
فعندما كنت وحيدا فى الباربات ولاهاى كنت أظن أنى شخصية مهمة وأن
رجل يستطيع أن يقف وحده أمام العالم كله ولكنى كنت فنانا بل لعلى
كنت الوحيد بين الفنانين الأحياء وأن كل ما أرسمه نفيس وكنت أعتقد
أن لى مقدرة كبيرة وأن الناس سيقولون أخيرا « إنه لمصور رائع »

— والآن ؟

— والآن فإنى واحد من كثيرين للأسف فهناك حولى المئات من
المصورين وإنى لأرى نفسى صورة هزلية من كل هذه اللوحات التافهة
المكدسة فى شقتنا التى بعث بها المصورون الذين يريدون الانضمام إلى
المستعمرة . إنهم أيضا يظنون أنهم سيكونون مصورين عظماء . حسنا ربما
كنت مثلهم وأنى لى أن أعرف ؟ وماذا عسائ أن أفعل لأستجمع شتات
شجاعى الآن ؟ قبل أن أحضر لباريس لم أعرف أن هناك حمقى لا أمل فيهم
ويخدعون أنفسهم طوال حياتهم ولكن الآن أدرك وهذا ما يؤلم .

— ولكن لا شأن لك بهذا .

— قد يكون الأمر كذلك ولكنى لن أستطيع انتزاع بذور الشك من
نفسى وربما عندما أكون وحدى بالريف أنسى أن هناك آلافا من اللوحات
ترسم كل يوم وأنخيل أن لوحتى هى الوحيدة وأنها تحفة جميلة فى هذا العالم
وقد أستمر فى التصوير حتى لو عرفت أن عملى أثم ولكن هذا ... قد
يعاون .. أتفهم ما أقول !

— أجل .

— وفضلا عن هذا فلست مصورا من سكان المدينة فأنا غريب هنا .
أنا مصور فلاح وأريد أن أعود إلى حقولي . أريد شمسا شديدة الحرارة تحرق
في كل شيء إلا الرغبة في التصوير !

— وإذن ... فأنت تريد أن ... تغادر ... باريس ؟

— أجل ، وينبغي أن أفعل .

— وماذا بشأن المستعمرة ؟

سأנסحب ولكنك يجب أن تنفذ المشروع .

فهمز ثيو رأسه وقال :

— لا ، لا يمكن بدونك .

ولم لا ؟

— لا أدري ولكن كنت أعمل هذا كراما لك .. لأنك أردت هذا ..
وران عليهما الصمت بضع لحظات .

— ألم تخطرهم بعد يا ثيو ؟

— لا ، كنت أنوي أن أفعل هذا في أول الشهر .

— أعتقد أننا نستطيع أن نعيد النقود لأربابها !

— أجل عند ما نكون على يقين بأنك سترحل .

— ليس قبل أن تصفو لوحة ألواني .

— فهمت .

— وبعدها أرحل . وقد يكون هذا إلى الجنوب فأنا لا أدري أين
أذهب وهذا حتى يتيسر لي الانفراد بنفسى فأصور ثم أصور لنفسى وألقى
بذراعه حول كتف ثيو في مودة شديدة وقال :

— قل لى ياثيو إناك لن تزدرينى بعد أن نبذت كل شىء بهذه الطريقة
وبعد أن أتممت الكثير .

أزدريك !

وابتسم ثيو فى حزن لا مزيد عليه وتقدم وربت على اليد الموضوعة
فوق كتفه وقال :

لا ، لا فانى ولا ريب أقدر موقفك وأعتقد أنك على صواب .

حسنًا يا بنى العزيز . يحسن بك أن تنهى شرابك فعلى أن أعود إلى جوبيل

* * *

(١٣)

وعمل فنسنت شهرا آخر ولكن رغم ان الوانه قد أصبحت الآن صافية وفاتحة كالوان اصدقائه فإنه لم يبد أنه استطاع الوصول إلى سذاجة رسمه فحاول أن يعمل في بطة وبأعصاب هادئة وكانت وسوسته في عملية وضع الألوان بمثابة عذاب له ولكن تطلعه إلى اللوحات فيما بعد كان عذابا أشد وأنكى ، وحاول ان يخفي ضربات فرشاته في مساحات مسطحة وجرب أن يعمل بلون رقيق بدلا من استخدام ألوان صارخة ولكن كل هذا لم يحده فتىلا ومرة بعد مرة أحس بأنه كان يضرب على غير هدى بحثا وراء أسلوب لن يكون فريداً في نوعه فحسب بل سيمكثه من الإفصاح عن كل ما يريد أن يقوله ومع ذلك لم يفلح في أن يدرك كنهه وفي مساء يوم وهو في شقته غمغم يقول :

— لقد توصلت إليه تقريبا في هذه المرة . تقريبا ولكن ليس تماما .
آه لو استطعت فقط أن أجد ما يقف في طريقي .
فقال ثيو وهو يتناول اللوحة من شقيقه :
— أعتقد أن في استطاعتى أن اخبرك .
— حقا ؟ ما هو ؟

إنها باريس .

— باريس ؟

— اجل — فقد كانت باريس ميدانا لتدريبك وطالما بقيت هنا لمن تكون شيئا آخر سوى مجرد تلميذ — أتذكر مدرستنا في هولندا يا فنسنت ؟
لقد كانت تعلمنا كيف صنع غيرنا من الناس الأشياء وكيف يجب ان تصنع
ولكننا لم نصنع قط شيئا لأنفسنا

— أتقصد أن تقول إن لا أجد هنا تجاوبا وتعاطفا مع الموضوعات ؟

— لا بل أقصد أن أقول إنك لانتطيع أن تتخلص من تأثير أساتذتك . لسوف أشعر بالوحدة القاسية بعدك يافنسنت ولكن أعرف أنه ينبغي أن ترحل . ولا بد أنك ستعثر على بقعة في مكان ما من هذا العالم تستطيع أن تكون ملكك ، ولست أدري أين هذه البقعة ، ولكن عليك أنت — إن تجدها — أن تقطع صلتك بمدرستك حتى يمكنك أن تصل إلى درجة النضوج .

— أتعرف يا بني العزيز في أى بلد كنت أفكر كثيرا أخيرا .

— لا .

— إفريقيا .

— إفريقيا .. حقا ؟

— أجل لقد كنت أفكر في شمسها المحرقة التي تسبب البثور التي لا تغيب طوال الشتاء البارد الممل الطويل ، هناك عثر ديلاكروا على لونه ومن يدري ؟ ، فقد أستطيع أن أجد هناك لوني الآخر .

فقال ثيو بعد تفكير طويل :

— ولكن إفريقيا بعيدة جدا يافنسنت

— ربما ولستكني أريد الشمس ياثيو . أريدها لحرارتها الفظيعة وقوتها الهائلة ، ولقد كنت أشعر بها وهي تجذبني نحو الجنوب طوال فصل الشتاء كما لو كانت مغناطيسا ، ولم أعرف حتى غادرت . هواندا أن هناك شيئا يمكن أن يفوق الشمس . وإني لأعرف الآن أن التصوير بدونها لا يمكن أن يستقيم . وربما كان الشيء الذي أنا في مسيس الحاجة إليه للوصول إلى مرحلة النضوج هو الشمس الحارة . وإني لأحس ياثيو بالبرد يحترم عظامي من شتاء باريس ، وأعتقد أن شيئا من هذا البرد قد تسلل إلى لوحة الوان وفراجيني ، ولم أكن

يوما بالرجل الذى يفعل شيئا وهو نصف راغب ، وعندما أستطيع أن أجعل
شمس إفريقيا تبدد البرد من نفسى وتشعل اللهب فى ألوانى .

فقال ثيو :

— أم م م سوف نفكر فى هذا مليا فربما كنت على صواب .

— وأقام بول سيزان مادية وداع لأصدقائه جميعا وكان قد رتب الأمر
مع أبيه على شراء رقعة من الأرض فوق التل تطل على « أكس » والعودة
لوطنه لبناء مرسى . وقال :

— اخرج يافنسنت من باريس وتعال إلى بروكس ولكن ليس إلى
أكس فهذه أرضى أنا بل اذهب لمكان آخر بالقرب منها فهناك الشمس أشد
حرارة وفناء من أى مكان آخر فى العالم . وفى بروكس ستجد الضوء واللون
الصافى كما لم تشهدهما من قبل وسوف أبقى هناك ما حييت .

وقال جوجان :

— سأكون ثانى من يخرج من باريس وسوف أذهب إلى المناطق
الاستوائية ، وإذا كنت تعتقد حقاً ياسيزان أنك واجد شمساً فى بروكس
فينبغي أن تأتى إلى ماركيز اس فهناك الشمس واللون كلاهما بدائى كالناس تماماً .
فقال سيرا :

— أولى بكم أيها الرجال أن تنضموا إلى زمرة عابدى الشمس .

فقال فسننت :

— أما أنا فإنى ذاهب إلى إفريقيا .

فغمغم لوتريك :

— حسنا حسنا ها هو ديلا كروا آخر بيننا .

وسأل جوجان

— أتعنى هذا حقا يافنسنت ؟

— أجل — أو قد لا أذهب إلى هناك مباشرة بل أعتقد أنه ينبغي أن أتوقف في مكان ما في بروكس حتى اعتاد على الشمس .

فقال سيرا :

— إنك لا تستطيع أن تتوقف في مارسيليا فهذه المدينة ملك مونيشلي فقال فنسنت :

— ولن أستطيع أن أذهب إلى أكس لأنها ملك سيزان وأصبحت أنتيب ملكا لمونيه وإنى لا أتفق معك في أن مارسيليا مخصصة لقادا فهل لأحدكم أن يشير على أين يمكن أن أذهب ؟
فصاح لو تريك :

— صبرا ! إنى أعرف المكان المناسب — مارأيك في آرل ؟

— آرل ؟ إنها مستعمرة رومانية . أليس كذلك ؟

— بلى تفتح على نهر الرون على بعد ساعتين من مارسيليا وقد ذهبت مرة إلى هناك ولا ريب أن لون الريف الذى يحوطها يجعل مناظر ديلا كروا الإفريقية تبدو شاحبة .

— أحقا ما تقول ؟ وهل هناك شمس ساطعة ؟

— شمس ؟ هناك منها ما يكفي لأن يدفعك للجنون . ويجب أن ترى نساء آرل . إنهن أشد النساء فتنة في العالم ولا زلن يحتفظن بدنة تقاطيع أسلافهن من الإغريق إلى جانب ذلك من القوام الفارع الذى امتاز به الغزاة الرومان ، ورغم ذلك فإنه من الغريب حقا أن تجد أن عبيد من شرقي واضح ولعل هذا نتيجة لغزو المشاركة لبلادهم في القرن الثامن . وفي آرل عثر يافنسنت على تمثال فينوس الحقيقى وكان النموذج امرأة من آرلى فقال فنسنت :

— يبدو أنهن فائنات .

— إنهن كذلك وصبرا حتى تحس بالمستراك .

فسأله فنسنت

- وماهى المستراك ؟

وأجاب لو تريك وهو يتسم ابتسامة ملتوية

- ستكشف ذلك عندما تصل إلى هناك .

- وكيف الحال بالنسبة لتكاليف العيش هناك ؟ أهى رخيصة ؟

- ليس هناك ما تنفق عليه نقودك سوى الطعام والمأوى وهما

لا يكلفان كثيرا، فإذا كنت حقا ترغب فى الابتعاد عن باريس فلم لا تجربها ؟

فغمغم فنسنت لنفسه قائلا :

- آرل آرل، وفاتنات آرل كم أود لو رسمت واحدة من هؤلاء النساء !

وكانت باريس قد أثارت أعصاب فنسنت فخرج الكثير من زجاجات

الابسنت ودخن من التبغ ما يملأ الكثير من الغلابين واشتغل كثيرا بمظاهر

النشاط الخارجى وكان يحس بغصة فى حلقه ويشعر برغبة هائلة فى الرحيل

وحده إلى مكان ما لينعم بالهدوء ويستطيع أن يصب فى فنه طاقته العصبية

المائلة، وكان لا تعوزه إلا شمس حامية تدفعه إلى بلوغ الأمل وكان يراوده

إحساس بأن ذروة حياته بل والقوة المبدعة الكاملة التى كافح طوال هذه

السنوات الثمانية الطويلة للوصول إليها قد غدت قريبة المنال دانية القطوف

وأدرك أنه لا قيمة حتى الآن لأى شىء صوره وربما كان به بعض الجهد

الذى يمضى به قدما لإبداع تلك اللوحات القليلة التى تبرر وجوده فى الحياة .

ترى ماذا قال مونتشيللى ؟ يجب أن نعمل ونكدح عشر سنوات حتى نستطيع

فى النهاية أن نصور لوحتين أو ثلاث لوحات أصيلة .

حقا لو عرف فى باريس العلما نينة ونعم بالصدقة والحب وتوافر له مع

ثبو المنزل السعيد ولم يتركه شقيقه نهبا لآلام الجوع ولم يدعه يطلب مواد

الرسم مرتين ولم يغفل عليه فى طاقته أن يعطيه ووجد منه على الأقل كل عطف .

وأدرك أن متاعبه ستبدأ فى اللحظة التى يغادر فيها باريس فلن يستطيع

أن يدبر أمور معاشه بعيدا عن ثيو ولسوف يضطر نصف يومه إلى الخروج دون أن يصيب شيئا من الطعام بل سوف يضطر إلى أن يعيش في المقاهى الحفيرة وأن يتشرد أحيانا لأنه لن يستطيع شراء الألوان وسوف يختنق صوته في حلقه لأنه لن يجد صديقا للروح يستطيع أن يحادثه وقال له تولوز لوتريك فى اليوم التالى :

— لسوف تحب آرل فهى بلدة هادئة وان يضايقتك فيها أحد والحرارة جافة واللون رائع وهى البقعة الوحيدة فى أوربا التى يمكنك أن تجد فيها الصفاء اليابانى الخالص، إنها جنة الأحلام للمصور، ولعمري لو لم أكن متعلقا بباريس لذهبت إليها أنا نفسى .

وفى مساء هذا اليوم ذهب ثيو وفنسنت لحضور حفلة كونسرت لفاجنر وعادا إلى بيتهما مبكرين وأمضيا ساعة يجتران ذكريات طفولتهما فى زوندرت وفى صباح اليوم التالى أعد فنسنت القهوة لثيو وعندما انصرف شقيقه إلى محل جويل قام بتنظيف الشقة الصغيرة كما لم يفعل من قبل منذ انتقلا إليها ووضع على الجدران لوحة تمثل جواد البحر القرنفلى ولوحة أخرى تمثل الأب تاجى وهو فى قبعته المستديرة المصنوعة من القش وثالثة للود لان دى لاجاليت ولوحة لامرأة عارية الظهر ودراسة لخدائق الشانزيلزيه

وعندما عاد ثيو مساء إلى بيته وجد رقعة على المائدة فى غرفة المعيشة هذا نصها :

عزبى ثيو

لقد ذهبت إلى آراز وسوف أكتب لك حالما أصل إلى هناك وقد وضعت على الحائط بعض لوحات حتى لا تنساق تحبان وسلامى .

فنسنت

الكتاب السادس

آرلو

لفتحت الشمس الآرلزية « فنسنت » فيما بين عينيّه ، فأيقظته من نومه .
لقد كانت هالة ، أركرة سائلة ذات وهج ليموني أصفر ، تنفذ خلال سماء
زرقاء قاتمة ، وتملأ الجو بضوء مبهر للحيون . لقد خلقت تلك الحرارة المخيفة
وصفاء الجو الناصع عالماً جديداً غير مألوف .

لقد نزل من إحدى عربات الدرجة الثالثة في الصباح الباكر ثم سار
عبر طريق ملتو يمتد من المحطة حتى « ميدان لمارتين » وهو عبارة عن
ميدان تقام فيه السوق ، يحده من أحد جانبيه شاطئ نهر « رون » ، ويحده
من الجانب الآخر مقاه وفنادق حقيرة . وتقع « آرلز » إلى الأمام مباشرة ،
وتغفو تحت الشمس المدارية الساخنة .

وكان يشمر فنسنت بعدم الاكتراث إذا ما واجه موضوع البحث عن
مكان للعيش فيه . إذ إنه سار مباشرة إلى أول فندق مر عليه في هذا الميدان
وكان تتوانه « فندق المحطة » واستأجر حجرة فيه . وكانت تحتوى تلك
الحجرة على سرير نحاس لامع ، وجرة مياه مشقوقة في حوض للاغتسال ،
وكرسی غريب . كما أحضر المستأجر منضدة بلا طلاء ، ولما لم يكن بها
مكان خال يمكن أن يوضع فيه حامل من الخشب ، ولهذا نوى فنسنت أن
يرسم طوال اليوم في الخارج .

وبعد أن ألقى بحقيبته الصغيرة على السرير ، اندفع خارج الحجرة ليرى
المدينة ، وكان هناك طريقان للوصول إلى قلب « آرلز » من « ميدان لمارتين »
أولهما الطريق الدائري الواقع في الناحية اليسرى وهو مخصص للقطارات ،
ويحيط هذا الطريق حافة المدينة ، ويلف يبطء حتى قمة التل ، ماراً في طريقه
بالساحة الرومانية والمدرج الروماني . ولكن فنسنت سار في الطريق

المباشر ، وهو طريق يقود إلى متاهات وشوارع ضيقة مرصوفة بالحجارة . وبعد تساق طويل وصل إلى ميدان لاميرى ، الذى جمرة الشمس . ولكنه حينما كان صاعداً فى طريقه إلى أعلى مر على بعض الردهات الباردة المبنية من الحجارة ، وبعض الأعمدة الرباعية التى بدت وكأنها قد جاءت لتوها من العصور الرومانية الأولى دون أن يمسها أحد . ولقد بنيت « الحواري ، ضيقة جداً لكي تمنع وهج الشمس المجنونة (الحارقة) ، لدرجة أن فنسنت كان يلبس صفي المنازل التى على الجانبين بطرفى أصابع يديه الممتدتين . ولكي يصدوا ريح الشمال الباردة ، جعلوا الشوارع ملتوية على جانب التل فى شكل يبعث على الحيرة التى لا تخرج منها ، ولا تسير مستقيمة أكثر من مسافة عشر ياردات . كما كانت القاذورات ملقاة فى الشوارع والأطفال القذرون يجلسون على عتبات المنازل ، وكان يحوط كل شيء سمة شؤم ونحس .

وترك فنسنت ميدان « دى لاميرى » وسار خلال حارة قصيرة إلى طريق السوق الرئيسية فى مؤخرة المدينة ، ثم تجول خلال الحديقة الصغيرة ، وبعدها نزل من فوق التل حتى ساحة المصارعة الرومانية . وأخذ يقفز من مدرج لآخر مثل الماعز حتى وصل أخيراً إلى القمة . فجلس على كتلة من الحجر ، ودلى قدميه من فوق ارتفاع يربو على مئات الأقدام ، وأشعل « بيته » ، وأخذ يعاين المنطقة التى عين من نفسه سيداً وحاكماً لها .

وتنحدر المدينة التى بأسفله انحداراً مباشراً إلى « الرون » فى شكل شلال متغير الألوان . أما مقوف المنازل فقد تداخلت فى بعضهم البعض فى شكل تصميم متشابك . وكانت كلها مطلية بما كان أصلاً لوناً أحمر ، ولكن الشمس المحرقة التى لا تنجو مطلقاً قد لفحتها فحولتها إلى طيف من ألوان مختلفة ، تبتدى من لون ليمونى فاتح وأرجوانى رقيق إلى لون أحمر داكن وبني .

وينحدر نهر الرون الواسع بسرعة عظيمة عند حافة التل الذى تتاخذه
« آرلز » ، ثم يندفع إلى البحر المتوسط وكان يحوط جانبي النهر جسر من
الحجارة . أما فى الجهة الأخرى من النهر فكانت تتبع مدينة « ترينكتاي »
كألو أنها مدينة مرسومة . وكانت الجبال تقف خلف ظهر « فنسنت » فى
شكل سلاسل ملتصقة قممها بالضوء الأبيض الصافى ، أما أمامه فكانت
قرامى أراضى حقول محروثة ، وحدائق يانعة ، وسطها قمة أكمة « مونتاجور »
العالية ، وحقول خصبة حرثت فى شكل آلاف من الخطوط كلها عند نقطة
بعيدة فى اللانهاية .

ولكن لون الريف جعله يسمح بيده على عينيه المأخوذتين .
فالسما كانت زرقاء قائمة ، بشكل لا يتغير لدرجة جعلتها تبدو وكأنها
ليست زرقاء بالمرة ، بل كانت بلالون . وأما خضرة الحقول التى كانت
تمتد بأسفله فهى روح اللون الأخضر نفسه . وأما لون الشمس الليمونى
الأصفر المترهج ، ولون التربة التى فى أحمرار الدماء ، وبياض المسحب
الوحيدة الوضاء التى تكسو « مونتاجور » ، قد أعادت جميعها ورد الحقائق
إلى الحياة . . إن تلك الألوان لا يكاد يصدقها إنسان . كيف يمكنه رسمها ؟
وكيف يمكنه أن يجعل أى فرد يؤمن بوجودها حتى ولو نقلهم إلى
مقصورتها؟ ليمونى ، وأزرق ، وأخضر ، وأحمر ، ووردى ، إن الطبيعة تعبر
عن نفسها فى خمسة ألوان أخاذاة تفشت فى كل مكان .

وسار « فنسنت » عبر طريق التقطارات قاصدا ميدان « لامارتين »
وهو ممسك بحامل اللون والخيش ، مندفعاً على طول « الرون » . وكانت
أشجار الليمون فى كل مكان قد ابتدأت فى الإزهار . أما وهج الشمس
الأبيض الذى كان ينعكس على المياه فقد أرسل طعنات ألم فى عينيه ، لأنه
كان قد ترك قبعته فى الفندق . وتوهجت الشمس خلال شعره الأحمر ،
فامتصت منه كل برد باريس ، وكل « تاعبه » ومبعث يأسه ، وكل رضاء
كانت أتخمت به حياة المدينة روحه .

وعلى مسيرة كيلومتر إلى أسفل النهر وجد جسراً متحركاً وعليه عربة
يد صغيرة مرسومة في وسط سماء زرقاء . وكان النهر في زرقة البهر ،
أما جسوره فكانت ذات لون برتقالي تكسوها حشائش خضراء . ونشرت
بجموعة من السيدات الغسالات اللاتي كن يرتدين قمصانا وأغطية رأس ملونة ،
نشرت ملابس بيضاء قدرة في ظلال شجرة كانت تقف وحيدة .

وانصب « فنسنت » حامل لوحاته ، واستنشق نفساً طويلاً ، ثم أغضض
عينيه . فلم يكن من الممكن لأي إنسان أن يرى كل هذه الألوان بعينين
مفتوحتين . وكان يوجد على بعد منه حديث « سيوارت » عن العقم العلي ،
وخطب « جوجوين » عن الديكور البدائي ، ورقيا « شيزان » تحت
الأسطح الصلبة ، وطيف الألوان وخطوط ضغينة الحقد التي رسمها
« لاوترك »

ولم يبق هناك إلا فنسنت وحده .

وعاد إلى فندقه قبل وقت الغداء بقليل . وجلس أمام منضدة صغيرة في
البار وطلب قدحاً من الجعة . لأنه كان منفصلاً جداً وراضياً كلية للدرجة
لا تجعله يفكر في أي طعام . ولاحظ شخص ما كان يجلس أمام منضدة
بجاورة ، أن الألوان كانت تتناثر على يدي فنسنت ووجهه وملابسه ،
فابتدأ في الحديث معه .

فقال له : « إنني صحفي باريسى ، جئت هنا منذ ثلاثة شهور لأجمع بعض
المواد لكتاب عن « لغة البروفنسال » فرد عليه فنسنت : « ولقد حضرت
لتوى من باريس في هذا الصباح » .

— هذا « ملاحظته » . هل تنوى البقاء طويلاً ؟

— نعم — أعتقد هذا .

« حسناً — فلتأخذ نصيحتي ولا تسكث هنا طويلاً ، لأن أرايز هي أكثر
بقعة على وجه البسيطة جنونا » .

— « وما الذى يدعوك إلى الاعتقاد فى هذا ؟ »

— « إننى لا أعتقد ذلك . ولكننى أعرفه جيداً . لقد كنت أراقب هؤلاء الناس منذ ثلاثة أشهر ، وإننى أقولها لك ، إنهم جميعاً مرضى بمرض نفسى ، انظر إليهم ، وراقب أعينهم . فإن تجد شخصاً طبيعياً عاقلاً فى كل هذه الأرض المجاورة لتاراسكون !

فعلى فنتسنت على هذا بقوله : « إن هذا الشئ عجيب حقاً » .

— « إنك ستنفق معى فى الرأى لمدة أسبوع واحد ، فالقرية التى تحيط «آرلز» من أكثر المناطق مرضاً وبؤساً فى «بروفنس» . إنك كنت فى الخارج تحت الشمس ، فهلا يمكنك أن تتصور تأثير هذه الشمس على هؤلاء الناس ، الذين وقعوا فريسة لضوئها الباهر يوماً بعد يوم ؟ إننى أقولها لك بصراحة ، إنها تحرق العقول وتخرجها من رموسهم — أضف إلى ذلك الريح الشمالية الباردة ، هل شعرت بالريح الشمالية الباردة ؟ آه ، يا عزيزى ، انتظرنى حتى أخبرك بها ، إنها تضرب هذه المدينة بسوط محرم مائى يوم من كل عام . فإذا ما أردت أن تسير فى الشوارع فهمى تقذف بك فى جدران المباني ، وإذا ما كنت فى الحقول ، ألقت بك على وجهك وطعنتك فى وسط القاذورات ، إنها تجعل كل ما فى داخلك يتلوى لدرجة أنك تعتقد أنك لن تستطيع تحملها دقيقة بعد ذلك . لقد رأيت الريح الملعونة وهى تنتزع النوافذ ، وتقتلع الأشجار ، وتسقط الأسرار الشجرية ، وتضرب بسوطها بنى الإنسان والحيوان فى الحقول لدرجة جعلتني أو من بأنهم سيتحطون حتماً إرباً إرباً . إننى فى هذا المكان منذ ثلاثة أشهر فقط ، وأنا أحاول أن أجعل من نفسى رجلاً أحق ، ولكننى سأغادرها فى صباح الغد !

فسأله فنتسنت : « من المؤكد أنك تبالغ ؟ فلقد بدا الأرلزيون على مايرام أمام عيني ، على الرغم من ضآلة ماعرفته اليوم عنهم . »

— « ضالة ما عرفته عنهم هذا جميل ، ولكن انتظر حتى تعرفهم جيدا — انصت إلى ، هل تعرف ماهو رأي الخاص ؟ . »

— كلا — ماهو ؟ هل تشاركنى فى قدح من الجمعة ؟ .

— أشكرك . فى رأي الخاص ، إن آرنز تعاني صرعا . إنها تضرب نفسها بسوط لدرجة عظيمة من الاستثارة العصبية لدرجة تجعلك تجزم بأنها ستنفجر فى نوبة عنيفة وترغى وتزبد فى فمها .

— وهل تفعل ما أقوله ؟

— كلا . وهذا هو وجه الغرابة فيها . فهذه المدينة تندفع دائماً نحو الذروة ولكنها لا تصل لربها مطلقا . لقد كنت أنتظر منذ ثلاثة أشهر لأرى ثورة ، أو بركانا يندفع من « ميدان لاميرى » ، وظننت لعشرات المرات أن السكان سيهجن جنونهم ويقطعون رقاب بعضهم البعض ! ولكن فى اللحظة التى يكونون فيها على وشك الانفجار ، تهب رياح الشمال الباردة لمدة يومين ، وتختفى الشمس وراء السحب .

فنهضك فأنسنت قائلا : « حسنا ، مادامت آرنز لم تصل مطلقا إلى الذروة فلا يمكنك أن تطلق عايتها بحق مدينة الصرع — والآن هل يمكنك هذا ؟

فأجاب الصحنى : « كلا ! ولكننى أستطيع أن أسميها « مستصرعة » ،

— « ما هذا بحق الشيطان ؟ .

— « إننى أعدم وضوعا لجريدتى فى باريس ، ولقد كان ذلك الموضوع الألمانى هو الذى أعطانى هذه الفكرة » .

وأخرج مجلة من جيبه وألقاها على المنضدة إلى ففست .

« لقد قام هؤلاء الأطباء بدراسة حالة مئات عديدة ممن يعانون من أمراض عصبية تشبه الصرع ، ولكنها لم تنجم عنها فوبات مطلقا . وسرى فى هذه الوثائق كيف استطاعوا أن يرسموا منحنى العصبية والاستثارة الذى

في طريقه إلى الارتفاع ، وهرما يسميه الأطباء « التوتير الإرادى » ،
حسنًا ، لقد كان المرضى الموضوعون تحت البحث في أواخر أيامهم يمرون
بمرحلة متزايدة من الحمى حتى يصلوا إلى الخامسة والثلاثين أو الثامنة
والثلاثين وعندما يصلون إلى السادسة والثلاثين في المتوسط ينفجرون في
نوبة صرع شديدة . وبعد ذلك يعانون حالة من الذبذبات العصبية التي قد
تصل إلى ست نوبات أو أكثر ، ثم يرحلون إلى العالم الآخر في خلال عامين .
فرد فذسنت : « إنهم صغار جداً على الموت في مثل هذا العمر — لأن
الإنسان في مثل هذه السن يكون مبتدئاً في السيطرة على نفسه » .

واعاد الصحفي الجريدة الى جيبه .

وسأل قائلاً : « هل ستظل في هذا الفندق لفترة من الوقت ؟ — إن
مقالتي على وشك الانتهاء ، وسأرسل إليك بالبريد الجوى نسخة منها .
بمجرد نشرها . وموضوعي هو : « آراء مدينة مستصرعة » ، إن قبضها يعلو
ويتزايد منذ قرون — إنها تقترب من كارثتها الأولى ، ومن المحتمل وقوع
هذه الكارثة في فترة قصيرة ، وحينما تقع سنشاهد مصيبة مخيفة . سنرى
الاغتيال وجرائم الحرق عمداً ، واغتيال النساء ، بل والتحطيم والتخريب الملكي !
فلا يمكن لهذه البلدة أن تستمر إلى الأبد في حالة من العذاب والكرب .
فيجب أن يحدث شيء ولا بد أن يحدث . إنني سأخرج منها قبل أن يبتدىء
الناس في الإرغاء والإزباد في أفواههم ! وإلى متى أنصحك بالمجيء معي ! .
فقال فذسنت : « أشكرك — فأنا أحب هذا المكان . وأعتقد أنني
يجب أن أدخل الفندق الآن ، فهل يمكنك في صباح الغد ؟ كلا ؟
إذن أنني لك حظاً سعيداً . ولا تنس أن ترسل إلى نسخة من موضوعك » .

(٢)

كان « فذسنت » يستيقظ كل صباح عند إشراق الفجر ، ويلبس ملابسه ، ثم يسير بضعة كيلومترات بجوار النهر ، أو في داخل البلدة لكي يجد مكانا يستريحه . وكان يعود كل يوم بلوحة مرسومة ، إنها مرسومة فعلا لأنه لم يكن يجسد شيئا يضيفه إليها . وكان يذهب لنومه بعد تناول عشاءه مباشرة .

لقد أصبح ما كينة رسم عياء . وهو ينهى اللوحة بعد اللوحة دون أن يعرف حتى ما فعله . وكانت حداثق فاكمة البلدة مزدهرة يانعة ، فاجتاحته رغبة جامحة لرسمها جميعا . ولم يعد يفكر في رسمه ، بل كان يرسم ما يراه فقط .

لقد عبرت السنوات الثمانية التي قضاها في مشقة بالغة فعند ما كان يبتدىء عمله - أحيانا - مع إشراق الفجر ، كان ينتهى منه عند الظهر . فكان يقفل عائداً إلى المدينة ليتناول قدحا من القهوة ثم يعود في اتجاه آخر حاملا بعض لوحات جديدة .

ولم يكن يعرف . ١ إذا كانت رسوماته جيدة أم روتينية ، كما أنه لم يكن يعابأ بهذا . فلقد أثم له اللون .

ولم يكن يتحدث أحداً إليه ، أو يتحدث هو إلى أحد ، وكانت القوه الضئيلة التي تتركها له رسوماته كان يقضيها في صراعه ضد ربح الشمال الباردة . وقد كان مضطرا إلى أن يربط حامل اللوحات في لوحات ثبتهما في الأرض ثلاثة أيام من كل أسبوع . ولكن الحامل كان يتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام في وسط الرياح وكأنه قطعة قماش منشورة على حبل غسيل . وكان يشعر في النساء بكدمات ودخوض وكأنه قد ضرب ضرباً شديداً .

إنه لم يلبس قبعة مطلقاً . وكانت الشمس اللاخة تحرق شعره ببطء
فتسقطه من قمة رأسه . وحينما كان يرقد على سرير النحاسى فى الفندق
الصغير ليلاً يشعر وكأن رأسه موضوع فى كرة من النار . لقد ضربته
الشمس ضربة أعنته تماماً . لدرجة أنه أصبح لا يميز بين خضرة الحقول
وزرقة السماء ، ولسكنه حينما كان يعود إلى الفندق وينظر إلى لوحاته كان
يجدها نقلاً براقاً ووضاء للطبيعة .

وذات يوم عمل فى داخل حديقة بنفسج يحوطها سياج من الورود
الحمراء ، وبها أشجار خوخ ذات لون وردى ترتفع فى سماء ذات لون أزرق
وأبيض ناصع .

وتتم لنفسه قائلاً : « من المحتمل أن هذا أجمل منظر طبيعى
قمت برسمه » .

وحينما عاد إلى الفندق وجد خطاباً يخبره بأن انطون موفى قد توفى
فى « هاج » .

فكتب تحت أشجار الخوخ :

« ذكرى موفى - فنسنت وثيو » . ثم أرسلها مباشرة إلى المنزل الواقع
على « أوليبوم » .

وفى صباح اليوم التالى شاهد حديقة أشجار برقوق مزدهرة وبينما كان
يعمل ، هبت رياح عاتية سيئة كانت تعود مرات ومرات مثل أمواج البحر .
وكانت تشرق الشمس ، بين عودتها ومجيئها ، وكانت كل الزهور البيضاء
تتهيج على الأشجار . واستمر فنسنت فى رسمه ، مجازفاً يرى بين غمضة عين
وانتباهتها كل ما رسمه ملقى على الأرض ، ولقد ذكره بأيام شيفيتنجن حينما
تعود على الرسم عند تساقط الأمطار وفى وسط العواصف الرملية ، وتحت
رذاذ مياه المحيط الذى كان يندفع إليه وإلى حامل لوحاته وكانت لوحاته

مطلية بلون أبيض كما أن بها قدرا كبيرا من اللون الأصفر والأزرق
والبنفسجي . وحينما انتهى رأى شيئا على لوحته لم يكن يعنى مطلقاً أن يرسمه ،
إنه رياح الشمال الباردة .

وسخر من نفسه قائلاً : « حينما يرى الناس هذا سيعتقدون أنني كنت
ثملاً حينما رسمت هذا » .

وحينئذ خطر له باله سطر من خطاب « ثيو » الذي وصل إليه في
اليوم الماضي . وهو : أن ميجنير تيرستيج حينما كان في زيارة إلى باريس
وقف أمام « سيزلي » وتكلم بصوت خفيض إلى ثيو . « لا يمكنني أن أساير
الاعتقاد في أن الفنان الذي رسم هذا كان ثملاً إلى حد ما » .

وفكر فذنت ملياً : « لو استطاع » تيرستيج ، أن يرى لوحاتي
« الأرزلية » هذه لقال إنني كنت في هذيان وصل إلى منتهاه » .

وأعطى شعب آرلز فرصة عمل عظيمة لفنسنت ، لقد كانوا يرونه
وهو يندفع خارج المدينة قبل شروق الشمس وهو يحمل حاملاً ثقيلاً على
ظهره ، وذقنه ممتد إلى الأمام برغبة وشغف ، وعيناه مملكتان باضطراب
محموم . ورأوه وهو يعود وفي وجهه ثدغان ناريان ، كما أن قمة رأسه كانت
حمرء مثل قطعة اللحم قبل الشواء ، وهو يحمل تحت إبطه لوحة مبتلة ،
وهو يكلم نفسه .

فأطلقت عليه المدينة اسماً كان كل واحد يدعو به .

« فو — رو » .

وكان يقول لنفسه : « ربما كنت رجلاً مجنوناً ذا رأس حمرء ولكن
ماذا أستطيع فعله ؟

وكان مالك الفندق يبتز من فنسنت كل فرق ما استطاع إلى ذلك

سيلا ، ولم يكن في مقدور فنسنت أن يحصل على شيء ليا كاه ، لأن كل فرد في آرلز تقريباً كان يتناول طعامه بمنزله ، وكانت المطاعم غالية جداً . وجرب فنسنت تناول طعامه في جميع المطاعم لكي يجد شربة دسمة ولكن لم يجد عند أي منهم ما أراد .

وسأل في أحد المطاعم قائلاً : « هل من الصعب طهي البطاطس بامدام ؟ »

فأجابت : « مستحيل يا سيدي . »

— « إذن هل عندك بعض الأرز . »

— « هذا صحن الغد . »

وهل توجد مكرونة ؟ .

لا يوجد أي مكان في قائمة الطعام لوضع المكرونة .

وأخيراً كان عليه أن ياتي جانباً كل فكرة جديدة عن الطعام ، وأن يعيش على كل ما يصادفه . لقد عمات الشمس الحارة على بناء حيويته ، على الرغم مما تحصل عليه معدته من طعام قليل . وأحل مكان الطعام الصحي أكواب الجمرة ، والطباق ، وقصص « داوديت » ، عن « تارتارين » وكانت الساعات العديدة التي يقضيها في تركيزه أمام حامل اللوحات ، تصقل أعصابه فتعيدها إلى حالتها الأولى . ولكنه كان يريد بعض المنبهات ، فكانت الجمرة تجعله أكثر استشارة لاستقبال اليوم التالي ، لقد كانت استشارة يضر بها سوط الرياح الشمالية الباردة ، وتطهيرها بداخله حرارة الشمس . وحينما اقترب الصيف رأى كل شيء حوله محروقاً فلم ير حوله إلا ذهباً قديماً ، وبرونزا ، ونحاساً تسكوه سماء لازوردية مخضرة ذات حرارة مبهضة ، وكانت لوحاته عبارة عن كتل من الصفار الناصع المحترق . وكان يعرف جيداً أن اللون الأصفر لم يستخدم في الرسم الأوربي منذ عصر النهضة ، ولكن ذلك لم يعقه بالمرة . وكانت الصبغة الصفراء تخرج من الأنابيب إلى

اللوحات حيث تستقر عليها . وكانت لوحاته تلوحها الشمس الحارقة ويدبغها الهواء . لقد آمن بأنه لم يعد من السهل رسم لوحة جميلة أكثر من أن يجد الإنسان لواقعة أثر ماسة . ولم يكن راضيا عن نفسه على ما يفعله ، ولكنه كانت تراوده ومضة من الأمل بأن الحالة ستتحسن في النهاية . ولكن في بعض الأحيان كان هذا الأمل نفسه يبدو «فاتامورجانا» ، ولكن الوقت الوحيد الذي كان يشعر به بالحياة هو ذلك الذي كان يكدر فيه في عمله . أما عن حياته الشخصية ، فلم تكن له حياة ، لقد كان مجرد آلة متحركة عمياء يصب فيها كل صباح طعاما ، وشرابا ، وألوانا فتخرج عند مغيب الشمس لوحات مرسومة . ولكن لأي غرض ؟ وبأي ثمن ؟ مقابل لا شيء بكل تأكيد ! لقد كان يعلم أن أحدا لا يريد شراء لوحاته . إذن لماذا العجلة ؟ ولماذا يدفع بنفسه ويشير نفسه لكي يرسم عشرات وعشرات من اللوحات حتى أصبح الفراغ الذي تحت سريره النحاسي ممتلئا باللوحات ؟

لقد هجرت رغبة النجاح فذهبت . فقد كان يعمل لأنه كان يجب أن يعمل ، ولأن هذا كان يحبه من آلام عقلية كثيرة ، ولأن هذا كان يشتت أفكاره وذهنه . إنه يستطيع أن يحيا بلا زوجة ، وبلا منزل بلا أطفال إنه يستطيع أن يحيا بلا حب وبلا صداقة ، وبلا صحة . بل إنه يستطيع أن يحيا بلا إله . ولكنه لا يستطيع أن يحيا بدون شيء أعظم من نفسه هو حياته إنه القوة والقدرة على الخلق .

(٣)

وصل فنسنت إلى النتيجة أنه كلما سحق اللون إلى درجة كبيرة تشبع أكثر بالزيت . فالزيت كان فقط الوسيط الناقل للون ، ولم يهتم به كثيراً وخصوصاً أنه لم يكن يعترض على أن يكون لون لوحاته جافاً . وبدلاً من أن يشتري لونا لا يعلم إلا الله عدد الساعات التي سحق فيها بياريس قرر أن يكون هو نفسه صانع ألوان نفسه . وطلب ثيو من « بيريه تانجوى » أن يرسل لفنسنت معادن الكروم الثلاثة ، والمالاشيت ، والسليقون (لون قرمزي) والرصاص البرتقالي ، والكوبالت ، والأزرق — اللازوردى وسحقهم فنسنت في حجرة فندقه الصغير ، وبعد هذا لم تكلفه ألوانه أثمناً رخيصة فحسب بل أيضاً كانت أكثر بهاء وبقاء .

، ولكنه شعر بعد ذلك بعدم الرضاء عن لوحاته الماسخية التي كان يرسم عليها — إذ إن طبقة الجبس الرقيقة التي كانت مكسوة بها لم تمتص ألوانه الفنية فأرسل إليه ثيو لفافات من الخيش غير المعد ولهذا كان فنسنت يمزج الجبس ليلاً في إناء صغير ثم يغطى به الخيش الذي ينوى رسمه في الصباح التالي . لقد جعله جورج سيهرات حساساً بنوع الإطار الذي سيظل عليه رسمه . وحينما أرسل أول لوحات آرنز إلى ثيو عبر له عن أى نوع من الأخشاب يجب استخدامها ، وأى لون يجب طلاؤها به .

ولكنه لم يشعر بالسعادة إلا بعد أن صنع الإطارات بنفسه . فكان يشتري قطع أخشاب طويلة من النجار ثم يقطعها إلى الحجم الذي يريده ثم يطلبها بحيث تناسب موضوع الصورة .

لقد صنع ألوانه ، وبني محفاته ، وطلّى خيشه بالجبس ، ورسم صورته ، وقطع إطاراته ثم لونها ثم تتم لنفسه بصوت مرتفع . « من السيء جداً أنى لا أستطيع شراء لوحاتى حتى أكون مكثفياً — ذاقياً تماماً » .

وعادت رياح الشمال الباردة . وبدت الطبيعة كلها وكأنها في ثورة ،

وكانت السماء بلا سحب ، وكانت الشمس المتوهجة مصحوبة بجفاف شديد وبرد نفاذ . وقضى فنسنت حياة خاملة في حجرته على أبريق من القهوة ذي طلاء خزفي ، وكوب ذات لون ملكي أزرق وذهبي ، وأبريق ابن مقسم إلى مربعات زرقاء وبيضاء وقارورة خزفية زرقاء ذات رسوم حمراء وخضراء وبنية ، وبرتقالتين وثلاث ليونات .

وحينما خبت الريح خرج ثانية ورسم منظرا على الرون ، والجسر الحديدي المقام على « ترنسكيتاي » حيث كانت السماء ذات لون يشبه الجعة ، أما مراسي السفن فكانت ذات ظلال بنفسجية وأما الأشخاص فكانوا يتكئون على سور أسود ، أما الجسر الحديدي نفسه فكان ذا لون أزرق غامق حوله بعض الرتوش البرتقالية اللامعة على الأرضية السوداء . وكذلك بعض الرتوش الخضراء . لقد كان يحاول الوصول إلى شيء يحطم قلبه نهائياً ومن ثم كان يحطم قلب كل من يراه .

وبدلاً من أن يرسم بالضبط ما كان أمام ناظريه كان يستخدم اللون عن قصد لكي يعبر عن نفسه بقوة أعظم . لقد أدرك أن ما أخبره به «بيسارو» في باريس كان حقيقياً : « يجب عليك أن تبالغ في الإشارات بجرأة سواء أكان ذلك في التناقض أم في التناقض ، وما هو ذا ما تحدثه الألوان ، . ولقد وجد في مقدمة « لموباسان » ، « عن بيروجان » شعوراً مشابهاً لهذا . للملفنان الحرية في المبالغة لكي يخلق في تصمصمهما أكثر جمالا ، وأكثر بساطة وأكثر سلاوى من علمنا .

لقد قضى يوماً بأكمله في عمل شاق بين حقول القمح تحت الشمس المحرقة . وكانت النتيجة حقلاً محروثاً ، وحقلاً كبيراً مليئاً بطينة جامدة في أرض بنفسجية صاعدة نحو الأفق . وحبا مهدور ذا لون أزرق وأبيض ، أما في الأفق فكان يوجد حقل به قمح قصير ناضج ، ويعلو كل هذا سماء صفراء ذات شمس صفراء .

وكان يعلم فنسنت أن النقاد البارسيين قد يعتقدون أنه يعمل بسرعة جداً . ولكنه لم يوافق على هذا . ألم تكن عاطفته هي التي تدفعه ، وألم يكن إخلاصه للطبيعة الذي يرغب على هذا ؟ وماذا لو أن عاطفته كانت قوية جداً لدرجة أنه كان يعمل ، وماذا لو أن ضرباته جاءت متتالية متسقة ومتناسقة كمثل السمكات في أثناء الحديث ، وأنه سيتلوها أيضاً الوقت الذي تمر به أيام هصيبة خالية من الإيجاء . إنه يحب أن يقرع والحديد ساخن ، ويضع القضبان المصمورة على جنب واحد .

وربط حماله إلى ظهره ، وسار في الطريق الذي يقوده من المنزل بمر « مونتاجور » . لقد كان يسير سريعاً جداً لدرجة أنه سرعان ما سبق رجلاً ولداً كان يتسكع أمامه . وقد تعرف على هذا الرجل المسمى رولان العجوز صانع « طوابع البريد الآريزي » . وكثيراً ما كان يجلس بالقرب من رولان في المقهى ، وكان يود النحدث إليه ولكن لم تواته الفرصة مطلقاً .

فقال : صباح الخير — ياسيد رولان .

فرد عليه رولان : آه ! إنه أنت الرسام ، صباح الخير ، لقد كنت أصطحب ابني في نزهة عصرية قصيرة .

— لقد كان يوماً عظيماً — أليس كذلك ؟

— آه بالطبع ، يكون الجو جميلاً حينما لا تهب تلك الرياح الشمالية الملعونة — هل رسمت اليوم لوحة ياسيدي ؟

— نعم .

— إنني جاهل ياسيدي ولا أعرف شيئاً عن الفن ، ولكن سيخبرني الشرف لو أنك سمحت لي بالنظر إليها .

— بكل سرور .

وجرى الولد أمامهم وهو يلعب ، في حين أن فنسنت ورولان سارا

جنباً إلى جنب، وبينما كان رولان ينظر إلى اللوحة درسه فذسنت . وكان رولان يلبس قبعة رجل البريد الزرقاء . وكان له عينان رقيقتان متساثلتان ، ولحية طويلة مجمدة ومربعة كانت تكسو رقبتة وياقته ، واسترخت أخيراً على حلة رجل البريد الزرقاء الداكنة . ولقد شعر فذسنت بنفس الروح الرقيقة الهائلة التي جذبت من قبل إلى يهرية تانجوى ، في رولان . لقد كان ساذجاً بطريقة تدعو للثناء وكان يبدو وجهه المنبسطة وكأنه لا يناسب تلك اللحية اليونانية العظيمة .

وكرر رولان قوله : « إننى رجل جاهل ياسيدى ، وسأخنى لما سأقوله . إن حقول قمحك حية جداً ، إنها حية مثل الحقول التي مررنا بها هناك فأين رأيتك مثلاً وأنت تعمل ؟ » .

— إذن فأنت تحبها ؟

— أما عن ذلك فلا أستطيع قوله ، ولكنى أعرف أنها تجعلنى أشعر بشيء هنا .

ثم مرر يده على صدره .

وصممت لحظة على قاعدة «موتما جور» بينما كانت الشمس تغرب في لون أحمر فوق الدير القديم ، وكانت أشعتها تنعكس على جذوع أشجار السنط وأوراقها النامية بين كومات من الصخور فتلون الأجذع والأوراق بلون برتقالى ناري ، بينما كانت المسطحات البعيدة تقف متخذة لونا أزرق روسيا وخلفها سماء ذات لون أزرق سماوى في مخضر رقيق . أما الرمال البيضاء وطبقات الصخور البيضاء الراقدة تحت الأشجار فقد تشككت بلون أزرق .

فسأل رولان : إن هذه حية أيضاً — أليس كذلك ياسيدى ؟ .

— إنها ستظل حية حتى بعد أن تموت يارولان .

وسارا سويا ، وهما يتجاذبان أطراف الحديث بطريقة ودية لا توجد

شيئاً من طريقة التعظيم التي يستخدمها رولان . ولقد كان عقله بسيطاً ، وأفكاره بسيطة أيضاً وعميقة ، إنه كان يعول نفسه وزوجته وأربعة أطفال بمائة وخمسة وثلاثين فرنكاً يتقاضاها شهرياً ، لقد عمل ساعياً في البريد لمدة أربع وعشرين ساعة دون أن ينال ترقية مع زيادة راتبه بعلاوات طفيفة جداً . وقال فنسنت : « حينما كنت شاباً ، ياميدى ، كنت أفكر كثيراً في الرب . ولكنّه يبدو أنه أصبح نحيفاً بمرور الأعوام ، إنه مازال في حقل القمح الذي رسمته ، وفي غروب الشمس عند « موتيا جور » ، ولكننى حينما أفكر في الرجال ... وفي العالم الذي صنعوه ... ، لئن أعرف يا رولان ولكننى أشعر أننا يجب ألا نحكم على الله بهذا العالم . فإن هذا مجرد دراسة لم تصل بعد إلى نهاية ، ماذا يمكنك أن تفعل في دراسة خاطئة إذا كنت مغرماً بالفنان ؟ إنك لن تجد الكثير لتنقده ، ولهذا ستمسك لسانك عن الكلام ، ولكن لك الحق في أن تسأل عن شيء أفضل . .

فصاح رولان : نعم هو هذا ، شيء أفضل من هذا بمقدار ضئيل .

— إننا يجب أن نرى أعمالاً أخرى صنعتها نفس اليدين قبل أن نحكم عليه .

وكان الغسق قد غطى شارع البلدة الملتوى ، وتفتت الإشعاعات الأولى من النجوم خلال غطاء الليل الأسود الثقيل . وأخذت عينا رولان الجبلتان البريتان تبحشان في وجه فنسنت .

— إذن أنت تعتقد بوجود عالم آخر غير هذا العالم ياميدى .

— إننى لا أعرف يا رولان . فلقد كففت عن التفكير في مثل هذه الأشياء حينما أصبحت منغمساً في عملى . ولكن هذه الحياة تبدو غير كاملة - أليس كذلك ؟ . ففي بعض الأحيان أعتقد أنه مثلما تعتبر القطارات والعربات وسائل لنقلنا من آن لآخر على هذه الأرض ، فكذلك التيفود والسلم هما وسيلتان لنقلنا من عالم لآخر .

— آه ، إنكم تفكرون في هذه الأشياء ، أيها الفنانون !
— رولان ! هل يمكنك أن تصنع لي معروفا ؟ دعني أرسم صورتك .
لأن شعب آرلز لا يحبون الوقوف أمامي .

— إنك متصنفي على شرفا بهذا يا سيدي . ولكن لماذا تريد رسي ؟
إنني مجرد رجل كرية .

— لو أن هناك الايا رولان ، فإنني أعتقد أنه ستكون لديه لحية وعينان
يشبهان عينيك تماما .

— إنك تسخر مني يا سيدي .

— كلا بل العكس ، فأنا جاد فيما أقول .

— هل تأت وتشترك معنا في العشاء في مساء الغد ؟ فعندنا مائدة بسيطة
جدا ولكن يسعدنا أن تكون معنا .

وبرهنت مدام رولان على أنها امرأة ريفية ذكرته إلى حد ما بدمام
دنيس . وكان يوجد على المائدة مفرش ذولون أحمر وأبيض ، ووعاء صغير
من البطاطس ، وخبز محمر بفرن المنزل وزجاجة خمر مزة وبعد العشاء رسم
فنسنت مدام رولان بينما تبادل أطراف الحديث مع ساعي البريد وهو
يرسمها ، وقال رولان : « كنت من الحزب الجمهوري في أثناء الثورة ولكنني
أرى الآن أننا لم نكسب شيئا فسواء أكان حكامنا ملوكا أم وزراء فنحن
الفقراء مازلنا نكسب القليل كما كنا في الماضي . »

ولقد اعتقدت أننا نحنا كنا جمهورية كان كل فرد يشترك مثل
الآخر تماما .

— آه — كلا ... يا رولان .

— قضيت حياتي كلها محاولا أن أفهم يا سيدي ، لماذا يجب أن يحصل

إنسان ما على أكثر مما يحصل عليه الآخر. ولماذا يجب أن يعمل إنسان بكل ما لديه من قوة بينما يجلس جيرانه عاطلين بلا عمل ربما أننى جاهل جداً للدرجة لا تمكننى من الفهم . فهل تعتقد ياسيدى لو أننى كنت متعلماً لاستطعت أن أفهم هذا من ذاك ؟

ونظر فنسنت نظرة خاطفة إلى أعلى ليرى إذا كان رولان يتحدث بسخرية أم لا . ولكنه ألقى نظرة البراءة السذجة على وجهه .

فقال له : نعم يا صديقى . فمعظم المتعلمين يفهمون هذه الحالة جيداً . ولكننى جاهل مثلك ، ولن يمكننى أبداً أن أفهم أو أتقبل هذه الحالة .

* * *

(٤)

وكان يستيقظ في الرابعة صباحاً ، ويسير لمدة ثلاث أو أربع ساعات ليصل إلى المكان الذي يريده ثم يستمر في الرسم حتى يحل الظلام . ولم يكن جميلاً بالمرة أن يسير عشرة أو اثني عشر كيلو متراً بمفرده إلى المنزل ولكنه كان يحب اللسعات التأكيدية للوحات المبتلة التي كانت تحت إبطه لقد رسم سبع صور كبيرة في سبعة أيام . وعند نهاية الأسبوع كان قد قارب الموت ؛ لقد كان صيفاً عظيماً ولكنه اقترب الآن من نهايته ؛ إذ هبت عاصفة شمالية باردة عنيفة وارتفعت معها سحب من التراب جعلت الأشجار مبيضة . ولقد اضطر فذسنت إلى البقاء بلا عمل حتى إنه نام ست عشرة ساعة متتدا .

ولكنه لم يقض وقتاً طيفاً ، لأن نقوده كانت تنفق معظمها في يوم الخميس كما أن خطاب ثيو الذي يحتوى خمسين فرنكاً لم يكن يتوقع وصوله إلا يوم الاثنين ظهراً ، إنها لم تكن غلطة ثيو — فهو مازال يرسل خمسين فرنكاً كل عشرة أيام بالإضافة إلى مواد الرسم ، وجن جنون فذسنت حينها رأى كل لوحاته الجديدة قد وضعت في إطارات ، ولقد أمر بأن يظل معظمها لميزانيته الخاصة . وقد عاش خلال الأيام الأربعة هذه على ثلاثة وعشرين كوباً من القهوة ورغيف من العيش آمنه عليه الخباز . وقام رد فعل عميق تجاه لوحاته في حين أنه لم يكن يعتقد أن لوحاته لا تساوى المبالغ التي ينفقها أخوه . ولكنه أراد أن يستعيد النقود التي أنفقها لكي يردّها لأخيه . فأخذ ينظر إلى لوحاته الواحدة بعد الأخرى وهو يوج نفسه لأنها لا تساوى ما أنفق عليها . وحتى لو درسها بين متساحة من وقت لآخر . فقد كان يعرف أنه كان في إمكانه أن يشتريها بأرخص من نفقاتها لو اشتراها من شخص آخر .

كانت الأفكار تتوارد عليه جماعات وجماعات فيما يختص بعمله طوال

الصيف فعلى الرغم من أنه كان وحيداً إلا أنه لم يجد الوقت الكافى الذى يمكنه من التفكير أو الشعور لقد كان يمضى وكأنه آلة بخارية . ولكنه أحس الآن وكان عقله طليخة حامضة .

كما أنه لم يجد فى يده فرنكا واحداً يمكنه من أن يبحث به السرور إلى نفسه بالأكل أو بالذهاب لزيارة راشيل .

وقرر أخيراً أن كل مارسمه فى هذا الصيف كان سيئاً وريئاً للغاية .

وقال لنفسه : على أى حال فإن أية خيشة وضعت عليها رسمى تساوى أكثر من الخيشة الفارغة إن تظاهرى ليس مبالغاً فيه . فلى الحق فى الرسم وهذا هو السبب فى رسمى .

وكان مؤمناً أنه بإقامته فى آرلز بكل بساطة سيمكنه من أن يحرر فرديته وذاتيته فالحياة قصيرة ، وتجرى بسرعة . حسناً فإدام رساما ، فعليه أن يرسم . وفكر ملياً : لقد أصبحت أصابعى الفئانة مرنة وسلسة حتى ولو أن جشيتى ستتحطم إرباً إرباً .

وكتب قائمة طويلة من الألوان لىكى يرسلها إلى ثيو ، وأخيراً أدرك أنه إن وجد لوناً واحداً من قائمة فى محل دانش ، أو موف ، أو مارييس ، أو فايسنبروخ . فلقد أبدته « آر » كلية عن التقاليد الدانمركية .

وحينما وصلت نقوده فى يوم الاثنين وجد مكاناً يستطيع أن يتناول فيه وجبة جميلة فى مقابل فرنك واحد . لقد كان مطعماً غريباً . ملوناً كله بلون رمادى ، فالأرضية كانت ملونة بيتومين رمادى مثل أرضفة الشوارع ، وكان معلقاً على الحائط أوراق رمادية ، أما الستائر الخضراء فكانت مرفوعة دائماً فى حين أنه أسدلت ستارة رمادية كبيرة فوق الباب لمنع التراب . وفى نفس الوقت نفذ شعاع رفيع جداً من ضوء الشمس خلال الستارة .

وبعد أن استراح لما يزيد على أسبوع قرر أن يقوم بالرسم ليلاً . فرسم
المطعم الرمادى حينما كان مديروه يتناولون وجباتهم والخدم يجيئون
ويروحون . ورسم سماء الليل السميكة الرمادية ، وقد انغمس فيها آلاف من
نجوم بروفس اللامعة ، كما رآها من ميدان لمارتين وخرج إلى الطريق
ورسم أشجار السرو تحت ضوء القمر كما رسم المقهى الليلي ، الذى يظل
مفتوحاً طوال الليل حتى يستطيع المتجولون أن يلوذوا به حينما لا يكون
معهم نقود للنوم فى فندق ليلي ، أو حينما يكونون ثملين جداً لدرجة تمنع
من أخذهم إلى أحد الفنادق .

فرسم المقهى من الخارج فى إحدى الليالى ثم رسم داخله فى الليلة التالية ،
وحاول أن يعبر عن هواطف الإنسانية الخفيفة باللونين الأحمر والأخضر .
فرسم الداخل بلون أحمر دموى وأصفر قائم وفى الوسط منضدة بليارد
خضراء ، كما رسم بالداخل أربعة مصابيح زيت ذات لون أصفر ليونى ولها وهج
برتقالى وأخضر . وكان يوجد فى كل مكان تناقض مثير بين أغرب الألوان
الأحمر والخضراء المستعملة فى رسم العصبجية ، النائمين . وكان يعبر عن فكرة
أن المقهى مكان يمكن الإنسان أن يحطم نفسه فيه ، أو يحن جنونه فيه
أو يرتكب جريمة .

وسر شعب آرلز لأنهم رأوا فى — رو كان يرسم فى الشوارع طوال
الليل وينام طوال النهار . فلقد كانت أوجه نشاط فنسنت موضوعاً
خاصاً لحديثهم .

وحينما حل أول الشهر ، لم يرفع صاحب الفندق إيجار الغرفة بل قرر
أيضاً أن يفرض على فنسنت مصاريف تخزين عن الدولاب الصغير الذى
يحفظ فيه لوحاته . فكره فنسنت الفندق — وثارت ثأثرته لجشع صاحبه
ووجد فى المطعم الرمادى الذى أكل فيه مكاناً مناسباً . ولكن نقوده كانت
لا تمكنه لتناول طعامه هناك إلا يومين أو ثلاثة كل عشرة أيام . كما هات

تباشير الشتاء ، ولم يكن لديه « ستوديو » للعمل فيه كما أن حجرة الفندق كانت مقيمة ومذلة للنفس . علاوة على أن الطعام الذى اضطر لتناوله فى المطاعم الرخصية كان مسمما لمعدته . وكان عليه أن يجد منزلا « وستوديو » ، دائمين ليقم فيهما .

وذات ليلة بينما كان يعبر ميدان لامارتين برفقة رولان المعجوز لاحظ ورقة كتب عليها « للإيجار » ، على منزل أصفر قرب من فندقه . وكان لهذا المنزل جناحان وردهة فى الوسط وكان يواجه الميدان والبلدة المقامة على التل — فوقف ففستنت ينظر إليه باشتياق .

ثم قال لـ رولان : من سوء الحظ أنه كبير جداً ، لأننى أود أن أقيم فى منزل هكذا .

— ليس من الضرورى أن تستأجر المنزل بأكمله ياسيدى ، فيمكنك مثلاً أن تستأجر هذا الجناح الأيمن .

— حقا ! كم من الحجرات تعتقد فى وجودها فى هذا الجناح ؟ وهل ستكون غالية الثمن ؟

— أستطيع القول بأنه يوجد به حوالى ثلاث أو أربع حجرات ، وستكلفك قليلا جداً ، ولن يزيد على نصف ما يكلفك الفندق . وسأق معك غدا فى أثناء وقت تناول غدائى — إذا أردت ذلك ، ربما أستطيع أن أساعدك فى دفع مبلغ مناسب .

وفى صباح اليوم كان ففستنت مسرورا جدا ولم يفعل شيئا سوى السير جيئة وذهابا فى ميدان لامارتين ويمسح المنزل الأصفر من جميع جوانبه . فوجد أن بناءه متين كما أنه يستقبل كل الشمس . وعندما تجول ففستنت بإمعان أكثر . وجد أن له « دخالين منفصلين » . وأن الجناح الأيسر كان مؤجرا فعلا .

وبعد طعام الغداء رافقه رولان ، ثم دخلا سويا الجناح الأيمن للمنزل . فوجدوا ممرًا طويلًا في الداخل يقود إلى حجرة كبيرة تفتتح على حجرة أصغر منها . وكانت الحجرتان مطلبتين لون أبيض ، أما الصالة وأسلم اللذان يقودان إلى الطابق الثاني فكانا مرصوفين بطوب أحمر نظيف . أما في الداخل فكان يوجد حجرة كبيرة أخرى ومكتب . وكانت الأرضية من البلاط الأحمر الرخيص ، في حين أن الجدران البيضاء كانت تمتص أشعة الشمس الرضاءة .

وكتب رولان مذكرة لصاحب المنزل الذي كان في انتظارهما . في الطابق العلوى وتحدث هو ورولان عدة لحظات بلمحة روفنسية سريعة . لم يفهم منها ففهمت إلا القليل واستدار ساعى البريد إلى ففهمت وقال له : « إنه مصمم على معرفة طول المدة التى ستستأجر فيها هذا المسكان » .

— قل له إنها غير محددة .

— هل توافق على استئجارها لمدة ستة أشهر على الأقل ؟

— آه بالطبع — بالطبع !

— وهو يقول إنه سيؤجرها لك مقابل خمسة عشر فرنكا في الشهر .

— خمسة عشر فرنكا ! لمنزل بأكمله . إن هذا ثلث ما كان يدفعه للفندق . بل أقل مما كان يدفعه « للاستوديو » الذى كان قد استأجره فى « هاج » منزل دائم مقابل خمسة عشر فرنكا في الشهر ! وعندئذ أخرج النقود بسرعة من جيبه .

— ها هي ذى ! خذها بسرعة ! أعطها له . لقد استأجرت المنزل .

رولان . إنه يريد أن يعرف متى ستنتقل إلى المنزل .

— اليوم — بل الآن !

— واسكن ياسيدى ليس لديك أى أثاث فكيف يمكنك الانتقال

إلى هنا ؟

— إننى سأشتري مرتبة وكرسی — إنك لاتعرف يارولان مامعنى أن
تقضى حياتك فى حجرات فنادق يائسة . إننى يجب أن أحصل على هذا
المكان فوراً ؟ ..

كما تريد ياسيدى .

وتركهم صاحب المنزل ، كما عاد رولان إلى عمله ، وأخذ رولان يتمشى
من حجرة إلى أخرى ويصعد السلم ثم ينزل من عليها ثانية ، وهو يمين
النظر مرات ومرات . وكانت الدورارات الخمسين التى يرسلها ثيو قد
وصلت فى اليوم السابق ، وكان مازال فى جيبه ثلاثون فرنكا . فاندفع
خارج المنزل واشترى مرتبة رخصية وكرسیا وحملهما إلى المنزل الأصفر
وقرر أن يجعل من الحجرة فى الدور الأرضى حجرة لنومه والحجرة التى فى
الطابق العلوى « ستوديو » له وألقى بالمرتبة على الأرضية الحمراء وحمل
الكرسی إلى الاستوديو بالطابق العلوى ، ثم عاد إلى فندقه للمرة الأخيرة .
وأضاف صاحب الفندق أربعين فرنكا على فاتورة فנסنت مقابل أشياء
تافهة . ثم رفض أن يعطى لفنسنت لوحاته إلا أن يدفع للنقود .

وكان على فנסنت أن يذهب إلى قسم البوليس حتى يسترد لوحاته ، وحتى
يسمح له بدفع ولو نصف هذه المصاريف الوهمية .

وقبيل الغروب وجد تاجرا يرغب فى أن يبيع له وابورجاز وإفانين
ومصباح كيروسين (الشكلك) . ولم يبق عند فנסنت إلا ثلاثة فرنكات فاشترى
قهوة وبنا وبعض البطاطس وقليل من اللحم لعمل شوربة .

ثم ترك نفسه بدون سنتيم واحد . بعد أن أقام مطبخا فى حجرة
المكتب الموجودة فى الطابق الأرضى .

وحينما حل الظلام على ميدان لامارتين وهلى المنزل الأصفر ، قام
فنسنت بطهى شوربته وصنع قهوة على الوابور الصغير . ولم يلم يكن لديه
(م ١٧ — فان جوخ ج ٢)

منضدة، فرش ورقة على المرتبة ثم أعد عشاءه وأكله وهو جالس القرفصاء على الأرض . وكان قد نسي أن يشتري سكيناً أو شوكة ، فاستخدم يد فرشته ليلتقط بها قطع اللحم والبطاطس من الإناء ، فسكان بها طعم بسيط من الألوان .

وحينما انتهى من تناول طعامه ، أخذ مصباح الكروسين . وصعد السلم الأحمر إلى الطابق العلوى فوجد الحجرة خالية من الأثاث ومقفرة ، وليس فيها سوى الحامل الصلب الواقف في اتجاه الشباك الذى أضاءه ضوء القمر . وكان يوجد بأسفله حديقة ميدان لامارتين المظلمة .

ثم عاد للنوم على مرتبته ، وحينما استيقظ فى الصباح وفتح النوافذ رأى نخضرة الحديقة ، والشمس المشرقة ، والطريق الملتوى المؤدى إلى المدينة . ثم نظر إلى طوب الأرضية الأحمر النظيف ، والجدران المطلية بهلاط أبيض دون أن تعلق بها أية قاذورات ، والحجرات الواسعة ، فصنع لنفسه كوباً من القهوة ثم أخذ يروح ويحى . ويشرب من الإناء ، ويضع خطة فى نفسه عن كيفية تأنيث منزله ، عن أى اللوحات التى يجب أن يعلقها على جدرانه وعن كيفية قضاء ساعات الصعادة فى منزل ملكه حقيقة .

وفى صباح اليوم التالى تسلم خطاباً من صديقه « بول جوجوين » الذى وضع فى السجن فيما مضى ، وأصبح الآن ضحية المرض والفقر ويقوم فى مقهى ملعون فى بونت آفن فى بريتانى . إذ يقول جوجوين « لانى لا أستطيع الخروج من هذا الحبر ، لانى لا أستطيع أن أدفع فاتورة حسابى كما أن المالك قد قفل على كل لوحاتى ، لانى لا يثير جنونى شيء أكثر من عدم وجود المال من بين جميع الآلام التى تعذب البشرية ، ولسكنى أشعر أننى قضى على بأن أكون شعاذا مستديماً . »

وفكر فنسنت فى فناني العالم ، ومضايقتهم ، ومرضهم وانزوائهم وازدراء الناس لهم وسخريتهم منهم ، وجوعهم ، وعذابهم حتى يوم موتهم

لماذا؟ وماهى جريمتهم التى اقترفوها؟ وماهى إساءتهم التى جعلتهم منبوذين ومطرودين؟ وكيف يمكن لهذه الأرواح المضطهدة أن تقوم بعمل طيب، رسام المستقبل — آه، إنه سيكون ملوناً، بل ورجلاً لم يخلق مثله من قبل. إنه لن يعيش فى المقاهى البائسة.

وهذا المسكين جوجين. الذى يعيش فى حجرة قذرة فى بريتانى، لقد مرض لدرجة لا تمكنه من العمل، وأصبح بدون صديق يساعده، وبدون فرانك واحد فى جيبه يمكنه من تناول وجبة صحية أو الذهاب إلى الطبيب. لقد اعتقد فنسنت بأن هذا الرجل رساماً عظيماً ورجلاً عظيماً، ولو وافقت المنية هذا الرجل، أو لو أن هذا الرجل كف عن العمل، فيالها من مأساة فى عالم الرسم.

وألقي فنسنت بالخطاب فى جيبه، ثم ترك المنزل الأصفر، وسار هلى طوال شاطئ الرون. وكان فى هذه الأثناء مركب يحمل بشحنة فحم قد رسا فى الميناء وإذا ما نظرت إليه من أعلى وجدت أنه لامع ومبتل لطول بعض الأمطار دفعة واحدة وكان شكل المياه أبيض مصفراً، وتعلوه سحب لؤلؤية رمادية، أما السماء فكانت بنفسجية قاتمة، ويحدها لون برتقالى من جهة الغرب. أما المدينة فكانت ذات لون بنفسجى داكن. وكان بعض العمال الذين يلبسون ملابس قذرة ذات لون أزرق وأبيض، يروحون ويحيثون على ظهر السفينة وهم ينقلون البضائع إلى الشاطئ.

لقد كان المنظر «هوكوساى، أفقياً، فلقد حمل فنسنت إلى باريس، إلى الألوان اليابانية فى محل «بيرتانبجوى»، كما نقل إلى «بول جوجوين» الذى أحبه حباً عميقاً من بين أصدقائه جميعاً.

وعلم على الفور ما يجب عليه أن يفعله، فلقد كان المنزل الأصفر يكفى جداً لإقامة رجلين فيه، وكان يمكن لكل منهما أن يكون له حجرة لنومه وحجرة لرسمه. ولو تمكننا من أن يطهبا طعامهما ويسحقا ألوانهما، ويحافظا على ألوانهما أن يعيشا هلى المائة والخمسين فرانك التى تصل إليه

شهوريا .. فالإبحار لن يزيد ، كما أن الطعام محدود . وكم سيكون مذهشا أن يكون له صديق ثانية ، صديق فنان يستطيع التكلم بنفس اللغة ويفهم نفس الفن .

وكم من أشياء مذهشة يمكن لجوجوين أن يعلمها له عن الرسم .

لأنه لم يدرك من قبل كم هو وحيد . وحتى لو لم يستطيعا العيش على المائة والخمسين فرنكا فربما يرسل إليهما ثيو خمسين فرنكا أخرى في مقابل لوحات جوجوين كل شهر .

نعم ! نعم ! إنه يحب أن يأخذ جوجوين معه في آرلز : فشمس بروفسر الساخنة قد تقتل جميع الأمراض وتخرجها منه ، كما فعلت مع فنسنت . كما أنهما سرعان ما يجعلان الاستوديو يسير على قدم وساق . وسيكون أول استوديو أنشئ في الجنوب . حيث يمكنهما أن يطبقا فيه تقاليد ديلاكروا ومونتشيلي . كما أنه سيتمكنهما أن يغسلا رسوماتهما في ضوء الشمس فتوقظ ألوانهما العالم على طبيعة باهرة .

لأنه يحب إنقاذ جوجوين !

وامتدار فنسنت ثم أخذ يشب مثل السكاب عائدا إلى ميدان لامارتين ، ثم دخل المنزل الأصفر واندفع صاعدا السلم الحمراء ثم ابتدأ يخطط الحجرات والسعادة تغمره .

سيكون لي أنا وبول حجرتان للنوم في الطابق العلوى أما حجرات الطابق السفلى فسنستخدمها استوديو ، وسأشترى أسرة ومراتب وياضات وكراسى ومناضد وسيكون لنا منزل حقيقي وسأجمل المنزل بأكمله بهياد الشمس والحدائق الياضية .

آوه ، بول ، كم جميل أن تكون معي ثانية !

(٥)

ولم يكن الأمر سهلاً كما توقعه فعلى الرغم من أن ثيو أعرب عن استعداده لدفع الخمسين فرنكاً شهرياً في مقابل لوحات جوجوين ، إلا أن مشكلة دفع أجر السكة الحديد قد واجهتهم فلم يكن ثيو أو جوجوين في إمكانهما توفيره . علاوة على أن جوجوين كان مريضاً جداً لدرجة لا تسمح له بالخروج من بونت آفن ، وكان مهموم القلب لدرجة لا تيسر له الدخول في أى مشروع بحماس كاف . ولكن الخطابات طارت ثقيلة وسريعة بين آرلز ، وباريس وبونت آفن .

وشعر فانسنت الآن بحب جارف نحو منزله الأصغر فلقد استطاع أن يشتري لنفسه منضدة ، ومكتباً به أدراج بما كان يدفعه له ثيو .

وكتب إلى ثيو : بانتهاء العام سأكون رجلاً آخر . ولكن لا تعتقد أننى سأترك هذا المكان بأى حال من الأحوال . فسأقضى باقى حياتى فى آرلز ، وسأكون رسام الجنوب ، كما أنك يجب أن تعتبر أن لك منزلاً ريفياً فى آرلز ، وأننى مهمم بتنظيمه حتى يمكنك المجئ دائماً إليه وتقضى فيه أيام عطلاتك .

وكان ينفق أقل مما يجب أن ينفق على ضروريات الحياة بينما كان يصب كل ما تبقى لديه من مال على منزله . ففى كل يوم كان هليبه أن يجرى اختباراً بين نفسه وبين المنزل فهل يجب أن يشتري لحماً للغداء أم أن يشتري ذلك الإبريق الخزفى ؟ وهل يشتري حذاء أم يشتري ذلك اللعاف الأخضر لسرير جوجوين ؟ وهل يشتري إطاراً من أخشاب السنوبر للوحاته الجديدة أم يشتري تلك الكرامى الواطئة ؟

ودائماً ما كان يفضل المنزل على نفسه . فلقد أعطاه المنزل الأصغر شعوراً بالهدوء ، لأنه كان يعمل ليؤمن المستقبل . فكثيراً ما كانوا

يتلاعبون به ، أو يدقون رأسه دون شفقة أو تفكير ، أما الآن فلن ينتقل من هذا المكان ثانية . فبعد أن يموت سيجد رسام آخر ما يثير اهتمامه ، واذلك كان يؤسس ستوديو دائما يمكن أن تستخدمه الأجيال التالية من الرسامين في نقلهم وتصويرهم للجنوب ولقد طغت عليه فكرة أن رسمه مثل هذه اللوحات في المنزل قد تساوى المبالغ التي أنفقت عليه في السنوات التي لم ينتج فيها شيئا .

وانغمس في عمله بطاقة جديدة ، ولقد علم أن النظر إلى أى شىء لوقت طويل يزيد من تعريفه ويعطى له مزيدا من الفهم العميق . ولذلك عاد إلى مونتاجو مايزيد على الخمسين مرة لكي يدرس الحقول عند قاعدته ولكن رياح الشمال الباردة جعلت من الصعب عليه العمل بفرجونه بحيث يجعل رسمه متصلا ومتداخلا مع إحساسه وخصوصاً وأن الحامل كان يتحرك بقوة مع الرياح . وقد كان يعمل من الساعة صباحا حتى السادسة مساء دون أى راحة . فكان يرسم لوحة كل يوم !

وذات ليلة بينما كان هو ورولان يجلسان فوق أريكة في لامارتين ، قال له رولان . « سيكون الغد قيفا ، أما بعد ذلك فسيحل الشتاء » .

فسأله فذست : « وكيف يكون الشتاء في آرلز ؟ »

— منخفض الحرارة ، مع سقوط أمطار كثيفة ، وهبوب رياح عاتية ، وبرد قارس ، ولكن الشتاء قصير جدا هنا ، ولا يتعدى شهرين .

— إذا غدا سيكون آخر أيامنا الجميلة ، وأنا أعرف البقعة التي يجب أن أرسنها . تصور يا رولان حديقة الخريف بها شجرتى صنوبر وشجيرات خضراء في شكل الزجاجات ، وثلاث شجرات قسطل قصيرة ذات أوراق ملونة باللون البنى والبرتقالى . وبها شجرة سدر لها أوراق ليونية شاحبة وجذع بنفسجى ، وغصنان صغيران ذوات لون أحمر دموى ، وأوراق قرمزية . وبحوارها بعض الرمال والحشائش وسما زرقاء .

— آه ياسيدى، إنك حينما تصف الأشياء أشعر أنى كنت أعمى طوال حياتى.

وفى صباح اليوم التالى استيقظ فنسنت مع إشراقة الشمس، وكان يتمتع بروح عالية. فقلّم لحيته بمقص ومشط شعره القليل الذى تركته شمس آزلدون أن تحرقه وتسقطه من فروة رأسه، ولبس بدلته الكاملة الوحيدة، ولبس معطفه المصنوع من فرو الأرنب الذى حمله معه من باريس كما لو أنه أراد أن يودع الشمس بإيمانة لطيفة تدل على مدى غرامه بها.

وكانت تذبذبات رولان صحيحة. فأشرقت الشمس فى شكل كرة صفراء تنبعث منها الحرارة ولم يكن للمعطف المصنوع من فرو الأرنب قه تحمى رأسه، فنفذت الشمس فى عينيه وكانت حديقة الخريف على مسيرة ساعتين من آزلز. عبر الطريق إلى تاراسكون. وكانت تتخذ لها عشاق جانب من التل. فثبت فنسنت حامله فى حقل قمح محروث يمتد خلف الحديقة وبجوارها.

ثم ألقى بمعطفه على الأرض، ثم خلع (جاكتته) الجميلة ووضع اللوحة على الحامل وعلى الرغم من أن الوقع كان مازال فى الصباح المبكر إلا أن الشمس لفحت قمة رأسه ثم ألقت أمام عينه ستارا من النيران المتراقصة التى اعتاد عليها.

ودرس المناظر الذى أمامه بإمعان. ثم حلل مركبات الألوان وحفر التصميم فى عقله وحينما أصبح مؤمنا بأنه فهم المنظر، نعم فرجونه، ورفع الأغشية عن أنايب ألوانه ونظف السكين التى يعزق بها ألوانه السميكة. ثم نظر مرة أخرى إلى الحديقة، وطبع الصورة فوق اللوحة الخالية أمامه، ثم خلط بعض الألوان على خشبة مسطحة ورفع فرجونه. وإذا به يسمع صوتا يسأله من خلفه.

وهل يجب أن تبتدى بهذه السرعة يا فنسنت؟

فالتفت فنسنت حول نفسه.

— مازال الوقت مبكراً يا عزيزي . وما زال أمامك يوماً بإمكانك أن تعمل فيه .

وفغر فنسنت فاه ونظر إلى المرأة في حدة شديدة . لقد كانت امرأة شابة واسكنها لم تكن طفلة . وكانت عيناها في زرقة السماء السكوبالية في أثناء ليل آرنز ، أما شعرها الذي كانت قد لفته في صغيرة مناسبة خلف ظهرها كان أصفر ليموني مثل الشمس . أما تقاطيع وجوها فكانت أكثر رقة من تقاطيع دكاى — فوس ، وكان يظهر فيها نهوض أرض الجنوب . ولون جلدها كان ملفوحاً بلون ذهبي وأسنانها كانت تظهر بين شففتيها المبتسمة بيضاء مثل زهرة الزئبق عند رؤيته بين أعنان حمراء قائمة . وكانت تلبس فستاناً أبيض طويلاً ملتصقاً بتقاطيع جسدها ومشبوكة في جنبه بدبوس فضي مستدير . وكانت تلبس أيضاً صندلاً في قدميها أما بنيتيها فكانت قوية وشديدة التحمل ، واسكنها تنحدر إلى أسفل بوضوح مافيه شك بتجاويف ممتلئة وابتدأت المرأة قائلة : لقد ظلت وقتاً طويلاً بعيدة عنك يافنسنت .

ثم وقفت ما بين فنسنت والحامل ، وأتكتأت على اللوحة الفارغة لحالات بيته وبين النظر إلى الحديقة . وعندئذ انعكست الشمس على شعرها الأصفر الليموني وأرسلت أمواجاً من الحرارة بأسفل ظهرها . وابتسمت المرأة إليه بكل مافي قلبها . وبإعجاب شديد لدرجة أنه مر يديه فوق عينيه ليتأكد أنه لم يمرض أو أن النوم قد انتابه فجأة .

فقالت المرأة . إنك لا تفهمنى يا عزيزي . وكيف استطعت أن تتحمل بعدى عنك طوال هذه المدة ؟

— من أنت ؟

— إننى صديقتك يافنسنت : أعز أصدقائك في هذا العالم .

- وكيف عرفت اسمي ؟ إننى لم أرك مطلقا .
- آه كلا ، كلا ولكننى رأيتك مرات عديدة جدا
- وما هو اسمك ؟
- مايا .
- هل هذا كل شيء ؟ مجرد مايا ؟
- بالنسبة لك يافنسنت — هذا هو كل شيء .
- ولماذا تتبعينى هنا إلى هذه الحقول ؟
- لنفس السبب الذى تتبعتك من أجله فى جميع بقاع أوروبا ... لى
أكون بجانبك .
- إنك إذن تخطئينى هل أنى شخص آخر — فمن المستحيل أن أكون
هو ذلك الرجل الذى تقصدينه .
- وعندئذ وضعت المرأة يدا بيضاء باردة على شعره الأحمر المحترق ثم
لمست عليه برفق فكانت برودة يدها ورقة صوتها المنخفض مثل مياه منعشة
خرجت من بئر عميق أخضر .
- يوجد فى هذا العالم فنسنت فان جوخ واحد ، ولا يمكن أن
أخطئه أبدا .
- منذ متى وأنت تعرفينى ؟
- ثمانية سنوات يافنسنت .
- نعم يا عزيزى — كنت فى البوريناج .
- وهل عرفتنى منذ ذلك الوقت ؟
- رأيتك لأول مرة قبل غروب الشمس أحد الأيام ، بينما كنت
تجلس على عجلة حديدية مهدأة أمام ماركيز ...
- ... وأنا أرقب عمال المناجم وهم عائدون إلى منازلهم

— نعم حينما نظرت إليك لأول مرة . كنت تجلس هكذا متكاسلا ،
وكنت على وشك المرور أمامك فوجدتك تخرج من جيبتك ظرفا قديما وقلم
رصاص وابتدأت ترسم . فنظرت من فوق كتفك لأرى ما رسمته ... وحينما
رأيتة ... وقعت في حبك .

— أنت تقعين في الحب ؟ أنت تقعين في حبى ؟

— نعم يافنسنت . يا عزيزى فنسنت وقعت في حبك .

— ربما لم أكن سيئا جدا إلى هذه الدرجة التى أنا عليها الآن حتى
إنه كان من الممكن النظر إلى حينذاك .

— بل لم يكن لك نصف هذا الجمال الذى أراه الآن .

إن صوتك يامايا ... له وقع غريب . ولم أسمع مثل هذا الصوت إلا من
امرأة واحدة . .

... صوت مارجوت . إنها أحبتك يافنسنت ، كما أحبك أنا .

— هل كنت تعرفين مارجوت ؟

— لقد مكثت فى البراباقت لمدة عامين ، وكنت أتبعك إلى الحقول كل
يوم ، وكنت أراقبك وأنت تعمل فى حجرة المصارعة خلف المطبخ وكنت
سعيدة لأن مارجوت كانت تحبك .

— ومنذ ذلك الوقت وأنا لم تعودى تحبيننى ؟

فمدت أطراف أصابعها الباردة وملست بها على عينه .

— آه — كلا — بل أحبتك ، إن حبى لم يكل أبدا منذ أن رأيتك
للمرة الأولى .

— والم تكونين غيورة من مارجوت ؟

فابتسمت المرأة ، ومر على وجهها ومضة حزن وهاطفة ليس لها حدود
بما جعل فنسنت يفكر فى منديس دا كوستا

— كلا — لم أكن غيورة من مارجوت . لقد كان حبها طيباً بالنسبة

لك ، ولكننى لم أكن حبك ، لكاي ، لأنه كان يضربك .

- وهل كنت تعرفين حينما وقعت في حب أرسولا ؟
— كان هذا قبل أن أعرفك .
— ما كنت تحبين حينذاك
— « كلا ،
— لقد كنت أحق
— « في بعض الأحيان يجب على الإنسان أن يكون أحق في البداية ،
لكي يصبح حكيمًا في النهاية .
— « ولكن إذا كنت قد أحببتني حينما كنا في البرابانت فلماذا لم
تأت إلي ؟ » .
— « إنك لم تكن مستعداً لقبولي — يا فنسنت ،
— « والآن ... هل أنا مستعد ؟ » .
— « نعم ،
— « وهل ما زالت تحبيني ؟ حتى الآن ... في هذا اليوم ... وفي
هذه اللحظة ؟
— « الآن ... واليوم ... وهذه اللحظة ... حتى الأبد ،
— « وكيف يمكنك أن تحبينني ؟ انظري ، إن لثة أسناني مريضة ،
وكل سنة من أسناني أصبحت صناعية ، كما أن شعري قد احترق وسقط
من فوق رأسي ، وعيناي حمراواتان مثل المريض بالزهرى ، وما وجهي
إلا عظام مشرشرة ، إنني كراهية . بل أشد الرجال كراهة علاوة على أن
أعصابي محطمة ، وجسدي عقيم وأحشائي مسممة من أعاليها إلى أسافلها .
« كيف تحبين حطام رجل كهذا ؟ » .
— « هل يمكنك أن تجلس يا فنسنت ؟ » .
وجلس فنسنت على كرسيه الصغير ، وجلست المرأة على ركبتيها وسط
طمي الحقل الناعم ، فصاح فنسنت ، لا تفعل هذا ، فسيصير فستانك الأبيض
قدرا . دعيني أضع معطفي تحتك .

ولكن المرأة أوقفته بلمسة خفيفة من يدها .

— « مرات عديدة توسخ فستانى فى متابعتك — يا فانسنت ، ولكنه عاد نظيفاً ثانياً .

ووضعت ذقنها على راحة يدها البيضاء القوية ، ثم أخذت تداعب بأظفارها الشعيرات المحترقة تحت أذنيه .

— إنك لست دميماً — يا فانسنت ، إنك جميل ، ولكنك عذبت وأشقيت هذا الجسد المسكين الذى تلتف به روحك ، ولم ترض أن تحقق أى ضرر بروحك وهى ما أحبه . على الرغم من أنك حطمت نفسك بهذا العمل الشاق .. إلا أن روحك ستبقى ... بلا نهاية . وسيدبقى معها حبي لك .
وصعدت الشمس ساعة أخرى فى كبد السماء ، وأخذت تضرب بأشعتها القوية فى فانسنت والمرأة التى معه .

وقال لها فانسنت . دهينى آخذك إلى مكان رطب ، فتوجد بعض أشجار السنوبر تحتنا على الطريق مباشرة ، حيث تكونين أكثر راحة فى الظل .
— « إننى سعيدة هنا معك — فلا تهمنى الشمس ، فإلقد أصبحت دة عليهم .

— « هل جئت إلى آرلز منذ مدة طويلة ؟ » .

— « أتيت معك من باريس » .

فقفز فانسنت غاضباً وقذف كرسيه الصغير بقدمه .

— « إنك غشاشة . لقد أرسلك شخص ما لى هنا لتسخرى منى . فإلقد أخبرك هذا الشخص بماضى حياتى ، وأمرك أن تهزنى بى . اغربى عن وجهى ، فلن أحدثك أكثر من هذا .

ولكن المرأة تقبلت غضبه بابتسامة من عينيهما .

— « إننى لست غشاشة يا عزيزى ، إننى أكثر ما يمت إلى الحقيقة فى حياتك ، وإن تستطيع أبداً أن تقتل حبي لك ، .

— « هذا كذب . إنك لا تحبيني . إنك تسخرين مني . وسأكشف
لعبتك . » .

وأمسك بها بقسوة بين يديه ، فدرات بنفسها حتى واجهته فقال لها :
« إنني سأحقيق بك ضرراً إن لم تبعدى عني وتتواني عن تعذيبك لي » .
— « ضربي يا فتنتي — كما أضرت بي من قبل ، فالضرر جزء
من الحب » .

— « بالطبع — يا عزيزي فتنتي ، إنني أحبك » .
— « ولماذا أحببتيني ؟ فدايماً ما كانت تحتقرني النساء » .
— « لأنهن لم ينظرن إليك من أجل الحب ، ولأنه كان أمامك دائماً
عمل يشغلك » .

— « عمل ؟ ياه . بل كنت أحمق . وما فائدة هذه المئات من اللوحات ؟
ومن ذا الذي يود اقتناءها ؟ ومن هو الذي يريد شراءها ؟ ومن ذا الذي
سيقفوه بكلمة مدح ويقول إنني فهمت الطبيعة ورسمت جمالها ؟ » .
— « سيقولها العالم أجمع يوماً يا فتنتي » .

— « يوماً ما — ياله من حلم . مثلاً أحلم بأنني سأكون رجلاً مصححاً
في يوم ما ، ولي منزل وعائلة ومال كاف أجنيه من لوحاتي لأعيش منه .
إنني أرسم منذ ثماني سنوات طوال . ولم يرض أحد أن يشتري لوحة
عما رسمتها ولو مرة واحدة طوال هذه المدة الطويلة . لقد كنت أحمق » .

— « أعلم ذلك ، ولكن — يالك من أحمق عظيم . إنك بعد أن تموت
يا فتنتي ، سيفهم العالم ما حاولت أن تعبر عنه . وتلك اللوحات التي
لا تستطيع اليوم بيعها مقابل مائة فرنك ستباع في يوم من الأيام بمليون
فرنك . آه — إنك تبتسم — ولكن هذه هي الحقيقة . وستعلق لوحاتك
في متاحف أمستردام وهاج ، وباريس ، ودريزدن ، وميونخ ، وبرلين .
وموسكو ونيويورك . ولن يمكن لأحد أن يقدر لوحاتك بثمن ، لأنه

لن يبق شيء للمبيع ، وستؤلف الكتب عن فنك — يا فنسنت ، وستكتب القصص والمسرحيات عن حياتك . وحينما يجتمع رجلان يعشقان الرسم سيكون اسم فنسنت فان جوخ مقدساً .

— «لولم يزل مذاق فمك في فمي اقلت إما أنى أحلم وإما قد جن جنونى» .

— « اقترِب واجلس بجانبى يا فنسنت ، وضع يدك فى يدي » .

وكانت الشمس مركزة مباشرة على رأسيهما . كما أن الأراضى المجاورة للتل ، والوداى قد اكتست فى غلاف من الكبريت الأصفر . بينما رقد فنسنت بجوار المرأة فى شق من شقوق المحراث فى الأرض . لأنه لم يتحدث مع أحد مطلقاً طوال ستة أشهر إلا مع راشيل ورولان ، ولذا كان بداخله فيض عظيم من الكلمات ، وأمعنت المرأة النظر فى عينيهِ فانطلق فى الكلام ، حدثها عن أرسولا وعن الأيام التى كان فيها كاتباً عند ، جويل ، وحدثها عن صراعه ، وفشله وعن حبه « لسكاي » ، وعن الحياة التى حاول أن يبنيها مع كريستين ، وأخبرها عن آماله فى الرسم ، وعن الأسماء التى ناداه الناس بها ، وعن اللطائف التى تقبلها ، وعن أعماله التى لم تنته ، وعن ألوانه الداكنة وعن كل شيء . أراد أن يحققه من أجل الرسم والرسامين . وعن تحطيم جسده من جراء التعب والمرض .

وكلما طال حديثه ازدادت استنارته ، وأخذت الكلمات تتطاير من فمه مثلها تتطاير الألوان من أنابديه . واستيقظ جسده كله فى حركة دائمة ، فتكلم بيديه ولوح بذراعيه وكثفيه وأخذ يروح ويحوى أمامها بحركات جسدية عنيفة ، وازدادت نبضات قلبه وثار الدم فى عروقه ، بينما دفعت الشمس الحارقة فى عاطفة ذات طاقة محبومة .

وكانت المرأة تنصت إليه فى هدوء ، ولم تفت عليها كلمة واحدة بما قاله ، وعلم من عينيها أنها فهمته .

فلقد ارتشفت كل ما أراد قوله لها ، كما أنها ما زالت رابضة مشغوفة

ومستعدة لتستمع إلى المزيد ، لتفهمه ولكي تستقبل كل ما يود أن يعطيه لها
وكل ما لا يستطيع أن يحتفظ به بداخله .

وتوقف فجأة ، وأخذ جسده يرتعش مضطرباً ، من أعلاه إلى أسفله ،
وكانت عيناه ووجنتاه حمراء ، وأطرافه ترتعش ، فجذبته المرأة إلى
جوارها .

وكانت الشمس تنحدر إلى الجانب الآخر من السماء ، وكانت الأرض
ساخنة من أشعة الشمس المركزة عليها طوال النهار . وكانت تنبعث منها رائحة
نباتات مزروعة ، ونباتات نامية ، ونباتات حصدت ثم ماتت ثانية . وكانت
الأرض لها رائحة المياه ، رائحة نفاذة لحياة دائمة الانبثاق ودائمة العودة إلى
المادة الأولى من خلقها .

واشتدت عواطف فنسفت أكثر وأكثر ، وكانت كل أنملة في جسده
تدق بداخله تنتهي إلى قلب يشن بالآلم . وفتحت المرأة ذراعيها له .
فأحس بالتعب ، فنام بين ذراعيها .

وحينما استيقظ وجد نفسه بمفرده ، بينما كانت الشمس قد غربت .
ووجد كعكة جافة من الطين فوق خده الذي كان قد دفنه في الطين وهو يسيل
عرقاً . وكانت الأرض رطبة ولها رائحة أشياء زاحفة مدفونة ، فلبس
جاكته ، ومعطفه المصنوع من فرو الأرانب وربط الحامل على ظهره ،
وأخذ اللوحات تحت إبطه . وسار عبر الطريق المظلم إلى المنزل .

وحينما وصل إلى المنزل الأصفر ألقى بالحامل ، واللوحات الفارغة إلى
الحفمية الموضوعة في حجرة نومه . ثم خرج لكي يتناول قدحا من القهوة .
ثم مال برأسه على كفه الموضوع على المنضدة الحجرية الباردة وأعاد الفسك
فيما فعله في أثناء النهار .. وأخذ يتمن لنفسه : « مايا ، مايا ، ألم أسمع ذلك الاسم
في مكان ما قبل اليوم ؟ إنه يعني ... إنه يعني ... إنني محتار فيما يعنيه ؟ »

وتناول قدحا آخر من القهوة . . وبعد مضي ساعة عبر ميدان لامارتين
إلى المنزل الأصفر . وشعر بهبوب رياح باردة ، فاشتد رائحة المطر
في الهواء .

ولم يهتم بإشعال مصباح الجاز حينما أتى بحامله . أما الآن فقد أشعل
كبيرياً ووضع المصباح فوق المنضدة فأضاء الوهج الأصفر الحجرية . وجذب
انتباهه رقعة ملونة على الحشية فارتاع على الفور وسار إلى الأمام ، والتقط
اللوحة التي كان قد أخذها معه في ذلك الصباح .

ورأى على اللوحة — تحت وهج الضوء العظيم — حديقة الخريف ،
والشجرتين الخضراوين اللتين تشبهان الزجاجتين ، وشجرتي الصنوبر ،
وشجرات القسطل الثلاث الصغيرة ذات الأوراق البنية والبرتقالية ، وشجرة
السد ذات الألوان الليمونية الشاحبة والجذع البنفسجي ، والغصنين الصغيرين
ذات اللون الأحمر الدموي والأوراق القرمزية ، وبحوارها بعض الرمال
والخشائش ، وتعلوها سماء زرقاء جداً بها كرة نارية ذات لون كبريتي أصفر .

ووقف وهو يحمل إلى الصورة عدة لحظات ، ثم علقها بخفة على الحائط
وعاد ثانية إلى الحشية ؛ وجلس عليها واضعاً ساقاً على ساق ، وأخذ ينظر
إلى رسمه ثم ابتسم .

ثم قال بصوت مرتفع . حسن جداً !
جميل جداً ما حققته .

(٦)

وحل فصل الشتاء، وكان فنسنت يقضي أيامه في الاستوديو، مرسمه الدافئ الجليل . وكتب ثيو إليه يخبره أن جوجوين الذى جاء إلى باريس لقضاء يوم واحد ، كان فى حالة عقلية يرثى لها، وكان يعارض الفكرة الارزية بكل ما أوتى من قوة . ولم يكن المنزل الأصفر فى رأى فنسنت مجرد منزل لسكنى رجلين، بل كان ستوديو دائماً لجميع فناني الجنوب . وكان قد وضع خطة مفصلة لتكبير النصف الذى يخصه بمجرد ما إن ينظم المكان بمساعدة جوجوين . وكان يرحب بكل رسام يرغب فى البقاء بهذا المكان ، على أن يرسل لوحة لثيو كل شهر مقال ضيافته وبمجرد ما إن يتوافر لدى ثيو عدد كاف من اللوحات الحسية يمكنه أن يترك جوبلز ويفتح لنفسه معرضاً مستقلاً فى باريس ، وأوضح فنسنت فى خطاباتة أن جوجوين سيكون مديراً الاستوديو، ورئيساً على جميع الرسامين الذين سيعملون فيه . وكان فنسنت فى نفس الوقت يوفر كل فرنك ما أمكنه ذلك حتى يؤثث حجرة فومه بلون الجدران بلون بنفسجى باهت ، أما الأرضية فكانت من طوب أحمر . كما اشترى ملايات ووسائد ذات لون أخضر ليونى خفيف جداً ، ولحافاً قمرزياً ، وطلى الفراش الخشبى والكرامى بلون الزبد الطازج . وطلى منضدة التواليت بلون برتقالى ، والحمام بلون أزرق ، والأبواب بلون بنفسجى فاتح . وعاق عدداً من لوحاته على الجدران ثم ألقي بقوافلات النوافذ ، ثم حول المنظر بأكمله إلى لوحات لثيو ، حتى يرى أخاه إلى أى درجة أصبحت حجراته مريحة . بعد أن طلائها بالوان سطحية خالصة مثل الرسومات اليابانية .

أما عن حجرة جوجوين فكانت شيئاً آخر ، لأنه لم تكن لديه الرغبة فى شراء مثل هذا الأثاث الرخيص لمدير الاستوديو . ولكن أكدت له مدام رولان أن السرير المصنوع من الجوز الذى أراده لجوجوين لن يمكنه شراءه إلا بمائة وخمسين فرنكاً . وهذا المبلغ من المستحيل أن يأتى فى يدي

فدسنت ، ولكن مع هذا ابتداء بشراء بعض اللوازم البسيطة للحجرة ، مما أدى إلى معاناته من ضائقة مالية مستمرة .

وعندما لا يجد نقوداً للوديلات كان يقف أمام مرآة ويرسم صورته مراراً ومرات . وجاءت راشيل ووقفت من أجله . كما كانت مدام رولان تأتي هي وأولادها مرة كل أسبوع ، كما أن مدام جينو زوجة صاحب المقهى الذى كان يتناول منه مشروباته دائماً جلست أمامه بفستانها الأزرقى ، فرسم صورتها على اللوحة فى ساعة واحدة . أما الأرضية فسكانت ليونيا باهتا ، والوجه رمادى ، والملابس سوداء بخط فارسى أزرق . وكان قد أجلسها على كرسي استعاره ذى مسندين من الخشب البرتقالى ، وكانت تسكىء بكوعها على منضدة خضراء .

ووافق ولد من الزوفيين ، ذو وجه صغير ورقبة مثل رقبة الثور وعينى نمر ، أن يجلس أمامه مقابل مبلغ ضئيل ، فرسم فنسنت نصف طوله فى لباسه الأزرق ، وكانت هذه الزرقة فى زرقة صحن مزخرف ، كما رسم له صغيرة ذات لون برتقالى أحمر باهت ، ونجمتين ليونيتين باهتتين على صدره . ورسم قبعة حمراء على رأسه الشبيهة برأس القطط وخلفها جدار أخضر . وكانت النتيجة خليطاً متوحشاً من أوتار متباينة ، جشة ورخيصة وعالية ، ولكنها تناسب شخصية الشخص المرسوم .

وجلس أمام نافذته لعدة ساعات وفى يده قلمه وأمامه لوحة للرسم . وهو يحاول أن يسيطر على التكوين الذى يمكنه من أن يرسم بحركات قليلة من فرجونه رجلاً ، رجلاً أو امرأة أو شاباً أو حصاناً أو كلباً بحيث تتناسق الرأس والجسم والسيقان . وأخذ يعيد رسم كثير من اللوحات التى كان قد رسمها فى ذلك الصيف ، لأنه اعتقد أنه لو استطاع أن يحول خمسين صورة إلى مائتى فرنك عن كل واحدة فى خلال العام ، فإنه لن

يكون متجنبيا في أن يأكل ويشرب كما يحق له . وتعلم أشياء كثيرة في أثناء الشتاء . تعلم أنه يجب على المرء ألا يرسم الجسد في لون أزرق لأنه إذا ما فعل هذا سيصبح في لون الخشب ، وتعلم أن ألوانه لم تكن ثابتة كما يجب أن تكون ، وتعلم أن أهم عنصر يدخل في رسم لوحات أراضى الجنوب هو تناقض اللون الأحمر والأخضر واللون البرتقالي والأزرق ، ولون الكبريت والبنفسج ، وتعلم أنه يجب أن يعبر عن شيء مريح في لوحته كما تفعل الموسيقى ، وتعلم أنه يحتاجه الرغبة في رسم رجال ونساء عليهم سمة الهبة ، فكان يستخدم حالة من الضوء للرمز إلى هذا ، وحاول كذلك أن يعبر عن هذه السمة بوهج وتموجات ألوانه ، وتعلم أخيرا أن هؤلاء الذين يتميزون بقريحة تعبر عن الفقر ، سيعتبر الفقر بالنسبة لهم أبديا .

ومات أحد أعمام فان جوخ وترك لثيو وصية بسيطة . ولما كان فلسنت مصرا على أن يكون جوجوين معه ، قرر ثيو أن ينفق نصف قيمة هذه الوصية لتأثيث حجرة نوم لجوجوين وإرساله إلى آرلز ، وامتلا قلب فلسنت بالسرور ، وأبتدأ يرسم خطة لتزيين المنزل الأصفر . وكان محتاجا لاثنتي عشرة لوحة من الورد الآرلزية ، بحيث تكون سيمفونية من اللون الأزرق والأصفر .

ولكن جوجوين لم يفرح حتى حينما علم بتوفير أجر المسكن الجديد وسفره بجافا . وفضل جوجوين أن يتسكع في بونت آفن لسبب ظل غامضا على فلسنت . ولكن مع هذا ظل فلسنت شغوفا بإنهاء الزينات وإعداد الاستوديو لحين وصول السيد .

وهل الربيع . ونمت أشجار الزنبق بشكل جنوني في حديقة المنزل الأصفر الخلفية ، لقد نمت بشكل مفرع لدرجة أنها كادت أن تفش شكلا متنقلا . لقد كانت الأشجار محملة بزهور يانعة وزهور ذابلة أيضا ، وكان اخضرارها يحدد نفسه باستمرار في دفعات قوية . وبدا كما لو أنه لن ينتهي أبدا .

وحمل فنسنت الحامل فوق ظهره مرة أخرى وذهب إلى الريف ليجد بعض عباد الشمس للوحاتة الاثنتي عشرة . وكانت الأرض ذات الحقول المحروثة رقيقة في ألوانها ، بينما كانت الزهور الزرقاء الصغيرة قد بقعتها السحب البيضاء . ورسم بعض عباد الشمس على إطار لوحاته عند شروق الشمس وتحت أضواء شديدة . كما أخذ بعضها معه إلى المنزل ورسمها على أصبص أخضر . وطلى الجدار الخارجى لمنزله بلون أصفر حديث ، مما بعث السرور إلى قلب كثيرين من سكان ميدان لا مارتين .

وحل الصيف مع انتهائه من رسم ما أراد على منزله ، وجاءت معه الشمس الحارقة ورياح الشمال العاصفة ، وإثارة الجو المتزايدة ، وحلت معه الآلام والكروب على الريف وعلى المدينة الحجرية الملتصقة بالتل . وجاء معه بول جوجوين .

وصل إلى آرلز قبل الفجر وانتظر شروق الشمس في مقهى ليلي صغير . ونظر إليه صاحب المقهى وقال مندهشا « إنك الصديق ! لقد تعرفت عليك » .

— « باسم الشيطان عما تتحدث ؟ » .

— « لقد أراى السيد فان جوخ اللوحة التى أرسلناها إليها تشبهك تماما ياسيدى .

وذهب جوجوين لإيقاظ فنسنت . وكانت مقابلاتهما عاصفة وقلبية . وأطلع فنسنت جوجوين على المنزل ، وساعده على تفريغ حقيبة سفره ، وسأله عن أخبار باريس . وتحدثا بانتعاش لساعات طويلة .

— « هل تضع خطة لعمل اليوم يا جوجوين ؟ » .

— « وهل تعتقد أنى كارلوس — ديوران ، حتى أستطيع أن آخذ خشبة ألوانى بمجرد نزولى من القطار ، وأرسم لك على الفور تأثير أشعة الشمس ؟ » .

— « إنه مجرد سؤال » .

— « إذن لا تسأل أسئلة حمقاء » .

— « إذن سأعتبره يوم عطلة بالنسبة لى أيضا . هيا بنا فسا طلعك هلى المدينة » .

وقاد جوجوين إلى أعلى التل ، وعبر ميدان ديلا ميرى الذى أحرقته الشمس ، وطوال طريق السوق الممتد فى مؤخرة المدينة . وكان الزوفيون يمشون فى الحقل خارج تسكناتهم ، بينما كانت طرايدشهم الحمراء تحترق تحت الشمس .

وقاده فنسنت عبر الحديقة الصغيرة المواجهة للمساحة الرومانية .

وكان الارازيون يتجولون لاستنشاق هواء الصباح ، بينما كان فنسنت يتحدث بجنون إلى جوجوين ووصف له مدى جمالهم . ثم سأل جوجوين قائلا « ما رأيك فى الارازيين يا جوجوين ؟ » .

— « إننى أشعر بالضيق بينهم » .

— « انظر إلى أجسادهم يا هذا — ولا تنظر إلى تقاطيعهم . انظر إلى ما فعلته الشمس فى ألوانهم » .

— « وكيف حالة النزل هنا — يا فنسنت ؟ »

لا توجد منازل هنا إلا منازل الزوفيين مقابل خمسة فرنكات .

وعادا إلى المنزل الأصفر ليقوما بعمل بعض التنظيمات . وعلقا صندوقا في جدار المطبخ ووضعنا نصف نقودهما فيه . وهي تكفي لشراء طباقيهما ومصروفاتهما الشهرية بما في ذلك الإيجار . ووضعنا على قمة هذا الصندوق قطعة من الورق وقلم رصاص لقيد كل فرنك يأخذانه . ثم وضعنا في صندوق آخر باقى نقودهما ، وقسمناه إلى أربعة أقسام الإنفاق على طعامهما كل أسبوع .

— « إنك طبابخ ماهر أليس كذلك يا جوجوين ؟ »

— « ما هذا — فلقد تعودت أن أكون بحارا . »

— « إذن ستعلمى طعامنا في المستقبل ، أما الليلة فسأعد الشورية احتراماً لك . »

وحينما أعدنا فنسنت الشورية في تلك الليلة لم يستطع جوجوين احتساءها — « إننى لا أنصور يا فنسنت كيف مزجت هذه الخلطة ، أعتقد أنك مزجتها مثلما تزج الألوان في لوحاتك ، »
— « وما الذى تراه في ألوان لوحاتى ؟ » .

— « يا صديقى العزيز ، إنك مازلت غارقاً في مذهبك التاثيرى المستحدث ومن الأفضل لك أن تقلع عن هذه الطريقة ، فهى لا تتلائم مع طبيعتك . »
— « وقذف فنسنت إناء شوربته جانبا . »

— « يمكنك أن تفهم هذا من النظرة الاولى . أليس كذلك ؟ يالك من فاقد بارع . »

حسنا — انظر إلى نفسك أولاً . أعتقد أنه لا توجد غشاوة على بصيرتك — أليس كذلك ؟ .

— « فمذه الزهور النفسىجية ، مثلاً ، في فوضى شاملة . »

ونظر فنسنت إلى لوحات عباد الشمس المعلقة على الحائط . وقال له
« هل هذا هو كل ما عندك لتقوله عن عباد شمس ؟ » .

— « كلا ، يا عزيزي ، فيمكنني أن أجد أشياء أخرى كثيرة لأقدها .
— « مثل ؟ » .

— « مثل التناقض بين لوحاتك ، فهي على وتيرة واحدة وغير كاملة » .
— « هذا كذب ! »

— « أوه ، اجلس يا فنسنت ، وكف عن النظر إلى كما لو أنك تنوى
قتلي ، فأنا أكبر منك سناً بسنوات عديدة ، كما أنني أكثر منك نضوجاً .
خافت ما زلت تحاول اكتشاف نفسك فما عليك إلا أن تنصت إلى وسأسدي
إليك دروساً مفيدة » .

— « إنني آسف يا بول فأنا محتاج حقاً إلى مساعدتك » .

— « إذن أول ما يجب عليك أن تفعله هو أن تزيل كل هذه النفايات من
عقلك . فلقد سمعتك طوال اليوم وأنت مجنون بالحديث عن ميسونير
وموندشيلي وكلاهما لا يساوي شيئاً » .

وطالما أنك معجب بهذا النوع من الرسم فلن يمكنك مطلقاً أن ترسم
أنت نفسك لوحات جديدة .

— « لقد كان موندشيلي رساماً عظيماً ، فلقد عرف عن الألوان أكثر
من عرفه رجل آخر في عصره » .

— « لقد كان معتوهاً ثملاً — هذا هو ما كانه » .

وقف فنسنت من مكانه وحمل في جوجوين الذي كان يجلس في مواجهته
عبر المائدة كما سقط إزاء الحساء على الأرضية ذات الطوب الأحمر فتحطم .

— « لا تدع دافداً ، إنني أحبه مشاماً أحب أخى تماماً ، وإن كل هذا

القيـل والقال عن أنه كان ثملا أو أنه كان معـتوها ، ما هو إلا ثرثرة
شريرة ، فلا يمكن لأى مخـور أن يرسم لوحات مـونشيلى ، فمجهوده العقلى فى
وزن ونسيق الألوان الستة الرئيسية ، والضغط الشديد الواضح والتـقديرات
العديدة ، ومئات الأشياء التى يجب أن يفكر فيها فى ما لا يزيد على نصف
ساعة ويتطلب عقلا متيقظا واعيا . وإنسانا رزينا وإنك بترديدك هذه التـرثرة
عن « فادا ، ها أنت إلا شرير وحيوان مثل تلك المرأة التى أشاعتها عنه » .
— « هارها ، يا قبعتى يا أم زر » .

فتراجع فتسنت كما لو أن كوبا من الماء البارد قد ألقى به فى وجهه . كما
اختفت كلماته ومشاعره العارمة بداخله ، وحاول أن يخمد غضبه ولكنه لم
يستطع ، فسار نحو حجرة نومه وأقفل الباب خلفه بعنف .

* * *

(٧)

ونسيت المشاجرة في صباح اليوم التالي ، فبعد أن تناولوا القهوة سويًا
مذهب كل منهما في طريقه ليرسم لوحاته .

وحينما عاد فنسنت في تلك الليلة ، مجهدًا بما كان يسميه تنسيق الألوان
الستة الرئيسية ، وجد جوجوين يعد طعام العشاء على موقد جاز صغير ،
وتحدثا في هدوء للحظات قليلة ثم انتقل الحديث بعد ذلك إلى الرسم والرسامين
وهو الموضوع الوحيد الذي كانا يهتمان بكل ما لديهما من شغف .
وافدلت الحرب .

فبينما كان يوجب جوجوين بالرسامين كان فنسنت يحتقرهم وكان معبودي
فنسنت شياطين لعينة بالنسبة لجوجوين .

وكانا لا يتفقان مطلقًا على كل معالجة لفنهما . فكان من الممكن أن
يناقشا أي موضوع آخر بروح من الود والصداقة ، ولكن الرسم كان لحم
الحياة وشرابها بالنسبة لهما . فكانا يدافعان عن أفكارهما لآخر قطرة من
عطاقتهم المصيبة . على الرغم من أن جوجوين يتمتع بضعف قوة فنسنت
الحيوانية إلا أن ثائرة فنسنت التي تشبه السوط كانت تتركهما متعادلين .

وكانت مناقشتهم فظيعة ومكهربة حتى حينما كانا يتناقشان حول أشياء
متفقًا عليها ، وكانا ينتهيان منها بعد أن نضبت رؤسهما كما لو أنها بطارية
أفرغت شحنتها .

وأعلن جوجوين قائلًا : « إنك لن تكون فنانًا مطلقًا يا فنسنت ، إلا
إذا نظرت إلى الطبيعة ، ثم تعود إلى الاستوديو وترسمها دون أية إثارة ،
وبدم بارد » .

— « إنني لا أحب الرسم بدم بارد ، أيها المعتوه ، فانا أحب دائمًا أن

أرسم ودى ثائر . وهذا هو سبب وجودى فى آرزى .
— « إن كل هذا العمل الذى رسمته ما هو إلا نسخ حقير للطبيعة .
يجب عليك أن تتعلم كيف تعمل ارتجاليا . »

— « ارتجاليا . يا إلهى الكريم . .
— « وهناك شىء آخر ، وهو أنه كان من الأفضل لك أن تستمع
« لسورات » . إن الرسم تجرىدى يابنى ، وليس فيه مجال للقصص التى تحكيها
والأخلاق التى ترفعها إليها . »
— « هل أنا أرمى إلى الأخلاقية ؟ لا بد أنك مجنون . »

— « إذا كنت تريد أن تلقى وعظا يافسنت فعليك أن تقبع فى معبد .
فالرسم عبارة عن لون وخط وشكل ولا شىء أكثر من هذا . وفى إمكانه
الفنان أن يعيد خلق الديكور فى الطبيعة . وهذا هو كل ما فى الأمر . »
فقال فنسنت حائقا ، فن ديكور ! إذا كان ذلك هو كل ما تقتبسه من
الطبيعة ، فعليك أن تذهب إلى بورصة . »

— « لو ذهبت إلى هناك ، فسأتى إليك صباح كل أحد لاستمع إلى
مواظك . فإذا تفهمه من الطبيعة ؟ أتفهم منها رئيس فرقة « طافى » ؟ » .
— « إننى أستمد منها حركة الحياة وموسيقاها يا جوجوين . »
— « حسنا ، إذن فنحن خارج الموضوع . »

— « إننى حينما أرسم شمسا أريد أن أجعل الناس يشعرون بها وهى
تدور بسرعة مذهلة وبأنها تبعث ضوءا وموجات حرارية ذات قوة عظيمة ،
وحينما أرسم حقل قمح أود أن أجعل الناس يشعرون أن الذرات الموجودة
فى القمحة تندفع نحو نموها ونضوجها النهائى . وحينما أرسم تفاحة أرغب
فى أن يشعر الناس برحيق تلك التفاحة وهو يندفع خارج قشرتها ، وأن
البذور التى بقلبها تتصارع إلى الخارج من أجل الاستمتاع بالحياة . »

— فنسنت « إننى أخبرتك مرات عديدة بأنه يجب على الفنان ألا
أن يرسم وفق نظريات فى رأسه ، ، » .

خذ منظر مزرعة العنب هذا — يا جوجوين . انظر إليه . إن تلك
الأعشاب على وشك الانفجار وتضع ما بها أمام عينيك مباشرة . انظر هنا
وحاول دراسة هذا النهر الصغير ، إننى أريد أن أجعل الناس يشعرون بكل
أطنان المياه التى تتدفق بين جانبيه . وحينما أرسم صورة رجل أريدهم أن
يشعروا بشريان الحياة الكاملة فى حياة هذا الرجل ، وكل شىء رآه وفعله
وقاسى منه ، ، » .

— « بحق الشيطان ماذا تقصد بقولك هذا ؟ ، » .

— « إننى أقصد من هذا يا جوجوين ، أن الحقول التى تدفع القمح إلى
النمو والمياه التى تدفع عبر النهر ورحيق الأعشاب ، وشريان الحياة وهو يسرى
فى جسد الرجل ؟ كلها شىء واحد . فالوحدة الوحيدة فى الحياة هى وحدة
الموسيقى . إنها الموسيقى التى نرقص كلنا عند سماعها . الرجال والتفاح ،
والأنهار . والحقول المحروثة . والعربات بين حقول القمح ، والمنازل
والخيل والقمح والشمس ، فالمادة التى بداخلك يا جوجوين اليوم ستجدها
غدا فى داخل عنبه لأنك أنت والعنب شىء واحد . فحينما نرسم فلاحا يعمل
ويكد فى حقله أريد أن تشعر بأن هذا الفلاح يسرى بينه وبين التربة شريان
واحد مثلما يحدث مع القمح . وأريد أن تشعر كذلك بأن الأرض تسرى
فى جسد الفلاح . أريد الناس يشعرون بأن الشمس تسرى فى داخل الفلاح ،
وفى داخل الحقل والقمح والمحراث والخيل تماما مثلما يسرون جميعا فى
داخل الشمس . فحينما تبتدى تشعر بالموسيقى العالمية التى يتحرك فى داخل
إطارها كل شىء على وجه هذه البسيطة ، ستبدأ فى فهم هذه الحياة وأن
الله واحد ، ، » .

فقال جوجوين . « يارئيس فرقة المطافى إنك على حق فيما تقول ، » .

وكان فنسنت قد وصل إلى ذوروة مشاعره ، وأخذ يهتز باستثارة
محمومة . وكانت كلمات جوجوين قد صفعته مثل اللطمة على وجهه . فوقف
فاغرا فاهه بحماسة ، وظل فاهه مفتوحا .

— والآن بحق كل ما في هذا العالم . ماذا تعنى بقولك : يارئيس فرقة
المطافي إنك على حق ؟ .

— إنها تعنى أننى أفكر فى اقتراب الوقت الذى يجب عليك أن تذهب
فيه إلى المقهى من أجل تناول قدح من الحلبة .

وباتهاء الأسبوع الثانى قال جوجوين ، ودعنا نجرب ذلك المنزل الليلة .
وسارا حتى نهاية بعض الأزقة الحجرية ، ثم دخلا « ميزون دى
تولهرانس » . وعندما سمعت راشيل صوت فنسنت اندفعت خارج المدخل .
وألقت بنفسها بين ذراعيه . بينما قدم فنسنت جوجوين إلى لويس .

فقال لويس . « إنك فنان ياسيد جوجوين ، وربما يمكنك إعطائى
رأيك عن اللوحتين الحديثتين اللتين اشتريتهما من باريس فى العام الماضى » .
— إننى أرحب جدا بهذا . ومن أين اشتريتهما ؟ .

— من جوبلز ، فى سراى الأوبرا . إنهما معلقتان فى هذه الصالة الأمامية ،
وهل تفضل بالدخول ياسيدى ؟ .

وبينما قادت راشيل فنسنت إلى حجرة تقع فى الجهة الشمالية ، دفعته
داخل كرمى بالقرب من إحدى المناضد .

وذبحر فنسنت قائلا . كنت أحضر إلى هنا منذ ستة أشهر ، ولم يسألنى
لويس مطلقا عن رأى فى أية صورة .

— إنه لا يعتقد أنك فنان يافو — رو .

— « قد يكون على حق » .

وقالت راشيل غاضبة . « إنك لم تعد تحبنى » .

- « وما الذى يجعلك تظنين هذا يا حمامة ؟ »
— « إنك لم تأت لزيارتى منذ أسابيع . »
— « ذلك لأننى كنت أعمل ما وسعنى الجهد لكى أهد المنزل لصديق . »
— « إذن أفنت تحببى حتى وأنت بعيد عنى . ؟ »
— « حتى ولو أنا بعيد عنك . »

وانطلقت صرخة من الحجرة عبر الردهة، لتعبر عن صرخة شخص مامن الجائز أنها صرخة فرح أو صرخة ألم، فألقى فنسنت براشيل، وهروول عبر الردهة ومنها إلى داخل حجرة الجلوس .

وكان جوجوين مستلقيا على الأرض، وقد انتابته نوبة تشنجية، وتنهمل الدموع على وجنتيه، بينما كان لويس يحمل مصباحا فى يده وأخذ يحملق فى جوجوين دون أن ينبس بكلمة واحدة . وقبع فنسنت بجوار جوجوين وأخذ يهزه بيده ويقول:

« بول، بول، ماذا حدث لك ؟ » .

وحاول جوجوين أن يتكلم ولكنه لم يستطع، وبعد لحظات تنهد قائلا . « فنسنت .. وأخيرا لقد ردا اعتبارنا .. انظر .. انظر .. انظر إلى الحائط .. إلى هاتين اللوحتين اللتان اشتراهما لويس من جوبلز .. من أجل حجرة جلوس منزل دعارته، إن كليهما مرسومتان على طريقة بوجورو . »
وقام متعثرا على قدميه وسار إلى الباب الأمامى . وصاح فنسنت وهو يجرى وراءه . انظر دقيقة واحدة، إلى أين أنت ذاهب ؟ .

- « إلى مكتب التلغراف، يجب أن أرسل هذا لاسلكيا إلى نادى باتيجنولس مباشرة . »

وحل الصيف بكل ماله من حرارة مخيفة متوهجة . وانفجرت القرية
في ثورة من الألوان ، فلقد كانت الألوان الخضراء ، والزرقاء والصفراء
والحمراء فاقعة جدا لدرجة أنها أذهلت الأبصار ، وكانت الشمس تحرق كل
ما تمسه نهائيا . كما كان وادي الرون يتألق تحت أمواج متتالية من الحرارة
الوهاجة . ولفحت الشمس كلا الرسامين وأصابتهما بكدمات ، وهرستهما
حتى جعلتهما مثل العجينة ثم امتصت منهما كل ما يتمتعان به من مقاومة .
وهبت رياح الشمال الباردة وألهبت جسديهما بسوطهما كما ألهبت أعصابهما .
وأمال برأسيهما على رقبتيهما لدرجة أنهما ظنا أنهما سيدنفجران أو يتعطشان
ولكنهما على الرغم من هذا كانا يخرجان مع شروق الشمس ، وكان يجهدان
أنفسهما حتى تغرق زرقة النهار المشعة في زرقة الليل المظلمة .

وكان يبرز في الأفق معركة على وشك الاندلاع بين فنسنت وجوجوين ،
فكان أولهما بركانا ثائرا ، وثانيهما يغلي بداخله . فعندما يحن الليل ، ويكون
التعب قد أجهدهما لدرجة أنهما لا يقويان على النوم ، وتكون أعصابهما
ثائرة لدرجة لا يقويان معها على الصمت ، كأنما كل منهما يقتل ما تبقى له
من طاقة على الآخر .

ونقصت نقودهما ، كما لم يكن أمامهما أية وسيلة للترفيه عن أنفسهما .
فكانا ينفسان عن عواطفهما في تبادل الغضاظة والمرارة . ولم يكمل جوجوين
مطلقا عن استثارة غضب فنسنت وكان حينها يصل فنسنت إلى ذروة غضبه
كان يصفه جوجوين بعبارة المعهودة : « يارئيس فرقة المطافئ إنك
على حق » .

— « فنسنت ، لا عجب أنك لا تستطيع الرسم ، انظر إلى الفوضى الكامنة
في هذا الاستوديو ، وانظر إلى هذا الخليط الموجود في علبة الألوان
. ياإلهي . لو لم يكن عقلك الدائركي مولع لهذه الدرجة « بدرديت » و
« مونتشيلي » كان من المحتمل أن تنظفه وتدخل في حياتك بعض النظام .

— «إن هذا ليس من اختصاصك يا جوجوين ، فهذا الاستوديو خاص بي،
ويمكنك أن تنظم الاستوديو الخاص بك بالطريقة التي ترضيك ،» .

— «وعلى فكرة ، أحب أن أخبرك بأن عقلك به نفس القوضى الموجودة
في علية ألوانك . إنك مازلت تعجب بكل رسام أوروبي في حجم طابع
البريد ، على الرغم من أنك مازلت لا تستطيع رؤية ديجا .

— «ديجا . ماذا رسم في حياته حتى يمكننا مقارنته بما رسمه ميليت ؟

— «ميليت ، ذلك الرجل العاطفي ا ذلك ،» .

وانتابت فنسنت نوبة من الجنون عند سماعه هذا التوبيخ ضد ميليت
الذي كان يعتبره أستاذه وأباه الروحي . واندفع كالعاصفة وراء جوجوين
من حجرة إلى حجرة ، ولكن جوجوين استطاع أن يهرب منه . وكان
المنزل صغيرا ، وأخذ فنسنت يصبح مناديا ، ويلقي خطبا طويلة ويلوح
بقبضة يده أمام وجه جوجوين القوي . واستمر في صراهما ومضايقاتهما
المتبادلة خلال الليل المدارى المظني .

وكان كل منهما يحاول كالعفريت أن يضبط نفسه وطبيعته في لحظة
الانفجار ، وتعاركا يوما بعد يوم بقطع الخشب المتوهجة ، وليلة بعد ليلة
بنفوسهما الداخلية المتوقدة . وحتى حينما لا يصل بهما الصراع إلى الشر فقد
كانت مناقشاتهما الودية تصل إلى درجة من الانفجار تطرد النوم عن جفونهما
وحينما كانت تأتي إليهما النقود من ثيو كانا يشفقونها في الحال على الطباق
والجمعة . وكانت الحرارة شديدة جدا لدرجة منعتهما عن تناول طعامهما
فظنا أنهما بتناولهما الجمعة ستستريح أحصاهما ، ولكنها كانت تثيرهما أكثر
فاكثر .

وهبت ريح شمالية قذرة مثل السوط في لحيها . فاحتبست الرجلين في

منزلها ، ولم يكن باستطاعة جوجوين أن يعمل فكان يقضى وقته في إثارة
فنسنت وإقحامه في صراع مستمر فلم ير في حياته شخصا مثل هذا تثار
ثأرته لمجرد مناقشته للأفكار .

وكان فنسنت هو الدمية الوحيدة التي يتلمهى بها جوجوين . وكان
يستغلها إلى أبعد الحدود .

وبعد ليوم الخامس من هبوب الرياح الشمالية قال فنسنت : « من الأفضل
أن تهدى من نفسك » . بعد أن أثار صديقه لدرجة أن أصبحت رياح الشمال
الهائجة تبدو كأنها مجرد نسمة هادئة رقيقة إذا قيست بالعاصفة التي كانت
بداخل المنزل الأصفر .

— « كثيرا ما استحال رجال عديدون ، يا فنسنت بمن كانوا يرفقني
وكانوا معتادين على المناقشة ، إلى مجانين » .

— « هل تهددني ؟ »

— « كلا بل أحذرك . »

— « إذن احتفظ بتحذيراتك لنفسك » .

— « كما تود ، ولكن لا تلنّ لو حدث لك شيء » .

— « أوه ، بول ، بول ، فلنسكف عن هذا الصراع الأبدي ، فأنا
أعرف أنك رسام أفضل مني . وأعلم أنك تستطيع تعليمي الكثير . ولكنني
لا أود منك أن تحتقرني ، هل تسمعي ؟ فلقد اشتغلت كالعبد تسع سنوات
متتالية ، وإني باسم المسيح — عندي شيء لأقوله عن هذا الرسم الملعون
والآن أعترف بهذا — أليس لي الحق ؟ تكلم يا جوجوين » .

— « إنك على حق — يا رئيس فرقة المطافي » .

ونجبت جذوة رياح الشمال ، وجرو الآرايزيون على الخروج ثانية من

منازلهم ، كما ظهرت الشمس العارقة وحلت على آزلز حى ليس لها حدود ، وكان على البوليس أن يحقق فى جرائم القوة وسار الناس هنا وهناك وفى عيونهم ثورة جارفة . ولم تنبعث ضحكة من فم أى إنسان ، بل لم ينبس أحد منهم بكلمة . بل حلت الممارك ومضات السكاكين فى ميدان لامارتين . وانبعثت فى الجو رائحة المصائب . وكانت آزلز تغلى لدرجة أنها لم تعد تحتمل هذا الضغط . وكان وادى الرون على وشك الانفجار إلى ملايين الجزيات .

وخطر على ذهن فنسنت الصحفي الباريسى الخواطر . وأخذ يسأل نفسه .
ياترى ماذا سيحل بنا — زلزال أم ثورة ؟

وعلى الرغم من هذا كله ، فقد استمر فنسنت فى رسم الحقول بدون قبة لأنه كان فى حاجة إلى الحرارة البيضاء المبهرة للبصر لى تسيل بداخله الشهوات الجارحة التى يشعر بها ، فكان عقله بوثقة تحترق وتخرج إلى الوجود لوحة بعد أخرى من تلك اللوحات الحية .

وكان يزداد إيمانه مع بزوغ كل لوحة إلى الوجود ، إن السنوات التسع التى قضاه فى العمل المتواصل قد طرأ عليها تغيرات فى تلك الأسابيع القليلة المثقلة بالأعباء لتجعل منه فى ومضة من ومضات الحياة ، فنانا كاملا ناضجا ، ولقد فاق عمله إلى حد كبير ما قام به فى الصيف الماضى . لأنه لن ينتج مطلقا لوحات تعبر كلية عن جوهر الطبيعة وعن جوهره .

وكان يعمل من الرابعة صباحا حتى يسرق الليل منظر الطبيعة منه . وكان يخلق كل يوم لوحتين أو ثلاثا فى بعض الأحيان . لقد كان يقضى عاما من حياته مع كل لوحة فياضة بمشاعره كان يقطعها من أحشائه إنه لم يكن يهيم طيلة الأيام التى عاشها على الأرض ، بل ما كان يهيم هو ما كان يفعله خلال أيام حياته . وكان يقيس الوقت بما ينتجه من لوحات وليس بأوراق النجوم المتناثرة .

وكان يشعر بأن فنه قد وصل إلى الذروة وأن تلك هي نقطة الذروة في حياته ، إنها اللحظة التي كان يناضل من أجلها طوال تلك السنوات . ولكنه لم يكن يعرف إلى أي حد سيطول مداها ، ولكن الذي كان يعرفه هو أنه يجب أن يرسم لوحاته ، ويزيد من اللوحات .. بل المزيد والمزيد ، إنه يجب أن يبقى على ذروة حياته هذه وعلى هذه النقطة الدقيقة الأبدية ، بل يجب عليه أن يغذيها ويدفعها إلى الأمام حتى يخلق كل تلك اللوحات التي كانت تولد في روحه .

وكأننا يرسمان طوال النهار ، ويتصارعان طوال الليل ، ولا ينامان مطلقا ربا كلان قليلا ويلوثان نفسيهما بالشمس واللون والاستثارة والطباق والجمعة ، ومزقتهما جميع عناصر الحياة واندفاعهما نحو الخلق ، ومزق كل منهما الآخر بثورته وقسوته ، وارتفعت الروح في حلوقهما أهلى وأعلى .

لفحتهما الشمس ، ولطمتهما رياح الشمال الباردة بسوطها . وأخرج اللون أعينهم من حلقاتها ، ونفخت الجمعة معدتهما الفارغة بحمى متوقدة . واهتز البيت الأصفر وارتعش بالعاصفة الشائرة في الليالي المدارية العارمة .

ورسم جوجوين لوحة لفنستنت ، بينما كان يرسم الحياة الساكنة في بعض المحاريث وحملق فنستنت إلى اللوحة ، لأنه فهم بوضوح لأول مرة رأى جوجوين فيه .

فقال له : « إن هذه بالتأكيد صورتي ، ولكن جن جنوني حقا ، .
وحينما حل المساء ذهبنا إلى المقهى ، وطلب فنستنت قدحا من الجمعة المخففة ، وجأة ألقى فنستنت بالكوب وبما يحتوي إلى رأس جوجوين .
فتفاداه جوجوين ، ثم حمل فنستنت بين ذراعيه وحمله عبر ميدان لامارتين .
فوجد فنستنت نفسه في سريريه . فاستسلم للنوم مباشرة .

وفي صباح اليوم التالي قال بهدوء شديد : « عزيزي جوجوين أشعر
بذكرى غامضة بأنني أهتمك بالأمس ، .

فأجابه جوجوين : إننى أعفو عنك بسرور من كل قلبى ولكن أعتقد
أن أحداث الأمس قد تتكرر ثانية ، فلو كان ذلك الكوب أصابنى لسكنت
فقدت أعصابى ولطممتك ، ولهذا أسمح بأن أكتب لأكليك لأخبره بعودتى
— كلا — كلا — يابول . إنك لن تفعل ذلك . أترك البيت الأصفر
وأنا قد صنعت كل شيء من أجلك ؟ .

وثارت العاصفة طوال ساعات النهار ، وناضل فنسنت نضال اليائس
مع جوجوين لىكى يحتفظ به بجواره ، ولكن جوجوين كان يقاوم كل
دفاع عنه . فكان فنسنت يتوسل إليه تارة ويتملقه تارة أخرى أو يلعبه
أو يهدده ، بل كان يبكى أحيانا . ولقد برهن أنه الأقوى فى هذه المعركة ،
لأنه كان يشعر بأن حياته كلها كانت تعتمد على الإبقاء على صديقه داخل
البيت الأصفر . وبحلول الليل كان جوجوين قد أهدأه النعيب ، واستسلم لىكى
يستريح قليلا . وشحنت كل حجرة من البيت الأصفر وتذبذبت بتيار كهربائى ،
فلم يستطع النوم أن يغالب جوجوين ولكن بحلول الفجر استطاع أن
يغفو لغفائة بسيطة .

ولكن إحساسا غريبا أيقظه ثانية فرأى فنسنت يقف بجوار سريره
وهو يحملق إليه فى الظلام .

فسأله بعنف : « ماذا حدث لك يا فنسنت ؟ » .

فعاد فنسنت إلى حجراته ، واستلقى فى سريره ، واستسلم لنوم عميق .
وفى صباح اليوم التالى أيقظ نفس الشعور الغريب جوجوين من نومه .
فرأى فنسنت يقف بجوار سريره وهو يحملق إليه فى الظلام . فقال له :

« فنسنت اذهب إلى فراشك » . فاستدار فنسنت تاركا إياه وانداخت
بينهما مشاجرة حامية حول الشورى عند تناولها عشاءهما .

فصاح جوجوين : « لقد صيبت فيما بعض الألوان حينما لم كن منتبها

إليك، فانفجر فنسنت ضاحكا، وسار نحو الحائط وكتب عليه بالطباشير،
لانى روح مقدسة .

لانى بلا روح .

واكتنفه الهدوء لعدة أيام، وبدأ وكأنه مكتئب ومهموم .
وقلما يتحدث إلى جوجوين، كما أنه لم يقترب حتى من فرجون ألوانه،
علاوة على أنه لم يقرأ شيئا . وكان يجلس في كرسيه ويحلق في الفضاء
الذى أمامه .

وفي أمسية اليوم التالى طلب فنسنت من جوجوين أن يتنزا معا، بينما
كانت ريح الشمال العاتية تهب .

فقال له : « هيا بنا إلى الحديقة ، لانى أود إخبارك بشيء ما ، » .

— « ألا يمكنك إخبارى به هنا ، ونحن مستريحون ؟ »

— « كلا . فلا يمكننى الكلام وأنا جالس . بل يجب أن أتمشى ، » .

— « إذن هيا بنا — مدمت مصمما على هذا ، » .

وسارا في طريق القطارات الذى ينحني على الجانب الأيسر من الطريق،
وكافا مضطرين إلى دفع نفسيهما بين الرياح الشمالية حتى يتقدما، وكانا يبدوان
في اندفاعهما وكأنهما يتصارعان داخل متاهة جلدية سميكه .

وكادت أشجار السنوبر الموجودة في الحديقة أن يطا أغلبها الأرض .

وسأله جوجوين : « ماذلك الذى تريد إخبارى به ؟ » .

وكان عليه أن يصيح بصوت مرتفع في أذن فنسنت لأن الرياح كانت
تختطف كلماته قبل أن يلتقطها فنسنت .

— « بول ، كنت مشغول الفكر في الأيام القليلة الماضية . ولقد طرأ

على بالى فكرة عجيبة ، » .

« ساعنى إذا كنت لا أفهم أفكارك العجيبة ، » .

— « لقد فشلنا جميعا كرسامين . هل تعرف السبب ؟ »

— « ماذا تقول ؟ إننى لا أستطيع أن أسمع كلمة واحدة صبح بكلماتك فى أذنى ، .

— « هل تعرف لماذا أخفقنا جميعا كرسامين ؟ ، .

— « كلا — لماذا ؟ ، .

— « لأننا نرسم بمفردنا ، .

— « ماذا بحق الشيطان ؟ ، .

— « إننا نرسم أشياء ، كما أننا نرسم أشياء سيئة ثم نجعلها سويا فى لوحة واحدة ، .

— « يارئيس فرقة المطافى — إننى منته جدا لما تقول ، .

— « هل تذكر الأخوين ؟ الرسامين الدانمركيين ، وكان أحدهما

يجيد رسم المناظر الطبيعية والآخر يجيد رسم البشر ، فرسموا لوحة سويا ، فرسم أحدهما المنظر الطبيعى ورسم الآخر البشر فأحرزا نجاحا عظيما ، .

— « حسنا ، فلفتنه هذه القصة التى لا تنتهى إلا نهاية غامضة ، .

— « ماذا تقول ؟ إننى لا أستطيع أن أسمعك . اقرب منى ،

— « قلت أكل حديثك . ،

— « بول — إن هذا ما يجب أن نفعله أنا وأنت وسورات وسيزان

ولوتريك وروسو . كلنا يجب أن نعمل سويا فى لوحة واحدة . وهذا سيحدث

شيوعية كاملة فى الرسم . فكل منا سيرسم أفضل ما يمكنه رسمه . فيرسم

سورات الهواء ، وأنت المنظر الطبيعى ، وسيزان الأسطح الخارجية

ولوتريك الأشخاص ، وأنا الشمس والقمر والنجوم ، وبهذا سنكون جميعا

رسما عظيما — فأرايك ؟ ، .

ثم انفجر فى ضحكة عالية متوحشة . ونثرت الرياح سخريته على

وجهه فنصنت مثل رذاذ البحر . ثم صاح ، بعد أن استطاع أن يمسك

أنفاسه « يارئيس فرقة المطافى إن لم تكن هذه أعظم فكرة فى العالم لا لاهتمامها

وأرجو أن تسامحنى حينما تسمع نبأى . ،

ثم تعثر في الطريق وهو ممسك بمعدته ، وقد أفعمه السرور .
بينما وقف ففستت بلا حراك .

وخرجت مجموعة طيور سوداء من السماء ، وانبعثت منها آلاف
في هوائها وصرخاتها . ونزلت كلها على ففستت ، وأخذت تنقره وتعييه
وتطير بين شعره ، وفي أنفه ، وفه ، وداخل أذنه وعينه ، حتى دفنته وسط
سحب كثيفة سوداء من الأجنحة المرفرفة .

فعاد جوجوين إليه وقال له :

— « هيا بنا يا ففستت ، هيا بنا إلى لويس ، فأنا أشعر بحاجةنا إلى
الاحتفال بذكرتك القيمة تلك » .

وتبعه ففستت إلى شارع « دي ريكولت » ، في صمت عميق .

وصعد ففستت إلى الطابق العلوي مع إحدى الفتيات .

وجلست راشيل بجوار ففستت في حجرة القهوة . ثم سأله قائلة :

« أن تأتي مع . . . يافو — رو ؟ » .

— « كلا ، » .

— « لماذا لا ؟ »

— « لأنه ليس معي الفر تكات الجنس » ،

— « إذن هل تعطيني أذنك بدلا منها ؟ »

— « نعم » .

— « وبعد بضع لحظات قليلة عاد جوجوين ثم سار الرجلان إلى
البيت الأصفر ، حيث التهم جوجوين عشاءه ، ثم خرج من الباب الرئيسي
دون أن ينبس بكلمة . ولكن بمجرد ما إن عبر ميدان لامارتين حتى
أحس خلفه خطوة يعرفها تماما ، إنها قصيرة ، ومريضة ، وغير منتظمة
فالتفت خلفه .

فهمجم فنسنت عليه وفي يده موسى مفتوحة .

فوقف جوجوين متجمدا ونظر إلى فنسنت . فوقف فنسنت على بعد خطوتين منه وحماق إلى جوجوين في الظلام ثم أحنى رأسه ، ثم استدار ، وجرى في اتجاه المنزل .

بينما ذهب جوجوين إلى فندق واستأجر حجرة ، ثم أغلق بابها على نفسه واستلقى في فراشه .

دخل فنسنت البيت الأصفر ، ثم صعد السلم الجراء إلى حجراته ثم التقط المرأة التي كان يرسم بها صورته مرات عديدة ثم وضعها على منضدة الزينة وأسندها على الحائط . ثم نظر إلى عينيهِ الجراوين في المرأة . لقد حلت النهاية . لقد انتهت حياته — هذا هو ما قرأه على وجهه ووجد أنه من الأفضل أن يقطع ...

ودفع الموصى ، فشرع بالصلب الحاد على جلد رقبته الذي يشبه الإوزة . وكانت الأصوات تردد قصصا غريبة في أذنيه ولكن الشمس الارلزية عكست حاجزا من الأنوار المسهرة بين عينيهِ وبين المرأة . فقطع أذنه اليماني .

ولم يترك إلا قطعة صغيرة من جلدها . ثم ألقي بالموصى ، وربط رأسه ببعض القوط ، بينما كانت نقاط الدم تسيل على الأرض .

فالتقط أذنه من الحوض ، وغسلها جيدا ، ثم لفها في قطع عديدة من أوراق رسمه ، ثم ربط الحزمة في بعض الجرائد ثم وضع قبعة أمبانية على أربطة رأسه الكشيفة ، ونزل السلم إلى الباب الأمامي ، وعبر ميدان لامارتين وتساق التل وضرب جرس « يزون دي تويرانس ، رقم ١ .

ففتحت له الباب إحدى الخادومات .

— « أرسلني راشيل إلى ،

— « فجاءت إليه راشيل في لحظة واحدة .

- « أوه — هل هو أنت يا فورو — ماذا تريد ؟ »
— « لقد أحضرت لك شيئاً . »
— « من أجل أنا ؟ هدية ؟ »
— « نعم »
— « كم أنت رقيق يافو — روا ، »
— « حافظى عليها باهتمام ، إنها ذكرى منى »
— « وما هى ، »
— « افتحى وسترين . »
— « وفتحت راشيل الأوراق ، ثم نظرت إلى الأذن بخوف شديد ،
ثم وقعت على البلاط وقد فقدت وعيها تماماً .
واستدار فغننت ، ثم نزل التل ، وعبر ميدان لامارتين ثم أغلق خلفه
باب المنزل الأصفر ، ثم استلقى على فراشه .
وحينما عاد جوجوين فى صباح اليوم التالى فى حوالى الساعة السابعة
والنصف وجد الجمهور متجمعاً أمام الباب الأمامى ، بينما كان رولان
يضرب كنفاً بكف فى يأس شديد .
وتساءل رجل كان يلبس قبعة مستديرة :
— « ماذا فعلت فى صديقك ياسيدى ؟ » .
وكانت نعمة صوته حادة قاسية .
— « إننى لا أعرف ، »
— « أوه — بالطبع ... إنك تعرف جيداً ... إنه ميت ، »
واستغرق جوجوين وقتاً طويلاً حتى يستجمع قواه العقلية . بينما
كانت قبضات الجمهور على وشك أن تحطم جسده إرباً بل وتحنقه .
ثم قال متلعثماً . « فلتصعد إلى أعلى الدرج ياسيدى ، ويمكننا أن نفسر
ما يحدث هناك . » وكانت الفوط المبللة ملقاة على أرضية الحجرتين السفليتين ،
كما خضب الدم مدخل السلم الذى يقود إلى حجرة النوم لغننت .

وكان فنسنت ملقى في فراشه ، ملفوفاً في بعض الأوراق كما لو كان
ثوراً مذبوحاً ، وبدأ وكأنه فقد حياته ، ولمسه جوجوين برفق شديد جداً .
لقد كان دافئاً ، وبدأ بالنسبة لجوجوين كما لو أنه قد استعاد كل طاقته ،
وكل روحه .

ثم قال لمفتش البوليس بصوت منخفض جداً : « كن رحيماً يا سيدى
فى إيقاظ ذلك الرجل بعناية شديدة . وإذا ما سأل عنى قل إننى سافرت
إلى باريس ، لأنه قد تقع له مصيبة لو رآنى .

فأرسل مفتش البوليس فى طلب طبيب وسيارة إسعاف ، وحملوا فنسنت
إلى إحدى المستشفيات . بينما كان رولان يجرى لاهثاً بجوار العربة .

* * *

(٨)

كان الطبيب فيلكس رى ، طبيباً شاباً مقيماً بمستشفى آرلز ؛ وكان رجلاً
قصيراً بديناً ذا رأس هشمانى الشكل وشعر أسود مثل العشب ينبثق من قمة
الرأس العثمانى .

وعالج الطبيب جروح فنسنت ثم وضعه فى سريره فى حجرة مثل
السجن أخلت من كل شئ فيها وبعد ذلك أغلق الباب خلفه عند خروجه
منها .

وعند غروب الشمس استيقظ فنسنت بينما كان الطبيب يقيس نبضه ،
فخلق فى السقف ثم فى الجدران المطلية بلون أبيض ، ثم خارج النافذة حيث
السماء الزرقاء المظلمة . وجمال بصره يبطئ فى وجه الطبيب رى — ثم قال
برقة : « هالو ، » .

فأجابه الطبيب رى . « هالو ، »

— « أين أنا ؟ »

— « إنك فى مستشفى آرلز . »

— « أوه ، » .

ومرت ومضة من الألم عبر وجهه . ثم رفع يده إلى حيث كانت أذنه
اليمنى ، فأوقفه الطبيب رى .

— « وقال له : لا ينبغي لك لمسها ، » .

— « نعم ، لأننى تذكرت الآن .. ؟ » .

— « إنه جرح نظيف لطيف يا عزيزى العجوز ، وسيمكنك الوقوف
على قدميك بعد أيام قلائل . »

— « أين صديقى ؟ » .

— « عاد إلى باريس » .

— « .. آه .. هل يمكنني أن أشعل غليونى ؟ »

— « لم يحن الوقت بعد — يا عزيزى العجوز » .

ثم نظف الطبيب رى الجرح وضمده .

ثم قال له :

— « إنها حادثة ليست بذات بال — فعلى أى حال لا يسمع الإنسان

بهذه الكرنبات المعلقة خارج رأسه . فكأنك لم تفقدها . »

— « إنك رقيق جدا يا دكتور . لماذا هذه الحجرة .. خاوية بهذا

الشكل ؟ »

— « لقد أخرجت كل شئ منها لى أحملك » .

— « بمن ؟ »

— « من نفسك » .

— « .. نعم .. إننى أفهم هذا .. » .

— « حسنا ، والآن يجب أن أنرك . وسأرسل المشرقة بعشائك

إليك . وحاول أن ترقد بلا حراك ، لأن فقدانك كثيرا من الدم يجعلك

ضعيفا » .

وحينما استيقظ فنسنت فى صباح اليوم التالى وجد ثيو جالسا بجواره ،

وكان وجهه ثيو باهتا ومصفرا بينما كانت عيناه ممتعتين ، :

فقال فنسنت : « ثيو » ،

فزل ثيو من فوق كرسيه ثم ركع على ركبتيه بجوار السرير ، وأخذ

يد فنسنت بين كفيه واندفع يكي دون خجل أو توقف .

فقال له فنسنت : « ثيو .. دائما .. حينما استيقظ ... وأكون

محتاجا إليك .. أجدهك بجوارى » .

ولم يقو ثيو على الكلام .

— لقد تجشمت مشقة شديدة في سفرك كل هذه المسافة إلى هنا .
ولكن كيف هلت بهذا ؟ .

— « أرسل جوجوين تلغرافا إلى بالامس — فركبت قطار المساء . »

— لقد كان جوجوين مخطئا في تحميلك كل هذه النفقات .

لا بد أنك جلست طوال الليل يا ثيو ، .

— « بالطبع — يافنسنت ، .

ثم مضت فترة صمت بينهما .

— « حدثت الدكتور رى — يافنسنت فقال إنها ضربة شمس . لقد

كنت تعمل في الشمس بدون قبعة أليس كذلك ؟ »

— إذن ما كان عليك يا عزيزى العجوز أن تفعل ذلك . وعليك أن

تلبس قبعتك في المستقبل فكثير من الناس في آرلز تصي بهم ضربة الشمس .

فضطت فنسنت برفق على يديه ، بينما حاول ثيو أن يتلع ريقه .

— « عندى أخبار لك يافنسنت ، ولكنى أعتقد أنه من الأفضل

تأجيلها لأيام قلائل ، .

— « هل هى أخبار لطيفة يا ثيو ؟ »

وحينذاك دخل الدكتور الحجرة .

— « كيف حال المريض اليوم ؟ »

يا دكتور ...

— « هل يمكن لأخى أن يخبرنى ببعض الأخبار الطيبة ؟ ، .

— « أعتقد أنه يمكن هذا . ولكن — انتظر دقيقة واحدة .

دعني أنظر إلى هذه . حسنا إنها على ما يرام - على ما يرام . إنها ستشفى بسرعة الآن ، .

وحينما ترك الطبيب الحجرة توسل فنسنت ليستمع الأخبار .

فقال ثيو : فنسنت .. لقد . إنني .. إنني « قابلت فتاة » .

— « لماذا — يا ثيو ؟ »

— « إنها فتاة دائمة ، جوهانا بانجر أعتقد أنها تشبه أمي إلى حد

كبير ، .

— « هل تحبها يا ثيو ؟ »

— « نعم ، نعم لقد كنت وحيدا يائسا بدونك في باريس يا فنسنت ،

لم يكن الأمر سيئا لهذا الحد قبل مجيئك إلى ولكن بعد أن عشنا سويا لمدة عام .. »

— « لقد كان من الصعب الحياة معي — يا ثيو . وأعتقد أنني أريدك

وقتاً طويلاً ، .

— « أوه — يا فنسنت لو علمت فقط كم من المرات دفعتني الرغبة إلى

دخول الشقة الموجودة بشارع ليبيك وأن أجد حذاءك موضوعاً على

البوفيه ، ولوحاتك المبتلة على فراشك ، .. ولكن يجب ألا نتحدث

في هذا الأمر من هذا .. فيجب أن تستريح ، وسنعيش هنا سوياً .

وظل ثيو في آرلز لمدة يومين . ولم يتركها إلا بعد أن أكد له رى أن

فانسنت سيشفى بسرعة ، وأنه سيهتم بأخيه ليس فقط كريض ولكن أيضاً

كصديق .

وكان يذهب إليه رولان كل صباح حاملاً معه بعض الزهور .

ولكن فنسنت كان يقامى من هذيان طوال الليل ، فاضطر الدكتور

رى إلى وضع بعض الكافور على وسادة ومرتبة فنسنت لكي يقضى على أرقه .

وباتهاء اليوم الرابع حينما رأى الدكتور أن فنسنت قد أصبح فى كامل قواه العقلية فتح باب حجرته وأعاد إليها الأثاث .

فسأله فنسنت : « هل يمكننى أن أقوم وألبس ملابسى يا دكتور ؟ »
— « إذا شعرت بقوة كافية فيمكنك أن تاتى إلى عيادتى بعد أن تستنشق بعض الهواء . »

وكانت مستشفى آرنز تتكون من طابقين مبنيين على شكل رباعى ، وبهما فناء داخلى فى الوسط يمتلى بزهور ذات ألوان فاقعة . كما أن بها بعض نباتات السرجس وبعض الممرات الممتلئة بالجلس . وجال فيها فنسنت متباطئا لعدة دقائق . ثم ذهب إلى عيادة الطبيب بالدور الأرضى .
فسأله الطبيب : « كيف تشعر وأنت واقف على قدميك ؟ » .

— « على ما يرام . »
— « أخبرنى يا فنسنت — لماذا فعلت ذلك ؟ » .
وصمت فنسنت لمدة طويلة . ثم قال : « لى لا أعرف ، » .
— « فمى كنت تفكر حينما فعلت ذلك ؟ » .
— « لافنى ... لم ... أفكر يا دكتور ، » .

وقضى فنسنت الأيام القليلة التالية ليستعيد قواه .
وذا صبحا كان يثرثر مع الدكتور فى حجرته ، التقط موسى من حوض الغسيل ثم فتحها ، .

ثم قال « إنك محتاج إلى خلق ذقنك يا دكتور رى فهل تود أن أحلق لك ؟ » .

فراجع الطبيب إلى الخلف فى أحد الأركان وهو يرفع كفيه أمام وجهه قائلا . كلا كلا ! ضع هذه ، .

— « وليكننى حلاق جيد يا دكتور ، ويمكننى أن أحلق لك حلاقة جيدة . »

— « فنسنت ! ضع هذه الموسيقى » .

فضحك فنسنت ثم قفل الموسيقى وأعادها إلى حوض الغسيل .

— « لا تخف يا صديقي — لقد انتهى الأمر » .

وبانتهاء الأسبوع الثاني سمع الدكتور رى لفنسنت بالرسم . فأرسلوا أحد المشرفين إلى البيت الأصفر لإحضار الحامل ولوحات الخيش . وعمل فنسنت ببطء ، وكان يرسم شيئاً بسيطاً كل يوم . وحينما انتهى من رسم اللوحة أهداها إلى الدكتور ، وقال له :

— « لاني أود أن تحتفظ بهذه اللوحة كذكرى مني — يا دكتور فهذه الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أعبر بها عن اعترافي بجميلك لطيفة قلبك » .

— « هذا لطيف منك يا فنسنت لقد حصل لي الشرف » .

فحمل الدكتور اللوحة إلى المنزل واستغلما في إخفاء شق في الحائط . وظل فنسنت لمدة أسبوعين في المستشفى ، حيث رسم الفناء الداخلي وقد لفحته الشمس . وكان يضع فوق رأسه قبعة عريضة من القش عند عمله . واستنفدت زهور الحديقة أسبوعين كاملين في رسمها .

وقال الدكتور رى وهو يصافح فنسنت عند باب المستشفى الأمامي . « أرجو أن تأتي هنا لزورني كل يوم ، وتذكر ، لا تشرب الجعة ولا تثر نفسك ولا تعمل تحت الشمس بدون قبعة » .

— « أعدك بهذا يا دكتور — وشكرا لك على كل ما فعلته » .

— « سأكتب لأخيك ، أنك أصبحت الآن في كامل صحتك » .

ووجد فنسنت أن صاحب المنزل قد وقع عقد الطرد ، من المنزل ، واستئجار المنزل الأصفر لأحد بائعي الطبايق . ولكن فنسنت كان متعلقاً

جداً بالمنزل الأصفر ، لأنه كان جذره الوحيد في تربة بروفنس ، كما أنه كان قد رسم كل بوصة فيه سواء في داخله أم خارجه . وجعله قابلاً للسكنى وعلى الرغم من إصابته بتلك الحادثة فيه إلا أنه اعتبره منزله الدائم ، وقرر أن يحارب صاحب المنزل حتى النهاية المرة .

وكان يخاف النوم وحيداً في المنزل في أول الأمر لما يصيبه من أرق ، لم يستطع حتى الكافور التغلب عليه . وكان قد أعطاه الدكتور رى بعض البوتاسيوم ليقضى على الهذيان المفرع الذي كان يخيفه . وقد اختفت تلك الأصوات التي كانت تهمس في أذنيه قصصاً عجيبة ولكن لتعود إليه ثانية في أضغاث أحلامه .

وكان ما زال ضعيفاً جداً لدرجة لا تمكنه من الخروج والعمل وعاد الهدوء إلى عقله ولكنه كان يعود يبطئ كما كانت الحياة تعود إلى السريان في دماائه اليوم بعد اليوم . كما تفتحت شهيته وتناول وجبة شبيهة مع رولان في المطعم ، وكان يلزمه الفرحة دون أن يورقه خوف عودة الآلام إليه . وابتدأ العمل بتيقظ في لوحة لزوجته رولان كان لم يذته منها عند وقوع الحادث له

وقد أحب الطريقة التي درج بها الألوان الحمراء من اللون الوردى حتى البرتقالى ، كما ارتفع من اللون الأصفر حتى الليمونى ، مع بعض الألوان الخضراء الفاتحة والداكنة .

وتحسنت صحته ولوحاته يبطئ شديد . لقد كان يعرف في الماضى أنه من الممكن أن تنكسر ساق الإنسان أو ذراعه وبعد ذلك يلتئمان ، ولكن ما أدهشه أن يحدث شرخ في منح الإنسان ثم يلتئم بعد ذلك أيضاً .

وفي أحد الأيام ذهب ليسأل عن صحة راشيل . فقال لها : يا حمامتى لاني
أسف للمضايقات التي سببتها لك .

— « لاني على ما يرام يا فو — رو ويجب ألا تقلق بالك ، ففي هذه
المدينة ، لا يعتبر حدوث مثل هذه الأشياء غير عادي » .

وزاره أصدقاءه وأكدوا له أن كل فرد في بروفس يقاسى من الحمى
أو الهذيان أو الجنون .

كما قال رولان : « إن هذا لا يعتبر غير عادي يا فنسنت . فنحن هنا
في تارتارين كلنا نفوس عقدها التوافه » .

فأجابه فنسنت : « حسنا — حسنا — إن كلامنا يفهم فن الآخر كما
لو أننا أعضاء في نفس الأسرة » .

ومرت أسابيع قلائل ، وأصبح فنسنت الآن قادرا على العمل بالاستوديو
طوال اليوم ، وهجرت عقله أفكار الجنون والموت ، وابتدأ يشعر
بأنه طبيعي .

وأخيراً جرؤ على الخروج من منزله من أجل الرسم ، وكانت الشمس
تشرق بأشعتها حقول القمح الصفراء الرائعة ، ولكن فنسنت لم يستطع
امتصاصها . وكان يتناول طعامه بانتظام وينام بانتظام ، ويتحاشى الاستشارة
والحماس الشديد .

ولكنه حينما كان يشعر بأنه طبيعي كان لا يمكنه الرسم .

فقال له الدكتور رى : « إنك عصبي جداً يا فنسنت ، ولم تكن طبيعياً
 يوماً واحداً في حياتك ، ولكن لا يوجد فنان واحد في حالته الطبيعية ،
لأنه حينما يكون كذلك ، لا يكون فناناً . فالرجال الطبيعيون لا يخلقون شيئاً
فنياً . فهم يأكلون وينامون ، ويقومون بأعمال روتينية ثم يموتون . إنك
شديد الحساسية بالحياة والطبيعة وهذا هو سبب مقدرتك على نقلهما لنا ،

ولكنك إن لم تكن حذرا فستقودك هذه الحساسية الشديدة إلى الدمار .
لأن ضغطها الشديد يحطم كل فنان في الوقت المناسب . .

وعلم قدسنت أنه لكي يصل إلى درجة اللون الأصفر الشديد الذي يسود
لوحاته الآرلزية يجب عليه أن يكون نائرا ومنتظا وناثرا في دقائق قلبه
وحساسا عاطفيا ، وذا أعصاب خشنة .

فلو أنه سمح لنفسه لأن يكون في هذه الحالة فسيمكنه أن يعود ثانية إلى
الرسم بنفس البهاء الذي كان يرسم به من قبل . ولكن ذلك الطريق كان
يقود إلى الدمار .

فكان يتمم لنفسه : . إن الفنان رجل مكرس لنفسه ، فكم ستكون
حماقتي لو ظلمت حيا ولم أستطع أن أرسم بالطريقة التي أريدها .

وكان يسير في الحقول بدون قبعة ، فيمتص بداخله قوة الشمس ،
ويشرب بداخله ألوان السماء المجنونة ، والسكر النارية الصفراء ، والحقول
الخضراء والزهور المتفتحة .

وترك رياح الشمال تفرعه بسوطها ؛ وليل السماء البهيم يختنقه وعباد
الشمس يقدح قريحته إلى حد الانفجار . وكلها استشاطت نائره فقد شهيته
للطعام . وعاش على القهوة والجمعة والطباق . وكان يقضى ليلاته مستلقيا
متيقظاً ، بينما كانت ألوان البلدة القائمة تندفع خلال عينه المخرجة بالجرة .
وحمل حامله أخيراً على ظهره وذهب إلى الحقول .

وعادت إليه قدراته ، كما عاد إليه شعوره بنظم الطبيعة العالمي ، وعادت
إليه قدرته لتمكنه من رسم لوحة كبيرة في ساعات قليلة ، بعد أن يغمرها
بفيض من أشعة الشمس المبهرة المتوهجة . وكان يخلق كل يوم لوحة
جديدة ، كما كان يرى كل يوم تحدياً في حالته المعنوية ، فرسم سبعة وثلاثين
لوحة دون أن يستريح .

و ذات يوم استيقظ من نومه وهو يشعر بالنوم مازال يسرى في جسده ، فلم يتمكن من العمل ، فجلس على كرسى وأخذ يحلق في أحد الجدران ، ولم يتحرك من مكانه طوال اليوم . وعادت الأصوات ثانية إلى أذنيه وأخبرته بأشياء غريبة جدا . وحينما حل الليل اتجه إلى المطعم الرمادى وجلس أمام منضدة صغيرة ، وطلب طبق حساء ، فأحضرت له الخادمة ، وإذا به يسمع صوتاً أجش في أذنيه يحذره .

فألقى بطبق الحساء على الأرض ، فتحطم قطعاً متناثرة . وصاح قائلاً : « إنك تحاولين تسميى ! لقد وضعت سماً في الحساء ! » .

ثم قفز من مكانه وركل المنضدة بقدمه . فهرول بعض الزبائن خارج المطعم ، بينما حلق فيه البعض الآخر وهم فاغرون أفواههم .

فصاح فيهم : « إنكم جميعاً تحاولون تسميى ! إنكم تريدون قتلى ! لقد رأيتم وأنتم تضعون السم في الحساء » .

فأقبل عليه شرطيان وحملاه إلى المستشفى بأعلى التل . وبعد مرور أربع وعشرين ساعة عاد إليه هدوءه . . . وابتدأ في مناقشة الأمر مع الدكتور رى ، وكان يعمل قليلاً كل يوم ثم يتنزه في القرية ، ثم يعود ليتناول عشاءه في المستشفى وينام . وفي بعض الأوقات كانت تعتريه نوبات من الألم العقلي الشديد ، وأحياناً كان يشعر بأنه ستار الوقت والموت الذى لا محالة آت قد فارقه في ومضة عين .

وسمع له الدكتور رى بالرسم ثانية ، فرسم قدسنت خميلة من أشجار الخوخ بالقرب من الطريق ، وجبال الألب خلفها ، كما رسم بستاناً من أشجار الزيتون ذات أوراق فضية ، وتحول الفضة إلى لون أخضر بانعكاس زرقة السماء ، وحولها أرض محروثة برتقالية اللون .

وبعد مضي ثلاثة أسابيع عاد فنسنت إلى المنزل الأصغر ولكن المدينة الآن ، وعلى الأخص ميدان لامارتين ، أصبحت ثائرة ضده . فالأذن المقطوعة والشوربة المسمومة أكثر مما يستطيع تحمله بعقل رزين . فلقد اعتقد الآرلزيون اعتقاداً راسخاً أن الرسم يدفع الرجال إلى الجنون . ولذلك كانوا يحملون في فنسنت حينما يمر عليهم وكانوا يرسلون تعليقاتهم عالية في الهواء ، بل وفي بعض الأحيان كانوا يعبرون الشارع لكي يتحاشون السير بجواره .

ولم يسمح له أى مطعم في المدينة بالدخول من بابه . واجتمع أطفال آرلزامام باب المنزل الأصغر وأخذوا يلعبون لمضايقته . وأخذوا يتصايحون : « فو — رو ا فو — رو — اقطع أذنك الأخرى ، » .

فأقبل فنسنت نوافذ منزله ، ولكن الصيحات وصرخات السخريه كانت تنفذ منها .

— « فو — رو ا فو — رو ا ، » .

— « رجل مجنون ا رجل مجنون ، ا »

وأخذوا يغنون أغنيات قصيرة تحت نوافذه .

كان فو — رو رجلاً مجنوناً .

لأنه قطع أذنه اليمنى .

والآن ان يهمله مهما صحتم .

فالمجنون لا يستطيع أن يسمعكم .

وحاول فنسنت أن يخرج من المنزل لكي يهرب منهم ، ولكن سارت خلفه عبر الشوارع وخلال الحقول مجموعة لطيفة من الأطفال الصغار المغنين الساخرين .

وازداد عددهم يوماً بعد يوم باجتماعهم أمام المنزل الأصفر ، فاضطر
فنسنت إلى حشو أذنه بالقطن ، واستمر في عمله أمام حامل لوحاته في صنع
نسخ ثافية من صورهِ . ولكن كلمات الأطفال كانت تنفذ خلال الشقوق
والجدران ثم تتجمد في عقله .

وازداد الصبية الصغار جرأة ، وتسلقوا مواسير المجارى مثل القردة
الصغار ، وكانوا يجلبون على حافة النوافذ ، ويطيلون النظر في الحجرات
ويصيحون خلف ظهر فنسنت . قائلين : « فو - رو » ، اقطع أذنك
الأخرى ، إننا نريد أذنك الأخرى .

— « فو - رو » هل تحب بعض الحلوى ؟ ولكن حذار إنها مسمومة ،
— « فو - رو » هل تحب الحساء ؟ ولكن حذار — إنها
مسمومة ،

— كان فو - رو رجلاً مجنوناً .

لأنه قطع أذنه اليمنى .

والآن لن يهمة مهما صحتم .

فالمجنون لا يستطيع أن يسمعكم

وقبع الأطفال على حافة النوافذ بينما كان الجمهور يغنى بأسفلهم ، وكانوا
يغنون سويًا بصوت متزايد .

« فو - رو - رو - رو ألق إلينا بأذنك ، .

« فو - رو - رو - رو ألق إلينا بأذنك . . ألق إلينا بأذنك . . ،

فرفع فنسنت حامله ، وكان يجلس في ذلك الوقت ثلاثة صبية صغار
على حافة نافذته وهم يغنون ، فضربهم بحامله فتعثروا فزالين من فوق
الحائط . فزجر الحشد الموجود بأسفل المنزل . بينما وقف فنسنت بجوار
النافذة ليطل عليهم .

وانبعشت من السماء مجموعة من العصافير وآلاف الصيحات والضربات ،
فأظلم ميدان لامارتين ، وتساقطت على فنسنت وأخذت تنقره وتملا
حجرتة أو تدفعه أمامها وهي تظهر بين شعره ، وفي أنفه وفمه وعينه فدفتته
تحت أجنحة كثيفة سوداء مرفرفة . فقفر فنسنت هلى حافة الشباك وصاح
قائلا : —

« ابعدوا عن هنا أيها الأوغاد - ابعدوا - بحق الإله ، اتركونى فى
هدوء... »

« فو - رو - فو - روا ألقى إلينا بأذنك ! ألقى إلينا بأذنك . »

ابعدوا عن هنا - و اتركونى بمفردى - هل تسمعوننى - اتركونى بمفردى ،
وأخذ حوض المياه من فوق منصدته والقاء عليهم . فتحطم على الأحجار
الموجودة ، بالشارع . ثم أخذ يجرى فى ثورة غضبه ويمسك بكل شىء يقع
تحت يده ويلقى به يائسا فى ميدان لامارتين فيتحطم على الفور ، فالتقى
بكراسيه ، وبحامله ومرآته ومنصدته ، وملابس نومه ولوحات عباد الشمس
على أولاد بروفنس . وكان يتحطم مع كل من هذه الأشياء وهضة من أيامه
التي قضاها فى منزله الأصفر ، ومن تضحياته التي ضحى بها من أجل شرائه
قطعة من هذه الأشياء البسيطة التي أراد أن يؤث بها منزل حياته .

وبعد أن أفرغ كل مافى الحجرة وقف بجوار النافذة ، وجميع أعصابه
مرتعشة - ثم سقط على حافة الشباك ، فتعلقت رقبته فى اتجاه الشارع الحجري .

(٩)

وسرعان ما دار التماس بين سكان ميدان لمارتين وقع عليه تسعون رجلا وامرأة .

إلى العمدة تارديو :

نحن الموقعين على هذا بأسفله ، مواطني آرلز ، نعتقد اعتقاداً راسخاً أن فنسنت فان جوخ المقيم بميدان لمارتين رقم ٢ مجنون خطير ، ولا يمكن تركه على هذه الحالة .

ولهذا ندعوك كعمدة لنا إلى حبس ذلك الرجل في حجرة .

وكان الوقت قريباً جداً من إجراء الانتخابات ، ولم يكن العمدة تارديو ليرضى بأن يفقد كل هذه الأصوات .

فأمر معاون الوكيل أن يلقي القبض على فنسنت .

فوجدوا الجنود مستلقياً على الأرض تحت حافة النافذة فحملوه إلى السجن . ثم وضعوه في زنزانه وأغلقوها عليه . ووضعوا حارساً على بابها .

وحينما عاد فنسنت إلى وعيه طلب رؤية الدكتور رى . ولكنهم رفضوا طلبه فطلب ورقة وقلماً لكي يكتب خطاباً لثيو ، ولكنهم رفضوا طلبه أيضاً . وأخيراً استطاع الدكتور رى أن يدخل إليه السجن .

وقال له : « حاول أن تضغط على تدمرك يا فنسنت ، وإلا سيصدرون عليك حكماً بأنك مجنون خطير وتكون هذه نهايتك . علاوة على أن العاطفة الجياشة لن تزيد إلا من حالتك . ولهذا سأكتب لأخيك وسنخرجك من هنا فيما بيننا . »

— « أرجوك يا دكتور لا تدع ثيو يأتى إلى هنا ، لأنه على وشك الزواج ، وهذا سيقلب كل شيء رأساً على عقب . »

— « سأخبره بعدم المجيء ، ولكننى أعتقد أن عندى خطة جميلة من أجلك . »

وبعد ذلك يومين عاد إليه الدكتور رى . وكان الحارس مازال واقفاً أمام الزنزانة .

فقال الدكتور لفنسنت : « أصبح إلى يافنسنت ، لقد رأيتهم وهم يخرجونك من منزلك الأصفر ، بعد أن وضع صاحب المنزل جميع أثاثك على رصيف أحد المقاهى ، وفي نفس الوقت وضع لوحاتك فى حجرة وقفل عليها بالمفتاح ، قائلاً إنه لن يعطيك إياها إلا إذا دفعت الإيجار المتأخر . ، وحل الصمت على فنسنت .

— « وما دمت لا تستطيع الذهاب إلى هناك ، فأعتقد أنه من الأفضل لك أن تحاول تنفيذ خطتى . . فلا أحد يمكنه معرفة كم من المرات ستعاودك هذه النوبات العصبية . . ولكنك لو عشت سالماً هادئاً بين جو محيط لطيف دون أن تشير نفسك ، فقد تكون هذه المرة الأخيرة بالنسبة لك . ولكن — من جهة أخرى — قد تعاودك كل شهر أو شهرين . ولهذا — فن أجل حماية نفسك ، ومن يعيشون حولك . . أعتقد أنه من الأفضل . . أن تذهب إلى . .

— « سراى المجانين . . ؟ »

— « نعم ،

— « إذن فأنت تعتقد أنى . . ؟ »

— « كلا . يا عزيزى فنسنت ، إنك لست كذلك . فيمكنك أن تعرف بنفسك أنك فى كامل قواك العقلية مثل . ولكن هذه النوبات التشنجية مثل أى نوع آخر من الحمى . تجعل الإنسان يفقد عقله . وحينما تحل به نوبة عصبية ترتكب تلقائياً أشياء جنونية ، وهذا هو السبب فى وجودك بإحدى المستشفيات ، حيث يمكن العناية بك . .

— فهمتك الآن .

— « ويوجد مكان لطيف فى سانت ريمى ، على بعد خمسة وعشرين ميلاً من هنا ويسمى : « سانت بول دى موزول ، ويقبلون هناك مرضى بالدرجة الأولى والثانية والثالثة ، وأجر الدرجة الثالثة مائة فرنك شهرياً . وأعتقد أنك

تستطيع الحصول على هذا المبلغ . وكان هذا المكان في الماضي معبداً مهيناً على قاعدة أحد التلال . إنه جميل حقاً — يافنسنت . وهادى — هادى — جداً . وسيكون بجوارك طبيب لاستشارته وعمرضات للعناية بك كما أن الطعام سيكون بسيطاً ومفيداً ، كما سيتمكنك استعادة صحتك .

— « وهل سيسمحون لي بالرسم ؟ »

— « بالطبع — يا عزيزى العجوز — إنهم سيسمحون لك بكل ما تريده . . مادام ذلك لا يخلق بك ضرراً . وستكون بالنسبة لك كما لو أنها مستشفى عظيم بناؤها ، وإذا قضيت فيها عاماً كاملاً ، ستشفى تماماً . »
ولكن كيف سأخرج من هذا السجن ؟

— لقد تحدثت مع معاون البوليس ، فوافق على ذهابك إلى « سانت بول دي موزول » ، على شرط أن آخذك بنفسى إلى هناك .
— وهل هو مكان جميل حقاً ؟

— أوه — بل أخاذ — يافنسنت ، وستجد أشياء كثيرة لرسمها .
— ياله من مكان لطيف . ولكن مائة فرنك شهرياً تعتبر مبلغاً كبيراً ولكن ربما هذا هو ما أحταجه لمدة عام — حتى تستريح أعصابى .
— بالطبع أنت محتاج لهذا . ولقد كتبت فعلاً لآخيك أخبره بهذا . وقد اقترحت عليه أنك بحالتك الصحية الراهنة سيكون من الجنون أن ننقلك إلى مكان بعيد جداً عن هنا ، وعلى الأخص باريس . وقد أخبرته أنى أعتقد أن سانت بول أفضل مكان بالنسبة لك .

— حسناً — إذا وافق ثيو... فسأفعل أى شيء ، مادمت لا أزيد عليه من متاعبه .

— إننى أتوقع إجابته فى أى لحظة ، وسأحضر إليك بمجرد حصولى عليها .

ولم يكن امام ثيو أى حل بديل . فوافق ، وأرسل النقود اللازمة

لسداد ديون أخيه ، واصطحب الدكتور رى فنسنت فى عربة إلى المحطة ليستقلا القطار إلى تاراسكون . وفى تاراسكون سارا فى طريق قصير تمتلئ بالأشجار ينثى فى شكل واد أخضر خصب إلى سانت ريمى .

وكانت تقع على ارتفاع كيلومترين من أحد التلال المنحدرة خلال بلدة سانت بول دى موزول القائمة .

واستأجر فنسنت والدكتور رى عربة ، وكان الطريق يقودهم مباشرة إلى حافة جبال سوداء قاحلة ، ورأى فنسنت على مسافة قريبة جدران المعبد الرمادية مثل العش على تلك القاعدة .

ووقفت العربة . ونزل منها فنسنت والدكتور رى . وشاهدوا على الجانب الأيمن من الطريق مكانا فسيحا قطعت منه الأشجار وأقيم به « معبد فستا » و « قوس النصر » .

— لقد كان هذا المكان مكان استيطان هام للرومان . وكان هذا النهر الذى تراه أسفلك يملا كل هذا الوادى فيما مضى . فلقد كان يجرى فى المكان الذى نقف فيه الآن ، ولكن بعد أن تراجع النهر زحفت المدينة إلى أسفل التل . والآن لا يوجد شيء سوى هذه الآثار القديمة والمعبد . — مثير للغاية .

— هيا بنا يا فنسنت — فالدكتور بايرون فى انتظارنا .

وتركا الطريق ثم سارا خلال بحر من أشجار الصنوبر ، حتى وصلا إلى بوابة المعبد .

فجذب الدكتور رى مقبضا حديديا أحدث صوتا عاليا . وبعد دقائق قليلة فتح الباب وظهر منه الدكتور بايرون .

— فقال الدكتور رى : كيف حالك يا دكتور بايرون ؟ لقد أحضرت صديقى فنسنت فان جوخ ، كما اتفقنا بالمخططات ، وإبنى متأكدا أنك ستهم جدا به .

— بالطبع ، يا دكتور رى ، إننا سنهتم به .

— إنك ستساعحنى لو عدت مسرعاً يادكتور ، لأن الوقت قد يكاد
يسعفنى للحاق بالقطار العائد من تاراسكون .

— بالطبع يادكتور رى — إبنى أفهم ماتعنيه .
فقال الدكتور رى إلى اللقاء يافنسنت — كن سعيداً وستتبعسن
صحتك ، وسأحضر إلى هنا لزيارتك كلما أمكننى ذلك . وإبنى أتوقع أن
أجدك رجلاً مصححاً كاملاً بنهاية النصف الأول من العام .
— أشكرك يادكتور ، إنك عطوف جداً — إلى اللقاء .
— إلى اللقاء يافنسنت .

واستدار الدكتور وسار عبر أشجار الصنوبر .
وقال الدكتور بايرون وهو يتخذ جانباً . هل تسمح بالدخول
يافنسنت ؟

فسار فنسنت أمام الدكتور بايرون .
ثم أغلق باب مستشفى المجازين خلفه .

الكتاب السابع

سنة ربي

(١)

يشبه العنبر الذى ينام فيه المرضى حجرة من الدرجة الثالثة فى قرية حية - ميتة . ويرتدى المجانين دائماً قبعاتهم ، ونظاراتهم ، ويمسكون بعصيتهم ، ويلبسون معاطفهم كما لو أنهم على وشك الخروج إلى مكان ما .

وقادت الأخت « ديزشانييل » فنسنت عبر الحجرة الشبمية بالممر وأشارت له إلى سرير فارغ . ثم قالت له :

« إنك ستنام هنا ياسيدى ، أما فى أثناء الليل فيمكنك أن تسدل الستار حتى تشعر بالراحة . ويرغب الدكتور بايرون فى رؤيتك بعيادته بعد أن تستقر » .

ولم يلاحظ الأحد عشر رجلاً الذين كانوا يلتفون حول موقد الغاز المطفأ بجىء فنسنت أو التعليق . أما الأخت ديزشانييل فقد سارت خارجة من الحجرة الطويلة الضيقة ، بينما كان يمتد خلفها مئزرها الأبيض المنشىء ، وقبعتهما السوداء ، وطرحتهما السوداء .

وألقى فنسنت بحقيبة سفره ونظر حوله . فوجد أن جانبي العنبر يختطهما بعض الأسيرة التى تنحدر إلى أسفل بزاوية خمس درجات ، وكان كل واحد من هذه الأسيرة يحوطه إطار معلق عليه بعض الستائر لها لون «الكريمة» .

أما السقف فكانت تضئته أنوار باهتة ، والجدران كانت مطلية بلون أبيض ، وكان فى وسط الحجرة موقد غاز يخرج من جانبه الأيسر أنبوبة معدنية الشكل . وكان لا يوجد بالحجرة إلا مصباح واحد مدلى من سقف الحجرة فوق الموقد مباشرة .

وتعجب فنسنت من هدوء الرجال إلى هذا الحد ، وعدم تبادلهم

الحديث وعدم قراءتهم أو لعبهم ، وانكأهم على عصيهم وهم ينظرون إلى الموقد .

وكان معلقا بأعلى فراشه صندوق بالحائط ، فضل فنسنت الاحتفاظ بممتلكاته الشخصية داخل حقيبة سفره . ولكنه وضع في ذلك الصندوق غليونه ، ولقافة من الطباقي ، وكتابا ، ثم دفع بحقيبة سفره تحت السرير وسار خارجا إلى الحديقة . ومر في طريقه على حجرات مظلمة معتمة مقفلة جيدا محرم الدخول فيها .

وكان الفناء الداخلى مهجورا تماما ، وكان ينمو فيه أشجار صنوبر كبيرة ينمو بأسفلها حشائش طويلة غير مشذبة وبعض الأعشاب المتناثرة . أما الجدران فقد أحاطت فيما بينها مربعا من ضوء الشمس الثابت الذى لا يتحرك .

واتجه فنسنت إلى الناحية اليسرى وقرع باب المنزل الخصوصى الذى يقيم فيه الدكتور بايرون هو وعائلته .

وقد كان الدكتور بايرون طبيب البحرية فى مرسيليا بعد أن كان طبيبا للعيون ولكنه أصيب بنوبة حادة من مرض النقرس فبحث عن «مصلحة» فى بلدة هادئة . . .

وقال الدكتور لفنسنت وهو ممسك بكلا يديه أحده طرفى المنضدة : « انظر يا فنسنت ، لقد كنت فى الماضى أعتنى بصحة الجسد ، أما الآن فأعتنى بصحة الروح ، إنها نفس الحرفة .

— « إنك مررت بتجارب كثيرة فى الأمراض العصبية يا دكتور فهل يمكنك أن تفسر لى سبب قطعى أذننى ؟ » .

— « هذه الحالة تكاد تكون طبيعية مع مرض الصرع يا فنسنت فقد

مرت على حالتين من هذا القليل ، حيث تصبح الأعصاب السمعية شديدة فيعتقد المريض أنه يستطيع إيقاف هذيانه بقطعه أذنه .

«... أوه... لقد فهمت . وما هو العلاج الذى يجب أن أتناوله...؟»

— « علاج ؟ حسنا ... آه ... يجب عليك أن تستحم مرتين أسبوعيا في حمام ساخن لأننى مصمم على هذا على أن تمسك في الحمام لمدة ساعتين . إنهما سيمدثان من « أعصابك » .

— « وأى شيء آخر يمكننى فعله يادكتور ؟ » .

— « يجب عليك أن تظل في هدوء تام . فلا تثر نفسك ، ولا تعمل شيئا ، ولا تقرأ ، ولا تناقش ، ولا تقلق بالك بأى شيء .

— « أعلم ... أننى ضعيف جدا لدرجة لا يمكننى من العمل . »

— « وإذا لم تكن ترغب المشاركة في حياة سانت بول الدينية فسأطلب من الأخوات عدم الإصرار على هذا . وإذا ما احتجت لأى شيء فتعال إلى » .

— « أشكرك يادكتور » .

— « وتناول العشاء فى الساعة الخامسة بعد سماع دق الجرس ، وحاول أن تكيف نفسك داخل إطار المدرسة بأسرع مايمكنك يا فتنت ، فإن ذلك سيجعل من شفائك » .

وسار فتنت متعثراً خلال الحديقة الخاوية ، ثم عبر الحاجز الساقط عند مدخل مبنى الدرجة الثالثة ، ثم مر على صف من الحجرات الصغيرة المظلمة المبهجورة . وجلس على سريره الموضوع فى العنبر . وكان مرافقه مازالوا يجلسون حول الموقد فى هدوء تام ، وبعد مضي بعض الوقت سمع ضوضاء منبعثة من حجرة أخرى . فقام الأحد عشر رجلا من مكانهم واندفعوا كالماصف خارج العنبر وعلى وجوههم علامة إصرار وتصميم .

وكانت الحجرة التي يتناولون طعامهم فيها عبارة عن أرضية طينية بلا نوافذ ولم يكن بها سوى منضدة خشبية طويلة خشنة صفت حولها أرائك . وقدمت الأخوات الطعام ، وكان طعامه مائعا كما هو الحال .

فقدمن في أول الأمر بعض الحساء والعيش الأسود .

ونسائر الدجاج الموضوعة بالحساء ، جعلت فنسنت يحن إلى مطاعم باريس . وبعد ذلك قدمن طبقا من الفاصوليا المبرودة مع الفول والعدس . فأكل رفاقه الطعام بكل ما أرتوا من قوة حتى إنهم كانوا يكتسرون فتات الخبز الأسود للساقط على المائدة ويجمعونه في أكفهم ثم يلعقونه بألسنتهم .

وبعد أن انتهى العشاء . عاد الرجال إلى كراسيهم المخصصة لهم حول الموقد ، حيث هضموا طعامهم تحت أعظم قدر من التركيز . وبعد أن هضموا العشاء قاموا من مكانهم الواحد تلو الآخر ، وخلعوا ملابسهم ثم أسدلوا الستائر واستسلموا للنوم . وحتى تلك اللحظة لم يسمع فنسنت أى صوت لهم .

وكانت الشمس على وشك الغروب . ووقف فنسنت بالقرب من النافذة وأخذ يطل على الوادى الأخضر - فرأى سماء سابعة ذات لون ليونى باهت ، وتراحت تحتها أشجار الصنوبر في أشكال مختلفة ذات لون أسود فاحم . ولكن هذا المنظر لم يحرك مشاعر فنسنت ، بل لم يحرك فيه مجرد الرغبة في ريمه .

وأخذ يطل من النافذة حتى نفذ غسق بروفنسال خلال السماء الليمونية وامتص لونها ولم يأت أحد إلى العنبر ليضيء نوره . ولم يكن أمامه شيء يفعله في هذا الظلام إلا أن يفكر في حياته .

وخلع فنسنت ملابسها واستلقى في فراشه . ورقد فأنحا عينيه ومخلقا

في أشعة السقف المأدبة . وسقطت به زاوية السرير إلى القاعدة . فتذكر أنه كان قد أحضر معه كتاب ديلا كروا فأخذ يبحث عنه في صندوقه وبعد أن وجدته أمسك بالغطاء الجلدي وضمه إلى قلبه في الظلام . إنه لم يكن ينتمى إلى هؤلاء المجانين الذين أحاطوا به بل كان ينتمى إلى السيد العظيم الذي سرت كلماته الحكمة والمهذبة عبر الحواجز الجامدة حيث استقرت في قلبه المتألم .

وبعد مرور بعض الوقت استغرق في النوم . ولكن أيقظه ثانية أنين خافت انبعث من الفراش المجاور له . وارتفعت هذه الأناث أكثر وأكثر حتى انقلبت إلى صرخات وفيض من الكلمات الشائنة .

— « اغرب عن وجهي ! كف عن متابعتي ! لماذا تتابعني ؟ إنني لم أقتله ! وإن يمكنك تغفيلي . إنني أعرف من أنت . إنك البوليس السري ! حسنا ، ابحث عني لو أردت ذلك ! إنني لم أسرق تلك النقود ! كما أنه قتل نفسه بيديه يوم الأربعاء ! اغرب عني ! بحق الإله اتركني بمفردي ! » .

فقفز فنسنت من مكانه وجذب الستارة جانبا ، فرأى شابا أشقر الشعر يناهز من العمر الثالثة والعشرين ، وأخذ يشق سترة الليل بأسنانه . وبمجرد ما إن رأى فنسنت حتى قفز على قدمه وأمسك بكفيه ورفعهما أمامه بهذيان محرم .

— « ياسيد مونيت — سولي لا تأخذني بعيدا ! إنني لم أفعلمها بنفسى سأقول لك الحق ! إنني لست سودوانيا ! بل محاميا ! وسأقوم بجميع قضاياك ياسيد مونيت سولي ولكن لا تاق القبض على ! فلم يكن من المستطاع أن أقتله يوم الأربعاء الماضي ! والنقود ليست معي ! انظر ! إنها ليست هنا . »

ومزق الأغطية التي كانت عليه وأخذ ينبش يديه الفراش في نوبة عصبية وهذيان ، وهو يصيح ، طوال الوقت منذ بدأ بالبوليس السرى وبالتهامات الكاذبة ضده . ولم يعرف فنسنت ما يجب عليه أن يفعله . كما أن جميع الرفاق الآخرين كانوا يغطون في النوم .

وهرع فنسنت إلى سرير مجاور وجذب ستارته جانبا وأخذ يهرز النائم فيه . ففتح النائم فيه عينيه وأخذ يحمق بحماسة في فنسنت .

فقال له فنسنت : استيقظ وساعدنى على تهدئته فأخاف أن يلحق ضرراً بنفسه .

ولكن الرجل الذى كان فى الفراش أخذ يزد فى الجانب الأيمن من فمه . ثم خرج من فمه فيض من الأصوات المشوشة غير المفهومة . فصاح فنسنت قائلاً : « أسرع لأنه يحتاج لسكيناً لتهدئته » .

وحينئذ شعر بكف على كتفه . فلف بسرعة حول نفسه ، فوجد رجلاً عجوزاً واقفاً خلفه .

فقال له الرجل : « لا فائدة من إجماد نفسك مع هذا الرجل ، فهو عبيط ، ولم ينبس بكلمة واحدة منذ مجيئه إلى هنا . هيا بنا — ولنهدى من روع هذا الشاب » .

وكان الشاب الأشقر قد حفر حفرة فى الحاشية بأظافره ثم انثنى على ركبتيه أمامها ، وأخذ ينتزع منها القش والحشو ، ولكنه حينما رأى فنسنت ثانية ، أخذ يردد بصوت مرتفع بعض العبارات القانونية . وأخذ يضرب بكتأيديه على صدر فنسنت ، وهو يقول :

— « نعم ، نعم ، أنا قتلته . أنا الذى قتلته . ولكن لم يكن بسبب ...

لأننى لم أفعل ذلك ياسيد موزيت سولى . لم أفعله يوم الأربعاء الماضى . لقد كان ذلك من أجل نقوده انظر ! ها هى معى ، لقد خبأتها فى الحاشية ! سأحضرها لك ! ولكن من البوليس السرى بالكف عن متابعتى ! وبهذا

يمكننى أن أذهب حراً حتى ولو قتلته ! وسأقدم لك بعض الحالات لأبرهن لك ... هنا ! سأخرجه لك من الحاشية . .

وقال الرجل العجوز لفنسنت : « خذ يده الأخرى ، .

وأمسك بالشاب وثبته على الحاشية ، ولكن هذيانه أخذ ينبعث مايزيد على ساعة . ولكن قواه غارت أخيراً وضعفت كلماته حتى أصبحت متممة محبوسة ثم انهار كلية في بحر من نوم محموم . واقترب الرجل العجوز من فنسنت ، وقال له :

« كان هذا الولد يدرس من أجل البار ، فأجهد عقله ، ويصاب بهذه النوبات كل عشرة أيام ، واسكنه لا يحيق ضرراً بأحد . وأرجو لك ليلة سعيدة ياسيدي ! »

وعاد الرجل العجوز إلى فراشه واستغرق في النوم في الحال . وعاد فنسنت مرة أخرى إلى النافذة التي تطل على الوادي . وكان الوقت مازال به متسع قبل الشروق ، ولم يكن يرى شيئاً في السماء سوى نجمة الصباح .

وتذكر رسم دوجني لنجم الصباح الذي يعبر عن الهدوء الشامل والمظلمة التي تلف العالم بجناحيها ... ويعبر عن شعور الكمد الذي يمتليء به قلب الفرد الذي يقف تحته ويمتلئ فيه .

(٢)

وفي صباح اليوم التالي خرج الرجال إلى الحديقة بعد تناولهم طعام الإفطار . ويمكن أن يرى الإنسان حافات التلال المنعزلة القاحلة ، بعد الحائط البعيد ، ولقد هجرها الناس منذ أن عمرها الرومانيون لأول مرة . وأخذ يراقب فنسنت رفاقه وهم يلعبون بسلاطينهم باهتمام مصطنع . فجلس على أريكه من الحجر وأخذ يحملق في الأشجار السكيفة التي غطاها نبات العليق ، ثم في الأرض المنقطعة بأزهار الأشجار . ومرت في تلك اللحظة الراهبات اللاتي يؤمن بمذهب سانت جوزيف دي أوينيلس ، في طريقهن إلى الكنيسة الرومانية القديمة وكن يشبهن الفئران بأرديتهن البيضاء والسوداء وعيونهن الغائرة في رؤوسهن ، ويسبحن بمسبحاتهن ويتمتنن بصلوات الصباح .

وبعد مضي ساعة تقريباً عاد للرجال إلى عنبرهم الرطب وبأيديهم سلاطينهم الصامتة . ثم التفوا حول الموقد المنطفيء . وقد دهش فنسنت لصمتهم الرهيب ، ولم يكن في إمكانه أن يفهم لماذا لا يقرأ هؤلاء للناس شيئاً حتى ولو جريدة قديمة .

وحينما أصبح من المستحيل عليه أن يتحمل الحال أكثر من ذلك عاد ثانية إلى الحديقة وأخذ يتجول فيها . فحتى شمس سانت بول بدت وكأنها تختضر .

وكانت أبنية المعبد القديم قد أنشئت على شكل مربع تقليدي ، ففي شمالها أقيم عنبر الدرجة الثالثة ، وفي شرقها أقيم منزل الدكتور بايرون والكنيسة ودير من طراز القرن العاشر ، وفي جنوبها جناح مرضى الدرجة الأولى والثانية ، وفي غربها رواق المجانين الخطرين ، وحائط قديم من اللبن وكان المخرج الوحيد للمعبد هو الباب المقفل الموحد . وكان ارتفاع جدران حائطه اثنتى عشرة قدماً ، وكانت تتميز بأنها ملساء وبلا تدرج .

وعاد فنسنت إلى أريكه حجرية بالقرب من أجمة زهور برية وجلس عليها . وحاول أن يفهم نفسه ويوضح لها سبب مجيئه إلى سانت بول

ولكن تملكته امتعاضة وخوف مروع حرماه من التفكير ، ووجد أن الأمل والرغبة قد تلاشيا من قلبه .

وتعثر في مشيته واتجه إلى مكان إقامته ، وإذا به يسمع نباح كلب غريب في اللحظة التي وضع فيها قدمه على مدخل المبنى . وقبل أن يصل إلى باب العنبر تغير الصوت من صياح كلب إلى عواء ذئب .

فسار فنسنت على طول العنبر ، فرأى الرجل العجوز الذي رآه في الليلة الماضية .

يجلس في ركن قصي من العنبر ووجهه متجه إلى الحائط . وكان وجه الرجل مرفوعا إلى السقف ، وهو يعوى وينبغ بكلم ما أوتيت ربتاه من قوة ، وعلى وجهه نظرة حيوانية . ثم خبا عواء الذئب ليحل محله نداء حيوان في وسط الأدغال ، فامتلات الحجرة بصوته الحزين .

وسأل فنسنت نفسه : « ياترى أى نوع من الحظائر سجننت فيه ؟ » .

ولكن الرجال الملتفين حول الموقد لم يعيروهم انتباهها بينما ارتفعت صيحات الحيوان الرابض بجوار الحائط إلى صوت ملىء باليأس .

فقال فنسنت بصوت مرتفع : « إننى يجب أن أفعل شيئا من أجله . »

ولكن الشباب الأشقر منعه من ذلك وقال له : « من الأفضل أن تتركه بمفرده ، لأنك لو تحدثت إليه سينقلب إلى وحش ناثر ، ولكن لو تركته سيمسكك بعد ساعات قلائل ، » .

وعلى الرغم من أن جميع جدران المعبد كانت سميكة إلا أن فنسنت كان يسمع للصرخات المتغيرة التي انبعثت من المتألم طوال فترة الغداء ، ثم انقطعت هذه الصرخات وذابت في بحر من الهدوء . ثم قضى عصر ذلك اليوم في مكان قصي من الحديقة ، محاولا الهرب ، من الصيحات العصية .

وفي تلك الليلة ، بينما كانوا يتناولون عشاءهم ، قام شاب كان قد أصيب جانبه الأيسر بشلل ، وانتصب على قدميه وأمسك سكيننا ووجهها إلى قلبه بيده اليمنى .

وصاح قائلا : « لقد حان الوقت ، وسأقتل نفسي . »
فقام الرجل الذى كان يجلس إلى جانبه الأيمن ، وأمسك يده المشلولة
بإعياه .

وقال له « لا تقتل نفسك اليوم ياريموند — فالיום هو يوم الأحد .
— نعم — نعم اليوم ! لأننى لا أريد الحياة ! بل أرفض أن أعيش !
اترك يدي !

لأننى أريد أن أقتل نفسي !

— « غدا - ياريموند — غدا — فالיום ليس اليوم المناسب . »

— « دع يدي ، فأنا أريد أن أضع تلك السكين فى صدرى ! لأننى
أقولها لك بصراحة لأننى يجب أن أقتل نفسي . »

— « أعرف ذلك — أعرفه ، ولكن ليس الآن . »

ثم أخذ الرجل السكين من يد ريموند ثم قاده إلى العنبر وهو يبكى فى
نوبة من الضعف .

واستدار جهة الرجل الذى يجلس بجواره الذى كانت ترقب عيناه
الحراوان أصابعه المرتعشة وهى تحاول أن تحمل الحساء إلى فمه .

ثم سأله : « ماهى حكاية ذلك الرجل ؟ »

نخفض المصاب بالزهرى ملعقته قائلا : « لم يمض يوم واحد من أيام
السنة دون أن يحاول ريموند أن ينتحر فيه ... »

فسأله فنسنت : « ولكن لماذا يحاول ذلك هناك بالذات ؟ ولماذا
لا يسرق السكين ويقتل نفسه حينها يكون الجميع نياما ؟ »

— « ربما لأنه لا يرغب فى الموت ياسيدى ؟ »

وفى صباح اليوم التالى ، كان فنسنت يراقبهم وهم يلعبون
بسلاطينهم ، وإذا به يجد أحدهم يسقط فجأة على الأرض وتنتابه نوبة
تشنجية شديدة .

فصاح أحدهم قائلا : « أسرعوا ، فهذه نوبته العصبية » .

— « على ذراعيه وساقيه » .

وأمسك أربعة منهم بذراعيه وساقيه ، ولكن مريض الصرع كان
وكان به قوة اثني عشر رجلا ، وأخذ يبحث الشاب الأشقر في جيبه
وأخرج منه ملعقة ودسها بين أسنان الرجل الممدود على الأرض .

وصاح مناديا على فنسنت : « أقبل هنا وأمسك برأسه » ..

ومر المريض بالصرع بنوبات متتالية من التشنجات ، كانت تزداد
حدثها المرة تلو المرة وكانت عيناه تدوران في تجاويهما ، وأزبد وأرغى
فطغح رغاؤه على جانبي فمه .

وصاح فنسنت غاضبا : « لماذا تدس هذه الملعقة في فمه ؟ »

— « حتى لا يعض لسانه » .

وبعد مضي نصف ساعة تقريبا انهار الرجل المرتجف في إغماء كاملة .
فحمله فنسنت بمساعدة اثنين آخرين إلى فراشه . وكان هذا نهاية للحادثة ،
ولم يذكرها أحد مرة أخرى .

وبانتهاء الأسبوعين الأولين من إقامة فنسنت بالمصحة شاهد جميع
نوبات الجنون التي تعترى الأحد عشر مريضا كلا على حدة : فرأى
المجنون الصائح الذي يمزق ملابسه ويخلعها بعيدا عن جسده ، ويحطم كل
شيء يقع عليه بصره ، وشاهد الرجل الذي يعوى مثل الحيوانات ، وشاهد
المريضين المصابين بالزهرى ، والمسن الذي يريد أن ينتحر ، والمشلولين
الذين يعانون من شدة الغضب والسرور . والمريض بنوبة عصبية ، والمجنون
بالأوعية الليمفاوية والذي يحن إلى القتل ، والشاب الأشقر الذي كان
يلتبعه البوليس السرى .

ولم يمض يوم واحد دون أن ينتاب أحدهم نوبة جنون ، ولم يمض يوم
واحد دون أن يذهب فنسنت ليهدئ من روع مجنون . فلقد أصبح
مرضى الدرجة الثالثة أطباء وعرضى بعضهم البعض ، ولم يكن يزورهم بايرون

إلا مرة واحدة كل أسبوع ، ولم يكن يهتم الحراس إلا بمرضى الدرجة الأولى والثانية فقط . بينما كان يجلس مرضى الدرجة الثالثة متقاربين جداً ، يساعد بعضهم بعضاً في ساعات الألم متجهدين بصبر جميل لأن كلا منهم كان يعرف أن دوره سيأتي ثانية ، وفي وقت قريب ، وأنه سيحتاج إلى مساعدة أصدقائه وقوة احتمالهم .

لقد كانت أخوة في الجنون .

وكان فنسنت مسروراً لمجيئه إلى هذا المكان ، لأنه بمشاهدته حقيقة حياة المجانين الحقيقيين ذهب عنه كابوس الخوف والذعر من الجنون . ورويدا أصبح يعتبر الجنون مثل أى مرض آخر . وبحلول الأسبوع الثالث وجد أن المجانين الذين معه لا يخيفون أكثر من مرضى السل أو السرطان .

وكان يجلس دائماً مع العبيط ويتبادل معه الحديث . وكان العبيط يجاوبه دائماً ، بأصوات غير متناسقة ، ولكن كان يشعر فنسنت أن ذلك الشخص يفهم ما يقول ، يشعر بالسرور لمقدرته على الكلام . ولم تكن الراهبات يتحدثن مع الرجال إلا إذا وجدن ذلك ضرورياً . وكان حظ فنسنت في الحديث المعقول يقتصر على الدقائق الخمس التى كان يتبادل فيها الحديث مع الدكتور بايرون .

وقال للدكتور بايرون : « قل لى يادكتور ، لماذا لا يتحدث الرجال بعضهم مع بعض ؟ فيبدو على بعضهم الذكاء حينما تتحسن حالتهم .

— « إنهم لا يستطيعون الكلام يا فنسنت لأنهم فى اللحظة التى يبتدون فيها الكلام يتناثشون فتشور ثائرتهم ، وتنتسابهم النوبات ، ولهذا تعلموا أن الطريقة الوحيدة التى تمكنهم من الحياة هى أن يظلوا صامتين كلية ،

— «ولكن هذا يعنى موتهم ، أليس كذلك ؟»

فهمز بايرون كتفيه وقال له : «إن هذه يا عزيزى فنسنت مسألة رأى خاص . .»

— «ولكن لماذا لا يقرءون على الأقل . فأنا أعتقد أن الكتب ..»

— «إن القراءة يا فنسنت تفتح أوعية عقولهم وأول شيء نعرفه بعد هذا هو إصابتهم بنوبات حادة . كلا يا صديقى ، فيجب أن يعيشوا فى عالمهم المقفل ، ولسنا فى حاجة إلى الشعور بالأسف تجاههم . ألا تتذكر ما قاله درايدن ؟»

« من المؤكد أن هناك لذة فى أن يكون الإنسان مجنوناً ولا يشعر بهذه اللذة إلا المجانين . »

ومر شهر على مجيئ فنسنت ، ولم يفكر فنسنت مطلقاً فى أن يذهب إلى مكان آخر ، ولم يلاحظ على الآخرين أية رغبة فى الخروج من ذلك المكان . فعلم أن هذه الحالة قد حدثت نتيجة لشعورهم بتعطيم حياتهم إذا واجهوا الحياة الخارجية .

وانتشرت فى العنبر الرائحة الكريهة المنبعثة من أجساد الرجال المنغرة

وتمالك فنسنت نفسه وجمع شتات روحه بكل ما أوتى من قوة حتى ذلك اليوم الذى تعود فيه الرغبة والقوة للرسم . أما رفاقه المرضى فقد تهرعت حياتهم فى الكسل وأصبحوا لا يفكرون إلا فى الوجبات الثلاثة التى يتناولونها يومياً . ورفض فنسنت أن يأكل من الطعام البائت أو الحامض حتى يعد نفسه لذلك اليوم . وكان يبتلع فقط بعض العيش الأسود والحساء ، كما أرسل إليه ثيو مجلداً بكتابات شكسبير ، فقرأ «ريتشارد الثانى» ، «وهزى الرابع» ، «وهزى الخامس» ، فأرسل إشعاع عقله إلى أيام وأماكن أخرى .

وحاربُ بشجاعة حتى يمنع الحزن من أن يتجمع في قلبه مثلاً يتجمع الماء في وسط مستنقع .

وكان ثيو قد تزوج في ذلك الوقت ، وكان يرسل هو وزوجته جوهانا خطابات إلى فنسنت وكان ثيو يعاني من ضعف في صحته ، فانشغل فنسنت على صحة أخيه أكثر مما كان مشغولاً بنفسه ، فأرسل إلى جوهانا يستعطفها أن تقدم لأخيه طعاماً دائماً ، كما بعد أن قضى عشر سنوات يتناول فيها طعامه في المطاعم .

وكان فنسنت يعلم أن العمل يشتت عقله أفضل من أى شيء آخر ، وأنه لو استطاع أن يلقي بنفسه في أحضانة بكل ما أوتى من قوة فيكون ذلك العلاج لمرضه . فالمرضى الذين كانوا معه في العنبر كانوا يعلمون أن لا شيء يمكنه أن ينقذهم من حياتهم إلا الموت العفن ، ولكنه مازال يعيش مع رسمه لياخذه خارج المصحة رجلاً معافى سعيداً .

وبانتهاء الأسبوع السادس خصص الدكتور بايرون حجرة صغيرة لفنسنت ليستعملها كأستوديو : وكانت تغطي جدرانها أوراق رمادية خضراء ، ومعلق بها ستارتان بلون البحر مرسوم هليهما ورود باهتة جداً . كما كانت الستائر يغطيها ، هي وكرسي قديم ذو مسندين ، بعض المفارش ، الملونة بطريقة مونشيلى ، التي كان قد تركها أحد المرضى الأثرياء بعد وفاته .

وكانت تطل الحجرة على حقل قمح منحرف وأرض فضاء .

وكانت مثبتة في الشباك قضبان حديدية سميكة .

فرسم فنسنت في الحال المنظر الطبيعي الذي رآه من الشباك . فرسم في الأرض الأمامية حقل قمح تحطمت سيقانه ومال على الأرض بعد هبوب عاصفة . ورسم حائطا يمثل حداً طبيعياً مبنيًا على طوال إحدى المنحدرات ، وبعض التلال والأكواخ خلف بعض الشجيرات الخضراء وأشجار الزيتون ،

ثم رسم في أعلى اللوحة سحابة عظيمة ذات شكل رمادي وأبيض غرقت في وسط اللازوردى .

وعاد إلى العنبر في موعد تناول العشاء وقد أفعم السرور قلبه . فلقد علم أن قدرته لم تهجره ، وها هو ذا يعود وجها لوجه مع الطبيعة ، لأن شعوره بالعمل قد أسره وأرغمه على الخلق .

والآن لم يكن باستطاعة مستشفى المجانين أن يقتله ، لأنه في طريقه إلى الشفاء . وبعض مضي عدة أشهر سيكون خارجها بلا شك . وسيكون حراً في الرجوع إلى باريس وإلى أصدقائه القدامى وتتفتح له الحياة مرة أخرى . فكتب رسالة طويلة ثائرة إلى ثيو ، يطلب فيها بعض الألوان والخيش والفرجون والكتب المثيرة .

وأشرقت شمس الغد بلون أصفر وحرارة شديدة واندفعت حشرات الحصاد مغنية بصوت أجش يبلغ عشرة أمثال صوت الصرصار . فحمل فنسنت حامله إلى الخارج ورسم أشجار الصنوبر والشجيرات والممرات . وجاء رفقاؤه الذين بالعنبر لينظروا عبر كتفه ، ولسكنهم كانوا يقفون في صمت كامل واحترام شديد .

وتتم فنسنت لنفسه قائلاً : « يتمتع هؤلاء الرجال بأخلاق أفضل من أحسن الناس في آرنز » .

وفي مساء ذلك اليوم ذهب فنسنت لزيارة الدكتور بايرون وقال له : « أشعر بأني في كامل صحتي وأرجو أن تسمح لي بالخروج إلى الأماكن حتى أتمكن من الرسم . »

— « إنك تبدو بلا شك أفضل بكثير يا فنسنت فلقد ساعدتك الحمامات والسمت كثيراً . ولكن ألا تعتقد أنه قد يكون من الخطر خروجك بهذه السرعة ؟ »

— « من الخطر ؟ ولماذا — لا . . كيف هذا ؟ . »
— « فلنفرض أنك . . . أصبحت بنوبة . . . في الحقول ؟ . »

فضحك فنسنت : « ان تصيبنى أية نوبات بعد الآن — يا دكتور
لقد سئمت منها . وأنا الآن أشعر بتحسن أفضل مما كنت أشعر قبل
إصابتى بها . »

— لا يا فنسنت — فأنا خائف .

— « أرجوك يا دكتور ، لأننى إذا استطعت الذهاب إلى أى مكان
أرغب فيه وأرسم الأشياء التى أحبها — فأنا أشعر بالسعادة، ألا ترى
ذلك ؟ . »

— « حسنا ، إذا كان العمل هو ما تحتاج إليه . . . »

وعلى هذا فتح الباب أمام فنسنت . فحمل حامله على ظهره وذهب
بحثاً عن صورته فقضى أياماً بطولها بجوار المصحة . وابتدأت أشجار السرو
التي تحيط بسانت ريمى تشغل أفكاره ، وأراد أن يصنع منها شيئاً مثل
لوحات عباد الشمس . ولم كانت دهشته حينما رأى أنه لم يستطع رسمها كما
رآها . إذ إنه وجدها تضارع في جمال حدودها ومقاييسها المسلات المصرية،
ذات النقط السوداء في وسط أرضية غطاها ضوء الشمس .

وعادت إليه عاداته القديمة التي تملكته في أثناء الأيام التي قضاها في آرلز .
فكان كل صباح يخرج مع شروق الشمس محملاً بلوحات بيضاء فارغة
ويعود بها مع غروب الشمس وقد نقش الطبيعة عليها . ولو اعترت قدرته
وقدرته بهض الوهن ، لم يكن في إمكانه إدراكها . ولكنه كان يشعر كل يوم
أنه أصبح أكثر قوة ، وأكثر حساسية وأكثر وثوقاً من نفسه .

والآن وقد أصبح سيد مصيره لم يعد يخاف من تناول طعامه في مطعم
المصحة . فكان يتلذذ طعامه بشراهة ، ولو كان ذلك حساء صراصير ،

لأنه كان محتاجاً للطعام من أجل إعطائه القوة على العمل . لأنه لم يعد يخاف شيئاً الآن ، لأنه يمسك زمام نفسه تماماً .

وبعد أن قضى ثلاثة أشهر في المصحة وجد في أشجار المرو مجالا فنيا حمله بعيداً عن متاعبه وعن جميع الآلام التي تحمها . فكانت الأشجار كثيفة والأرض الأمامية منخفضة تنمو بها بعض الأشجار الشائكة والغابات القصيرة ، أما وراء تلك الأشجار فكانت تمتد تلال من أشجار البنفسج ، أما السماء فكانت ذات لون أخضر وأحمر بها قر في طريقه إلى الزوال . فرسم مجموعة الأشجار الشائكة في الأرض الأمامية بشكل كثيف جداً وبها لمسات من اللون الأصفر ، والبنفسجي والأخضر .

وحيثما نظر إلى لوحته في تلك الليلة علم أنه قد خرج من منجم تحت الأرض وأصبح يقف للمرة الثانية على أرض صلبة ، ووجهه في مواجهة الشمس .

ورأى نفسه وسط فرحته التي لا تطاق أنه قد عاد حراً كما كان .

وأرسل إليه ثيو مزيدا من النقود ، فاستطاع فنسنت أن يحصل على تصريح ويعود إلى آرلز ليستعيد صورته فقابلته سكان ميدان لا مارتين بحفاوة بالغة ، ولكن رؤيته للبيت الأصفر . أثقلته بالمرض لدرجة أنه اعتقد أنه سيغمى عليه . وبدلاً من أن يزور رولان والدكتور رى ، طبقاً لخطة ذهب في البحث عن صاحب المنزل الذي كان قد احتكر لوحاته .

ولم يعد فنسنت إلى المصحة في ذلك اليوم كما وعد . وفي صباح اليوم التالي وجدوه ملقياً على وجهه داخل حفرة فيما بين تاراسكون وسانت ريمي .

(٣)

وتجمعت سحب الحمى فوق عقله لمدة ثلاثة أسابيع ، وكان الرجال الذين كان يعطف عليهم بسبب معاودة النوبات لهم — كانوا صابرين جدا معه . وبعد أن شفى بدرجة مكنة من أن يدرك ما كان قد حدث له ، استمر يكرر لنفسه : « إن هذا شيء عمقوت ! إن هذا شيء مكروه ! » .

وباقتهاء الأسبوع الثالث حملت الراهبات مريضاً جديداً إلى العنبر بينما كان يتجول في الحجرة الخاوية الشبيهة بالممر من أجل التمرين . وقد سمح هذا المريض للراهبات بقيادته إلى فراشه في هدوء تام ، ولكن بعد أن تركته الراهبات اندفع في نوبة من الغضب الشديد . ثم مزق جميع الملابس التي كانت على جسده إلى قطع صغيرة وهو يصبح بأعلى صوته طوال الوقت ، ثم قطع حاشيته بأظافره وحطم الصندوق ، المثبت في الحائط ، وافتزع الستائر المعلقة ، وحطم الهيكل المعلقة فيه ، وأخذ يركل حقيبة سفره فجعلها كتلة لا شكل لها .

ولكن المرضى تعودوا على عدم لمس أى مريض جديد .

وأخيراً أقبل حارسان وجذبا المجنون خارج العنبر ثم حبسوه في زنزانه بأسفل الممر . واستمر المجنون في الصباح كالوحش لمدة أسبوعين متتاليين . وكان فنسنت يسمعه ليلاً ونهاراً . ولكن بعد ذلك توقفت تلك الصيحات نهائياً . ورأى فنسنت الحراس وهم يدفنون الرجل في مقبرة صغيرة بالقرب من الدير .

واكتشف فنسنت نوبة مخيفة من الهبوط الروحي . وكلها عادت صحته إلى حالتها الطبيعية ، تمكن عقله من التفكير في هدوء ، وبداله من الحماقة أن يستمر في الرسم الذي يكلفه الكثير دون أن يدر عليه شيئاً .

ولكن مع هذا إن لم يعمل فلا يمكنه أن يعيش .

وقدم له الدكتور بايرون بعض اللحم والخبز من على مائدته الخاصة ولكنه منعه من الذهاب بالقرب من الاستوديو ، ولم يكن فنسنت يهتم بهذا ما دام في دور النقاهة ولكن حينما عادت إليه صحته ووجد نفسه محكوما عليه بنفس الفراغ الممقوت الذي يعاني منه رفاقه ، ثارت ثأرته .

وقال للدكتور بايرون : « دكتور بايرون ، إن عملي ضروري بالنسبة لي للاستشفاء . وإذا ما جعلتني أمكث بلا عمل مثل هؤلاء المجانين سأصبح واحدا منهم » .

— « إنني أعرف ذلك يا فنسنت ، ولكن عمالك الشاق هو الذي جلب لك هذه النوبات ، ويجب على أن أحفظك من تلك الإثارة » .

— « كلا يا دكتور ، إنه لم يكن العمل ، بل ذهابي إلى آرلز هو الذي سبب ذلك ، فبمجرد رؤيتي ميدان لامارتين والبيت الأصفر اعتراني المرض ، ولكن إن لم أذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى ، فلن تفتاني تلك النوبة مطلقا . فأرجو أن تسمح لي بالذهاب للاستوديو » .

— « إنني غير راغب في تحمل مسئولية هذه المسألة ، فسأرسل خطابا لأخيك ، وإذا ما وافق على هذا فسأتركك تعمل ثانية » .

وكان الخطاب الذي حث فيه ثيو الدكتور بايرون على السماح لفنسنت بالرسم يحمل في نفس الوقت أخبارا سارة ، إذ إن ثيو كان على وشك أن يكون والدا . فجعلت هذه الأخبار فنسنت سعيدا وقويا كما كان قبل أن تغريبه النوبة الأخيرة . فجلس على الفور وكتب لثيو خطابا جميلا .

— « هل تعرف ما آمل فيه يا ثيو ؟ هو أن تصبح العائلة بالنسبة لك مثلاً أصبحت حصي الطبيعة والحشائش والقمح الأصفر والفلاحون بالنسبة لي .
(م ٢٢ — فان جوخ)

فالطفل الذى تحمله جوهانا لك سيجعلك تلمس الحقيقة التى ما كان من الممكن أن تلمسها حتى ولو فى مدينة عظيمة . والآن أصبح من المؤكد أنك أنت نفسك منغمس فى الطبيعة منذ أن قلت إن جوهانا تشعر فعلا باقتراب مجئ طفلها .

وذهب للمرة الثانية إلى الاستوديو ليرسم المناظر عبر النافذة التى أقفلتها القضبان الحديدية ، فرسم حقل القمح وفيه بعض الأعواد الناضجة والشمس ضخمة .

وكانت اللوحة كلها صفراء ما عدا الحائط المقام على زاوية حادة ، والخلفية التى تتكون من التلال التى ينمو عليها زهر البنفسج .

ورضخ الدكتور بايرون لرغبة ثيو ، وسمح لفنسنت بالخروج من المصححة إلى الأراضى المجاورة من أجل العمل . فرسم أشجار السرو المنبتة من الأرض ثم صب فيها لون الشمس الأصفر . كما رسم لوحات لبعض النساء وهن يجمعن الزيتون ، وكانت الأرض ذات لون بنفسجى أما الأراضى البعيدة فكانت تراباً أصفر ، أما الأشجار فكانت جذوعها برونزية وأوراقها خضراء رمادية ، أما السماء والسيدات الثلاث فكان جميعاً بلون وردى غامق .

وكان يقف ويتحدث مع الرجال الذين يعملون فى الحقول وهو فى طريقه إلى عمله . وكان يعتبر نفسه فى داخلية أقل قدراً من هؤلاء الفلاحين .

وقال لأحدهم : « انظر ! إننى أحرث على لوحاتى مثلما تحرثون فى حقولكم ، » .

وعاد الحريف البروفيسى بدرجة مبهرة من الجمال . فأخرجت الأرض من جوفها كل بنفسجها ، وتوهجت الحشائش المحترقة بالقرب من الورد

الموجودة في الحديقة ، وتناقضت السماء مع أطراف الأوراق الصفراء المختلفة .

وعادت مع الخريف الماضي قوة فنسنت الكاملة . فرأى أن عمله في تحسن مستمر ، وعادت الأفكار الجديدة إلى الانبثاق ثانية داخل عقله ، فكان يشعر بالسعادة حينما يتركها تنمو وترعرع بداخله . وابتدأ يشعر في أعماقه بالقرية التي يعيش فيها لبقائه طويلا فيها . فكانت تختلف كلية في طبيعتها عن آرنز . إذ إن التلال التي كانت تطل على الوادي كانت تصد معظم رياح الشمال .

كما أن الشمس كانت أقل توهجا بقدر كبير . والآن وبعد أن فهم القرية التي تلف سانت ريمى ، أصبح لا يرغب في ترك المصححة . على الرغم من أنه في الشهور الأولى من إقامته فيها كان يود من كل قلبه أن يمر عليه ذلك العام دون أن يتحطم عقله ، إلا أنه الآن بعد أن أصبح مشغولا بعمله أصبح لا يعرف ما إذا كان يقيم في مستشفى أم في فندق . وعلى الرغم من أنه شعر بأنه في كامل صحته إلا أنه اعتقد أنه من الجملة أن ينتقل إلى أى مكان آخر ليقضى فيه ستة أشهر أخرى ، ليتعرف خلالها على أرض غريبة لا يعرفها .

وكانت الخطابات التي تصل إليه من باريس ترفع من روحه المعنوية . إذ إن زوجة ثيو كانت تظلم له الطعام بالمنزل وتحسنت صحته بسرعة . كما أن جوها ما كانت تحمل الطفل دون أن تعاني أية صعوبة . وكان ثيو يرسل إلى فنسنت الطباق والسجائر والألوان ، والكتب وشيك بعشر أو عشرين فرنكا كل أسبوع .

وتلاشت ذكرى النوبة التي اعترته بعد رحلته إلى آرنز ، من عقله نهائيا . وأخذ يؤكد لنفسه المرة تلو المرة أنه لو أنه لم يعد مطلقا إلى تلك المدينة الملعونة لقضى ستة أشهر في حالة صحية طبيعية . وحينما جفت دراساته

لبساتين السرو والزيتون غسلها بقليل من الماء والخمر لكي يزيل الزيت الموجود في المعجون ، ثم أرسلها إلى ثيو . وإذا به يتسلم إعلان ثيو؛ بعرضه عددا من لوحاته في معرض المستقلين وهو يشعر بخيبة أمل عظيمة لأنه كان يشعر بأنه لم يرسم بعد أفضل لوحاته ، وكان يود أن لا يعرض هذه اللوحات حتى يتقن فنه .

وأكدت له خطابات ثيو بعد ذلك أن عمله يسير بخطوات ملحوظة . وقرر أن يستأجر منزلا في قرية سانت ريمي حينما يقضى العام المقرر له في المصححة ، ليستكمل رسم لوحاته للأراضي الجنوبية . وشعر للمرة الثانية بالسروور البالغ الذي كان يشعر به في أيامه الآرلزية قبل مجيء جوجوين إليها ، حينما كان يرسم لوحات عباد الشمس .

وبعد ظهر أحد الأيام بينما كان يعمل في هدوء بين الحقول جال عقله بين الأفكار . وفي تلك الليلة وجده حراس المصححة في وقت متأخر ، على بعد عدة كيلو مترات من حامله وكان جسده ملفوفا حول جذع لشجرة سرو .

(٤)

وبانتهاء اليوم الخامس عادت حواسه إلى طبيعتها ، ولكن الشيء الذى آلمه بعمق هو أن رفاقه قد قبلوا نبأ هذه النبوة على أنها شيء لا مندوحة عنه . وجاء الشتاء ، ولم يجد فنسنت أية رغبة فى ترك فراشه . وتوهجت نار الموقد الموضوع فى وسط العنبر وجلس الرجل حوله فى صمت عميق من الصباح حتى المساء .

وكانت نوافذ العنبر صغيرة جداً ومرتفعة ولا تدع فى الحجرة إلا ضوءاً خافتاً . أما الموقد فقد أخذ يبعث حرارة وينشر معها رائحة التحلل والتحطيم . أما الراهبات فقد ابتعدن بغطاء رؤوسهن الأسود وملابسهن البيضاء وانطلقن يتمتمن ببعض الصلوات وهن يتحسسن صلبانهن . أما التلال القاحلة المنتشرة حول المصححة فقد ارتفعت مثل رؤوس الموتى .

واستلقى فنسنت مستيقظاً فى فراشه الوثير . ماذا علمته لوحة موفينى التى رسمها شيفينتنجن ؟ « علمته كيف يتألم دون أن يشكو ، وأن ينظر إلى الألم بدون امتعاض ... نعم ، ولكن بتعبه هذا خاطر بنفسه فى دوامة . لأنه إذا ما استسلم لهذا الألم وهذه الوحدة فإنهما سيقتلانه . لأنه يأتى فى حياة كل فرد لحظة يشعر فيها بأنه من الضروري أن يلقى عن نفسه الآلام كما لو أنها رداء قذر .

ومرت الأيام ، وكان كل يوم يشبه اليوم الذى سبقه بالضبط . وكان عقله خالياً من جميع الأفكار والآلام .

وسمع الراهبات وهن يتناقشن فى أعماله ، ولكن فى حيرة من أمره . وإذا ما كان يرسم تلك اللوحات لأنه مجنون أم أنه مجنون لأنه يرسم .

وجلس العبيط بجوار فراشه وهو يثرثر معه ساعات عديدة . وشعر

فنسنت بدفء فى صداقة الرجل ، ولم يبعده عنه ودائماً ما كان يذهب إلى العبيط لأنه لم يكن هناك شخص آخر ليستمع إليه .

وذات يوم قال للعبيط بينما كانت راهبتان تمران بجواره .

— « يعتقدون أن عملى قد رمانى إلى الجنون ، إننى أعلم أنه من الحقيقة بمكان أن الفنان فى أعماقه رجل منغمس فيما تراه عيناه ، ولا يعتبر سيداً لباقى حياته . ولكن هل هذا يجعله غير صالح للحياة فى هذا العالم ؟ . . »

ولكن العبيط لم يفعل شيئاً سوى أن يغمغم .

ولكن ما أعطاه القوة أخيراً لنترك فراشه كان سطرًا من كتاب ديلا كروا إذ يقول ديلا كروا : « لقد اكتشفت الرسم ، حينما لم يعد عندى سنة واحدة ولا نفس . »

ولم تراوده الرغبة لأسابيع متوالية فى الخروج إلى الحديقة .

فكان يجلس فى العنبر بجوار الموقد ، يطلع على الكتب التى كان يرسلها إليه ثيو من باريس . وحتى حينما كان يصاب أحد رفاقه بنوبة كان لا ينظر إليه أو حتى يتحرك من كرسيه . لأن الجنون قد أصبح عين العقل ، والشاذ قد أصبح طبيعياً بالنسبة له فلأنه لم يجلس منذ زمن طويل مع أناس عقلاء أصبح لا ينظر إلى رفاقه فى المستشفى على أنهم مجانين .

فقال له الدكتور بايرون : « من دواعى الأسف — يا فنسنت — أننى لا أستطيع أن أسمع لك بمغادرة هذه المنطقة مرة ثانية فإنك يجب أن تبقى داخل الأسوار فى الأيام المقبلة . »

— « وهل ستسمح لى بممارسة عملى داخل الاستوديو ؟ » .

— « أنصحك ألا تفعل ذلك . »

— « هل تنصحنى يا دكتور بالانتحار ؟ » .

— « حسناً ، فلك أن تمارس عملك فى الاستوديو ولكن لساعات

قليلة يومياً . »

وحتى رؤية فنسنت لحامل لوحاته وفرجونه لم يكن من السهل أن تقضى على خموله . فكان يجلس على مقعد من طراز مونتشسيلي ويحلق خلال القضاة إلى حقول القمح الجذباء .

وبعد أيام قلائل دعى إلى عيادة الدكتور بايرون ليوقع باستلام خطاب مسجل ، وعند فتحه الخطاب وجد بداخله شيكا بمبلغ أربعمائة فرنك باسمه . وكان هذا أكبر مبلغ امتلاكه في وقت واحد من حياته . فتساءل بحق آلهة الأرض من الذى أرسل له هذا المبلغ .

عزيزى فنسنت . .

« وأخيراً ، بيعت إحدى لوحاتك مقابل أربعمائة فرنك ؟ وهى لوحة « خيالة العنب الحمراء » تلك اللوحة التى رسمتها فى آرلز فى الربيع الماضى . فقد اشترتها أنا بونج ، زميلة الرسامين الدانمركيين .

تهنئتى لك يا عزيزى ! وسرعان ما نبيع لوحاتك فى جميع أنحاء أوروبا . استغل هذا المال فى الحجى . إلى باريس إذا وافق الدكتور بايرون على ذلك . ومنذ وقت قصير قابلت رجلاً بشوشاً يدعى الدكتور جاشيت ، وهو يملك منزلاً فى أوثير الأواز وهى على مسيرة ساعة من باريس . ولقد اشتغل فى منزل هذا الدكتور أشهر الرسامين منذ عهد دويجنى ، ويدعى أنه على علم تام بحالتك ، وأنه على استعداد للاهتمام بشئونك فى أى وقت تأتى فيه إلى أوثير .

وساكتب لك ثانية غداً ، . ثبو .

وأطلع فنسنت الدكتور بايرون وزوجته على هذا الخطاب ، فقرأه قراءة يشوبها التفكير العميق ، ثم أمسك بالشيك بين أصابعه وهنا فنسنت على ثروته الطيبة ، فنزل فنسنت إلى الممر وقد عادت الحياة المتينة إلى ذرات عقله الرخوة بنشاط محموم . وفى منتصف الحديقة أدرك أنه قد أخذ الشيك معه وترك الخطاب فى عيادة الدكتور ، فعاد إليه مسرعاً .

ولما هم بالطرق على الباب سمع اسمه يتردد في الداخل فتردد لحظة دون أن يتمكن من أن يتخذ قرارا . وسمع مدام بايرون تسأل زوجها : « إذن ، لماذا تعتقد أنه فعل هذا ؟ » .

— « ربما ظن أن هذا من مصلحة أخيه » .

— « ولكن ماذا لو أنه لم يستطع إمداده بالمال ؟ » .

— « أعتقد أنه ظن أن هذا العمل يستحق هذا الاتفاق ، حتى يعيد فنسنت إلى حالته الطبيعية » .

— « إذن فأنت تعتقد أن عامل الصدقة ليس له دخل في هذا ، لأن هذه هي الحقيقة » .

— « عزيزتي ماري ! وكيف يكون له أى دخل ؟ فمن المعتقد أن تلك المرأة أخت أحد الفنانين ، بحق أى شيء في هذا الوجود يمكن لأى شخص عنده ذرة من إدراك . . . »

وبعد هذا غادر فنسنت المكان . وبينما كان يتناول طعام العشاء تسلم برقية من ثيو .

سمينا الطفل باسمك ، جوهانا ، وفنسنت في حالة جيدة .

وكان بيع اللوحة وهذا الخبر المدهش الذى وصل من ثيو ، قد حول فنسنت إلى رجل فى كامل قواه العقلية . وذهب فى الصباح إلى الاستوديو ، ونظف فرجونه وفرز لوحاته ودراساته التى كانت تستند على الحائط .

— « إذا استطاع ديلا كروا أن يكتشف الرسم حينما لم يكن لديه أسنان ولا نفس ، فأنا أستطيع أن أكتشفه بعد أن فقدت أسناني وعقلي » .

ثم ألقى بنفسه فى أحضان عمله فى ثورة صامتة ، فرسم « السحارقي الطيب » ، عن ديلا كروا و « باذر الحبوب » ، و « الحفار » عن ميليت ، وصمم

أن يأخذ على عاتقه تعاسة حظه بفتور أهل الشمال . إنه كان يعرف منذ البداية أن حياة الفن هي التعطيم ، إذن لماذا يشكو في هذه الأيام الأخيرة ؟ .

وبعد مضي أسبوعين بالضبط من تسلمه الشيك الذى قيمته أربعمائة فرنك ، وصل إليه بالطريق الجوى عدد شهر يناير من مجلة « ميركورى دى فرانس » ، ولاحظ أن ثيو قد علم على مقالة فى الصفحة الأولى بعنوان « المنعزلون » .

وقرأ فيها : « إن ذلك الذى تقسم به جميع أعمال فنسنت فان جوخ هو تطرف القوة ، وعنف التعبير . فيمكن فى تقسيمه الموجب للطبيعة الأساسية للأشياء ، وفى تبسيطه الجرىء للأشياء ، وفى رغبته الطائشة فى النظر إلى الشمس وجهاً لوجه ، وفى عواطف رسوماته وألوانه ، يمكن نسان ذو مقدرة ، صلب العود ، متهور متوحش فى بعض الأحيان ، ورقيق صريح فى بعضها الآخر .

إن فنسنت فان جوخ هو الارتقاء السامى لغرائز هولز . وتتعدى واقعيته حقيقة مواطنى هولاند العظام ، الذين يمتازون بقوة الجسم ، واتزان العقل والذين يعتبرون سلفاً له . إن ما يمتاز به لوحاته هو دراسته الواعية للشخصية ، وبجثته المستمر عن جوهر كل شيء ، وحبّه العميق للطبيعة والحقيقة الذى يشبه حب الأطفال لها .

وهل سيعرف هذا الفنان الضليع الحقيقى ذو الروح المضيئة ، لذة رد الجمهور لاعتباره ثانية ؟ إننى لا أعتقد هذا . إنه بسيط للغاية ولكنه ناقد النظر فى نفس الوقت بالنسبة لروحنا البرجوازية المعاصرة .

إنه لن يفهمه أحد كلية إلا من إخوته الفنانين .

ج . أليير أوريبه .

ولم يطلع فنسنت الدكتور بايرون على هذه المقالة .

ولكن عادت إليه كل قوته وشهوته في الحياة . فرسم صورة للعنبر الذي ينام فيه ، ورسم فيه مدير المبنى ، وزوجته ورسم صورا طبق الأصل عن ميليت وديلا كروا ، فملاً ليلاليه وأيامه بعمل شاق مضمّن .

وعند ما عاد يصره إلى تاريخ مرضه ، رأى بوضوح أن النوبات التي كانت تعتريه كانت دورية في طبيعتها ، وتعاوده كل ثلاثة أشهر . وقال إن هذا جميل ، لأنه لو عرف موعدا بالضبط فسيمكنه أن يهتم بنفسه . فإذا ما حل موعد النوبة التالية ، يكف عن عمله ، ويذهب إلى فراشه ويعد نفسه لتوعلك يستغرق فترة قصيرة . وبعد أيام قلائل يمكنه أن يقف ثانية على قدميه ، كما لو أنه لم يقاس من شيء أكثر من نوبة برد طفيفة .

والشيء الوحيد الذي يقلقه الآن في المصححة هو الطبيعة الدينية البهتة التي تشمل السكان . فبداله أنه بمجيء الشتاء الأسود تصاب الراهبات بنوبات هستيرية . وفي بعض الأحيان ، حينما كان يراقبن وهن تتمعن بصلواتهن ، ويقبلن صلبانهن ، ويسبحن بمسبحاتهن ، ويسرن على أطراف أصابعهن إلى الكنيسة من أجل الصلاة والطقوس خمس أو ست مرات يوميا ، شعر بصعوبة في تقرير من هم المرضى في مستشفى المجانين هذه ومن هن المرضيات .

فمنذ الأيام التي قضاها في البوريناج أصبح يخشى جميع المبالغات الدينية حتى إنه كان يشعر في بعض الأحيان أن عقله قد أصبح ضحية لشروء الراهبات .

ولكنه دفع بنفسه بعاطفة جياشة إلى عمله محاولا أن يمحو من عقله صورة الطنبوشة السوداء ، والكاب الأسود اللذين تلبسهما الراهبات .

وقبل نهاية الشهر الثالث أراح نفسه مدة ثمانية وأربعين ساعة استلقى خلالها في الفراش في كامل صحته وقواه العقلية . وأسدل الستائر حول فراشه حتى لا تفكر عليه الراهبات سكون عقله حينما تفتابهن تهليلاتهن الدينية

وجاء اليوم الذى يجب أن تتتابه النوبة ، فانتظرها فتسنت بشغف بل
وبعاطفة جياشة . ومرت الساعات متباطئة ولم يحدث له شيئاً . فدهش
لذلك ، ولكنه شعر بخيبة أمل . ومر اليوم الثانى ، ولكنه مازال يشعر
بأنه طبعى جداً . وبعد أن أمضى اليوم الثالث دون أن يقع له شيئاً سخر
من نفسه .

— لقد كنت غيباً ، لقد اتنابتنى آخر تلك النوبات ولقد كان
الدكتور بايرون مخطئاً .

ومنذ الآن فصاعداً لا يجب على أن أخاف شيئاً . فقد فقدت وقتى هباء
بنومى فى الفراش تلك الأيام الثلاثة بهذه الطريقة ، فى صباح الغد سأستيقظ
من فراشى لأعمل . . .

وفى سكون الليل ، بينما كان الجميع يغطون فى نوم عميق ، قام بهدوء من
فراشه ، ثم صار عبر العنبر ذى الأرضية الحجرية بقدم حافية . ثم شق طريقه
فى الظلام إلى الصومعة التى يخزن بها الفحم . وركع وجرف حفنة من
تراب الفحم ، ثم لوث بها وجهه بأكمله . ثم قال :

— « انظري يا مدام دينيس ؟ إنهم يقبلوننى الآن .

إنهم يعلمون أننى واحد منهم . إنهم لم يكونوا يثقون بى من قبل ، أما
الآن فقد أصبحت غولاً أسود . وسيدعونى المعدنون أحمل إليهم كلمة الله . »
وبعد الفجر بقليل وجده الحراس فى ذلك المكان . وكان يتمم بدعوات
لا معنى لها ، ويكرر مقطوعات مقطوعة من الإنجيل ، محاولاً إجابة الأصوات
التي كانت تصب قصصاً غريبة فى أذنه .

واستمر هذيانه الدينى هذه أيام ، وحينما عاد ثانية إلى وجهه طلب من
إحدى الراهبات أن ترسل إليه الدكتور بايرون . وقال للدكتور :

« أعتقد أنه كان فى إمكان أن أتخاشى هذه النوبة يا دكتور لو لم تكن
هذه المستريا الدينية التى أتعرض لها . . . »

فهز الدكتور بايرون كتفيه ، واتكأ على السرير ، ثم جذب ستائر
سريره فنسنت التي خلفه وقال له :

— « ماذا يمكنني فعله يا فنسنت ؟ إن الحالة تصبح هكذا كل شتاء ،
فأنا لا أوافق على هذا ولكنني في نفس الوقت لا يمكنني التدخل . فالراهبات
يؤدين عملهن على أكمل وجه على أى حال ، .

فقال له فنسنت : « فليكن ما يكون ، ولكن من الصعب جداً أن
يظل الإنسان عاقلاً بين هؤلاء المجانين إن لم يتعرض للجنون الديني عرضاً
من الجنون العادي .

والآن قد قضيت الوقت المحدد لنوبتي . . . »

— « فنسنت — لا تخدع نفسك ، فهذه النوبة من الضروري أن
تحدث ، لأن جهازك العصبي يشير نفسه حتى يصل إلى أزمة حادة كل
ثلاثة شهور . فلو لم يكن هذيانك من نوع ديني لكان له طبيعة
أخرى . .

— « لو اعترتني نوبة أخرى يا دكتور فساطلب من أخى أن يخرجني
من هذه المستشفى . »

— « كما تحب — يا فنسنت . »

وعاد فنسنت إلى عمله في الاستوديو في اليوم الأول من الربيع .
ورسم المنظر من خارج نافذته ثانية ، وكان عبارة عن حقل محروث تركت
به بقايا بعض الأعواد الصفراء . وقارن بين الأرض المحروثة المنقطة
بألوان بنفسجية ذات الأشرطة المتكورة من الأعواد الصفراء وبين الظهيرة
المتكون من التلال . وابتدأت أشجار اللوز في الازدهار ثانية ، وعادت
السما مرة أخرى لتتخذ اللون الليموني عند غروبها .

ولم يحمل تخليق الطبيعة الأبدى أية حياة جديدة إلى فنسنت . ولأول مرة بعد أن أصبح معتاداً على مرافقيه ، يشعر بأن نوباتهم التي تعاودهم من وقت لآخر وكلامهم الفارغ يحطم أعصابه ويشق أحشائه . كما أنه لم يجد أي مخرج يهرب منه من تلك المخلوقات الشبيهة بالفئران والتي تصلى وهي تلبس أردية سوداء وبيضاء . فجرد رؤيتهم كانت تبعث رعدة لها إدراك معين في جسد فنسنت .

فكتب إلى أخيه يقول له : « ثيو ، إني لن يسعدني أن أترك سانت ريمي ، لأنه مازال أمامي عمل طيب يجب أن أقوم به هنا ، ولكن لو انتابني نوبة أخرى ذات طبيعة دينية ، فستكون نتيجة خطأ المصحة ، وليس لخطأ أعصابي ، ويكفي نوبتان أو ثلاثة من هذا النوع لقتلي .

فكن مستعداً لو انتابني نوبة دينية أخرى ، لسفري إلى باريس في اللحظة التي سيمكنني فيها أن أقوم من فراشي .

ربما سيكون من الأفضل لي أن أعود إلى الشمال ثانية . حيث يستطيع الإنسان أن يعتمد على قدر لا بأس به من العقل . وماذا عن الدكتور جاشيت الذي تحدث عنه ؟ هل سيهتم اهتماماً شخصياً بحالتي ؟ .

فأجابه ثيو بأنه تحدث ثانية مع الدكتور جاشيت وأطلعه على بعض لوحات فنسنت فأظهر الدكتور شغفه بذهاب فنسنت إلى أوفير ايرسم منزله .

إنه متخصص — يافنسنت — ليس فقط في الأمراض العصبية ولكن أيضاً في الرسامين . وإني مؤمن بأنك لن تجد أفضل منه ، فأى وقت ترغب المجيء فيه أرسل إلى تلغرافاً فأركب باول قطار مسافر إلى سانت ريمي .

وانتشرت حرارة أول أيام الربيع ، وابتدأت حشرات زيز الحصاد في الغناء ثانية . ورسم فنسنت رواق عنبر الدرجة الثالثة ، والممرات والأشجار

التي بالحدائق ، وصورته كما رآها في المرآة . وكان يشتغل وإحدى عينيه
مركزة على لوحته بينما كانت الأخرى مركزة على التقويم .

وكان من المقرر أن تعتريه النوبة التالية في مايو .

فسمع أصواتا تصبح فيه في الممرات الخالية . وكان يجيب عليهم ،
فكان يرتد إليه صدى صوته ، ووجدوه في هذه المرة فاقدًا وعيه في
الكنيسة . ولم يشف من هذا الهذيان الديني الذي انبعث متلويًا داخل عقله ،
قبل حلول منتصف مايو .

وصمم ثيو على الذهاب إلى سانت ريمي ليأخذه معه .

ولكن فنسنت أراد أن يقوم بالرحلة بمفرده ، بأن يساعده أحد
الحراس في ركوب القطار في تاراسكون .

عزيزى ثيو ..

إننى لست مشلولاً ، كما أننى لست حيواناً شرملاً .

فدعنى أبرهن انفسى ولك أننى إنسان طبيعى ، فلو استطعت أن أتزع
نفسى من هذه المصحة بكل ما أوتيت من قوة ، لأشق حياة جديدة فى أوفر
فربما يمكننى أن أهزم مرضى هذا .

إننى أعطى انفسى فرصة أخرى ، بعدما عن مصحة المجانين هذه ، إننى
متأكد بأننى أستطيع أن أكون إنساناً عاقلًا ثانية . وإننى أشعر من خلال
ما كتبته لى أن أوفرستكون مكاناً جميلاً وهادئاً ، ولو استطعت أن أعيش
بحذر تحت مراقبة الدكتور جاشيت ، فإننى مؤمن بأننى سأهزم مرضى .

سأرسل إليك برفقة حينما يترك القطار محطة تاراسكون . وقابلنى فى محطة
ليون . إننى أود أن أترك هذا المكان فى يوم السبت حتى يمكننى أن أقضى
يوم الأحد بمنزلك معك ومع جوهانا والطفل الصغير .

الكتاب الثامن

أوفر س

(١)

ولم يذق ثيو للنوم طعماً طوال هذه الليلة من فرط انفعاله وقيل الموعد المحتمل فيه وصول قطار فنسنت بساعتين انطلق إلى محطة ليون، أما جوهانا فقد اضطرت إلى البقاء في البيت مع الطفل ووقفت تطل من شرفة شقتها بالدور الرابع بسيتي بيجال وأخذت تختلس النظر من خلال أوراق الشجرة الضخمة السوداء والتي تحجب واجهة المنزل وترقب في لهفة مدخل سيتي بيجال علماً ترى عربة تدلف من شارع بيجال .

وكانت المسافة بين محطة ليون وبيت ثيو طويلة وخيل لجوهانا أنها قد انتظرت دهرأ وبدأت تساورها المخاوف من أن يكون شيء قد حدث لفنسنت وهو يركب القطار ولكن أخيراً دلفت عربة من شارع بيجال وأطل منها وجهان مرحان أوما لها بالتحية ولوحا لها بأيديهما فمدت رقبتها علماً تلحح فنسنت .

ولم يكن لشارع سيتي بيجال إلا مدخل واحد وتسده في النهاية حديقة وركن بارز لمنزل حجري ولم يكن على كل جانب من هذا الشارع العاصي إلا مبنيان مستطيلان .

وكان ثيو يقيم بالمنزل رقم ٨ وكان بيته أقرب إلى الطرف المسدود وتفصله عنه حديقة صغيرة وله طوار خاص وإن هي إلا ثوان معدودة حتى وقفت العربة أمام الشجرة الضخمة السوداء ومدخل البيت .

وصعد فنسنت درجات السلم وثيو في أعقابها وكانت جوهانا تتوقع أن ترى فتى عليلاً ولكن الرجل الذي لف ذراعيه حولها كان صحيحاً معافى متورداً الوجه تعلو الأبتسامة شفقيه وترأسه على وجهه آيات العزم والتصميم .

وكان أول خاطر طاف بذهنها ، إنه يبدو في أتم صحة بل إنه يبدو أقوى من
ثيو . .

ولكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على التطلع إلى أذنه . .

وصاح فنسنت وهو يمسك يدي جوهانا ويتطلع إليها في استحسان .

— حسناً يا ثيو لعمرى أنك اخترت لنفسك زوجة فائنة . .

فضحك ثيو وقال :

— شكراً يا فنسنت . .

كان ثيو قد اختارها حسب الصفات الماثورة عن والدته فقد كان لجوهانا
نفس عيني آنا كورفيليا العسليتين اللطيفتين ورقتها البالغة وعطفها الكامل
وحنانها الزائد وكانت هي وطفلها الذي لا يزيد عمره على بضعة شهور حين
تضفي جوا خفيفاً من الأمومة المقبلة وكانت لها تقاطيع صريحة تقسم بالطيبة
ووجهه يضاوي ترسم عليه آيات البلاءة وعلى رأسها كتلة من الشعر الأسمر
مشطته في بساطة وعقصته للخلف بعيداً عن جبهتها الهولندية العالية . وكان
حبها لثيو يعني حبها لفنسنت وجذب ثيو فنسنت إلى حجرة النوم حيث كان
الطفل يرقد في مهده وأخذ الرجلان يتطلعان إلى الطفل في سكون وقد
اغرورت عيناها بالدموع وأحست جوهانا أنها يحب أن يختلها لحظة
فسارت على أطراف أصابعها إلى الباب وبينما هم بوضع يدها على الكرة
التفت لها فنسنت وقال لها وهو يبتسم ويشير إلى الغطاء الكورشي فوق
مهد الطفل :

— لا تغليه بالكثير يا أختي الصغيرة . .

وأغلقت جوهانا الباب خلفها في هدوء وتطلع فنسنت مرة أخرى إلى
الطفل وأحس بتلك الغصة وذلك الألم الفظيع الذي يعتصر قلب كل رجل
عقيم لم ينجب ذرية ولا يجد من يذكره بعد موته ..

وكان ثيو كان يقرأ أفسكاره فقال له :

— لا يزال أمامك متسع من الوقت يا فنسنت ، وقد تعثر يوماً على
زوجة تحبك وتشاطرك مصاعب الحياة ..

— آه كلا يا ثيو . لقد فات الأوان ..

— لقد وجدت لك أمس فقط امرأة تصلح لك ..

— حقاً .. ومن هي ؟

— الفتاة في قصة « الأرض العذراء » لتورجنيف .. أتذكرها ؟

— أتعني تلك الفتاة التي كانت تعمل مع الفوضويين وتحمل الأوراق
الخطيرة عبر الحدود ؟

— أجل .. إن زوجتك يا فنسنت يجب أن تكون فتاة مثل هذه ..

فتاة تكون قد بلت الحياة وذاتت بؤسها ومرارتها ..

— ... وماذا تبقى مني ؟ من رجل له أذن واحدة ؟ ..

واستيقظ فنسنت الصغير وتطلع إليهما وابتسم ورفع ثيو الطفل من
مهدده ووضعته بين ذراعي فنسنت .

وقال فنسنت وهو يتحسس جسد الطفل ويضعه إلى صدره :

— كم هو لطيف داني كجرو صغير ..

— تذبذبه أيها اللاحق ، فما هكذا يحمل الطفل ..

— أخشى أن أقول إنني لا أحسن في البيت سوى مسك فرشاة الرسم ..

وأخذ ثيو الطفل وحمله وأسنده إلى كتفه وكانت جدائع الطفل السمراء

تلمس رأسه وخيل لفنسنت أنهما تمثالان نحتا من حجر واحد .

فقال في استسلام :

- حسنا يا بني ثيو .. كل ميسر لما خلق له .. أنت تنجب فلذة كبدي
وأنا أبداع لوحات مصورة ..
- هكذا يا فذسنت .. هكذا ..

وفي هذه الليلة أقبل عدد من أصدقاء فذسنت ليرحبوا بعودته وكان أورييه
أول من وصل وهو فتى وسيم تتدلى خصلات شعره وله لحية نبتت على
جانبي ذقنه ولكنها تجردت من الشعر في الوسط، وتقدمه فذسنت إلى حجرة
النوم حيث كان ثيو قد علق باقة لمونتشيلي وقال له :

- في مقال لك ياسيد أورييه قلت إنني المصور الوحيد الذي أدرك
كنه ألوان الأشياء المعدنية النفيسة .. تأمل في هذه اللوحة لمونتشيلي .. إن
دقادا ، أنجزها قبل أن أصل لباريس بسنوات .

وبعد ساعة تخلى فذسنت عن محاولة إغراء أورييه وقدم له عوضاً عن
ذلك إحدى اللوحات عن شجر السرو في سان ريمي وذلك تقديراً لمقاله .
واندفع تولوز لوتريك وهو يلثم بعد أن صعد ست درجات ولكنه
كان كعمده دائماً طروباً بذيء اللسان .
وصاح وهو يصاوجه :

- فذسنت لقد مررت بلعاد وأنا أصعد الدرج فهل كان يبحث عنك
أم عني ؟

- بل عنك ولا ريب يا لوتريك ! فلن يستطيع أن ينال مني شيئاً .
- سأعقد معك رهانا يا فذسنت .. أراهنك أن اسمك سيكتب قبل
اسمي في كتابه الصغير .

- أراهنك . وما قيمة الرهان ؟

- العشاء في مقهى اثينيز وسهرة في الأوبرا .

فقال ثيو وهو يبتسم ابتسامة واهنة :

- ليتسكنم ثقلون من المزاح عن القبور أيها الزملاء ..

ودلف من الباب الأمامي رجل غريب وتطلع إلى لوثرليك ثم تهالك في مقعد في ركن قصي وانتظر الكل أن يقدمه لوثرليك ولكنه استأنف كلامه فسأله فنسنت .

ألا تقدم لنا صديقك ؟

فضحك لوثرليك وقال :

— هذا ليس صديقي .. إنه حارسي ..

وراف عليهم سكون أليم استمر لحظة ..

— ألم تسمع عن هذا يافنسنت ؟ لقد اختل عقلي شهرين .. وقالوا إن هذا يرجع إلى إدماني على الكحول .. ولهذا فإني الآن لا أشرب غير اللبن وسوف أرسل لك بطاقة دعوة لحضور حفلي القادم وأقدم لك صورة لي وأنا أحلب بقرة من الجهة غير الصحيحة ..

ووزعت عليهم جوهانا المشروبات، وكان الكل يتحدثون في الوقت نفسه، وأخذ الهواء يتشبع بدخان التبغ فأثار هذا ذكريات فنسنت عن الأيام الخالية في باريس .

وسأل فنسنت لوثرليك ..

— وكيف حال جورج سيرا ؟

— جورج ! أتريد أن تقول إنك لا تعلم ما حدث له .. ؟

فقال فنسنت :

— ماذا حدث ؟ إن ثيو لم يكتب لي أي شيء ..

— جورج مريض بالسل ويقول الأطباء إنه لن يعيش بعد الحادية

والثلاثين ..

— السل كيف ؟ لقد كان جورج ممتلئاً قوة وعافية فكيف بحق .. ؟

فقال ثيو :

— من الإجهاد في العمل يافنسنت .. لقد انقضت سنتان منذ رأيته آخر مرة ؟ كان جورج يجهد نفسه ويعمل كالشيطان وينام ساعتين أو

ثلاث ساعات في اليوم ويجهد نفسه بقية اليوم في العمل وحتى أمه الطيبة لم تستطع أن تنقذه ..
فقال فنسنت مفكراً :

— إذن لجورج سيقضى وشيكاً .

وداف روسو وهو يحمل لفنسنت كيساً مليئاً بالكعك المصنوع في البيت، وكان الأب تانجي يرتدى نفس القبعة المستديرة من القش وأهدى لفنسنت رسماً يابانياً وكلاماً معسولاً عبر به عن فرحتهم به مرحباً بعودته إلى باريس ..

وفي الساعة العاشرة أصر فنسنت على النزول لشراء رطل من الزيتون وأجبر كل واحد حتى حارس لوتريك على أكله .
وصاح قائلاً :

— لو قدر لك مرة أن ترى أشجار الزيتون الفضية المورقة في بروفنس
لأكلت زيتونا طوال حياتك .

فقال لوتريك :

— بمناسبة الحديث عن أشجار الزيتون يافنسنت .. كيف وجدت نساء آرلز؟ وفي صباح اليوم التالي حمل فنسنت عربة الطفل وأنزلها إلى الشارع لجوهانا عسى أن يستمتع الطفل بدفء الشمس ساعة على الطوار الخاص ثم عاد فنسنت إلى الشقة ووقف مشمراً عن أكمام قميصه وأخذ يتطلع إلى الجدران التي كانت تغطيها اللوحات .

ففي حجرة الطعام وفوق طنّف الموقد لوحة « أكله البطاطس » وفي غرفة المعيشة لوحة « منظر طبيعي في آرلز » و « منظر إيلي على نهر الرون » وفي غرفة النوم لوحة « بساتين ناضرة » ، وبما دفع اليأس في قلب خادمة جوهانا وجود أكداس هائلة من اللوحات القماشية الخالية من الإطارات تحت الأسرة وتحت الأريكة وتحت الصوان فضلاً عن أكداس غيرها في الحجرة الإضافية .

وبينما كان فنسنت ينقب عن شيء في مكتب ثيو عشر على حزم كبيرة من الرسائل مربوطة بخيط غليظ ودهش عندما وجد أنها رسائله إليه، لقد احتفظ ثيو بعناية بالغة بكل سطر دبحه له شقيقه منذ ذلك اليوم الذي غادو فيه فنسنت مدينة زفدرت إلى جويل في لاهاي منذ عشرين عاماً، وكانت تبلغ زهاء سبعمائة رسالة وعجب فنسنت لماذا أبقى عليها ثيو .

وفي مكان آخر من المكتب عشر على الرسوم التي كان يرسلها إلى ثيو خلال السنوات العشر الماضية ، وكانت كلها مرتبة بعناية وفق أوقات إرسالها : منها رسم عمال المنجم وزوجاتهم من عهد البوريناج وهم ينحتون فوق « ما استخرجوه من باطن الأرض، وهام هؤلاء الفلاحون يحرقون ويبذرون الحقول قرب «إتن» رجال مسنون ونساء بلغن من الكبر عتيا من لاهاي وحفارون في «الجيت» وصيادو السمك في «شفينينجن» وهام هؤلاء أكلة البطاطس ونساجون من «نوين» وهذه مطاهم ومناظر من شوارع باريس، وهذه رسوم تمهيدية لأزهار عباد الشمس وبساتين في آرلز، وهذه حديقة مصحة في سان ريمي .

وصاح قائلاً :

- سأقيم معرضاً للوحاتي !

وانتزع من الجدران كل اللوحات وألقى بأكداس الرسوم التمهيدية جانبا وجذب كل اللوحات القماشية الخالية من الإطارات من تحت كل قطعة من الأثاث وفرزها في عناية ورتبها وفق أوقات رسمها ثم انتقى منها الرسوم التمهيدية واللوحات الزيتية التي تتم عن المكان الذي كان يعمل به . .

وفي مدخل البيت في بهو المنزل ثبت نحو ثلاثين رسماً من دراساته عن اليورانيين وهم يخرجون من المناجم وينحنون على أفرانهم البيضاء الشكل ويتناولون عشاءهم في أكوأخهم الصغيرة .

وقال لنفسه :

— هذه حجرة الفحم :

ثم تطلع فاحصاً باقى المنزل واستقر رأيه على أن الحمام هو البقعة التالية فى الأهمية فوقف على مقدم ودق على الجدران الأربعة ليعلق صفاً من دراساته فى إن فى خط مستقيم ودراساته عن فلاحات البرابانت ..

— وهذه ولا ريب حجرة قلم النجار !

ووقع اختياره بعد ذلك على المطبخ فوضع فيه رسومه التهيدية عن لاهى وشفيينجن، ومنظرا من نافذته على الفناء الخشبى، والسكشبان الرملية، وسفن صيد وهى تسحب إلى الشاطئ وقال :

— الحجرة رقم ثلاثة غرفة الألوان المائية !

ووضع فى الحجرة الإضافية لوحات لأصدقائه دى جروتر وأكلة البطاطس وكانت أول لوحة زيتية له عبر فيها تماماً عن ذات نفسه وثبت حولها من كل الجهات عشرات من دراساته عن النساجين فى نوينين والفلاحات فى الصباح وفناء المقبرة خلف كنيسة أبيه وبرجها المستدق الرشيق .

وعلق فى حجرة نومه اللوحات الزيتية التى رسمها فى باريس ، تلك التى كان قد وضعها على جدران بيت ثيو فى شارع ليبيك ليلة رحيله إلى آرلز .. وملاً حجرة المعيشة بكل لوحة صارخة الألوان رسمها فى آرلز وأمكنه أن يثبتها على الجدران ، ووضع فى غرفة نوم ثيو اللوحات التى أبدعها فى أثناء إقامته فى المصحة فى سان ريمى ..

وعندما انتهى من مهمته قام بتنظيم أرض الحجرة وارتدى قبعته ومعطفه وهبط درجات الطوابق الأربعة ودفع عربة سميّه فى شمس شارع سبتي بيجال الساطعة، بينما أمسكت جوهانا بذراعه وأخذت تحدّثه بالهولندية. وأقبل ثيو وهو يخطو من شارع بيجال بعد الساعة الثانية عشرة بقليل ولوح

لها محبياً في مرجح ثم هروا ، وانتزع الطفلس من عربته في حركة تنطلق بالحرب وتركوا العرببة مع حارس الباب وصعدوا الدرج وهم يتحدثون في نشاط وعندما وصلوا إلى الباب بالشارع أوقفهم فنسنت وقال :

- سأخذك أنت يائيو وجوهانا إلى معرض فان جوخ ولذا أعدا نفسيكما لحوض التجربة ..

فسأله ثيو :

- معرض يافنسنت ! أين ؟

- فتعال فنسنت :

- أغمضنا عيونكما ..

ودفع الباب ليفتحه ودلف آل فان جوخ الثلاثة إلى البيت وحمل ثيو وجوهانا في ذهول ..

وقال فنسنت :

- عندما كنت أعيش في إثن قال والدي: إن الخير لا يمكن أن يكون حصاد الشر ، فأجبتته قائلاً : إنه يمكن وليس هذا فحسب ، بل إنه ما ينبغي أن يحدث في الفن . وإذا تفضلتما معي أيها الأخ وأيتها الأخت العزيزة فسأريكما قصة رجل بدا حياته ساذجاً كطفل غر ، وبعد عشر سنوات من الجهد المتصل توصل إلى . . . ولكنكما ولا ريب ستحكمان بنفسكما . .

وقادهما من غرفة إلى غرفة وفق تسلسل الزمن التاريخي بالضبط ووقفوا يتفرجون كما لو كانوا ثلاثة من زوار إحدى قاعات الفن : وأخذوا يتطلعون إلى هذا العمل الذي يحكي قصة حياة رجل ، وأحسوا بالفنان وهو يكبر في بطنه أليم ثم رأوه وهو يضرب على غير همدى في طريق نصيجه الفني للتعبير ، وشهدوا فورة اضطرابه التي عرضت له في باريس وصورة انفعاله الشديد وصوته القوي في آرنز الذي انطلق مدوياً بعد أن اجتاز الطريق الوعر إثر

سنوات من العمل الشاق ... تم تحطيم كل شيء .. لوحاته في سان ريمي ،
وما لاقاه من نصب شديد في الاحتفاظ بقيمة إبداعه ثم الانحدار ببطء ..
والانحدار .. ثم الانحدار .. ثم الانحدار .. وتطلعوا إلى المعروضات كما
يتطلع إليها الغرباء من المعارضين ورأوا أمامهم في نصف ساعة قصيرة قصة
بجملته لحياة رجل على الأرض . وقدمت جوهانا غداء تقليدياً من باريانت وكان
فنسنت سعيداً لتذوقه طعاماً هولندياً مرة أخرى . وبعد أن رفعت ،
الصحاف أشعل الرجلان غليونيهما وأخذتا يتجاذبان أطراف الحديث ..
ينبغي أن تراعى يافنسنت عمل كل ما أوصاك به الدكتور جاشيت .

— أجل ياثيو .. سأفعل هذا ..

— لأنه كما تعلم إحصائي في الأمراض العصبية ، وإذا نفذت تعليماته
فسوف تشفى ولا ريب .
— أعدك بهذا ..

— وجاشيت رسام أيضاً وهو يعرض أعماله كل عام مع المصورين
المستقلين ، باسم ب — فان ريبيل ..
— وهل لوحاته جيدة ياثيو ؟

— ينبغي ألا أقول هذا .. ولكنه أحد هؤلاء الرجال الذين أوتوا
الموهبة للتعرف على العبقرية ، وقد جاء إلى باريس وعمره عشرون عاماً
لدراسة الطب وأصبح صديقاً لسكورييه ومورجيه وشانفليري وبرودون .
واعتماداً أن يتردد على مقهى لا نوفيل اثينز وسرعان ما أصبح صديقاً حميماً
لمانيه ورينوار وديجا ودورانت وكلود مونيه وقد قام دوييني ودومينييه
بالتصوير في بيته قبل أن يعرف هذا الشيء باسم الانطباعية بسنوات ..
— حقاً ..

— كل ما عنده تقريباً صور ، إما في حديقته وإما في غرفة معيشته وقد ذهب
لصيصارو وجيزمان وسيسلي وديلاكروا جميعاً ليعملوا مع جاشيت في

أوفرس ، وسوف تجدد على الجدران أيضا لوحات لسيزان ولوتريك وميرا ،
وأقول لك يا فنسنت إنه ليس ثمة مصور مشهور منذ منتصف هذا القرن لم
يكن صديقا لدكتور جاشيت.

— أوه اصبرا ياثيو . . لحظة فانت تروغنى . . أين مكانى بين هذه
الصحبة الذائعة الصيت، وهل رأى شيئا من أعمالى؟.

— يالك من غبى . . لذن، فلم تظن أنه يتوق لمجيثك إلى أوفرس ؟ .

— وأنى لى أن أعرف . . ؟

— لقد رأى أن مناظر لياى آرلز التى عرضت لك فى آخر معرض
للمصورين المستقلين أحسن اللوحات المعروضة كاما، وأقسم لك أننى عندما
عرضت عليه لوحات زهور عباد الشمس التى صورتها لجوجان، والمنزل
الاصفر اغرورقت عيناه بالدموع، واستدار إلى وقال : « إن أخاك فنان
عظيم يا سيد فان جوخ فلم يسبق لى أن رأيت من قبل شيئا يماثل صفرة
زهور عباد الشمس هذه فى تاريخ الفن وهذه اللوحات وحدها ياسيدى
ستخلد ذكر أخيك ، .

فك فنسنت رأسه وعبس ثم قال :

— حسن . . إذا كان هذا هو شعور الدكتور جاشيت نحو لوحتى من
أزهار عباد الشمس فإننا سنكون على وفاق .

(٢)

وكان الدكتور في المحطة في انتظار ثيو وفنسنت ، وكان رجلا صغير
الجسم عصيا ثائرا . وله عينان حزيتان ، وقد صافح فنسنت بحرارة
وقال :

— أجل . . أجل . . مستجد أن هذه القرية قرية نموذجية للصور وسوف
تحبها ولا ريب . أرى أنك قد أتيت معك بحامل لوحاتك . . ألدك كفايتك
من الألوان ؟ ينبغي أن تبدأ العمل فورا . . سوف تتناول معي طعام الغداء
في منزلي بعد ظهر اليوم أليس كذلك ؟ هل أحضرت معك بعض لوحاتك
الجديدة ؟ أخشى ألا تجد بغيتك من أصفر آرز هنا . . ولكن ثمة أشياء
أخرى . يجب أن تأتي لتصور في منزلي ، وسوف أعطيك بعض الزهريات
والمناضد التي صورها كل مصور من دويني إلى لو تريك . . كيف حالت ؟
إنك تبدو في صحة جيدة . . هل تعتقد أنك ستحب الإقامة هنا ؟
نعم . . نعم . . ستجد منا كل رعاية . . وسوف نخلق منك رجلا
صحيحا معافا .

وأطل فنسنت من فوق رصيف المحطة على رقعة حافلة بالأشجار يجرى
فيها نهر الواز بحوضه الأخضر خلال الوادي الخصيب ، وجرى قليلا إلى
أحد الجانبين ليرى المنظر بوضوح ، بينما أخذ ثيو يتحدث مع الدكتور
جاشيت في صوت خافت وقال :

— أرجو أن تولى أخى عنايتك وإذا شاهدت عليه أية أعراض تم عن
أزمة مقبلة فأرجو أن تترك لي في الحال إذ ينبغي أن أكون معه عندما . . .
ويجب ألا يسمح له بـ فتنة من يقول إن . . .

فقاطعه الدكتور جاشيت قائلا وهو ينقل قدما ويضع أخرى ويفرك
بشدة لحيته الصغيرة يا بهامه ..

- صه اعه ا إنه مجنون ولا ريب .. ولكن ما مصيرك أنت ؟
كل الفنانين مجانين .. وهذا خير ما يتصفون به .. وإنى لأحبهم كلهم على
هذا النحو .. بل أتمنى أحيانا أن أكون مجنونا ! فلا تكاد روح طيبة تخلص
من مزيج من الجنون !

أعرف من قال هذا ؟ قاله أرسطو ...

- أعلم هذا يادكتور ولكنه لا يزال شابا ولم يتعد السابعة والثلاثين
ولم يستمتع بعد بأحسن سنى عمره ..

فاختطف الدكتور جاشيت قبعته الغريبة البيضاء ومر بأصابع يده في
ثنايا شعره عدة مرات دون سبب واضح ثم قال :

- دعه لي فإنى أعرف كيف أعالج المصورين .. سأخلق منه رجلا
صالحا في غضون شهر ..

وسوف أجعله يبدأ العمل وهذا كفيلا بشفائه ..

وسوف أحمله على رسم صورتي الشخصية فورا عصر اليوم ، وسوف
أشفي عقله تماما بما به من مرض ..

وعاد فنسنت وهو يجذب أنفاسا من هواء الريف النقي وقال :

- ينبغي أن تأتى بجو والصغير إلى هنا يائيو .. إنه لمن الجرم تربية
الأطفال في المدينة ...

فصاح جاشيت ..

- نعم .. نعم .. ينبغي أن تأتى يوم الأحد وتقضى طوال
اليوم معنا ..

— أشكرك . . لعمرى إني أحب هذا كثيرا . . ها هو قطارى . . إلى اللقاء يا دكتور جاشيت وشكراً لعنايتك بأخى . . أرجو أن تكتب لى كل يوم يا فنسنت . .

وكان الدكتور جاشيت معتادا مسك الناس من المرفق ودفعهم فى الاتجاه الذى يريد منهم أن يذهبوا نحوه وقد دفع فنسنت إلى الأمام واستمر يتدفق فى حديث هصبى بصوت عال وكان يخلط فى كلامه ويحجب عن أسئلته التى يلقيها ويغرق فنسنت فى مونولوج واللعب يتناثر من فمه فقال :

— هذا هو الطريق المؤدى إلى القرية . . هذا الطريق الطويل . رأسا إلى الأمام ولكن تعال معى فسوف آخذك إلى أعلى التل وأتيح لك رؤية منظر حقيقى . ألا تهتم بالسير وعلى ظهرك حامل الصور؟ هذه هى الكنيسة الكاثوليكية على اليمين . هل لاحظت أن الكاثوليك يبنون دائما كنائسهم على تل حتى يتطلع إليهم الناس؟ عجباً لا بد أننى تقدمت فى السن فهذه الدرجة تبدو أشد وعورة كل عام . هذه حقول قمح جميلة . . أليست كذلك؟ وإنها تحيط بأوهرس وينبغى أن تأتى وتصور يوماً هذا الحقل ولا ريب أنه ليس فى صفرة القمح فى روفنس .

نعم هذه هى المقبرة إلى اليمين وقد أقنأها هنا على قمة التل لتطل على النهر والوادی . أتعظ أن الموتى يهتمون بالمسكان الذى يرقدون فيه؟

لقد أتحنا لهم أجمل بقعة فى كل وادی الواز . هل لنا أن ندخل؟

لسوف تتاح لك فرصة رؤية منظر النهر بوضوح تام وأنت بالداخل وسوف يكون فى وسعنا أن نرى حتى بوانتواز . . نعم ، إن الباب مفتوح وما هليك إلا أن تدفعه . . حسن . . والآن أليس هذا سارا؟ لقد بنينا الجدران عالية لنتقى الريح ونحن ندفن هنا الكاثوليك والبروتستانت على السواء . .

وزك فنسنت حامل الصور ينزاق من على ظهره وسار قليلا إلى الأمام بعيدا عن دكتور جاشيت ليهرب من سيل الكلمات المتدفق من فمه . وكانت المقبرة التي أقيمت على قمة التل نفسه مربعة الشكل تماما وأقيم جزء منها على المنحدر . . وانطلق فنسنت إلى الحائط الخلفي حيث يستطيع أن يرى وادي الواز بأجمعه وهو ينساب خلفه . وكان النهر الأخضر البارد يشق طريقه برشاقة بين شطآن الخضرة الناضرة . ورأى إلى يمينه الأسقف المصنوعة من جريد النخل لمنازل القرية ، وخلفها على بعد قصير منحدر آخر أقيمت على قمته قلعة ، وكانت شمس مايو الساطعة تغمر المقبرة ، وزهور الربيع الباكورة تملأ أرجاءها وكانت السماء فوقها زرقاء صافية . . وكان الهدوء الجميل السائد هو ذلك الهدوء الذي ينبعث من القبر .

وقال فنسنت :

— املك تعلم يا دكتور جاشيت أن سفري للجنوب قد أفادني والآن فاني أرى أن الشمال أحسن . . تأمل ذلك اللون البنفسجي عند شاطئ النهر البعيد حيث لم تؤثر الشمس في اللون الأخضر .

— نعم . . نعم . . بنفسجي ، لعمرى إن الأمر كذلك ، بنفسه . .

وغنم فنسنت قائلا :

— كم هي صحية وكم هي هادئة تزيح الأعصاب .

وعرجا مرة أخرى أسفل التل عبر حقول القمح والكنيسة واتخذنا الطريق الذي ينساب على يمينهما رأسا إلى قلب القرية . .

وقال الدكتور جاشيت :

— يوسفنى ألا أستطيع استضافتك في بيتي وهذا بما يوسف له !

فليس عندنا متسع لإقامتك ولهذا فاني سأخذك إلى فندق لا بأس به وسوف تأتي كل يوم لترسم في منزلي ويمكنك أن تعتبر نفسك في منزلك .

وأمسك لكترور بذراع فنسنت ودفعه خلف بيت العدة أسفل شاطئ.
النهر تقريبا حيث أقيم فندق صيفي .. وتحدث جاشيت مع صاحبه فوافق
على إعطاء حجرة لإقامة فنسنت مع الطعام مقابل ستة فرنكات يوميا وصاح
جاشيت :

— سأتركك برهة المستريح ولكن إياك ألا تحضر في الساعة الواحدة
لتناول طعام الغداء، وهات معك حامل الصور فينبغي أن ترسم صورتي
الشخصية واسمح لي أن أرى بعض لوحاتك الجديدة ولا ريب أن حديثنا
سيكون ممتعا أليس كذلك ..؟

وحالما اختفى الطبيب من ناظريه جمع فنسنت حاجياته وسار في اختبال
إلى باب الخروج فقال له صاحب الفندق :

— صبر لحظة .. إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه فنسنت :

— أنا عامل ولست رأسماليا ولا طاقة لي بدفع ستة فرنكات في اليوم.
وعاد إلى الميدان ، وهثر على مشرب صغير يقع تماما أمام بيت العدة
اسمه رافوس ، واستطاع الحصول على حجرة به لمبئته لقاء ثلاث فرنكات
وخمسين سنتا في اليوم تشمل نفقات الطعام .

وكان مشرب رافوس ملتقى الفلاحين والعمال الذين يشتغلون في الجهات
المحيطة بأوفرس ووجد فنسنت بارا صغيرا على يمينه وهو داخل ، وعلى طول
الطريق المؤدى إلى الجانب المظلم من الحجرة المتهالكة وضعت موائد ومقاعد
حشوية خشنة . وخلف المشرب وراء البار كانت ثمة منضدة للبيارد ومغطاة
بقطعة قذرة ممزقة من الجوخ الأخضر وكانت موضع فخار ونبع سرور
صاحب رافوس . وفي الخلف باب يؤدي إلى المطبخ الخلفي وخارج هذا
الباب تماما درج يؤدي إلى ثلاث حجرات للنوم وكان فنسنت يستطيع من

نافذته أن يرى برج الكنيسة الكاثوليكية وجزء أصغرها وشيخاً من جدار المقبرة لونه يبدو بنياً صافياً وسط ضوء شمس أوفرس اللطيفة .

وتناول حامل صورته وألوانه وفراجينه وصورة شخصية لفتاة من آرلز وانطلق باحثاً عن جاشيت وكان الطريق نفسه الذي يبدأ من المحطة ويؤدي إلى مشرب رافوس يتسلل خارج الميدان نحو الغرب ويصعد درجة أخرى ، وبعد أن سار فنسنت قليلاً وصل إلى بقعة يتشعب منها ثلاثة طرق . ورأى أن الطريق الذي يقع على اليمين يؤدي إلى التل عبر القصر وأن الطريق الذي يقع على اليسار يخترق حقول البازلاء ويؤدي إلى شاطئ النهر . وكان الدكتور جاشيت قد أخبره أن يتخذ الطريق الأوسط الذي يسير حول محيط التل . وسار فنسنت بهبطاً وهو يفكر في الطبيب الذي عهد إليه برعايته ولاحظ كيف استبدل بالمنازل القديمة ذات الأسقف المصنوعة من جريد النخل فيلات فخمة وأن طبيعة ذلك الجانب من الريف قد تبدلت برمتها . وجذب فنسنت أكرة نحاسية مثبتة في جدار عال من الحجر فأقبل جاشيت مهرولاً إثر سماعه دقة الجرس وتقدم فنسنت صاعداً ثلاث طبقات من الدرجات الحجرية إلى أن أوصله الحديقة حافلة بالأزهار في السطح ، وكان المنزل متيناً قوى البناء ومكوناً من ثلاث طوابق . وثنى الطبيب ذراع فنسنت وأمسكه من مرفقه ودفعه إلى الفناء الخلفي حيث كان يربي بعض البط والدجاج والديكة الرومية والطواويس وحاشية من القطط غير المتجانسة .

وقل جاشيت بعد أن روى له للتاريخ الكامل لحياة كل طائر في الساحة .
.. هيا بنا يا فنسنت إلى غرفة المعيشة .

— وكانت غرفة المعيشة تقع في مقدمة المنزل وهي حجرة واسعة لها سقف مرتفع واسكن لم يسكن فيها إلا نافذتان صغيرتان تطلان على الحديقة ورغم اتساع الحجرة فقد كانت مكتظة تماماً بقطع الأثاث والقطع الأثرية (م ٢٤ — فان جوخ)

والتحف الصغيرة وكان الرجلان يجدان صعوبة بالغة في الحركة حول المائدة التي تتوسطها وكانت الحجرة مظلمة بسبب ضيق النوافذ ولاحظ فنسنت أن كل قطعة فيها سوداء . وهرع جاشيت ليلتقط الأشياء ويدفعها في يدي فنسنت ثم يأخذها منه قبل أن تتاح لفنسنت فرصة التطلع إليها وقال . .

— انظر . . أرى هذه الباقة التي على الحائط ؟ لقد استخدم ديلا كروا هذه الزهرية لحفظ هذه الأزهار . . تحسسها . . ألا تحس بأنها تشبه تلك التي صورها ؟ هل ترى هذا الكرسي ؟ لقد جلس عليه كورييه بجوار النافذة عندما صور الحديقة أليست هذه أطباقاً بديعة ؟ لقد أحضرها لي ديولان من اليابان وقد قام كلود مونييه برسم هذا الطبق في لوحة عن الطبيعة الصامتة إنها في أعلى البيت تعال معي فسوف أريها لك . وعلى مائدة العشاء قابل فنسنت بول بن جاشيت وهو صبي رشيق وسيم في الخامسة عشرة من عمره وقدم جاشيت — وكان رجلاً عذراً سيئ المزاج — خمسة أصناف من الطعام في العشاء . وكان فنسنت قد تعود على تناول العدس والخبز الأسود في سان ريمي . . فأحس بالضيق بعد تناول الطبق الثالث ولم يستطع أن يصيب شيئاً آخر من الطعام . .

وصاح الطبيب قائلاً :

— والآن ينبغي أن نشرع في العمل . . سوف ترسم لي صورة شخصية يافنسنت وسوف أجلس في مكاني هذا فهل اتفقنا ؟

— أخشى أن أقول إنه يجب أن تزداد معرفتي بك يادكتور وإلا فلها لن تكون صورة شخصية معبرة . .

— قد تكون مصيباً في هذا . . قد تكون مصيباً . . وإلا كنك سترسم شيئاً ولا ريب ؟ وسوف تسمح لي برؤياك وأنت تعمل ؟ فإن تواق لمشاهدتك . .

— لقد رأيت منظراً في الحديقة أود أن أصوره ..

— حسناً ! حسناً ! سأقيم لك حامل صورك .. بول هيا ارفع حامل
صور السيد فنسنت إلى الحديقة .. وسوف تريذا أين تريد أن نضعه ..
وسأخبرك عما إذا كان قد وقع اختيار أى مصور آخر على هذه البقعة
ذاتها ..

وبينما كان فنسنت يعمل كان الطبيب يحوم حوله فى دوائر ويومئ له
بإشارات تدل على السرور والخيرة والدهشة وصب على أذن فنسنت سيلا
متدفقا من النصائح ترصدها صيحات إعجاب حادة وقال :

— نعم .. نعم .. لقد أصبحت هذه المرة .. إنها بحيرة قرمزية ..
انتهى وإلا أفسدت هذه الشجرة .. آه نعم .. نعم .. لقد أصبحت الآن .. لا ..
لا داعى للزبد من الكوبالت فلست فى بروفس .. والآن دعنى أرى ..
أجل ، أجل إنها رائعة .. مهلا .. مهلا يا فنسنت .. ضع قليلا من اللون
الأصفر فى هذه الزهرة .. أجل .. أجل هكذا تماما .. ولكن خبرنى كيف
تجمل الأشياء تنبض بالحياة .. لعمرى إن فرشاتك لا ترسم أبدا طبيعة صامتة ..
لا .. لا أرجوك .. رويدك ليس بهذا القدر .. آه أجل .. أجل ..

الآن وضيت نفسا .. حقا إنها رائعة ..

وتحمل فنسنت ما استطاع حديث الطبيب وحركاته ثم التفت إلى جاشيت
الراقص وقال له :

..... ألا ترى يا صديق العزيز أن إفراطك فى الحركة وانفعالك البالغ إلى
هذا الحد مما يضر بصحتك ؟ لقد كان ينبغى أن تعرف بصفتك طبيبا مدى
أهمية الاحتفاظ بالهدوء ..

ولسكن جاشيت لم يكن فى وسعه أن يظل هادئا وهو يرى أحدا يصور ..
وعندما انتهى فنسنت من رسمه التهيدى دخل البيت مع جاشيت وعرض عليه

صورة الفتاة الآرلزية التي أحضرها معه ، فنظر إليها الطبيب بعطف عينه في سخرية وبعد جدل طويل استخدم فيه لسانه الذرب وبعد موازنة بين محاسنها وعيوبها قال :

— كلا لا أستطيع أن أتقبلها .. ليس في وسعي أن أرضى عنها ولست أدري ماذا تحاول أن تعبر عنه ..

فأجاب فنسنت :

— إنى لم أحاول التعبير عن أى شيء فهى ليست إلا وحيا من فتيات آرلز إذا راق لك هذا التعبير وقد حاولت أن أعبر عن صفاتها بلغة الألوان ..

فقال الطبيب وهو يئن :

— بما يؤسف له أنى لا أستطيع الرضا عنها .

— أسمح لى بأن ألقى نظرة على مجموعتك التى تفتتها فى البيت ؟

— طبعاً .. طبعاً . تفضل وتفرج كما تشاء . أما أنا فسوف أبقى هنا فى فى رفقة هذه السيدة وأرى إذا كان فى وسعى الرضا عنها .

وأخذ فنسنت يحوس ساعة فى أنحاء الدار وكان يول الخدوم يتقدمه من غرفة لأخرى ووجد لوحة لجيو مان ملقاة فى إهمال فى أحد الأركان وكانت لامرأة عارية تمددت على الفراش وكان من الواضح أن اللوحة قد أهملت حتى أصابها التشقق .. وبينما كان فنسنت يتفحصها أقبل الدكتور جاشيت مهرولا وقد بدت عليه أمارات الانفعال وصب فى أذنيه وإبلا من الأسئلة حول لوحة فتاة آرلز ..

وسأله فنسنت :

— أتريد أن تقول إنك كنت تتطلع إليها طوال هذا الوقت ؟

— أجل . أجل لقد بدأت أستسيغها وأحس بها ..

أرجو أن تغفر لي وقاحتى يادكتور جاشيت ولكن هذه لوحة رائعة لجيو مان وإذا لم تبادر بوضعها في إطار فإنها ستتلف لا محالة . .

ولكن جاشيت لم يعره أذانا صاغية وقال :

— تقول إنك تنهج منهج جوجان في الرسم . . إنى لا أقبل هذا . . هذا التنافر بين الألوان . . إنه يقتل الأنوثة . . لا ، إنه لا يقتلها فحسب بل . . حسنا . . سأذهب لألقى عليها نظرة أخرى فقد بدأت أستسيغها ولكن ببطء . . ببطء . . لقد بدأت تبرز لي من اللوحة . .

وأمنى جاشيت بقية عصر اليوم وهو يحوم حول صورة الفتاة الأرلزية ويشير إليها ويلوح بذراعيه . . ويتحدث مع نفسه ويجيب على أسئلة لا حصر لها ويتخذ آلاف الأوضاع وما إن أرخى الليل سدوله حتى أخذت صورة المرأة بمجامع قلبه وران عليه صمت بهيج . .

وقال وهو يقف أمام الصورة مستسلما في إعياء :

— ما أشق البسطة . .

— أجل . .

— إنها جميلة حقاً . . ولمعنى ما أحسست قط من قبل بمثل هذا الإحساس العميق بأصالة هذه اللوحة . .
فقال فنسنت :

— إنها لك يا دكتور إذا كانت تروقك ولانى أهديك أيضاً اللوحة التى رسمتها عصر اليوم فى الحديقة . .

— ولكن لم تهبنى كل هذه اللوحات يا فنسنت ؟ إنها ثمينة . .

— قد تضطر قريباً إلى العناية بى ولن يتوفر لى من المال ما أوفى به دينى لك ولهذا فإنى أعطيك هذه اللوحات مقابل أتعابك . .

— ولكنى يا فنسنت لا أراك من أجل المال ولا أفل هذا إلا بدافع صداقتنا .

— ليسكن ! إذن فإنى أهديك هذه اللوحات عربوناً للصداقة . .

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

(٣)

واستقر رأى فنسنت على أن يمارس التصوير مرة أخرى. وفي الساعة التاسعة ذهب لينام بعد أن ظل يرقب العمال وهم يلعبون البليارد في مقهى « رافوس » في ضوء مصباح باهت الضوء واستيقظ في الساعة الخامسة وكان الطقس جميلاً والشمس ترسل أشعتها الحانية على خضرة الوادي اليانعة . وكانت فترات مرضه وتعطله الإجباري في سان بول قد تركت أثرها في بدنه فانزلقت من يده فرشاة الرسم .

وطلب من ثيو أن يبحث إليه برسوم « بارج » التي خطها بالفحم على سبيل الدراسة ليقوم بنسخها لأنه كان يخشى ألا يحسن الرسم إذا لم يدرس مرة أخرى الذنب ورسم الأجساد العارية وجلس خلال « أوفرس » بحثاً عن بيت صغير يستقر فيه بصفة دائمة وتسامل عما إذا كان ثيو على حق في اعتقاده أن هالك امرأة في مكان مامن العالم تقبل أن تكون شريكه حياته . وبسط أمامه بعض اللوحات التي رسمها في سان ريمي وهو جد متلهف على تحسينها ببعض اللمسات الأخيرة . بيد أن نشاطه المفاجيء لم يكن إلا عارضاً مؤقتاً وانعكاساً لطاقة عظيمة من العسير أن تتبدد . .

وضاق ذرها بمنزلته الطويلة في المصح وخيل إليه أن الأيام قد استطالت إلى أسابيع وكان يشعر بالضيق فلم يعرف كيف يشغل أوقات فراغه لأنه لم يقو على الرسم طول الوقت بل لم تساوره فيه الرغبة وقبل الحادث الذي وقع له في آرلز كان اليوم يمر من السحاب ولا يكاد يكفى للفراغ من عمله أما الآن فإنه يبدو له مملاً لا نهاية له .

ولم تغره بالرسم إلا مناظر قليلة من الطبيعة . . وعندما بدأ العمل تخامره إحساس غريب بالهدوء وعدم الاكتراث وذهبت عنه عاطفته المشبوبة للرسم والتي كانت تجري كل لحظة في دماثة الحارة . وغدا يرسم

الآن رسوماً تمهيدية كالتى كان يرسمها لمجرد تمضية أوقات الفراغ ولم يكن يبدو عليه أى اهتمام إذا لم يستطع أن ينتهى من لوحة قبل حلول المساء ..

وظل الدكتور جاشيت صديقه الوحيد فى أوفرس وكان جاشيت قد أمضى معظم أيامه فى مكتب استشاراته بباريس .

وكثيراً ما كان يتردد على مقهى رافوس ليلاً ليتطالع إلى اللوحات وكان فنسنت كثيراً ما يعجب لتلك النظرة الحزينة التى تبدو فى عيني الطبيب وسأله :

— لم تشعر بالتمعاسة يا دكتور جاشيت ؟

— آه يا فنسنت .. لقد اشتغلت سنوات طويلة ولم أفعل من الخير إلا القليل فالطبيب لا يرى سوى الألم ولا شىء غير الألم .

فقال فنسنت :

— لىكم يسعدنى أن أستبدل بأوجاعى آلامك ..

وأشرقت عينا جاشيت بلهفة هارمة وقال :

— أواه .. كلا يا فنسنت إن التصوير أجمل ما فى الوجود وطالما تمنيت أن أكون فناناً ولكن أنى لى هذا وأنا لا أستطيع أن أجد إلا ساعة من الفراغ هنا وهناك إذ إن عندى الكثير من المرضى فى حاجة إلى، وركع الدكتور جاشيت وجذب كوماً من اللوحات من تحت فراش فنسنت وأمسك بلوحة متألقة لزهرة صفراء من عباء الشمس ورفعها أمام عينيه ثم قال :

— لو استطعت أن أصور لوحة كهذه يا فنسنت لتغيرت نظرتى وطابت لى الحياة . لقد أمضيت سنوات وأنا أداوى الناس وأخفف آلامهم ولكنهم كانوا يموتون فى النهاية فماذا يهم ؟ وهذه الزهرات من

عباد الشمس فيما شفاء للناس من آلام قلوبهم وإسعاد لهم . . . لمئات السنين . . . ولهذا أنت ناجح في حياتك ولهذا يجب أن تكون سعيداً . . . وبعد مضي بضعة أيام رسم فنسنت صورة شخصية للدكتور وهو يرتدى قلنسوة بيضاء وسترة زرقاء على أرضية كوبالت زرقاء .

ورسم الرأس بلون خفيف وفاتح جداً والدين بلون البشرة الفاتح وجعل جاشيت يتخذ وضعاً ينحن فيه على منضدة حمراء عليها كتاب أصفر ونبات أصبغ العذراء وأزهار أرجوانية اللون وعندما انتهى من اللوحة طرب إذ رأى أن الصورة تشبه صورته التي رسمها لنفسه في آرلز قبل وصول جوجان .

وكان إعجاب الطبيب بالصورة بالغاً حد التعصب ولم يسمع فنسنت من قبل مثل هذا السيل من الثناء والإطراء وأصر جاشيت على أن يرسم فنسنت نسخة له ولما وافق فنسنت تجاوزت فرحة الطبيب كل الحدود وصاح قائلاً :

— ينبغي أن تستخدم آلة الطباعة الموجودة في غرفتي العليا يا فنسنت فسوف نذهب إلى باريس ومعنا كل لوحاتك ونطبع منها صوراً على الحجر ولن يكلفك هذا سنتياً واحداً . . . تعال معي وسوف أريك ورشتي . . . وكان عليهما أن يصعدا سلماً خشبياً ويدفعا باباً مسحوراً ليدلفا إلى الغرفة العليا وكان باستديو جاشيت أكوام عالية من الأدوات الغريبة والآلات التي لا تخطر على بال وذن فنسنت أنه في معمل كيميائي في العصور الوسطى .

ولا حظ فنسنت وهو يهبط الدرج أن لوحة جيومان للفتاة العارية ما زالت ملقاة في إهمال فقال :

— أراني مضطراً يا دكتور جاشيت إلى الإلحاح عليك بأن تضع هذه في إطار . . . إنك ت تلف تحفة رائعة . . .

— نعم .. نعم إني ألتزم وضعها في إطار .. متى نستطيع أن نذهب إلى باريس ونحصل على لوحاتك ؟ نستطيع بالحجر ما تريد من اللوحات وسوف أمدك بالمواد اللازمة . وانصرم شهر مايو في هدوء وأقبل شهر يونيو ورسم فنسنت لوحة للكنيسة الكاثوليكية على التل .. وكان يجهد نفسه في منتصف العصر ولم يكن يهتم بالفراغ منها ونجح بفضل مشابرة العظيمة في تصوير حقل القمح وهو يرقد على الأرض ورأسه غارق تقريباً في القمح كما رسم لوحة كبيرة لمنزل مدام دوييني ولوحة أخرى لبيت أبيض وسط الأشجار وسماء سوداء ينبعث من نوافذه ضوء برتقالي اللون وسط خضرة داكنة ورقعة ذات لون وردي قائم وأخيراً صور تأثير حلول الليل على شجرتي كثري فبدتا سوداوين تحت سماء صفراء .

ولكنه لم يعد يستسيغ طعماً للرسم وكان يصور بحكم العادة لأنه لم يكن هناك ما يفعله سوى ذلك، وكانت قوة الاندفاع الرهيبة التي اكتسبها خلال عشر سنوات من العمل الجسيم ما زالت تدفعه قليلاً وبينما كانت المناظر الطبيعية تحرك جوارحه وتشير أفعاله من قبل فإنها لم تعد تقابل منه إلا بعدم الاكتراث ..

والله كان يغمغم قائلاً لنفسه وهو يذرع الطرقات وعلى ظهره حامل الصور متطلعاً إلى شيء يحفره على الرسم :

لقد رسمت هذا مراراً .. ولم أعد أرى فيه شيئاً جديداً يمكن أن أضيفه فلم أكرر نفسي ؟ لقد كان الأب . ميلر ، على حق عندما قال : إني أفضل ألا أقول شيئاً ولا أعبّر عما يجيش في نفسي تعبيراً ضعيفاً ..

ولم يخذل حبه للطبيعة ولكنه لم يعد يحس بالحاجة الماسة إلى أن يلقى بنفسه بين أحضان منظر ويبدع له صورة . كان قد احترق . ولم يرسم خلال شهر يونيو بأكمله إلا خمس لوحات . كان متعباً ، ومنهوك القوى

وشعر بالفراغ وأحس بأنه قد استنزف كل ما عنده كما لو كانت مئآت الرسوم ومئآت اللوحات التي تدفقت فيها عبقريته في السنوات العشر الماضية قد انفذت منه كل ذرة صغيرة من حياته .

وأخيراً استمر في العمل لأنه أحس بأنه مدين لثيو بما أنفق عليه في سنوات الاستثمار . ومع ذلك فإنه عندما كان يدرك وهو يصور أن بيت ثيو قد ازدحم بلوحات لا يمكن أن تباع ولو عاش عشرة أضعاف عمره ، كان يصاب بغثيان خفيف ويدفع حامل لوحاته في اشمزاز .

وكان يعلم أنه سيصاب بنوبة أخرى في يوليو عندما تنتهي فترة الشهور الثلاث وكان يتمسكه بالقلق خوفاً من أن يقدم على فعل جنوني تحت تأثير النوبة فينبذ في القرية ولم يعمل مع ثيو أية ترتيبات مالية نهائية عندما غادر باريس وكان القلق ينتهبه ولا يعرف مبالغ ما سوف يتسلمه من مال . وكان الآسى والانشوة اللذان يبدوان في نظرات دكتور جاشيت تثيران غثيان فنسنت يوماً بعد يوم .

وعما زاد الطين بلة مرض طفل ثيو ..

وكاد القلق الذي استبد بفنسننت على سمية أن يؤدي به للجنون .

وقد تشمل هذا ما استطاع ثم لم يطق صبراً فأخذ القطار المسافر إلى باريس وكان وصوله المفاجيء إلى سیتی ييجال مسبباً في زيادة ارتباكها فقد كان ثيو يبدو معقلاً شاحب الوجه وبذل فنسننت كل ما في وسعه لمواساته وأخيراً قال له :

— إنى لست قلقاً فقط على الصغير يا فنسننت ..

— إذن ماذا يقلقك يا ثيو ؟

— فالودون .. لقد هددنى بأنه سيطلب منى الاستقالة ..

— كيف هذا يا ثيو؟ إنه لا يستطيع ، لقد اشتغلت مع آل جوبيل
سته عشر عاماً

— اعرف هذا ولكنه يقول بأنى قد أهملت التجارة المنظمة لصالح
الانطباعين وأنى لا أبيع من لوحاتهم كثيراً .. وإذا اتفق أن بيع بعضها
منها فإن أسعارها تكون منخفضة ويدعى فالودون بأن على كان لا يحقق
ربحاً فى خلال السنة الماضية .

— ولكن هل يستطيع حقاً أن يفصلك ..؟

— ولم لا؟ إنه لا يهمه مصلحة آل فان جوخ ..

— ولكن ماذا عساك أن تفعل يا ثيو؟ هل ستفتح لك محلاً؟

— وكيف أستطيع؟ إنى لم أدخر إلا مبلغاً ضئيلاً وقد أنفقت على
زواجى وعلى الطفل :

— ليتك لم تنفق على هذه الآلاف من الفرسكات .

— أرجوك يا فنسنت فهذا لا علاقة له بوقفى وأنت تعلم أنى ...

— ولكن ماذا عساك أن تفعل يا ثيو؟ هناك جو والطفل الصغير ..

— أجل .. حسناً ، است أدرى . إن ما يقلقنى الآن هو مصير الطفل .

وظل فنسنت فى باريس بضعة أيام وكان يبقى خارج الشقة كلها أمكنه حتى
لا يزهدج الطفل وكانت باريس تثيره وأصدقائه وكان يحس بحمى بطيئة
ترحف على جسمه وعندما استرد فنسنت الصغير صحته بعض الشيء أخذ
القطار وعاد إلى قرية أوفرس المأدبة ..

ولكن الهدوء لم يفده شيئاً وكان القلق يذمبه ويعذبه .. فإذا سيحدث
له إذا فقد ثيو عمله؟ هل سيجد نفسه ملق على قارعة الطريق يتسول كأي
شعاذ حقير؟ ولهذا السبب ماذا سيحدث لجو والطفل .. وماذا سيحدث إذا

مات الطفل ؟ كان يعلم أن ثيو بصحته الضعيفة لن يتحمل الصدمة . ومن
يا ترى سيعولهم كلهم بينما يبحث عن عمل جديد ؟ ومن أين توات ثيو القوة
اللازمة لهذا البحث ؟

وجلس في الظلام في مقهى رافوس بضع ساعات وكانت تذكره بمقهى
لا مارتين بما يفوح فيها من روائح البيرة المعتقة ودخان التبغ اللاذع —
وأخذ يضرب عصا البليارد في غير ما هدى محاولا أن يصيب الكرات غير
الملوثة . ولم يكن بملك مالا يبتاع به شرا بيا أو يشتري به ألوانا ولوحات .
ولم يكن في وسعه أن يطلب من ثيو أى شئ . في مثل هذه اللحظة الحرجة
وكان يخشى أن يقدم على فعل جنونى عندما تفاجئه النوبة في يوليو ويفعل
شيئا يكون سببا في زيادة قلق ثيو المسكين ورفع نفقاته .

وحاول أن يعمل ولكن عبثا . . كان قد رسم كل ما يريد أن يصوره
وقال كل ما يريد أن يقوله ولم تعد الطبيعة تحرك فيه أية عاطفة خلقة وكان
يعلم أن خير ما فيه قد مات .

ومرت الأيام وأقبل منتصف شهر يوليو وأقبل معه الحر ورغم أن
ثيو كان ممسدا بأن يطيح به فالودون وكان يحس بقلق بالغ على مصير
طفله وروشتات الطبيب فإنه استطاع أن يقتصد خمسين فرنكا أرسلها إلى
أخيه فحولها إلى رافوس وكان هذا كفيلا بأن يكفيه مشونة العيش حتى نهاية
شهر يوليو ولكن ماذا بعد هذا ؟

لأنه ان يتوقع أن يصله من ثيو أى مبلغ آخر من المال .

ورقد على ظهره تحت أشعة الشمس المحرقة في حقول القمح بجانب
المقبرة الصغيرة ثم قام يسير على طول شواطئ نهر الواز وهو يستنشق عبق
الماء البارد وأوراق الأشجار التي تقع على شاطئيه ثم ذهب إلى بيت جاشيت

لتناول طعام الغذاء وحشا معدته بطعام لم يستطع أن يستسيغ طعامه أو يهضمه
وبينا كان الطبيب يتحدث في هذر عن لوحات فنسنت وقد تملكه الانفعال
كان فنسنت يقول لنفسه — إنه لا يتحدث عنى أنا فمذه لا يمكن أن تكون
لوحاتى . أنا لم أرسم أبدا أى شىء بل إنى لا أستطيع أن أتدرف على توقيعى
على أى لوحة ولا أستطيع أن أتذكر أنى وضعت فرشاة واحدة على أية
واحدة منها . لا بد أن رجلا غيرى قد رسمها .

وبينا هو راقد فى ظلام غرفته كان يقول لنفسه :

لكن لنفرض أن ثيو لم يفقد عمله ولنفرض أنه ما يزال قادراً على أن
يرسل إلى مائة وخمسين فرنكا كل شهر فإعسان أن أصنع بحيانى؟ لقد تمسكت
بالحياة طوال هذه السنوات التسعة لأنه كان على أن أصور ولأنه كان على
أن أقول أشياء تلهب مشاعرى ولكن لم بعد هناك اليوم ما يلهب مشاعرى
ولست إلا صدفة فهل كتب على أن أعيش كهذه الأرواح الهائمة المسكينة
فى سان بول وأترقب وقوع حادث يمحونى من الوجود؟

وفى أوقات أخرى كان يتملكه القلق على مصير ثيو وجوها وانا والطفل .
وقال :

لنفرض أنى استعدت قواى وروحى المعنوية وعادت لى رغبتى فى
التصوير فكيف أستطيع أن آخذ من ثيو مالا فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى
كل فرنك لينفقه على جو والطفل الصغير؟ إنه ينبغى ألا ينفق على هذا المال
بل يجب أن يستخدمه فى إرسال أسرته إلى الريف حيث يستطيعان أن ينهما
بالصحة والعافية . واقد يحملان عشر سنوات طوال . أفلا يكفى هذا؟ ألا
يحسن بى أن أخرج من حباتهما وأهيه فرصة لفنسنت الصغير؟ لقد تمتعت
بحيانى وأن لهذا الطفل أن يعيش .

ولكن كان يمكن فى أعماقه خوف طاغ بما قد يفعله به الصراع فى النهاية

إنه الآن يتمتع بالصحة والعقل ويستطيع أن يصنع بحياته ما شاء ، ولكن لنفرض أن النوبة التالية ستحوّله إلى مجنون هائج . ولنفرض أن عقله سيتحطم تحت ضغط النوبة . لنفرض أنه أصبح محتوها متبلد للعقل عاجزا فماذا عسى أن يصنع ثيو المسكين ؟ هل سيودعه مصحة للجائنين ؟

وأهدى للدكتور جاشيت لوحتين أخريين وطلب منه أن يقول
له رأيه

فقال الطبيب :

— كلا يا فنسنت .. لقد تخلصت من النوبات وسوف تجد نفسك
متمتعاً بكامل الصحة من الآن فصاعداً . ولكن ليس كل من يصابون بالصرع
لهم مثل حظك .

— ماذا يحدث لهم في النهاية يا دكتور ؟

— أحياناً عندما تتكرر النوبات يفقدون عقولهم كلية .

— ولكن أليس هناك احتمال لشفائهم ؟

— كلا .. لا أمل فيهم .. أوه . قد يمتد بهم الأجل في مصحة ولكنهم
لن يعودوا مطلقاً إلى كامل قواهم العقلية .

— وكيف يستطيعون يا دكتور أن يعلموا إذا كانوا سيشفون بعد
النوبة التالية أو إذا كانوا سيفقدون عقولهم ؟

— ما من وسيلة للعلم يا فنسنت ولكن لماذا تناقش الإجابة عن هذه
الأسئلة السقيمة ؟ هيا بنا إلى الورشة لنقوم ببعض عمليات الحفر .

ولكن فنسنت لم يغادر حجراته في رافوس خلال الأيام الأربعة التالية
وكانت مدام رافو تحضره عشاءه ، كل ليلة .

وظل يكرر ويعيد القول لنفسه ..

لأنى الآن فى صحة وعافية وأنا سيد نفسى ومصيرى ولكن إذا ما أصبت
بالنوبة التالية وحطمت جمجمتى فلن أعرف كيف أقتل نفسى وأكون قد
ضعت - أواه يا ثيو ماذا عسائ أن أصنع يا ثيو ؟

وفى عصر اليوم الرابع ذهب إلى الدكتور جاشيت وكان الطبيب جالساً
فى غرفة المعيشة وسار فنسنت إلى الصوان حيث كان الطبيب قد وضع منذ
مدة لوحة السيدة العارية لجيومان والتقط اللوحة وقال :

- لقد أبلغتك أن تضع هذه فى إطار .

فتطلع إليه الطبيب فى دهشة وقال :

- أعلم هذا يا فنسنت وفى الأسبوع القادم سأطلب من النجار فى
أوفرز أن يصنع لى إطاراً من الخشب .

- لم هذا يا فنسنت ؟ إن هذا هذر !

فنظر فنسنت إلى الطبيب نظرة ملتهبة دامت لحظة وتقدم نحوه خطوة
للأمام مهدداً ثم وضع يده فى جيب سترته وظن الدكتور جاشيت أن فنسنت
يمسك بمسدس ويصوبه إليه من جيب سترته فصاح قائلاً :

- فنسنت !

فارتجف فنسنت وخفض بصره وجذب يده من جيبه ثم أسرع هارباً
من المنزل ..

وفى اليوم التالى أخذ حامل الصور ولوحة وسار جنوباً فى الطريق
الطويل المؤدى إلى المحطة وصعد التل ماراً بالكنيسة الكاثوليكية وجلس
فى حقل القمح الأصفر المقابل للمقهرة .

وحوالى الظهر عندما كانت الشمس ترسل شواظاً من نار على رأسه
اندفع سرب من الطيور السوداء وهى تخلق فى السماء وملأت الفضاء وحجبت

الشمس وتركت فنسنت يسبح في غلالة كثيفة من ظلام يفوق ظلمة الليل وطارت في شعره وعينيه وأنفه وفمه ودفنته في سحابة كثيفة من الأجندحة القوية التي ترفرف بشدة ، واستمر فنسنت في عمله وصور الطيور فوق حقل القمح الأصفر ولم يعرف كم ساعة استمر وهو يدير فرشاته ولسكنه عندما رأى أنه قد انتهى من الرسم كتب في ركن «غربان فوق حقل قمح ، ورفع حامل صورته ولوحته وعاد إلى حانة رافوس وألقى بنفسه على الفراش ثم استغرق في النوم .

وبعد ظهر اليوم التالي انطلق خارجا مرة أخرى ولسكنه ترك ميدان دي لاميري من الجانب الآخر وسعد التل مارا بالقصر وراه فلاح يجلس فوق شجرة وسمع فنسنت وهو يقول :

— مستحيل .. مستحيل ..

وبعد برهة نزل من على الشجرة وسار في الحقل الذي تم حراثته خلف القصر وفي هذه المرة كانت النهاية . لقد عرف هذا الأمر في آرلز عندما فاجأته النوبة الأولى ولكنه عجز عن إدراك كنهه وأراد أن يقول كلمة وداع على الرغم مما لاقاه فقد استمتع بلحظات سعيدة من حياته في خضم هذه الحياة الدنيا . وكما قال جوجان « لكل سم ترياق ، والآن وهو على وشك أن يغادر هذا العالم أراد أن يقول كلمة وداع لها ولكل هؤلاء الأصدقاء الذين مدوا له يد المساعدة وهو نوا عليه متاعب الحياة ويودع أرسولا التي كان احتقارها له سببا في انتزاعه من حياته التقليدية وجعلته شقيا مطرودا ويودع مهندس دا كوستا الذي جعله يؤمن بأنه سيستطيع التعبير في النهاية عن ذات نفسه تعبيرا سيكون مبررا لحياته ، وكأي فوس التي نقشته كلماتها « لا أبدا ! أبدا ! » في روحه بحروف من فار ومدام دينيس وجاك فيريني وهنري دكروك الذي ساعده على محبة المنبوذين في الأرض وبيترسون المحترم الذي فاقت رفته ولطفه رقة ملابس فنسنت القبيحة وسلوكه الخشن

وأمه وأباه اللذين أحباها ملء قلبهما، وكريستين الزوجة الوحيدة التي رأى
القدر أنها تليق به وتباركه رموف الذي قدر له أن يكون أستاذه لبضع
أسابيع حلوة وفايسنبروخ ودي بولك وكانا أول صديقين له من المصورين
وأعمامه فنسنت وجان وكورنيوس واستريك الذين كانوا يعدونه الشاة
السوداء في القطيع من عائلة فان جوخ ومارجو المرأة الوحيدة التي أحبته
والتي من أجل حبها هذا حاولت أن تقتل نفسها، وكل أصدقائه من المصورين
في باريس ولو تريك الذي احتجز في مصحة مرة أخرى حتى يموت، وجورج سيرا
الذي توفي وهو في الحادية والثلاثين من الإجهاد في العمل وبول جوجان
الذي يستجدي الناس في بريتانى وروسو الذي يعيش في حجرة عفنة قرب
الباستيل وسيزان الذي انصحب في مرارة لاذعة ليعيش فوق قمة تل في
أكس والاب فانجى ورولان اللذين كشفوا له عما في النفوس البسيطة من
نبل وشهامة وراشيل ودكتور رى اللذين غمراه بعطفهما في وقت اشتدت
فيه حاجته للعطف وأورييه ودكتور جاشيت الرجلين الوحيدين في هذا
العالم اللذين كانا يؤمنان بأنه مصور عظيم وأخيرا أخاه الطبيب ثيو الذي
قامى كثيرا وأحبه كثيرا خيرا الأحوه كلهم وأعزهم ولكن الكلمات الم
تسكن يوما أسلوبه الذي يعبر به ورأى أنه يجب عليه أن يرسم صورة مغيرة
عن الوداع .

ولكن أنى الإنسان أن يرسم صورة تعبر عن الوداع ..

وأدار وجهه للشمس وضغط بالمسدس على صدغه وشد الزناد ثم سقط
وهو يرفن وجهه في طين الحقل الخصب ذى الرائحة النفاذة .. وعادت قطعة
من الأرض اللينة إلى بطن أمها .

(٤)

وبعد أربع ساعات كان يسير وهو يترنخ في ظلام مقمى مدام رافوس التي
تبعته إلى حجرتها ورأت الدم وهو يغطي ملابسه فجرت في الحال إلى
الدكتور جاشيت .

ودلت الدكتور جاشيت إلى الحجرة وقال وهو يثن :

— أواه يا فنسنت .. رباه وماذا فعلت يا فنسنت !

— أظن أنى لم أحكم تصويبه .. ما رأيك ؟

وفحص جاشيت الجرح ثم قال :

— أواه يا فنسنت ، يا صديقى المسكين .. لا بد أنك كنت تحس
بتعاسة لا مزيد لها حتى صنعت هذا ! لم لم أعرف هذا ؟ لماذا تريد أن
تغادرنا ونحن كملنا نحبك ؟ فكر فى اللوحات الجميلة التى مازال فى استطاعتك
أن تصورها لهذا العالم ..

— هل تنكرم بأن تنارنى غليونى من جيب صديرتى ؟ ..

— بكل تأكيد يا صديقى ..

وحشا غليونه بالتبغ ثم وضعه بين أسنانه فنسنت ..
فقال فنسنت :

— أشعله من فضلك ..

— بكل تأكيد يا صديقى ..

وأخذ فنسنت ينفث الدخان من غليونه فى هدوء ..

— إن اليوم الأحد يا فنسنت ، وأخوك ليس فى المحل فما
عنوا ان بيته ؟

- لن أقول لك ..

- ولكن يجب أن تخبرني به يا فنسنت ! فالأمر عاجل ويجب الاتصال به ..

- بل يجب ألا نزعج ثيو يوم راحته فهو متعب وقلق وفي حاجة للراحة ..

ولم يفصح أى إغراء فى انتزاع عنوان سیتی بیچال من شفتى فنسنت وظل معه الدكتور جاشيت حتى ساعة متأخرة من هذه الليلة وهو يعالج جرحه ثم انصرف إلى منزله ليصيب بعض الراحة وترك ابنه لرعاية فنسنت ..

وظل فنسنت راقدًا وعيناه متسعتان طوال الليل ولم يتفوه لبول أى كلمة وظل يحشو غليونه ويدخنه باستمرار ..

وعندما وصل ثيو إلى جويل فى صباح اليوم التالى وجد برقية جاشيت فى انتظاره فاستقل أول قطار مسافر إلى بونتواز ثم اندفع فى عربة إلى أوفرس ..

وقال فنسنت :

- حسن يا ثيو ..

فركع ثيو على ركبتيه بجانب الفراش وتناول فنسنت بين ذراعيه كما لو كان يحمل طفلا صغيرا ولم يستطع أن ينطق حرفا واحدا ..

وعندما وصل الطبيب قاده ' ثيو خارج الباب فمز جاشيت رأسه فى حزن وقال :

- لا أمل هناك يا صديقى فأنا لا أستطيع القيام بعملية جراحية لانتزاع الرصاصة لأنه فى غاية الضعف ولعمري لو لم يكن قد من حديد لمات فى الحقول .. وجلس ثيو بجانب فراش فنسنت طوال اليوم وهو يمسك بيده

وعندما أقبل الليل وتركاهما في الحجرة بدأ يتحدثان في هدوء عن طفولتهما في البرابانت ، وقال :

— أتذكر يا فنسنت الطاحونة التي في ريزويك ؟

— لقد كانت طاحونة قديمة لطيفة يا ثيو .. أليس كذلك ؟ وقد اعتدنا أن نلعب بين سنابل القمح العالية في منتصف الصيف واعتدت أن تمسك يدي كما تفعل الآن ..

أتذكر هذا يا ثيو ؟ ..

— أجل يا فنسنت ..

— عندما كنت في المستشفى في آرلز اعتدت أن أفكر كثيراً في زيندرت فقد كانت طفولتنا ممتعة يا ثيو أما وأنت . واعتدنا أن نلعب في الحديقة التي تقع خلف المطبخ في ظل أشجار سنط وكانت أمنا تصنع لنا كعكا بالجبن نتناوله في الغداء يا فنسنت ..

— يبدو أنه مرت على هذا أجيال طويلة يا فنسنت ..

— أجل ... حسن ... إن الحياة طويلة ... أرجوك يا ثيو أن تعني بنفسك من أجل . حافظ على صحتك ويجب أن تفكر في جو والطفل الصغير .. خذهما هناك إلى الريف حتى يستطيعا أن يتمتعا بالصحة والعافية ولا تبق في جويل يا ثيو — لقد سلبوا منك عمرك كله ولم يعطوك في مقابله شيئاً ..

— سأفتح صالة صغيرة للفن تكون ملكاً خالصاً لي يا فنسنت وسيكون أول معرض أقيمه هو معرض للوحات رجل واحد ، الأعمال الكاملة لفنسنت فان جوخ كما نظمته في الشقة بيدك ..

— آه حسنا — أعمالي .. لقد خاطرت في سبيلها بحياتي .. وفقدت
تفكيرى السليم تقريبا ..

وأرختى الليل سدوله على الحجرة وساد الهدوء العميق بلدة أوفرس ..
وبعد الساعة الواحدة بقليل أدارت رأسه قليلا وهمس ..

— كم أتمنى أن أموت يا ثيو ..

وفي بضع دقائق أغلق عينيه ..
وشعر ثيو بأن أخاه يفارقه للأبد ..

* * *

(٥)

وجاء روسو والآب تانجى وأورييه وأميل برنارد من باريس
لتشجيع الجنازة ..

وكانت أبواب مقهى رافوس مغلقة والستائر مسددة بينما كانت عربة
الموتى بخيولها السوداء تنتظر أمام الباب .

ووضعوا نعش فنسنت على منضدة البلياردو ..

وتجمع ثيو والدكتور جاشيت وروسو والآب تانجى وأورييه وبرنارد
ورافوس حولها فى صمت ولم يستطع أحدهم أن ينظر إلى وجه الآخر ..

ولم يفكر أحد فى استدعاء قسيس ..

ونقر سائق عربة الموتى على باب الشارع وقال :

— حان الوقت أيها السادة ..

فصرخ الدكتور جاشيت قائلاً ..

— بحق الله ، إننا لا نستطيع أن نتركه هكذا ..

وأحضروا كل اللوحات من حجرة فنسنت ثم بعث ابنه ليجرى إلى المنزل
ويحضروا باقى اللوحات ..

وأخذ ستة من الرجال يعملون بهمة فى تثبيت اللوحات على الجدران
بينما جلس ثيو وحده بجانب النعش ..

وأحالت لوحات فنسنت التى كانت تسبح فى ضوء الشمس المقهى
السنجاني اللون الكئيب المنظر إلى كاتدرائية تسطع بالضوء ومرة أخرى
تجمع الرجال حول منضدة البلياردو ولم يستطع أحد منهم أن يفوه بأى كلمة
إلا جاشيت الذى قال :

— يجب علينا نحن أصدقاء فنسنت ألا نسمع للياس بأن يتطرق إلى قلوبنا فنسنت حتى لم يمت وإن يموت وسوف يحيا إلى الآن بفضل حبه وعبقريته والجمال الذى ابتدعه ليضفى ثروة على هذا العالم ولا تكاد تمر على ساعة دون أن أتطلع إلى لوحاته وأجد فيها إيمانا جديدا ومعنى جديدا للحياة . لقد كان عملاقاً ومصورا عظيما وفيلسوفاً كبيراً وقد سقط شهيد حبه للفن .

وحارل ثيو أن يشكره فقال :

— أنا .. أنا ..

وخنتته العبرات ولم يستطع أن يتابع كلامه ..

ورضع الغطاء على نعش فنسنت ..

ورفعه أصدقاء الستة من فوق منضدة البلياردو وحملوه إلى خارج المقهى الصغير ووضعوه بلطف فى عربة الموتى ..

وساروا خلف العربة السوداء جنرب الطريق الذى تغمره أشعة الشمس ومروا بالأكواخ المسقفة بجريد النخل وفيلات البلدة الصغيرة ... وعند المحطة استدارت عربة الموتى نحو اليسار وبدأت ترقى التل فى ببطء ومروا بالكنيسة الكاثوليكية ثم عرجوا على حقل القمح الأصفر ..

وعند باب المقبرة توقفت العربة السوداء ..

وسار ثيو خلف النعش الذى حمله الرجال الستة ليواروه فى القبر ..

وكان الدكتور جاشيت قد اختار البقعة التى وقفوا عليها فى أول يوم وهما يتطلعان إلى وادى الواز الأخضر الجميل لتكون المشوى الأخير لفنسنت ..

ومرة أخرى حاول ثيو أن يتكلم ولكنه لم يستطع . . .
وأنزل اللحدادون النعش إلى باطن الأرض ثم أهالوا عليه التراب
ورطبوه بالمياه . . .

واستدار الرجال السبعة وغادروا المقبرة وساروا يهبطون التل . .
وعاد الدكتور جاشيت بعد بضعة أيام ليخرس حول القبر أزهار عباد
الشمس . .

وعاد ثيو إلى سبتي بيجال ودفعته خسارته إلى قضاء كل لحظة بالليل
وهو يكابد حزنا يستعصى تخفيفه . .
وتحطم عقله تحت ضغط الإجهاد . .

فأخذته جوهانا إلى مصحة في أوترخت وكان مارجو قد سبقه إليها . .
وبعد أن مضت على وفاة فنسنت ستة شهور مات ثيو ودفن في أوترخت .
وبعد مدة بينما كانت جوهانا تقرأ الإنجيل التماسا للسلوى صادفت في
إصحاح صمويل هذه العبارة . .

— وفي موتهما لم يفترقا . .
فنقلت جسد ثيو إلى أوفرس ووسدته بجسد أخيه . .

وعندما ترسل شمس أوفرس الحيامة على المقبرة الصغيرة في حقول القمح
سيرقد ثيو في ارتياح متفينا ظلال زهرات عباد الشمس التي غرست
شجيراتها من أجل فنسنت .

طبعة نفيسة مصر بالجمهورية

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكي بطرس

Bibliotheca Alexandrina



0403704